النعنع البرى

أنيسة عبود

رواية



المجلس الأعلى للثقافة

اهداءات ٢٠٠٤

المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة

المجلس الأعلى للثقافة

النعنع البرّي

أنيسة عبّود

النعنع البرّي

« روايـــــــة »

سنحتفل معاً..؟

(1)

هي ليست أكثر من نافذة.

«وحياتك» نافذة صغيرة تكفي. افتحها وقِفْ أمامها سترى العالم كله يخرج إليك، سيندلق أمامك. ويمتد من البحر إلى البحر ومن القاع إلى القاع. سترى هناك بعيداً في آخر محرق الرؤيا نقطة سوداء. تتحول.. تصير حمراء. تصير وهاجةً. تحترق. وعندما تحاول تلمسها سيفيض علي وجهك الرماد. أتكون النقطة أنت؟ أم أنا؟

لا تشغل بالك في هذه الأمور. إن ذلك مجرد نقرة صغيرة على نافذة الدماغ ويمرّ الزمان. كخيط يمرّ؟ كرمل ينسرب من الأصابع. مضطرة أنا أن أقول لك بعض العبارات المكرورة لأشد على بعض المعاني ولأحفرها أكثر نحو العمق. أجل، يمر الزمان كخيط، ولكن أحياناً أشكك بكل هذه المقولات. قد يمر بشكل كروي. أو بشكل متعرج. وبدلاً من أن نسير إلى الأمام نعود إلى الوراء. أو نلتفّ التفافات كثيرة ندعي معها أننا نسير إلى الأمام. نحن نغير نقاط الارتكاز فهل نتغير؟. انظر. نحن نلتف، ننكسر، نتعرج. نبدأ ولا نصل مع ذلك نلتقي.

(2)

في الحقل كنا. أخوتي وأنا وعدد من العمال «قلت لهم: هذا أبي. عالم ينفتح كشرنقة. عالم ميت ينفتح. ترى الحياة متجسدة بحركة واحدة. هذا أبي الذي يمرّ هنا. ركضت خلفه. ناديته. أبي. يا أبي. أريد تفاحة من السوق. اجلب لي تفاحة. التفت إليّ الرجل باندهاش ثم أوقف «حمارته» وانتظرني إلى أن أصل. أخي الكبير

وصل أولاً. حملني بين يديه ككيس خيش صغير وقال: «عيب» هذا ليس أباك.

«هذا أبي. هذا أبي» لم يصغ إليّ أحد. منذ رحيل ذلك الحصان وعلى ظهره فارس مقتول وأنا أقول هذا أبي ولم يصدقني أحد. الفارس دخل بطن الجبل. أو امتزج مع المطر وأنا أصابتني انشطارات عديدة.

في طريق العودة، كان الوقت ظهراً. عاد أبي وجلب لي تفاحة. ضمني إلى صدره وقال: أجل إنها رائحة ابنتي. صفعني أخي أمام الرجل فانهمرت دموعه وغاب بلحظة. بكيت وقلت: حاضر يا أخي. لن أناديه أبي بعد الآن.

قالوا: هذا ليس أبي. المرء يكون له أبٌ واحد. أليس كذلك؟!. أنتم مدركون لهذه الحقيقة. ولكن أنا أخالفكم الرأي. آباء كثيرون لي.. وأنا نساء كثيرات. أمي أيضاً لا توافقني على ذلك مع أنها تؤكد أمام نساء القرية بأنها رأتني في منامها أجيء إليها عبر البحر كطيف غمامة.. ثم يكبر الطيف ويحطّ في امرأة فاتنة. أقترب. تسألني: أين أنت ذاهبة أيتها الفتاة؟ أنا ذاهبة إلى بيت «أحمد الراوي أتعرفينه؟. ابتسمت أمي وهزت راسها بالإيجاب ولكن عندما رآني «برهان أدهم» سخر منّي وقال: وماذا ستفعلين في بيت أحمد الراوي؟ لا يوجد فيه إلا الفئران، وكلبٌ جوعان، ورجل له كومة أولاد. تعالي معي أنا أملك كل هذه الحقول. سألبسك الحرير، وساضع فرساً تحت إمرتك. لم أرغب في الكلام إلى هذا الرجل المتعجرف ولكنني اضطررت للرد عليه لكثرة إلحاحه. أنا قادمة من جزرٍ بعيدة إلى بيت أحمد الراوي. والدي قال لي: اذهبي إلى بيت أحمد الراوي. أما إذا قابلت رجلاً أبيض الوجه ملتهب الوجنتين. متوسط القامة ويدعى «برهان أدهم» فاحذريه. قهقه الرجل بينما أمسكت بيد أمي وطلبت إليها أن تأخذني إلى بيت أحمد الراوي أمي قالت: أخذتها بيدي. فتاة جميلة إلى المنزل. استقبلها أحمد الراوي استقبالاً رائعاً وعندما وضعت الطعام رفضت أن تأكل إلا بعد أن دارت غرف المنزل ونقبت جهاته وزواياه. لم يكن فيه إلاً «الوجاق» وسراج الكاز. وعدة وسائد من القش. وطناجر ألمنيوم وعدة جلود لحيوانات ذبحناها في أعياد بعيدة. قالت بصوت خجلٍ: أريد أن أبقى عندكم. دهشتُ. كيف وعلائم العزّ تظهر على محياك. قالت: أتوسل إليكم. أريد أن أبقى هنا في هذه القرية.

عند ذلك أدركت أمي بانها ستلد أنثى جميلة. حددت ملامحها لأبي

ولصديقاتها من الجارات. وهي تؤكد دائماً بأنها أنا، أو أنا هي. ولدت أمي بنتاً كانت أنا. المرأة القادمة من صوب البحر.

«الأمر عادي جداً»

«لا أعرف لماذا تصير الأمور كُلها عادية عندك»

«على كل حال، الأمور نسبية.»

«.....»

الزمن لا يمشي بشكل خطي .

سأصل إلى الموعد قبل أذان الظهر. صدقني. أشعر باختناق. العالم يتوجع في مفاصلي. ربما تستطيع انت أن تخلصني من ذلك. فالسنة في آخرها. ومدينة طفولتي لم أزرها منذ زمن. أحياناً لا تحتاج المرأة من العالم كه إلاّ رجلاً تسند رأسها إلى صدره، وأحياناً هذا الرجل يضيع إلى الأبد كما ضاع حصان الفارس المقتول في بطن الزمن. لا قبر، لا شاهدة، لا جهات إلاّ السماء والأرض. نحن أطياف تتبدل وتأخذ أشكالها الجديدة مع الأزمنة الجديدة.

المدينة ترمي جدرانها في وجهي. تسدّ عليّ منافذ البحر كلها. كنت أضع العطر الناعم وأربط شعري إلى الوراء. زخّات مطر تنزل على رأسي. الكراج الذي يتوسط المدينة يكتظ بالتلاميذ والمسافرين والعربات وسندويشات الفلافل غير المأكولة. أكياس سوداء تتطاير أمام أقدام الريح. أكياس سوداء تحلق كطيور كبيرة تجثم على صدر المدينة. أكياس بلاستيكية سوداء تملأ فسحات المدن والقرى والعلب. إنه زمن البلاستيك الأسود. أتدري؟ عندما أراه مكوماً في مطبخي أحزن. اخاف. لا أدري ماالذي يصيبني. فقط أريد أن أهرب. اهرب. أو أن آخذ عود ثقاب وأبدأ بالحريق. حريق أسود. بلاستيك أسود. متى يبدأ الزمن الخيطي المشدود.؟؟

الكراج؟! تحضر فيه طفولتي دفعة واحدة. هذا الكراج الذي يوزع الشوارع الراكضة إلى الجبال والنازلة إلى البحر. البحر قريب جداً. يكفي أن تتجه إلى الغرب وتلفحك الرياح الغربية لتشم رائحة الأسماك واليود والأزمنة الهاربة في زرقة أبدية. لأعترف بأني خبأت لك قطعة شوكولاته كبيرة. فضلتها على كل الهدايا. لا بطاقة. لا ورد. هه. أنهدي الشكوكولاته في عيد رأس السنة؟!. غداً يكون رأس السنة

ونحن سنحتفل به اليوم. لنا طقوسنا. أنا وأنت. لنا طريقتنا المقنعة. لا يحق لنا أن نظهر معاً في الليل. المدينة ضيقة. والرؤية ضيقة. سنشرب قهوة الصباح معاً. قهوة آخر يوم في السنة، قهوة النهاية، كنهاية شارع.. شارع ينتهي فجأة وأنت تسير مع حبيب في مدينةٍ غريبة. أين تلتفّ؟. أي اتجاه تأخذ كي لا يراك أحد؟. أو كنهاية حديقة لم يعد فيها أشجار ترخي ظلالها عليك. تحتار أين تذهب وكيف تواري نفسك من نفسك. ليكن. سنثرثر كثيراً. فنجان قهوة واحد يكفي لثرثرة طويلة تبدأ ولا تنتهي. ثرثرة تمتد من سفر برلك إلى الوراء. الوراء حيث يبدأ حصان الفارس المقتول في الإختفاء والغياب والحضور. إلى الأمام، الأمام. حيث مقتلي آلاف المرات. وقبوري الكثيرة، وقصوري الكثيرة ودمائي الكثيرة الممتدة إلى الغرب. كبحر أمتد. ثم القرية، ثم شجرة واحدة تكفي لنلتقي. لا حظ تشابه الحروف. وتشابه الأسفار. البر - البراري - وحوش البرية.

ها أنا أشاهد وحشاً برياً الآن يا علي ها أنا أقترب منه. إنه هذا والله العظيم هو. يتجول في الشارع يأكل الحشائش ويرش العطر ويمشي على البحر. إنه هو صدقني يا علي وهو الذي منعني من الوصول في الموعد المحدد. لا. ليس المطر، المطر لا يمنعني: صحيح أن مطر الساحل غزير جداً فيكون الأفق مغسولاً، غاضباً. والأنهار تطوف وتفيض على السهول المجاورة. ويبدأ الوكف الذي يهبط في العيون، على الوظائف والذاكرة والقهوة. ولكن المطر حتى الآن لم يقدر أن يصنع الطوفان الذي حرق كل شيء. شيء مضحك. تذكرت أشياء حميمة جداً الآن..؟!

لماذا لا تردّ..؟! ألا تريد أنْ تسمعني؟

أتريد أن نفترق مثلاً؟!

«آهٍ منك. اسمعني إذاً.» خالتي أحبت رجلاً لا لكي تتزوجه، بل كي يستمع إليها. وأبو منصور بائع الفلافل، سألوه لماذا تزوجت امرأة أخرى؟ قال: كي تسمعني. زوجتي لا تسمع.

«الكلام حاجة»

«والمطر حاجة لخلق الطوفان»

«صحيح»

وهو لم يصنع بعد طوفاناً. «لكنه جرف قنّ دجاجات خديجة» زوجة محمد برهوم. المطر؟!!

وقد يجرف «مكدس» الحطب الذي تكومه أمي عند مدخل القرية. قد يجرف حذائي الصغير وأروح أركض وراءه عبر ساقية الماء. الساقية لا تقف وأنا لا أقنع أبداً بحفائي. ترتقص أصابعي. أشعر أنها مقصوصة بمقص البرد. أبكي. وأتكور على صخرة. أرقب الحذاء الذي يبتعد ويبتعد مع القش الطافي على سطح الماء. لا أعرف كيف غفوت. الصخرة ترتفع عالياً أمام دوامة الماء. لم أستيقظ إلا على لكزات عصا «نعامة» كانت تتفقد الخراف التي خافت عليها من طوفان الماء. هذا الطوفان يا جدتي لا يجرف إلا الخراف والأحذية والقش والأشجار المنحنية. كان لمنظر الماء الهائج والمتمرد مودة خاصة في نفسي. سألت العجوز بخوف ماذا تفعلين هنا قرب الماء؟ همهمتُ: ذهب حذائي يا جدتي، الماء سرقني. أخذ حذائي. كيف سأذهب إلى المدرسة؟ كان الحذاء أغلى شيء نملكه نحن أطفال قرية «الصفصاف» الساحلية. ربتت العجوز على كتفي وقالت: لا تحزني يا ابنتي «تعيشي وتأكلي غيرها» لم يرضني جوابها. ولم أكن أعرف ما يخفيه هذا الجواب من دوران الزمن وفجاجته. لم أرد. هذه العجوز لها سطوة على القرية. سليطة اللسان هي. لا يجرؤ أحد على أن يتفوه بكلمات غير محترمة أمامها. يقال إن جدّة برهان أدهم سخرت منها مرة، قالت لها: اذهبي واستري شيبتك. حزنت العجوز نعامة. وفتحت ذراعيها إلى السماء وراحت تدعو. في الصباح وجدت جدة برهان أدهم ثيابها محروقة في الصندوق. لم يحترق الصندوق. وحدها الثياب احترقت. وكلما اشترت هذه المرأة ثوباً تستيقظ في الصباح لتجد ذيله محروقاً. أدركت المرأة خطأها. راحت تتوسل إلى الجدة نعامة.

«سامحيني يا نعامة»

«المسامح هو الله»

«أريد سماع صوتي يا نعامة. ثيابي تحترق. إني أتعرى».

«القادم أفظع»

«سامحيني أرجوك.»

«أما قلت لك؟! الله وحده الذي يسامح العباد» أنا لا أقدر شيئاً، دعوة خرجت من فمي ولا أستطيع إرجاعها. سيظل الله يحرق ثيابك إلى أبد الآبدين. ولن يسترك إلا التراب.

«أنت زعلان مني أعرف ذلك. ولكن منذ ساعة وأنا أشرح لك أموراً كثيراً كي تعذرني، ألا تظن بأن هناك أشياء نخلقها ثم تتمرد علينا فلا نستطيع ترويضها. أنت زعلان و يحق لك أن تعبر عن زعلك. ولكن هي أمور خارجة عن إرادتي جعلتني أتأخر على الموعد، أو لا آتي إليه. فتمر السنة. يمر العمر. يمر الفارس ولا يستوقفه أحد. ولكن اسمع، ارجوك لا تضع يديك على أذنيك. أنا كنت أنزل. باتجاه بيتك بهدوء أتلمس بنظراتي الجدران التي رأيتها ذات طفولة. وذات شباب يافع. كنت أتحسس الهواء ووجوه التلاميذ، رحت أركض كي أسبق الوقت. لا أريد أن أتأخر عن المدرسة. المطر يبلل شعري. ثيابي. الشارع يتعثر بأكياس النايلون السوداء، الأكياس عبارة عن جرذان كبيرة تتجول في كل مكان. ينبثق من وكرٍ بعيد، وكرٍ موغلٍ في القسوة والزمن وحشٌ يطاردني.

«لماذا لا تصدق ذلك»؟

«قد نرى إنساناً يسير في الشارع ولكن يخبىء في داخله وحشاً من الغابة»

إسمع: جارنا محمد برهوم حدّث والدي عن ذئب يأكل دجاجات زوجته خديجة.

«لا يعنيك ذلك؟! آ»

ولكن أريد أن أثبت لك بأن الذئاب تتجول بيننا ولا نراها. عندما نتزف حزناً أو خيبة نراها، عندما تحضر الغابة ولا نرغب فيها، نراها. زوجة محمد برهوم تربي الدجاج البلدي. تبيع البيض والديوك للجيران وتخبىء ما تجمعه من مال عند أمي خوفاً من زوجها - والله يا أم هاشم - يعني امي، محمد برهوم إذا عرف بالمال ضربني وخلصني ثمن البيض والدجاج واشترى عرقاً. إنه رجل يسكر على تعبي وعلى سهري وبعد ذلك تقسم على أمي الأيمان المغلظة على ألا تقول لأحد بأنّ مال زوجة محمد برهوم معها. تفك المرأة منديلها وتخرج منه عدة ليرات فضية تلتفت حولها وهي تمد يدها إلى أمي.

«كم صار لي عندك؟»

«ستون ليرة»

ستون ليرة يا علي في تلك الأيام تشتري عشرين غراماً من الذهب. تنهض زوجة محمد برهوم وتسرع في العودة إلى بيتها كي لا يشعر زوجها بغيابها. هي تبحث دائماً عن عذرٍ مناسب ولكنها لا تجد العذر إلا إذا كذبت وهي لا تحبّ الكذب ستقول لي لماذا كل هذا الكلام؟

أحياناً لا يعرف المرء لماذا يسرد أشياء من الذاكرة. ربما عندما يفقد البرهان على صدق إحساسه أو عندما يرفض الآن.

آ.. تذكرت الآن. الذئب راح يأكل دجاجات زوجة محمد برهوم. كل مساء تعدّ خدوج الدجاجات «خمسون دجاجة» هن أقل من ذلك. لم تكتشف النقص المريع. لا تريد أن تصدق، مع أن عدد البيض كان ينخفض، لذلك طلبت إلى زوجها أن يعدّ الدجاجات وأن يحرسها بعد صلاة العشاء. محمد برهوم شاهد الذئب. أطلق عليه النار من جفته، أصاب الذئب في رجله. عوى الذئب وراح يعرج باتجاه بيادر الديس التي تتكوم على مدخل القرية. ألم تقتله؟ لم اقتله يا خدوج. ولكن لن يجرؤ على العودة. نظرت إليه متحسرة وقالت: أنت صياد فاشل. أنا يا خديجة؟! الله يسامحك. انزوت خديجة وأخذت تبكي دجاجاتها، لا معنى لحياتها دون قن الدجاج، حركية الحياة تدل عليها بيضة الدجاجة، ما توفره يدلّ على هروب الزمن منها.

كانت القرية منهمكة باشعال قناديل الكاز، وكانت العتمة تفرش أحزمتها على فسحة الدار المرصوف بالحجارة النافرة والمسيج بأشجار التوت والمصاطب. محمد برهوم يمشي أمام المنزل، يرى شبحاً يمشي عدة خطوات باتجاهه ثم يختفي. حدق محمد برهوم جيداً. لم يجد أحداً. بعد لحظات رأى الشبح نفسه أمامه. قفز محمد برهوم إلى الجفت حمله وراح يطلق عدة طلقات في الهواء. غاب الشبح.. أرخى محمد برهوم جسده المتوتر على الأرض.. أتكون ظلال الشجار هي التي تتماوج بسبب رياح كانون القوية. لا. لا. هو رآه بهيئة رجلٍ طويل. غزير الشعر. حتى أنه سمع خطواته. دخل محمد برهوم منزله ونادى خدوج:

أحضري العشاء يا امرأة. لم يستطع أن يأكل صرخ في وجهها. كل يوم الأكل نفسه؟! شوربا أو برغل بعدس. أو برغل بعدس ثم شوربا. لم ترد خدّوج. شعر أن ثقلاً يركن على صدره.

«وحياتك يا ابو هاشم حاولت ان أنام فلم أقدر. قلت لخديجة: إغلي لي قليلاً من اليانسون والشق شقيّق» شربته كالحنظل. حاولت النوم ثانية. كنت أرى في مدخل المنزل يداً تمتد إليّ وتغيب، فتحت الباب عدة مرات لم أجد أحداً ولم أخبر خديجة بشيء. عندما سألتني: لماذا أبدو قلقاً؟ الولد في العسكرية. والبنت نائمة والدجاجات أكلهن الذئب «يا خلف الله» لكن الأمور ماشي الحال. نامي يا خدوج، نامي. أنا لست قلقاً. سأنام. غمرت نفسي في اللحاف وعند الفجر، فتحت عيني لأجد خديجة والأولاد الصغار فوق رأسي يبكون، ويقرؤون القرآن. ما الذي جرى؟ اندلعت خديجة بالبكاء. راحت تشهق كأنها مخنوقة ثم غمغمت بصوت مبحوح: طيلة الليل وأنت تصرخ وتقول: «إني أختنق، أختنق» خلصوني. أبعدوه عني. هذا أبو عادل. أبو عادل يأكلني»

«من أبو عادل يا محمد برهوم؟» لا يوجد في القرية رجلٌ بهذا الاسم»

«لماذا لم توقظوني؟»

«أيقظناك. رششنا الماء على وجهك ولكن عبثاً. فركنا أصابعك. كنت تهذي، وترتعش. أهي بردية أم ماذا؟»

«آه يا خديجة، كأنك لم تعيشي معي. ألا تعرفين الكابوس القديم الذي يطاردني؟ هذا كابوس. غداً أذهب عند الشيخ «ربيع» ليعمل لي حجاباً. أنا بخير. اذهبوا وارتاحوا.

أجل. كان أبو عادل يخيفني يا أبو هاشم. أبو عادل الذي مات منذ حرب فلسطين جاء إليّ في المنام وقال لي: «بسم الله الرحمن الرحيم» لماذا أطلقت النار على الذئب؟ هذا الذئب كان ابني. وكان رجلاً فارساً، زوجتك رفضته عندما كانت فتية،ومرة صفعته بالحذاءلأنه حاول معها محاولة رجل مع امرأة. بعد ذلك راح يغزو في معارك نسوية، مرة يصيب ومرة يخفق. لم يترك امرأة إلا واشتهاها، عاشرها دون أن تدري، عرّاها في خياله، عرّى كل نساء القرية لذلك أصابته لعنة

الشيخ «ضاهر» مزار القرية القديم. غضب عليه الرب ومسخه إلى ذئب. لكن ما يزال يبحث مقهوراً تطاردهُ اللعنة، إنها لعنة القرية، ابني الذئب. الملعون، الذي يتعاقب على هذه الأرض الفانية لا سبيل لحلّ لعنته، إنه يأكل دجاجات زوجتك انتقاماً.

لقد خنقني في قبري عندما أطلقت عليه الرصاص. إنه يتعذب في الدنيا والآخرة وأنا سأخنقك الآن. سأخنقك، إني أختنق منذ عشرين سنة كلما رأيت ولدي يمر في السهول ويركض جاعلاً من الليل والبريّة مأواه. سأخنقك أو تكفّ عنه.

«حاضر يا أبو عادل»

«وأطلب إليك أن تأخذ له دجاجة إلى حقل الطيّون. أتعرفه؟ حيث أملك هناك قطعة أرض. هي بور الآن ابني ينام فيها. يشم رائحة الإنسان القديم الذي كان.. ضع له الدجاجة هناك ولا تحمل معك البارود.

«حاضر»

كان أبي ينصت. وكان محمد برهوم يبكي. لقد عذبني كثيراً يا أبو هاشم. تصور هذه البلوى، هذا الذئب الذي يعيش بيننا ولا أستطيع قتله. زوجتي لا تكفّ عن تربية الدجاج وأنا لا أكفّ عن حذري. هي تقول لي إنك تخاف الذئب. تخاف إطلاق النار وصوت البارود. وأنا أهزّ رأسي وأنصت. ذئاب كثيرة يا أبو هاشم تعيش بيننا وعلينا ان نستخدم حكمتنا كي نتعايش معها دون أن تؤذينا. ألا ترى ذلك؟

لم يرد والدي.

ولم يعلق بكلمة حمراء ولا صفراء.

... علي.. علي. ألا تسمعني؟ كأنك لا تسمعني. لماذا لا تقول شيئاً، أما زلت غاضباً.؟ آلو.. آلو.. الأيام كثيرة. سنلتقي. وسنتشاجر. ونستعيد لحظات كثيرة. قل إنشاء الله. لماذا لا تقل؟ إذا كنت لا تصدقني إسأل أي شخص في قريتنا. القصة حقيقية. لم يكن محمد برهوم مجنوناً ولا مريضاً. الرجل معروف في القرية وأبو عادل معروف في القرية المجاورة. وهو فعلاً مات في حرب فلسطين. وترك أولاداً وبناتاً، أحدهم كان حرامي» وكان لا يرعوي عن فعل أي شيء. القرية تقول: إن

الله مسخه إلى كلب. وآخرون يقولون مسخ إلى ذئب. وأنا أقول أن هناك ذئاباً تتقمص هيئة البشر وتمشي في الشارع مثل بائع البقدونس.

«ابن الكلب»

«لا ابن الوحش».

هي قصة مؤلمة.

أتعرف؟

أحياناً على الواحد منّا إيجاد الأعذار للآخر كي تستمر مسيرة اللقاء. هناك أشياء تخرج عن إرادة المرء.

هذه الذاكرة اللعينة. الذاكرة التي لا تتعب من بث الإشارات إلى الحاضر وإلى المستقبل. إنه القادم الموجع المنبثق في الماوراء. هذه الذئاب التي تركض عبر الأسلاك وعبر الطرقات تتبعني. ألو.. لنفترق الآن. أظنه من الأفضل. عندما تشعر بالحاجة كي تنصت إليّ وإلى نفسك اتصل بي، أقدّر ما سببته لك من أذى، لن أعتذر، أجد الإعتذار ضعفاً في بعض الأحيان. ونفاقاً في أحيانٍ كثيرة. آه.. رأسي يؤلمني، الكلب بائع البقدونس رأيته بالصدفة، عشرون سنة مرت تقريباً، عشرون ذاكرة مفتوقة. عشرون قميص نشقه ونخرج منه. وقميص الرحم يطاردنا أو نحن نطارده. لا أعرف. علي.. سأتخيل أنك انتظرتني ورششت العطر على يديك، ووضعت باقة ورد بري. و.. أشياء كثيرة. أشياء صغيرة جداً يمكنني تصورها وأنت تنتظرني وأنا لم أجيء يا لي من امرأة لا مبالية. أليس كذلك. لا أنا لست كذلك. عندما نلتقي في المقهى البحري سأخبرك أشياء كثيرة عني، أشياء لا نعرفها. عليك أن تعرف اشياء عني تتجاوز عطري. ولون «الروج» الذي أفضله، ونوع الكتب التي أقرؤها. هناك أشياء كنثرات الغبار تتراكم وتكون شخصيتنا. مشتاقة لسماع قصائدك. ياه.. ثرثارة أنا، أأغلق الهاتف؟.

- لا

- إذاً أنت تسمعني.

-....

ربما كان بائع البقدونس هو السبب. أنت تصدق أن الإنسان ينقلب إلى ذئب.

ولكن لماذا لا تصدق العكس. مرة حدثتني أيضاً عن ذئاب صغيرة تعيش في زوايا الأماكن المظلمة. من النفس. من المدينة قل شيئاً. لماذا تصمت؟

- الصمت أحياناً موقف.

- ولكنه موقف ضعيف.

- هذا ما يمكنني فعله ما الفائدة من الصراخ إذا كان لا يغير شيئاً؟.

- على الأقل يزيح الصخرة التي على القلب.

- بل يزيدها ثقلاً عندما لا يعصف الصراخ بالهشيم اليابس.

أنت تشعلين الروح بهشيمك. تأخرك. غيابك. مبرراتك.. أتريدين أن تلعبي بي؟!

- أنا؟

- أنت تعرفين أني أحبك. بل....

- قل.. قلها..

- الآن لا أقدر. ارتباك مواعيدك يربكني. يزرع الرمل في روحي. ألا يكفي ما يجول في صدورنا من خراب وما يركض حولنا من سراب. أتأتين أنت وتصبين عليه خراباً آخر. اتصلي على الأقل. قولي: ألو..علي. يا هذا المصلوب.. أنا لن آتي اليوم: أم تريدين أن أظل في انتظارك إلى الأبد. كم أنت شريرة.

«أنا؟» تقول لي أنا شريرة.

«أرجوك لا تزعلي. ولكن لأعترف. بأني حزين وبائس. لقد سهرت الليل بطوله. أحلم بساعة لقائنا. كنت أفكر ما أصنع بالمنزل حتى يليق بقدوم ملكة.

«ملكة؟»

«(ملكة أنا عبر أزمنة ولكنهم دائماً يحاولون سرقة تاجي. أتفهمني»)

«أتسمعينني؟»

«أجل. فقط كنت أحدث نفسي بأشياء غامضة»

فكرت بنقل المنزل من هنا. من هذا الحي البسيط. أطير به إلى حي القلعة حيث

القصور الشاهقة. وحيث المكان يليق بك. ولكن تراجعت لأن أجور النقل غالية. ولأن التضاد سيكون كبيراً جداً. «اضحكي معي» وربما سيشعر المنزل بالحزن لأني فصلته عن جذوره وجيرانه. للمكان ذكراه يا عليا. كالإنسان تماماً. ألا توافقين؟ اشربي قهوة لأشعر بأنك معي. حزنك طاغ. أيكون عتابي هو السبب أم أنه حالة احتجاج ورفض. ربما أنا سبب كل هذا الحزن.

«لا»

«شخص آخر إذاً»

«لا.. ربما أزمنة أخرى. أو امرأة أخرى غيري. دخلت ثيابي عنوة وتقمصتني. أطيافي الأخرى وظلالي القديمة. وربما ذاكرة المكان الذي تتحدث عنه. أو المكان الذي كان في أعماقنا وهرب. هربت الأمكنة الحميمة منا فهرب صوتنا الدافيء. وهرب وجهنا المشجر بالحبق إنها ضربة الآن. الضربة الموجهة إلى الجوهر. العالم غارق في إذابة الفوارق بين المهزوم والمنتصر. بين المرأة والرجل. بين القديم والجديد. أشياء كثيرة. خوف. شجاعة. حرية ـ انحراف. بين من يملك نفسه أو يملك غيره. إنها اشتراكية جديدة. إذابة الفوارق هذه تحزنني. أفقد تاجي كملكة. السيف القاتل. والسيف المغلوب.. كلاهما معلق على الجدار. عبور يا صديقي. عبور نحو اللاشيء والفارس المقتول مربوط على ظهر حصانه يبتعد عن الخلق ويدخل في بطن الجبل. نساؤه يبكين. وحدها المرأة لا تريد هذه اللاحدود. عندما نلتقي غداً ستجد وجهي مشجراً بالإسمنت والقصور. وجهي غريب. لا أحد يعرفني في المدينة مع أنها مدينتي. صديق أبي القديم مر ولا يعرفني. أولاده لا يعرفونني. الطرقات القديمة التي كنت أعرفها. لماذا لم تعد الأمكنة الجديدة حميمة؟ ها أنا أذهب كل يوم إلى عملي في شارع اسمنتي لا تميزه شجرة لوز ولا شجرة توت، لا يوجد أسماء لنا على شجرة دلب مخدوشة الساق. ولا حبقة على نافذة. أأكون أنا يا علي أم امرأة أخرى هذه التي تقودني وتركض بي. أحياناً استوقفها أهرب منها إلى أماكن بعيدة أبحث عنها، أغني. أو أبكي.

«طيب»

سأهرب منك الآن. لست مستعدة لحزن جديد. نلتقي غداً أو بعد غد. أو

نكتب خياناتنا على دفاترنا نسميها مذكرات. لن نطلع عليها. لا وقت لدينا. وعندما سيطلع عليها أولادنا سيستنكرون ذلك علينا. يا للحماقة. آباؤنا يحلمون؟!! ثم يمزقون كل شيء ليبدؤوا حلماً آخر.

متعبة أنا.

إلى اللقاء.

«حبيبتي»

....

ـ أ ـ

ورود على الطاولة.

شراب في الكؤوس. زجاجة عطر مغلفة بأوراق ملونة. أبيات شعر من آخر قصيدة كتبها. يا لهذا الشاعر البائس، ينتظر حبيبته. وحبيبته مشغولة بقصّ أظافرها. أو ربما بأمر أهم. لا أدري. هذا البائس هو أنا. رتبت الشموع. قلت وأنا أملأ المنزل همساً: سنحتفل بنهاية العَام معاً لنبدأ زمناً جديداً معاً. قد تكون البداية أروع. كلما تساقطت ورقة توت على الباب أشعر بهمس يدخل. بدهشةٍ تقرع عليّ سكوني. أنتِ، أنت القادمة أبداً، وعندما تحركت قطة الجيران في الشرفة قلت: أنت. هكذا كل حركة. أستجدي كل حركة لتكون حركتك. وحين مالت الشمس نحو غروب يكرر ذاته أبداً لم أفقد الأمل. لا بد أن تأتي. ألا تحبين الدقة، والكلمة الدقيقة؟ وأحضرت لك أغنية لأم كلثوم. وأشرطة كاسيت لعبد الوهاب. وبصراحة أحضرت بعض الأشرطة الراقصة. الأشرطة التي نسميها «سوقية» كي نهز أرجلنا قليلاً. نهز أجسادنا. ربما تتحرك الملائكة. أو العفاريت التي في داخلنا. لكن الشمس بدأت تهبط إلى البحر. وشجرة الكينا المجاورة للنافذة راحت تصفق بأوراقها القاسية شامتة بي. حاولت أن أكتب لم أستطع. ماتت شياطين الشعر مرة واحدة. حزنت لأن شرر الوقت لم يوقظ شرر الكلمة. أريد أن أحرقك بقصيدتي أيتها الأميرة، تبلّد ذهني وغامت ذاكرتي ثم راحت تتلذذ بمسخي آلاف المرات. كان المنزل يضيق عليّ، وثيابي تضيق. أشعلت الشموع. وملأت كأس البيرة. لكن عبثاً.. رغوة البيرة

المتجمعة تذكرني بكلماتك القديمة.. المرء يطفو لحظة فيظن أنه الأعلى. الأكبر. وسرعان ما يتلاشى كالزبد.. هكذا تستمر الحياة. هكذا أستمر في تخيلك والجدران تشرئب في وجهي وتمدّ أصابعها لتخنقني. خرجت إلى الشرفة كانت رياح كانون تلسعني، رياح شمالية قادمة من جبل الأقرع. ترمي ثلوجها وتغادرني إليك. كنت أراها تركض باتجاهك وحدك. قلت: هناك في هذه النقطة الزرقاء الغامضة، هناك شجرة سنديان أو شجيرة زيزفون مليئة بالشوك. تستظل بها امرأة من رائحة الجنة، من رائحة النار. امرأة تلغي كل شيء عندما تحضر.

تمنيت أن أتمسخ إلى طائر على طريقتك. أقتحم ضباب البرد وأطير. أطير إليك. أقصّف شوكك وأعود بك.

«ستدمى أصابعك»

«فقط أصابعي؟!»

أنت هكذا.. تهربين إلى كلمات باردة وإلى لغة ثقيلة على الصدر. مفردات اللغة عندما لا نتعارك معها تموت. لم تقدري لحظة ما أكنّه لك. أرجوك لا تعيدي الاسطوانة نفسها، ـ لاأومن بالحب ـ أو لا أثق بالزمن.

«أريد شاي بالقرفة»

«وأنا كذلك..»

«انظر.. البحر..».

«.... حبيبتي»

أنا أحبك. وأنت ترتاحين لي. أتقولين لا؟. لا أعرف لماذا تخيلتك مع سامي. هذا الشاب الأنيق جداً. منذ أن رأيته تصورتك بين ذراعيه. هذه الحالة تشعرني بالهزيمة في معركة غير متكافئة. وتخيلتك تضحكين وتقصين عليه قصص الماورائيات. كعادتك. وتخيلته يضحك فيجرحني بالسكاكين وهو يقدم لك البندق المملح وأنت تروين له بصوتٍ هادىء مقنع قصة أم سلمان التي نطحها الثور. أم سلمان العجوز، وكيف أخذ زوجها الثور إلى الحقل وراح يحرث عليه طيلة النهار إلى أن غابت الشمس. تعب الثور ولم يتعب الزوج المقهور وعندما أعاده إلى الزريبة ربطه وراح يضربه بعصا غليظة. يجلده. يجلده. أصوات مشبعة بالألم إلى أن انهار

الثور على الأرض وأخذ يشخر والعرق يتفصّد منه ولولا أم سلمان لما تركه. قالت له: اتركه. اتركه يا أبو سلمان. إنه حيوان لا يفهم. ولكن تبين أن الحيوانات تفهم فما إن نام أبو سلمان حتى حلم بالثور يعتذر ويقول له: أ إلى هذا الحد تضربني دون أن تعرفني؟ أنا بهجت الزيتون.. في عصرٍ ما.. زمنٍ ما.. كنت زوجاً لامرأتك.. ولقد أهانتني كثيراً. وذلتني. فذبحتها. انظر آثار السكين في رقبتها. والآن أريد أن أذبحها ثانية. وثالثة. بقرني. أرفسها. لماذا خلّصتها. أهنتني أنت وضربتني. كنت سأزهق روحها، وليمسخني الله أكثر. في اليوم التالي رأى أبو سلمان دموعاً على زوايا عيني الثور، حزن ورفض شاي أم سلمان. أترين كيف أحفظ قصصك التي لا أعرف إلى أي شيء ترمين. هل هي البديل لكليلة ودمنة..؟! هذه اللحظة. استعدتك مع سامي. تتحدثين إليه. وسامي يضحك. وأنت تقشرين البندق. وتطعمينه. وهو يمسك يدك. ثم يتلمس شعرك. أو يطوقك، مقبلاً نحرك وهو يقول: كل عام وأنت بخير. كانت خيالات الشموع تتراقص. وخيالاتك تتراكض أمام عيني. أي امرأة أنت؟!! الوجوه تتراكم في قعر الكؤوس المصفوفة أمامي. لم أتمالك إلا أن أكسر هذه الكؤوس. كنت أكسر خيالاتك. سامي. اللحظة القاتلة. لحظة الذوبان. الفوارق. كنت أمتلكك وكنت تفرين فأخرج إلى فسحة الدار. عندما تسألني جارتنا الدخول أرتبك. يا أستاذ تفضل. شكراً أنتظر ضيوفاً. لم يكن الضيوف سوى أنت. ولم تكن السنة الجديدة إلاّك. ولم يكن لأي امرأة القدرة على انتزاعي من عباءة الكآبة ودفعي إلى سهول الإلهام والفرح إلا أنت. مع ذلك..

كان الليل ثقيلاً.

والموعد المهزوم ينتصر عليّ. وغيابك ينتصر على ضياعي الطويل الطويل. رحت أفتح الباب وأغلقه كل لحظة وأقول: ماذا لو كانت الآن وراء الباب ماذا لو نقرت بأصابعها على النافذة. ماذا لو مررت وردة بهدوء على زجاج النافذة؟ ولكن ربما ضيعت المنزل، ربما ضيعت طريقة الوصول إلى بيتي.. لا. عليها أن تتصل وأنا علي أن أهرع بكل لهفة السنين التي ضاعت من عمري. منذ المرأة الأولى إلى المرأة الأولى. البعد.. الآن. هي تختبىء وراء النافذة. هي أطياف. وأنا أنتظر أي طيف. الحار. البارد. الجارح. الحنون. أي طيف. امرأة من نور. امرأة من شوك. ولكن عبثاً. أشعر أنك تتقصدين ذلك لتستمتعي بأشلائي. حطامي الكثير. ولتعززي ثقتك

بأنوثتك وحضورك. أتظنينني وحشاً؟. ربما أخاف تأويلاتك الجديدة للأشياء. ما معنى ألا تأتي بعد أن تؤكدي المجيء؟ لم يكن لدي القدرة على التخيل المقهور أكثر. الباب يقرع. أشلاء وريح تدخل من حواف النافذة. الستارة تهتز. صوت الرعد العاصف يقطع السكون. عتمة. مطر والساعة العاشرة ليلاً. نهاية وبدء يمتزجان بعد وقت قليل لتخرج أسئلة جديدة من رحم المفاجآت. كنت مستعداً أدرب ذراعي لاحتضانك. وكنت أتوق لشم عطرك. مازلت أنتظر. أضحك على نفسي بالإنتظار بينما يلقي كانون بكل قتامته على المدينة.

«ها هي صفعة جديدة يا علي. من الحياة أم من المرأة التي أحببت حتى الجنون. علي.. ما بك؟!

هذه المرأة ليست لك. وأنت لست ابن هذه الحقبة من الزمن.

كان عليك أن تعود إلى قريتك. ألم تقل أمك ذلك؟!

كان عليك أن تصير شاعراً تركض في زقاقات الكلام، شاهراً غضبك وحنينك وأشلاءك على الملأ.

ما هذه الهواجس.؟!

«ابتعد عني.. لا أريد أن أخاطب أحداً. أريد أن أركض في البرية مثل كلب مسعور لأبتعد عني. أكاد أصدق عليا. هل أنا أحرّك مصيري أم مصيري المجهول يحركني. لماذا التقيتها؟ أجل لماذا التقيتك يا امرأة من ورد ونار؟ رحت أمشي عبر الشوارع الهابطة والنازلة. اتجهت صوب البحر. هو وحده القادر على احتواء أشلائي وخيبتي. منذ الأزل هذا الأزرق الصاخب، الهادىء يكتم أسرار البشرية ولا يبوح. ولا يحزن. حيادي كالأبد. كان الموج صاخباً. وكان صوت الريح المصطك بالصخور يبعث الشعور بالخوف والوحشة. اصطدمت نظراتي بشبحين بعيدين. ابتعدا في العتمة. صارا كنقطتين. اندمجتا.. كرتان متعانقتان. شعرت بحنين جارف إليك. وشعرت بالحقد أيضاً عليك. فتحت يديّ كأني أريد احتضانك. اعتصارك. لم أجد في يدي عطرك. ولا شعرك الذي أودّ أن أعبث به. أذروه في كل اتجاه كأني أذرو النساء جميعاً. قلت إنها هي. عليا. امرأة أخرى. امرأة غير التي أحبها. لم تأتِ. تسمرت مكاني على الشطّ أرقب النقطتين

المتعانقتين. تكبران. تقتربان. تنفرجان عن رجل وامرأة. يا لجنون اللقاء. برد. مطر. ها هو المطر العاصف يبدأ. المطر ينقر زجاج وجهي كأنها أناملك. الباردة. أريد أن أبكي ولكن لماذا؟. هل عليّ أن أبكي لأحتجّ على المصير. عليك. عليّ..؟ الرياح تشتد. تعوي وتلفّ الحارات.. الموج يرتفع، الرذاذ المالح يتناثر على جسدي. الشاطىء خالٍ والنوافذ مضاءة.

وراء كل نافذة حكاية. تحت كل مصباح موعد. اثنان يفترشان طاولة رأس السنة.. يفترشان أحلامهما. كؤوسهما. دفء وموسيقى وأنا وحدي أتسكع على بساط البرد. أجرجر خيباتي مهزوماً. إنها الهزيمة العاشرة. قولي أكثر. أكثر من ذلك. المرة الأولى يوم ولدتني أمي وألقتني إلى حطب الحياة أحترق في بيت صغير يكتظ بالفقر واللعب القماشية المحشوة بالقطن ووسائد القش التي أنام عليها. والهزيمة الثانية يوم مات أبي. أجل مات أبي منذ زمن بعيد. بعيد. موغل في القدم.

«وأنت بلا أب يا علي»

أهزّ رأسي بلا مبالاة. ألعب وأتسلق شجرة التين وأصطاد العصافير «بالنقيفة». عندما ذهبت إلى المدرسة لأول مرة شعرت بالخوف والوحشة.. قال المعلم: ادخل يابني إلى الصفّ.

صرت أبكي. لا أريد الدخول إلى عالم مجهول. شعرت بالخوف والوحدة. هذه الوجوه الصغيرة مخيفة. وهذا الأستاذ يحمل عصا. بالتأكيد هي لجلدي وحدي. كنت أخاف المقاعد المرصوفة والوجوه الصارمة. وما إن بدأت أتأقلم مع المكان. أمتد إليه. حتى صرخ طفل وقال: أستاذ هذا ضربني. نظرت حولي مندهشاً أبحث عن الذي ضربه. الذي هو أنا. مستحيل.. لم أضربه. لكن لساني كان مهزوماً. لم أجرؤ أن أقول لا ولا أن أقول نعم.. طأطأت رأسي. وراحت دمعة تختفي بين الأهداب. تكورت على المقعد.

«لماذا ضربته»

«.....»

لماذا ضربته؟! سأل الأستاذ غاضباً.. لماذا ضربته يا ولد. لم أرد حملت حقيبتي وخرجت. لا أريد المدرسة. أريد الذهاب إلى أمي. لكن الأستاذ منعني.. الدخول

بإرادتك. الخروج بإرادتهم. وقد يكون كل شيء بإرادتهم. تقدم إليّ الأستاذ وقال صارخاً بوجهي: «اقعد اقعد ولاك»

جلست على المقعد أرتعش فاقترب الأستاذ مني وبيده عصاه يهزها. «لا تعيدها ثانية» - أولاد نوَر - لا. أنا ابن فاطمة.

«لم أسألك عن أمك»

«ما اسم والدك» اسم والدي ابراهيم يا أستاذ. اقترب الأستاذ مني لدرجة أني شعرت بأنه يريد ابتلاعي. قرص أذني وقال «والنِّعم»

بسخرية قالها!! بقسوة قالها. بكل هذه الأشياء التي تنمّل الجسد قالها. الشاطىء بعيد في وحدته. برودته. صخوره النافرة. المتحركة تحت الموج الواقف كشياطين. الشاطىء وذاكرتي ينفتحان الآن على بعضهما لتخرج امرأة من الزبد. تحضر وتغيب. المدينة مختبئة وأنا أتلمس أذني التي قرصها الأستاذ وقرصها البرد. النقطتان تصيران عاشقين. رجل وامرأة، رجل يعانق امرأة.. أمام العاصفة. متحديا البرد. شاهراً شوقه في وجه العتمة. رجل وامرأة لا تتسع لهما المدينة المكورة على أجدادها وعباءاتها وخيولها المتعبة. رجل وامرأة لا تتسع لهما غرفة ونافذة وشرفة. ياه كم هو العالم ضيق وخانق. هما يعبران عن لحظة إنسانية.. وأنت يا عليا عبرت عن لحظة انسحاقي للمستقبل. أنت هو. هو أستاذي الآن.. الذي قرص أذني أول لحظة على ذنب لم أقترفه.

«أنا ضربتك ولاه؟»

«أجل أنت ضربتني. ما الذي وخزني في نقرتي إذاً؟»

هكذا عند «الصرفة» وقفت على الباب أنتظر خروج الصبي المدلل. تبعته وعند المنعطف رحت أكيل له الضربات. راح يبكي وأنا رحت أركض. أسابق الطريق.. ظننت أنه سيقول للأستاذ لذلك لم أذهب إلى المدرسة في اليوم التالي. أوهمت أمي بأني مريض. فحملت إليّ الحليب إلى الفراش المشلوح على سرير خشبي يأكل فيه العث وينخر في رأسي. وعندما لم أنهض من السرير حملت إليّ الزبدة وأجبرتني على تناول الطعام. في اليوم الثالث أرسل الأستاذ في طلبي.. لن أذهب إلى المدرسة يا أمي.

«ستذهب»

«لن أذهب وحياة الرسول»

هربت من أمي. ولكن بعد ساعات أرسل إلى الأستاذ «درك المدرسة» فيدوني وأخذوني.. جرّوني مثل جرو. نظرت أمي بحزن دفين. لكنها لم تظهر دمعتها، أمي لا تبكي أمام أحد. تخبيء دموعها، تظن أن الدمع سلاح الضعفاء. الدمع سلاح المقهورين الذين لا يقدرون أن يخلخلوا الواقع مع أنهم يحسّون به ويتألمون.

سألني الأستاذ «أبوك ميت؟!»

«أجل»

هكذا رددت أمام الأستاذ. حدق الأستاذ في وجهي طويلاً ثم قال: اذهب إلى مقعدك. لم أكن أدرك معنى الموت. ولم أكن أعرف أنه الشيء الحقيقي الوحيد الذي يمكن أن يكون. ولم أفهم هذا الصراخ من أمي. ولماذا تشق ثوبها. كنت ألعب قليلاً ثم أعود إلى حضنها أحدق في الرجل المستلقي أمامي. قالوا لي قبّله.. هذا والدك. أ أقبل السكون؟! إنه لا يتحرك. قبّله. والدك. رفعوا الغطاء عن وجهي وقرّبوني منه. أردت أن أهرب. قبّله. قبلته وهربت شعرت أني أبوس حجراً بارداً. آه. البرد. البرد يأكل مفاصلي منذ تلك اللحظة وحتى هذه اللحظة المستطيلة على شاطيء مهجور. حاولت أن ألعب بعد تلك القبلة فلم أقدر. أريد أن أبكي أيضاً ولا أقدر. سألت أمي. لماذا تبكين يا أمي؟ ربما لأني رأيته منذ أيام يضربها. ويشتم والدها، أو ربما لأني رأيته مرة يفترشها كحصيرة دون أن أدري مالذي يدعوها للصمت. تمنيت أن أضربه. ومرة رأيته يشد شعر أمي بقوة ويضرب رأسها بالجدار وبعد أن أنهكه الغضب وضع رقبة أمي تحت قدمه وهو يصرخ كالمسعور

«سأذبحك»

صرخت وأخذت أبكي. ثم حملت عصا صغيرة ورحت أضربُ أبي. يا للنذالة. أنا أضرب أبي؟!

رذاذ الموج يصفع وجهي. رذاذ الزمن. صرخة أمي المقهورة تأتي عبر هذا المدى السحيق وتوقظني. لماذا أنا هنا؟! عندما نكبر نقطع حبل السرّة إلى الأبد مع أسباب وجودنا في الحياة.

رائحة اليود البحري تملأ المكان. رائحة التيارات الجديدة التي تصبغ مستقبلنا وتعفنه وتترك ثغوراً في جلدة الحياة.

العاشقان يتجاوزان مكاني. أشعر بالاكتئاب. أيكون رأسك الآن على صدر سامي؟ ربما هذا ليس سامي. قد يكون شخصاً آخر.. ربما يحاول أن يشدّك من شعرك مثل أبي؟. كان يمكن أن نشرب القهوة معاً. أو أن أكون في وداعك الآن. كان يمكن أن أرشك بالورد والقصائد. آه متعب. أود الجلوس.الاستلقاء. التكور أمام خيوط المطر والبرد. والدي ممدد أمامي على الحصير. أكاد أختنق من أنفاس النسوة الغارقات في السواد. أين زجاجة العطر؟ رشوا العطر. يرشون العطر. فأعطس وأشعر بزكام يثقل على أنفي.

كان الليل قد هبط على بيتنا وحده دون خلق الله. أمي تمسح وجهها بطرف ثوبها الأسود المتدلي حتى الكاحل وتقول لي: اسكت يا ولد. لا تعطس. فأسكت هكذا الله خلقني مطيعاً. لا أحب الثرثرة. واحد آخر هو الذي يسرد الآن تفاصيله القاتلة. لا أحد يهتم الآن بالتفاصيل، اختصر يا أخي، اختصر

«أتحبني؟»

كم أشعر بلذة السؤال وأنت تطرحينه عليّ. مرة. مرات. الحب هو الذي جعلني في دوامة هذا العصف. كانون.. والسنة في آخرها. والعمر يلفظ أنفاسه وأنا لدي الكثير من القصائد لأقولها لك. وأنت امرأة أخرى. غير التي ذبحها زوجها. غير أمي. غير خالتي المسكينة التي باعوها، خالتي هدبا. امرأة أخرى أنت. أكرهك الآن. كم أكرهك. الكره عاطفة محترمة. أليس كذلك؟.. هذه الماورائيات التي تحدثينني بها أخذت تقضّ ذاكرتي. كنت أعتبرها مجرد ذاكرة متعبة. أتراها حقيقية؟ خالتي هدبا لا تؤمن بذلك. وأمي التي تقول الزجل وتملأ بمواويلها آذان القرية لا تؤمن بذلك. إنها تضع اللوم. كل اللوم على جدي الذي باع خالتي بحفنة من الذهب.

قلنا لخالتي الجميلة «جوبي الأرض. كوني الذهب فقط»

أمي اعترضت. بكيت أنا. قالت أمي اسكت. فسكتّ. هكذا خلقني الله مطيعاً لا أحب المعاندة. ولا أكثر من الأسئلة. ولا يهمني إلا أن أملأ بطني بالطعام والحلوى

وأركض بين الحقول أصطاد الفراشات والعصافير المسجونة في قفص معلق إلى شجرة التين الشامخة أمام منزلنا.

جدتي قالت لأمي.

ابنك أبله يا فاطمة.

اغرورقت عينا أمي بالدموع وفكّت منديلها الأبيض ولم تقل شيئاً. ولكنها عندما رأتني ذات مرة أحفر اسمي على شجرة التين زغردت. وجاءت تربت على كتفي وشعري الأشعث وتمسح يدي المغبرتين. وعلي رقبتي المثقبة من عضّ البراغيث. «اقتنص الأيام» همست في أذني. لم أفهم شيئاً.. مرّ العم صالح. ربت على كتفي ومضى.

سألتني معلمة الموسيقا الجديدة. ما اسمك؟!

«اسمي علّوش»

- ما اسم أمك؟.

- فاطمة. جدتي تناديها فطّومة.

- والدك؟!

لم أتذكر اسم والدي. كنت قد نسيته. بل أنا الذي أراد أن ينساه. القبلة الباردة على الحجر البارد. لم أكن أرغب أن أستذكر رائحة ذلك العطر ولا رائحة تلك اللحظات خاصة وأنهم في القرية ينادونني دائماً يا ولد. وكنت أرد. أخفضت رأسي بحزن. كلهم عندهم آباء دافئون إلا أنا. لأول مرة شعرت أني بحاجة لأب أركب على ظهره. يصفعني أهرب منه لأنه يتحرك لا لأنه ساكن، جامد. ربتت الآنسة على كتفي، فنظرت إليها وقلت: والدي مات يا آنسة. اكفهر وجه المعلمة. رأيت اندهاشة حزن في عينيها. وعندما عدت إلى المنزل سألت أمي عن سبب بكاء الآنسة وهي لا تعرفني. فقالت أمي: لأنك بلا أب. والأب يعني الستر.

«ما معنى الستر يا أمي»

«ألا يكون رأس أمك مكشوفاً وظهر أخوتك عارياً.

أقسم أني لم أفهم. وما فكرت أكثر من أن آخذ من أمي ربع ليرة لأشتري قطعة

حلوى. أخذت النقود إلى بيت عمي. ورحت أتفرج على الشباب المجتمعين على السطح وأمامهم برميل مملوء بالقمح المسلوق، المجفف، يرشونه بالماء، ثم يأخذون في ضربه بأدوات خشبية خاصة تدعى «الميجنه» لتنفصل القشرة عن الحبوب. الصبايا ينقلن الماء والأمهات يطبخن برغل بعدس، أو شوربة العدس. أو القمح المتبل باللبن. ويخبزن أقراص السمسم على التنور. وأنا أكاد أروح في الأرجل المسرعة. هذا يقول: ابتعد يا ولد. وذاك يقول: انقلع يا علوش. وثالث يقول: حرام إنه بلا أب. ابنة عمي التي كان يغازلها أحد الشبان وراء الجدار أعطتني قطعة حلوى وقالت: اذهب من هنا يا شاطر.

هكذا إذن..

حرام لأني بلا أب. ظهري عارٍ. ورأس أمي مكشوف. والشعر عورة. أمي قالت ذلك، وأنا أحترم كلام أمي. قالت: رأسي مكشوف مذ مات والدكم. مع أنها تضع منديلاً حريرياً على رأسها كلفها كل ورق التوت في القرية. نظرت إليها باستغراب ثم ركضت باتجاه محطة البوسطة. رأيت ركاباً يصعدون وركاباً يعودون. فكرت أن أركب البوسطة وأذهب إلى حيث يقولون المدينة. ولكن للأسف اشتريت بربع الليرة حلوى وكعب الغزال. تلمست جيوبي فشعرت بالقهر والوحدة. رحت أدندن أغنية كانت أمي تغنيها وهي تخضّ اللبن في الصباحات الباكرة. لا أحد يدري لماذا تخيلت أبي عائداًمع المسافرين. وقفت طويلاً أتأمل السائق وهو يغير عجلة البوسطة الأمامية. كانت أصابعي تنغرس في التراب. كأني أغرس نفسي. أو أزرع أسئلة كثيرة تتقافز إلى رأسي. لماذا يموت الآباء. أو يسافر الآباء؟! أهو الموت يعني السفر؟! جدتي تقول أبوك سافر. لم أشعر أن الوقت يمر، وأن الغروب بدأ يتكوم في الطرقات حتى نهرني السائق قائلاً: «ما إلك أهل يا ولد؟». ارتجفت وشعرت بالخوف. كان الندى الخريفي يتساقط بارداً. أمي قالت: لا تقترب من الغرباء. لا تثق بأحد. قد يخطفونك يا علوش «أولاد الحرام كثر. والسكة تأخذ وتجيب» لا نعرف من يعبرها ولا من يأتي عليها.

«السكة هي الغامض المجهول يا علياً».. السكة هذا الإنتظار المخيف القاتل على شاطىء مليء بمذابح السنين. شعرت أن أمي تناديني. خلعت صندلاً مقطوعاً، حملته وركضت. ناداني السائق. ركضت. الغبار يتبعني. لا أجرؤ على الالتفات إلى

الوراء. أركض وأردد في سرّي. هل لي أهل؟! العم صالح قال لي: القرية كلها أهلك. أجل. لي أهل. أنا الولد المبعوج كالدولاب، لي أهل. دخلت بيتنا كأني أدخل الزريبة. تملكني شعور بأني منبوذ وتافه. سألتني أمي ما بك؟ فقلت لها: ظهري مكسور يا أماه. «يا ويل أمك» مسحت على رأسي وشهقت. ثم نظرت حولها. وصوتها يكاد لا يخرج أبعد من شفتيها. أنت رجل يا علوش. شدتني إلى حضنها. أنت رجل المنزل يا ولدي. قالت أمي وهي تلملم بعض الحروف التي يصعب عليها لملمتها. تحاملت على شتاتها وقالت: لو أنك عدت باكراً كنا ذهبنا عند العصر إلى «المحفارة» لقد اقترب الخريف يا بني وعلينا أن نجدد طين الجدران وأرض المنزل. وندحل السطح حتى لا يفاجئنا الوكف. لم أرد. نظرت إلى أخوتي الصغار ولم أقل شيئاً. صبي وبنتان صغيرتان. وجدتي. أدرت ظهري ورحت أحاول حفظ قصيدة لأبي نواس كتبها لي العم صالح ولكن الوكف يا عليا فاجأنا.

دحرجت الصخرةالأسطوانية كثيراً على أيامنا كي لا يكون سطح علاقتنا مشروخاً. للأسف. لم أستطع سدّ الثغور التي راح الماء ينزّ منها ويخرّب السدود كلها. السدود التي حاولت بناءها. بكل بساطة كان بإمكانك أن تقولي أنا لا أقدر أن آتي إليك صباح ذلك اليوم. كنت وفرت عليَّ البحث عنك في نهاية اليوم من أيام السنة. خفت أن تكوني مريضة. اتصلت بك لم يرد عليَّ أحد. بدأت ديدان الشك تأكل جسدي. هل أذهب إليك؟. لا.. لن أكون متطفلاً. لا أريد أن أفرض وجودي على عدم. لا أدري لماذا تصورت المرأة التي تسير على الشطّ مع رجلٍ في قلب العتمة أنها أنت. وتخيلت أنك تلتصقين به وأن البرد راح يأكل شفتيك. تصورته سامي. تلميذك النجيب الذي يدرس الدبلوم عندك. هو تلميذك لكن يماثلك بالعمر. ثم ماذا لو كان أصغر منك بعدة سنوات. هذه ليست مشكلة. لم تعد نظرة الرجل إلى المرأة كما كانت سابقاً. لم أدخل مرة مكتبك إلا ورأيته. فوراً يشيح بوجهه عني: كأني ألسعه لماذا؟! وعندما قلت له هذا هو الشاعر الكبير الذي يملأ اسمه الصحف. نظر إليَّ وقال: ظننته أكبر من ذلك في العمر. كان يتمنى أن أكون عجوزاً. مع ذلك كنت سأحبك.

الشاب على الشاطىء. يخلع معطفه ويدثرك به. كنت ترتجفين وتزدادين التصاقاً به. كان البرق حين يخترق وشاح العتمة يهبط على الشطّ فيضيء المكان بوهج كأنه

شعاع شمس ينزل من وسط السماء على بقعة محدودة ليجعلني أرى ما رأيت.
«رأيتك»

أجل. أجل. لا تقولي. لا. أخ. أتعثر بمقعد اسمنتي. ثيابي تنزّ غيوماً. رأيتك. وحدك التي كنت على الشطّ تعبثين بكل ما تبقى لدي من أمل. كنت ترتدين معطفك الأبيض الواسع ذي الياقة المصنوعة من الفرو. رأيتك بشعرك المنسدل حتى منتصف ظهرك. بقامتك الفارهة كشجرة نخيل. رأيتك. أجل. كنت أنتِ. لم تكن امرأة أخرى. كنت أنت. أنتِ.

وشممت عطرك مع هبوب العاصفة.

العطر الذي خيم على صدري يوم احتضنتك.

ورأيت وجهك الحنطي الذي يقتحم مملكة المطر ويسير باتجاه الجنوب حيث ترقد «حربة الفارس المقتول» في مياه الشطّ.. مياه تغادرها. وأخرى تحاول أن تغمرها وهي تظل شامخة بين بانياس وطرطوس. والبحر يظل صامداً كالزمن. كانت الحربة مضاءة. هكذا رأيتها تقترب مني تترك مكانها لأول مرة وتجيء إلى شاطىء المدينة الصغيرة «جابالا»

وكنت أنت تغيبين بين اللحظة واللحظة مع انزلاق البرق إلى الماء. غير أني كنت ألمح نقطة تتلاقى مع نقطة.

أي خواء راح يعبرني! وأنا الوحيد أتابع ظلالك وأطيافك. عطرك. غيابك. طاولتي ما تزال مسكونة باسمك. بوجهك. بورودك. ألم تقولي: إنك تحبين النعنع البري؟!

رحت أبحث عن النعنع البري. تذكرت أني قطفته مرة من ضفاف نهر السنّ. حيث يتلاقى الماء المالح مع الماء الحلو ثم إلى الشرق. هناك انعطافات له في بساتين وحقول عليّ أن أجتازها لأصل قريباً من المصبّ. هناك سأجد النعنع البري الذي تحبينه. منذ مدة طويلة لم أرَ النعنع البري. مشيت على الضفة وحيداً. رأيت نباتاً شامخاً له زهور بنفسجية. ناعمة. حاولت ان ألمسه بيدي لأعرف رائحته. لم أستطع كان الماء غزيراً. هذا هو النعنع البري. قلت بصوت عالٍ: لا أعرف لماذا رفعت صوتي. ربما لهذا السبب انبثق رجلٌ عجوز يتوكأ على عصاه، اقترب مني

وقال لي أهلاً. أهلاً يا علي. كيف حالك يا علّوش؟ أهلاً بك يا ابني، يا بن فطوم.

«ماذا تفعل هنا؟»

«أتعرفني يا عم؟»

«ابتسم الرجل وهزّ رأسه. «أنا الذي أعرفك، أعرف والدك وجدك.»

«ولكن والدي مات يا عم»

«أعرف يا بني، إني أعرف جدك لأبيك «أحمد» كان رجلاً طويل القامة مشرق الوجه. لا يمشي دون عصاه. وكان آل «أدهم» يهابونه ويحسبون له ألف حساب. كان يركب فرساً ويدور على القرى يجمع التبرعات لمناضلي الثورة التي قادها الشيخ صالح العلي. كنا معاً يا بني. وكنا نخرج من السهول لندخل جوف الجرد. ثم نتجه شمالاً إلى ابراهيم هنانو في إدلب، ننام في الطرقات، وفي القرى المنتشرة بين الجبال. كان والدك يافعاً وكان يرافقنا أحياناً. وكان جدك مناضلاً. اصطدم كثيراً مع جدك لأمك. ايه أكلت الطرقات من أرجلنا. مررنا بقرى كثيرة وعرفنا بشراً كثراً، منهم النذل ومنهم المحترم. منهم الوطني ومنهم الخائن، جدك لأمك، كان. لا داعي لذكر الماضي أحياناً. إنه يحضر في لحظات حرجة ويجرح. وأحياناً يكون دافعاً للأمل.. جدك أحمد كان فارساً. مرة وقد كنا نمشي ليلاً بعد أن ربطنا الخيول في أطراف قرية «العرقوب» صرخ جدك: آخ.ما الذي وخزني في قدمي؟.

«قف لنرَ»

رفض وتابع المسير خوفاً من أن ينكشف أمرنا.. ربما كان بعض الخونة يرصدون حركتنا. كانت العتمة كثيفة. وقوافل الفرنسيين تدخل البلاد.

«دعنا نسرع»

هكذا كان يحثنا أنا ووالدك على السير. كان أكبرنا سناً أكثرنا نشاطاً. وعندما وصلنا إلى بيت نأمن له، دخل مسرعاً باتجاه سراج الكاز. كانت أنياب الأفعى تحفر ثقوباً في باطن قدمه، كنا نمشي أحياناً حفاة، وبينما كان يتأملها. دخلت سنونوة، حلقت عدة مرات في المنزل الترابي. ثم وقفت على كتف جدك. كان في فمها قطعة تراب مبللة. تركت التراب وطارت. دعكنا التراب المبلول بقدم جدك حيث

اللدغة السامة. طار الألم. فجأة.. تناولنا عشاء من الخبز والتين الأخضر. ثم حملنا عدة عناقيد عنب واتجهنا إلى قرية الصومعة المتاخمة «لصافيتا» حيث كان الشيخ يجتمع بثواره. ايه يا بني.. نظري ضعيف. اعذرني. لا أعرف إن كنت تشبه أباك، في ذلك اليوم وجدنا قرية الشيخ والقرى المجاورة تحترق. لقد اشعل الفرنسيون النار بالأحراش والبيوت فماتت قطعان الماشية. والأطفال والعجائز. منزل الشيخ صالح وحده لم يصب بأذى كانت روحه لله.»

- «ماذا يقول هذا الرجل وهو يهذي بالتأكيد. والدي لم يكن سوى الرجل الذي يضرب أمي ويذكرها بجدي. والدها.

ينتبه العجوز إلى صمتي. يسألني بماذا أفكر؟. «لا شيء يا عم»

«كيف حال أمك؟»

لم أرد. كنت أفكر بالنعنع البري الذي سأحضره لك وسأفرش طاولتك به.

«كيف حال أمك؟»

لم أعد قادراً على سماع المزيد من الهذيان والحقيقة. نظرت إلى ساعتي. الوقت يمرّ ولم أقطف لك النعنع البري «هذا هو النعنع البري الذي تبحث عنه» كيف عرف أني أبحث عن نعنع أحبه لك.؟ ابتسم وقال «أمك تحب النعنع البري ايضاً. «أمي؟!» اختلطت عليّ الصور والرغبات. أمي تحب النعنع البري.

حبيبتي تحب النعنع البري.

أنا ضائع. شعرت بالخوف. «ليلى» كانت تحب النعنع البري. وكانت تحب البحر. اندمجت بالبحر ذات يوم.

«هذه الشماريخ البنفسجية الناعمة المرتفعة على ساق خضراء مغبّرة» قطفت حزمة وغادرت المكان. نسيت أن أودع الرجل العجوز. ونسيت أن أسأله عن اسمه. وعندما وصلت إلى باب المدينة الشرقي، وقبل أن أنعطف إلى اليسار رأيت الرجل العجوز يمدّ لي يده ويقول «مع السلامة يا بني حاول أن تبقى علّوش وليس غيره»

نظرت إليه ولم أجب. هذا الرجل يتدخل في شؤوني الخاصة. ولكن عمره الكبير يغفر له عندي. علينا احترام الكبار أليس كذلك يا عليا؟ في المنزل رحت أرتب لك الورد والنعنع البري. فركت وريقات منه فانتشرت رائحته كرذاذ عطر

خاص جداً. فتحت المذياع. كانت الأخبار مزعجة. قتل، تدمير، حرائق. تفجير سيارات وإدارات. كل هذا يدعو إلى الغثيان. منذ حرب حزيران حتى الآن لم نسمع إلا هذه الأخبار. الكرة الأرضية تحترق، تتدحرج نحو الهاوية، من سيصعد بها. كيف؟.. أقفل المذياع. لا أريد أن أسمع إلا حفيف خطواتك القادمة مع الريح. كل حركة أظنها أنت. أنت ولا امرأة أخرى. أحضرت من درج مكتبي القصائد التي كتبتها مؤخراً والتي تحتوي بعض القصائد المهداة إليك. إنها تؤرخ للقاءاتنا وأحلامنا. أحضرت كرسيين، أنا هنا اجلس باتجاه الجنوب. وأنت هنا تجلسين باتجاه الشمال. سترفعين رأسك كملكة. وسأرش شعرك بالنعنع البري. سأقدم لك من الشراب المفضل. وسأطلب إليك أن تنصتي وتسمعيني، لأبدأ قراءة عالمي كله. عالمك.. أناملك. شعرك. صوتك العذب. الزيزفون الذي تجففينه بين محاضراتك الجامعية. وسأقص عليك طفولة تبعثرت بين الحصى والنعنع البري والنهر المغروس في أوراق الحور والصفصاف. وأحلام شاعرٍ يريد أن يحضن العالم. ثم أقول لك: اختاري أي العذابات تريدين. العالم اثنان يا عليا رجل وامرأة، أليس كذلك؟! وقد أذكّرك بمواعيد البرد. واللقاء الأول وما تلاه. ثم.. إلى أن أبدأ من التراب الذي نهضنا منه وأنتهي بالتراب الذي يخصبه المطر، أبدأ بالرحيل الأول، من بطن الجبل. إلى بطن البحر، من أشعار امي إلى النعنع البري الذي أجهزه. بعد ذلك سيشع وجهك. وستفيض عيناك بأسئلة كثيرة جارحة. كيف عليّ أن أسكت هذه الأسئلة؟!

«أتعرفين أنتِ كيف؟»

أنا أقول لك: سأقرّب الكرسي. سأقترب، وأنت ستقتربين مني. ستضيق المسافة بيننا. وسيشع العالم كله ويدخل من نافذة غرفتي ذات الستائر المسدلة. لن أدعك تقولين شيئاً. لا أريد لذرات صوتك أن تتبعثر في الفضاء وتصعد إلى أكوان اخرى غير كوني. ألا يؤكد العلماء أن الأصوات تصعد السماوات وتدور في الأفلاك الرحبة. يفنى الجسد ويبقى الصوت. سآخذ يدك بين يدي، وبهدوء، أجل بكل هدوء وروعة وقدسية. سأضم رأسك إلى صدري وسيرتاح وجهك على نبض قلبي. ستذرفين أول دمعة. دمعة رضى. او ضعف أو نشوة. لا أعرف. لا أعرف، سأزرع وجهك بالقبل النهمة. ثم ستبتعدين. فجأة أراك تنهضين. ولكن كيف أفترق عن

ذاتي؟ سأطوق خصرك ونبدأ برقص حالم كآلهة. تدور بنا الغرفة، والمدى. ويدور النعنع البري. ويدخل نهر السنّ الدافيء. ويقف جدي على حصانه الأبيض منتظراً ثورة أخرى. ثورة من نوع آخر. ثورة تؤكد وجوب الحبّ. وألوهية الإنسان. ستغمضين عينيك متعبة ثم ستنامين بين ذراعي طويلاً. وأنا سأكون مشغولاً بأزرار ثوبك. قلت لك دائماً أكره الأزرار. سيظهر كتفك العاري والفضاء العاري. والشفق من بين الغيوم الباردة.

وعندما أود أن أغرق في عالم فوضوي أخاف. ابتعد. وأنت تبكين. لا أجرؤ على مخاطبة الجسد وحده ولا أقدر على تجاوز خواء الروح. أوه.. أزرارك اللعينة.. لتسقط أزرارك كما تسقط أوراق التوت في الخريف، لماذا وحدها أزرارك لا أجرؤ على قطفها كلها؟!. كل شيء الآن يقطف. يسقط. ورق التوت. الأسماء. حصان جدي. الذي كان يجوب به القرى ليجمع التبرعات للثورة. لا تفاجئني الكارثة. أنا أفاجئها. ولكن أنت فاجأتني هنا أعترف لك.

لنصغِ إلى اعترافاتنا، قد تكون الأولى. وقد تكون الأخيرة.

«كنتِ المدينة التي أرتبها على هواي»

«كنت القرى التي أريد أن أجعلها تنغلق على طفولتي».. أردت أن أجعلك ذاكرتي. «يبدو أن الزمن لم يعد يحتاج إلى ذاكرة إنه يتحول ويتغير مثلك»

لو أن جدتك نعامة الآن هنا بماذا كانت ستدعو؟ منذ لقائي بك عند صديقي «سامح» منذ قراءتي لاسمك على بطاقة وأنا أبحث عنك. وعندما لقيتك هربت. كأنك بيتنا الذي رممناه فتوقف عن الوكف. لكن مطر هذه السنة أعاده إلى حالته الأولى. وهذه العاصفة البحرية التي أغرق فيها الآن تشبهك وأنت غاضبة مني. تبعثرين ما كتبته لك بلحظة وتنبشين السنوات البعيدة من ذاكرتك كأني أنا المسؤول عنها. هل لقاؤنا تمّ فقط لنرمي الماضي، ماضينا كل بوجه الآخر؟! هذه هي غاية اللقاء.؟! ربمكا تكون غاية عظمى، ربما يجهز الجوائز للذي يستطيع أن يستمع إلى أكبر قصة للذاكرة. من يقدر أن يحتمل ان تُفرش تعاريج أزمنة كثيرة أمامه؟» ها أنا أنبش سنواتي كلها أمامك فتعيدي إليّ الجراح القديمة. «ليلى.. هدبا.. جدي. قرية مغمورة بالطين والأمل.»

حين تكونين هادئة تبدين رائعة. أشعر أن لا شيء قد انهار بعد في عالمنا. ما يزال الإنسان سيد هذا الكون.. أليس كذلك؟! أم تدرّسين طلابك في الجامعة غير ذلك يا حضرة «المعيدة» الجميلة.

قلتِ:

أكره أن أخضع لرغبات.

أنا أخضع لعقل.

الإنسان ماذا في نظرك يا أستاذه؟!

أتقولين شيئاً وتفعلين عكسه مثل باقي المتحكمين بالعباد؟

أنت التي قلت سنحتفل سوية. أنت رغبتِ في ذلك. وقلت: اجلب لي النعنع البري. فالفصل شتاء. وكانون لم يترك الكثير من الخضرة. قزّم البرد كل شيء. وأنا لم أعد أحمل في ذاكرتي نعنع أمي ولا عصا أبي حتى اهتديت إلى نهر السن، النهر الذي سيفيض بمائه يوم العطش الأكبر، سيبقى هذا النهر النابع من بطن الجبال الساحلية شاهداًعلى عطشنا وبؤسنا. عند نهر السن الموزع في السهول الممتدة من جابالا إلى «لاوديسيا» ما يزال النعنع البري شامخاً شموخك في روحي.

قال العجوز: احترس. سأحترس؟! لماذا عليّ أن أحترس؟ أنا لا أعمل في متجر أحد. ولا في مصنع أحد من الذين ـ اغتنوا ـ فجأة بقدرة قادر. ولا أسوق سيارة للص محترم. أنا موظف في الدولة. موظف منذ عشرين سنة. آكل من عرق جبيني. أدفع الضرائب كلها ولا أهجو في قصائدي إلا الزمن الذي سار متعرجاً. فمن أي شيء أحترس؟ يبدو لم يكن عليّ الحذر إلاّ منك. تؤكدين أنوثتك باللعب بمشاعر الآخرين. كنت تعرفين بأني سانزل البحر بعد أن تضيق بي الجدران والنوافذ والكؤوس. لذلك أخذت سامي من يده كجرو. ونزلتِ البحر. هكذا أظنك. قلت له: كما قلتِ لي ذات مرة: خذني إلى البحر. وقبلته على عجل كما فعلتِ معي. وهمست له «أحبك» أنت لا تعرفين الحبّ. أنت متسلطة. مشيت أتبعك إلى مدينة سحرية لم أرها من قبل. اندهشت، ولشدة دهشتي كدت أبكي وأنا أهمّ بالدخول.

لكنك صرخت بي بصوتٍ غريب. أ أنت؟! لا. هذه امرأة أخرى صرخت بي وقالت: قف عندك.

حذار من الدخول.

«لماذا»

سقطت متقهقراً، منكسراً. جثوت قربي ورحت تبكين بين يدي كطفلة فقدت حذاءها الجديد: أو كامرأة أدركت خطأها. وأرادت الاعتذار.

الآن. كيف أقبل اعتذارك. ألست المرأة المثقفة التي تبحث عن تأكيد ذاتها بالمعرفة والحب والعمل؟! المرأة التي تعرف كيف تجرح وكيف تعتذر وكيف تقول لا. عندما تعرف أن تقول لا. أو تعرف أن تقول نعم تكون المرأة قد تحررت. أليس هذا كلامك؟! هذه هي المرأة المختلفة عن أم هاشم. وعن جدتك نعامة. وعن خديجة زوجة محمد برهوم.

- 3 -

.. ومشيت على الشطّ. مليء كان الشط بالأحصنة الميتة وعليها فرسان مقتولون، لم يتسع لهم الوقت كي يصلوا إلى بطن الجبل ويغيبوا فيه. كنتِ أيضاً على الشط. لم تتعثري بامرأة مقتولة. ولا بفارس مصلوب. كان البرق يضيئك. يضيء امرأة تشبهك. يغمرها البرق والظلام والموج الهائج. وأنا كنت أركض من صخرة إلى صخرة أتبعك لأتأكد بأنك لست أنتِ التي تسير على الشاطىء بكل جرأة غير عابئة بالمصابيح القريبة المنبعثة من النوافذ. غير مكترثة بالبرد. بالوحوش الكثيرة التي حدثتني عنها. المدينة تحتفل. وأنت تحتفلين مع سامي على طريقتك الخاصة. وأنا كنت مع رذاذ الملح واليود والعواصف أحتفل على طريقتي الخاصة.

كنت أبحث عن زمنٍ أستند عليه.

أبحث عن حصان لم يقتل بعد كي أحمله جثتي واقول لك لا تبعثيني اتركيني في البريّة. أتجه شرقاً.. شرقاً موغلاً في الفتنة والحكمة. اتركيني يحملني النسر بعد أن أترك حربتي على الشاطىء تنغرس مؤكدة النهاية.

وكنت. يا عم صالح.. أبحث عن حضوري بين هذه الجثث التي تملأ الأرض.

«المسيني في وريقات الزيزفون

تصرخ روحي بين طيات الزبد»

البحر يصرخ حزيناً. غاضباً. محتجاً. يائساً. لا أدري هذه السهول الرمادية الهائجة كيف أخاطبها. سقطت على صخرة بحرية مليئة بالتجاويف والماء المالح. سمعت أنيناً متقطعاً. لم أكترث في البداية. كنت منشغلاً بمتابعة ظل امرأة. ظلّك، المبتعد كنت أظن أن ضحكاتك وصوتك العذب وهمساتك التي تتبعثر على الشطّ. كان الشطّ خالياً إلا منك ومن أشلائي. تدوسينها مع وغدٍ أظنه سامي.

الأنين يقترب ويبتعد.

صوت امرأة.

صوت عاصفة.

صوت زمن سحيق.

«وا....»

تكورت على الشط. ازداد الأنين. الموج العاصف يعلو. والسماء سهل داكن السواد. طلقات نارية تخترق هذا الصخب. ضجة تبعثْ من نافذة أحد المحتفلين بالسنة الجديدة. شعرت أن إطلاق النار على النهايات هو العمل الأخلاقي الوحيد المسموح به. يبدو أن الساعة الثانية عشرة تقترب. ساعة الصفر. البدء. الأنين يزداد اتساعاً. هذا ليس أنين عليا. عليا تضحك بعيداً. حبوت على يدي. أريد أن أكتشف هذاالحزن الداخلي. صوت مجروح ينبعث من أعماق سحيقة. الموج. الموج. يعلو. يهبط. أضواء المدينة نافرة. ملونة. أنتِ تبتعدين. تبتعدين بمعطفك الأبيض. بشعرك الكستنائي. تبتعدين كالهزيمة. تبتعدين كالفرح. بخطواتك المسرعة. طيور نوارس ترفرف في السماء كأنها تحمل الغيم وتهرب به.

«كن حذراً يا بني»

هكذا صوت العجوز يأتيني وهو يمدّ يده مودعاً. أشمّ رائحة النعنع البري. اشعر بالنهايات المدبية لخناجر تقترب من وجهي. «يا علي كفانا جراحاً» ابتعدي ياأماه عني الآن، أرجوك ابتعدي. أشم رائحة طبخها. ارى منديلها الأبيض، جدتي تقول «ابنك ابله يا فطوم»

البرد شديد.. أرتعش وثيابي مبللة.

«البرد يفرش الصور القديمة من يديّ.

البرد يخزني بالنهايات الحزينة.

البرد انت.

أنا.

وبدايات تحترق.»

هه. هذا الشعر لا يليق بالساعة الثانية عشرة. يجب أن أقول شعراً أكثر عذوبة. أكثر تفاؤلاً. ماذا ينقصني.؟ أجل.. أجل ماذا ينقصك يا علوش؟ النساء كثيرات. وينتظرن إشارة منك. أنا الشاعر المشهور. آكل من مال الدولة فقط. وجدي كان بطلاً.. دخل الثورة. وأنا دخلت حرب حزيران. وما بعده. عرفت الهزيمة والنصر.. حفظت أشعار الحرية. والآن أنا حر، حرّ جداً. لكني أريد امرأة واحدة. أريد عليا. وحدها التي أشعر أنها تكملني. كما أكملت أمي أبي. أبي الذي اشترك هو الآخر بالثورة. أحبّ أمي في إحدى جولاته عندما جاءت فتيات صغيرات يحملن أطباق الطعام والماء للثوار المختبئين في بطن وادي «جهنم» صحيح أني سمعت أن بعض الأبطال الذين ماتوا عادوا إلى الحياة ثانية. ورفضوا الأوسمة التي منحت لهم. قالوا لا نريد هذه الأوسمة. نريد الحياة. لقد اكتشفنا اللعبة. نريد الحياة وامتلاك البساتين والحقول. لقد مللنا الظلمة وشعاراتكم وأغانيكم وأنتم تدوسون رفاتنا. مللنا أن نكون قمة تصعدون عليها. وسلماً تتسلقون عليه لقد شبعنا موتاً. نريدأن نعود. وسمعت أن الكثيرين من الذين استشهدوا في فلسطين تدموا بعد أن تمّ «السلام العادل الشامل».

ما بك يا علوش. أنت تهذي؟!

«أنا..؟!»

مالذي تقوله.؟!

لا أقول شيئاً. هذه رواية أكتبها حالياً. مجرد خيال..

«تركت الشعر؟!»

«الآن زمن النثر.. زمن القصة والرواية. سأهجر القصيدة كما أهجر امرأة.»

إذن تابع روايتك..

«هل ستنشرها؟!»

«إذا رأيت دار نشر تقبل بالربح الحلال ولا تمتص دمي»

«إذن انتظر»

«ها أنا أنتظر. قد أضعها في مؤسسة رسمية. اتحاد.. وزارة.»

«قلت لك انتظر إذاً يا علوش.. سنوات وسنوات طويلة»

«هل صدقت؟!»

«لماذا..»؟

أنا لا أعرف ماذا أكتب.. أنا أهذي»

«يا عم صالح. هذه النهايات مؤلمة»

جارتي قالت: جارتي أم رافع. المرأة التي لا تشيخ أبداً. تظل فاتنة. وتظل تغوي الرجال. «ابني قرع الباب ودخل دون أن أفتح له. كان الباب موصداً وكانت النوافذ مغلقة. لا أعرف كيف حضر. لقد أغميَ عليّ من الدهشة.

صرخت: أنت ميت يا ولدي.

«اشتقت إليك يا أماه»

هكذا قال لها وأخذ يبكي.

«ولكنك ميت. أنت يا ولدي مت في حرب حزيران. كيف عدت. لقد أعطونا شهادة وفاتك. هل كنت أسيراً؟

«لا.. ولكني أردت العودة. مللت الظلمة. مللت الخطر. لم يعد لوجودي ميتاًأي معنى». الأرض تنبش أعماقها. تخرج الحمم من البراكين ولا أخرج.

«ولكن هذا لا يجوز. أنت ميت يا بني. ميت يا رافع يا حبيبي لن يعطوك اسماً وستظل ميتاً.

«ليمت آخر بدلاً مني، لقد اشتقت إليك. إلى الحياة. أرجوك يا أماه لا تخبري أحداً. اتركيني أعش بينكم. نتبادل الأدوار»

«يا ويلي ما هذا الكلام»؟

سمعت صراخ جارتنا وهي تولول وتركض في باحة الدار. «ما بك يا أم رافع»؟

«رافع عاد من القبر ويريد ان يبقى معنا. لقد دفناه. وبكيناه. وسيجنا قبره. كيف عاد.؟ لا يجوز. أنت ميت يا بني ويجب أن تبقى ميتاً» هكذا هي قسمة الحياة. وهذا هو نصيبه من الحياة. وأنا نصيبي من الدنيا أن أكون وريث كل هذه المهازل والعمامات الملفوفة على كذبة كبرى. من يجرؤ على حلّها؟

رافع رفض العودة. جلس وسط المنزل بثيابه المبرقعة. المغبرة وبقع الدماء تغطي ظهره. تكور فوق ركبتيه وراح يقول بصوت هامسٍ كأنه من السماء: «لماذا عليّ أن أنزل العالم السفلي بينما أنتم - أخوتي - تنعمون بالحرية والحياة الرغيدة.

- أية حرية يا رافع. هذه السلع التي تتكدس في السوق حريه؟! كنت ساقول له أشياء أخرى أيضاً، ولكن تراجعت. ماالذي حشرني.

زحف رافع باتجاه أمه وهو ينزف دماً طازجاً. قبّل يدها وتوسل إليها أن تساعده على البقاء إلى جانبها، لماذا تغيرت عاطفتها نحوه؟!

«ولكن القانون لا يسمح بذلك. إذا علموا بالأمر فسيأخذون منّا المنزل الذي نسكنه. وسيأخذون شهادة أختك الجامعية ووسام البطولة. لولا وسامك ما دخلت أختك الجامعة وصارت طبيبة»

«أي بطولة يا أمي؟ أي بطوله. لقد ضاقت عليّ الأرض. لم تعد تقبلني. ولم أعد أقبلها بعد أن رأيت بأم عيني رفيقاً لي ينزلونه في قبر قاتله، يضمون الورود ويرفعون العلم ثم يطلقون في الهواء إحدى وعشرين طلقة. لم يغادر المشيعون القبر حتى بدأ العراك والشجار. - هذا القبر لي، لا هذا القبر لي، إنها حرب القبور في أواخر القرن. ظلا يتطاعنان حتى أقبل حارس المقبرة. كان حارساً للقاتل والمقتول، للشهيد وللعدو.

«أيهما الشهيد يا عم صالح؟»

- دهشت.. لماذا يضعون حارساً وحيداً لظالم ومظلوم؟ ظننت أن الحارس يقتل أحدهما. على الأقل سينحاز للذي يمثل مصالحه، ازدادت دهشتي عندما علمت أن الحارس عربي وأنه يتناوب مع اسرائيلي. صمت الحارس لم يخبر أحداً. عند ذلك

خرج زميلي إليه وقال للحارس ما بك؟! قل لهم أن يخرجوا هذا مكاني. إني مثخن بالجراح. أريد أن أنام وأرتاح. أين الراحة الأبدية التي وعدتمونا بها؟.

هز حارس المقبره رأسه - يا أمي - وقال: لا. لا أعرف ماذا أقول لك ساخبر رؤسائي بالأمر. انتظر. ولكن قادته لم يحركوا ساكناً. قالوا ما تزال المقبرة قادرة على الاستيعاب. لا تجعلهم يقلقون راحة الملك إنه يمضي باتجاه وادي عربه للاستجمام مع صديقه الذي يغرس نجمة سداسية مصنوعة من اليورانيوم في جبهته. ولكن هذا لا يمكن، اثنان في قبر واحد، «هذه هي الأخوّة والإنسانية» ماذا تقول أيها الحارس؟ لا أعرف ماذا أقول - فخار يكسّر بعضه - ثم قال: - هو ما له علاقة سيطرح المشكلة في مؤتمر دولي. ربما ندخل القبور في نظام التسوية. قد - يدخلونها - ويجلبون لها تراب الغابات المستورد ويزرعونها. بورود السلام. ثم يفرشون فيها ساحات واسعة ومنصة لإلقاء الخطب السلمية الرائعة. وللتحدث عن الحرية والسلام والأمن المشترك، الملك سيمسح ذقنه البيضاء. والعمامة على رأس القزم المحترم ستنطّ فرحاً وستمشي وحدها إلى أن تهدأ عند صاحب النجمة السداسية التي تنزّ دماً. أتخيل المدحلة الآن.. بكل ثقلها وطنينها. أنا أخاف المدحلة. أخافها كثيراً. رافع الذي لم يكن جباناً أبداً يخاف المدحلة. صدقيني يا أماه. أتخيل انها تمشي على جسدي وتحولني إلى ذرات من التراب. عند ذلك سيزرعون في دمي زنبقاً أبيض كي يصير لونه أحمر. ألا يقول هكذا «ماندل»؟ وهذه الزنابق الحمراء سيقدمونها للملك في عيد ميلاده والملك بدوره سيقدمها لزوجته الفاضلة. وهي ماذا ستفعل بها؟!. سترسل الورود سراً إلى الذي قتلني لأنه استراح مني وأتاح لها أن تضاجع القاتل دون خوف.. ستنجب منه ذرية محايدة. هكذا تزعم كلما رأتها الحاشية. هكذا هي ضد الحرب، سيسيل دمي إلى يوم القيامة. قد يزرعون فيه قمحاً يا أماه. سيحصدونه ويصنعون به برقوق العيد.. سيقدمونه للأطفال الذين يضعون ورداً على قبري. بعد ذلك سيكرهونني. وسيتشاجرون على دمي. وأنا لا أستطيع أن أتخيل أطفالنا الذين طهّروا الحجارة وقدّسوها، يأكلون دمي ويحيدون عن الحجر. لا. لا. لا أريد يا أمي. هذا يخلق فتنة كبرى. ستسيل الدماء الجارفة. ستأخذ في طريقها البطيخ والعنب. وسيهرب التجار والجنرالات. وسيبقى بعضنا. أي الذين مثلنا.. يغوصون في دمائهم. «ولكن

أنت ميت. اسمعوا يا ناس. اسمع يا أستاذ علي. يريد أن يهجّرنا ثانية. ألا تكفينا الأولى؟! أكاد أجن. ماذا أفعل؟!

«أرجوك يا أماه. احميني.. أريد أن أخرج من قبري الضيق. أخشى أن أستيقظ ذات يوم فأرى قاتلي في قبري يمد يده ليصافحني. البارحة تخيلته قادماً. لن أصالحه أبداً. والملك يريد أن يجبرني على ذلك.. قد لا أستطيع الرفض في هذا المكان الضيق والملك يقف في جهة. وقزم العمامة في جهة أخرى. لن يكفوا عن تهديدي أو قتلي أو مصالحتي. على ماذا نتصالح؟! على جثتي؟! ليقتلوني. إذا كان الصلح سيتم بطريقة القتل نفسها. على الأقل لن أشعر بالهزيمة والخذلان.

مزقت الأم ثيابها.. وظهر جسدها الفاتن الذي لا يشيخ. بكت. وراح رافع ينشج أمام جسد أمه البضّ. راحت الأم تصرخ: ياناس.. يا هو.. تعالوا وانظروا مصيبتي.. يا ويلي..

يركض الجيران تاركين أبوابهم مفتوحة لتطلّ الأسرة والمصابيح والنساء المختبئات، يسمع صوتها كل الناس، ولكن عندما يعرفون الحكاية يديرون ظهورهم وهم يتمتمون: ماذا سيصير بأخته التي أخذت شهادة جامعية بسببه؟ ماذا سيصير بأخيه الذي سافر خارج القطر بوسام انتصاره. ماذا سيحلّ بأخيه «رعد» التاجر الذي افتتح عدة شركات خارج القطر؟ كان قد بدأ بتعويضات دم أخيه.

«يعني تاجر بدمه؟!»

«لم نقل ذلك، لا سمح الله، نحن نلفظ هكذا كلام؟!!

صرخت الأم بأعلى صوتها أمام الجميع «الأمور يجب أن تظل كما هي. الزمن عليه أن يمشي إلى الأمام لا أن يرجع إلى الوراء. لا يمكن أن يخرج شيء من لا شيء. لأيام تمشي بطريق محدد ومرسوم. فلماذا نحاول تغيير هذا الطريق. قدري أن يموت رافع. بحّ صوت أم رافع، انهارت على الأرض تكاد تختنق، هاتوا ماء. ماء. الماء بارد. والشتاء قارس «يا عم صالح.. أنا لم أستطع أن أقول شيئاً.

ظللت واقفاً واجماً كصخرة. القدر المرسوم لا يجرؤ أحد على تغييره، كدت أقع على الأرض. وحدها أم رافع لا تعرف كيف تسحب نظراتك إليها. يبدو أن الأمور يجب أن تظل على حالها.. العودة إلى الوراء جارحة، الذين ماتوا يجب أن يظلوا

أمواتاً. والذين صنعناهم رموزاً يجب أن يظلوا رموزاً وإلا أصاب الذاكرة العربية شرخ لا يمكن معرفة عمقه، يجب أن يظل المتنبي شاعر العربية، ويجب أن تظل زرقاء اليمامة المرأة التي ترى من المحيط إلى الخليج، ويجب أن. ثم يجب. أنا أيضاً لا أجرؤ على الكلام. لاأريد تغيير شيء لقد استسلمت للآن. غداً لا أعرف ماذا يجري قد أرتدي جلد خروف وأسير في الشوارع. أم رافع نهضت فجأة مثل المجنونة عندما رأت ابنها التاجر قادماً. دخل دون أن يحيي أحداً.. تبعته إلى الداخل. أغلق الباب. سمعنا أصواتاً وطلقات نارية. بعد ذلك خرجت أم رافع تركض في الزاروب وتشق منديل رأسها، تدلت خصلات شعرها إلى أسفل ظهرها، كانت تبعثر كلامها في كل الجهات. تضرب على صدرها. تدور وتعود إلى نقطة البداية. اندفع الناس إلى الغرفة. وقف التاجر في الباب

«لا تدخلوا»

«ابتعد يا كلب.. ماذا فعلت؟!

أطلق الرصاص في الهواء مع ذلك تدفق الجيران إلى الداخل. كان رافع يجلس متكئاً إلى الجدار وقد سال دمه وتدلى رأسه. امتلأت الغرفة بغربانٍ مقتولة. وحمائم تقف على حواف النافذة وهي بلا ريشٍ أبداً. نادت الأم بصوت مذبوح.. «رافع».. رافع. يا بني.. لماذا أردت تغيير القدر.

افترّ ثغر رافع عن ابتسامة وقال هامساً: «لقد قتلني أخي» ثم ذوى كحبقة. لم ينقله أحد. ولم تستيقظ الأم من غيبوبتها إلا بعد ساعات. ولكن عندما سألت عن رافع لم تجده. راحت تندب وتركض في غرف منزلها، لم تجده وعندما هبط المساء اختفت أم رافع. يقال نزلت إلى البحر ولم تعد. مرات قرعت عليها الباب وسألت عنها. يرد ابنها من خلف باب موصد: هي لم تعد. ماذا تريد.

«ماذا أريد»

لا أعرف ماذا أريد. أصمت. أتذكر كلمات الرجل العجوز «احترس يا بني» منذ أن جئت المدينة وأنا أحترس أخيراً وقعت في سجن امرأة تدعى عليا.

«ماذا تريد يا أستاذ؟!

أريد أن أطمئن على أمك الطيبة. أريد أن أطمئن عليك يا رعد»

«اذهب من هنا وإلا قتلتك»

أنا أذهب. ولكن التاجر المحترم لم يخرج بعد تلك الحادثة من المنزل. أحد الجيران قال: شاهدته يزحف على ركبتيه وشعر رأسه يتدلى إلى الأرض. وأذناه طويلتان. لم أصدق ذلك. ولا أعرف ما الذي يدعوني إلى نفي هذه الخوارق، مع ذلك أدقّ عليه الباب وأسأل «كيف حالك يا رعد؟» يرد بصوت مخنوق

«هل رأيت أمي»

«لا.. لم أرها..»

«يبدو أنها ماتت.»

«لا.. لا. الأمهات لا يمتن يا رعد.»

في الآونة الأخيرة لم أعد أسمع صوته. أدق. أناديه. لا أحد يجيب لكني أسمع جلبة. وتحطم أشياء ضخمة. أسمع انهيارات كأني في جبل بركاني. لم أعد أستطيع الإستقرار على حال، النوم لم يعد يأتيني إلا قسراً. لقد هربت من القرية ومخاوفها لأقع في مخاوف جديدة. رعد يسكنني. وأمه تخرج إليّ ليلاً وتسألني عن ابنها رافع. هذه العائلة كلها تسكنني. والذي يدهشني حقاً ذلك الحديث الذي دار بيني وبين أحد الجيران حول أم رافع وأبنائها. قال: بأنه لم يسمع بهذا الإسم من قبل. ولم يسمع أبداًبالحادثة. وأن المنزل الذي أتحدث عنه كان منزل باشا كبير مات وحيداً ولم يتزوج ومنذ سنوات طويلة والمنزل مهجور.

قلت هذا الكلام لسامح صديقي، رجوته أن يبرر لي تصرف الجيران. ولكن لم يكن متحمساً للموضوع أبداً. قال هذا الحديث مؤثر. إنه يحزنني دعنا منه الآن. لم أجد حلاً إلا أن أترك المنزل وأنتقل إلى آخر. بحثت عن بيت يليق بشاعر.. أصنع منه متحفاً كغيري من الشعراء. أضم فيه أقلامي. وأوراقي ونظاراتي. وصور عشيقاتي. وأركن في زواياه الإرث العظيم الذي ورثته عن أجدادي منذ القادسية حتى الآن فلم أجد إلا البيوت التي تؤجر بعقد سياحي لمدة ستة أشهر. أي عليّ أن أتحول في مدينة بحرية صغيرة، هي مدينتي إلى سائح لأحظى ببيت.. وعليّ أن أقطع صلتي بالمكان. أي ألاّ أكون ذاكرة فيه لأنها سرعان ما تنقطع بانتقالي إلى عقد آخر أو مكان آخر. أخيراً وجدت منزلاً. قلت هذا يليق بشاعر مثلي. مكون من عدة غرف وصالون

واسع. هنا أضع مكتباً.. وهنا سأنام.. وهناك ستكون لي غرفتي حيث سيهبط فيها الوحي، أما الضيوف الثرثارون فسأترك الصالون لهم. وسأحاول بيع الأرض التي أملكها في القرية على الرغم من أن أمي حذرتني كثيراً.

قالت: أن يكون لك أرض، يعني أن يكون لك أم وأخوة. وزوجة وأولاد. يعني لك وطن.

لأعترف بأني وقفت عاجزاً أمام بيع الأرض. لأنه صعب عليّ أن أبيع أمي وأخوتي وكل الذين تحدثت عنهم أمي. لكن كيف أشتري بيتاً؟! أنا الموظف ذو الراتب المحدود جداً. هذا الراتب لا يحقق العيش للإنسان بكرامة.. تراجعت عن فكرة شراء منزل. هذا الحلم طويته وعدت خائباً. أتسكع في الطرقات. أجلس في المقاهي البحرية. أتجول على الشط بمفردي. وعندما يحل المساء أدخل نفق الكوابيس. أشعل شمعة وأبدأ بالتهام الكتب. كنت أرتعش لأقل حركة. أحياناً كنت أظن أن أبي عاد من المقبرة. مثله مثل رافع، أو أن رافع نفسه جاء يخبط عليّ باب منزل متواضع ويقول: أتقبل أن أسكن معك؟!

أ أخرج؟!

لم أكن أتحرك من مكاني. لم أعد أحمل تلك الروح السابقة. الفارس مقتولاً يمر أمامي على حصان وأنا أرى القاتل، ولكن لا أريد أن أغير القدر. جباناً كنت وعاجزاً. فكرت بالذهاب من المدينة كلها، سأترك المدينة لأهلها، المدينة ليست لي. يجب أن أعود إلى الصفصاف الخجول حيث الخضرة والماء والفقر وفوانيس الكاز. حيث الورد والمروج العذراء والبرغش الكثير الذي يسرق هدوء الأمسيات وصفاء نسمات الصيف. المدير رفض أن ينقلني إلى مدينة أخرى. رفض بشدة

«ولكن يا أستاذ أريد أن أعمل في صحف العاصمة»

«ماذا يعني أن تعمل في صحف العاصمة؟! وهذه الصحيفة. صحيفة البلدة ألا تستحق قلمك؟»

«هناك المجال أرحب. و..»

«كل الصحف للدولة يا أستاذ وكل أقلامنا.. هنا ـ هناك ـ تكتب بحبر واحد. والذي يبني هنا. يبني هناك»

كان إعداد العمود الصحفي كل يوم بمثابة منشار يحزني لولا هذا العمود ربما تجولت طيلة حياتي في الشوارع. أعود إلى المنزل لأنجز العمود الصحفي. أي لأنجز خبز يومي. أنا لاأحب المنزل، لا أحب أن أنزوي فيه مع وقع أقدام رعد ورافع وأمهما، لاحظ المدير أني صرت أكثر ذهولاً ونحولاً. أعطاني استراحة أي إجازة مفتوحة. قال لي بود: أنت متعب يا علي وعليك أن ترتاح. أجل كنت متعباً وكانت الهزيمة ترشح من دمي. وكان وجه رافع الذي أنكره الجميع يتجدد كل يوم في وجوه الأخرين. أما وجه أم رافع الذي غاب ولم يغب هذا الوجه الجميل المشرق فكان يرافقني إلى الجريدة. إلى أمي. إلى نساء كثيرات. أشعر بحنين إلى أمي عندما تغادرني النساء. أمي هي الأخرى لا تشيخ. وأنا ولدها الذي لا يكبر.

قلت لصديقي سامح ـ الطبيب النفسي ـ بعض النساء لا يهرمن. أنا أعرف واحدة عمرها ألف عام. ابتسم وقال: أنت شاعر يا صديقي، أشعل النار واحرق هذا الوجه سينبثق وجه فينيق جديد. وهكذا تتجدد خيالاتك مع تجدد المرأة.

«كيف أحرقه وهو يتوالد كل لحظة»

«أهو وجه ليلى..؟!

«مالذي حمل ليلى إلى هنا الآن. إلى هذا المقهى المكتظ بالنساء الحالمات برجل ثري يطير بهن إلى جزر بعيدة. يأكل أصابعهن ويعدن كما عادت خالتي هدبا.

«إشغل نفسك يا علي.. حالك الآن لا يعجبني. هذه الوجوه التي تسكنك ما هي إلا ظلال لشخصيات تحبها. أو تكرهها.. شخصيا سبق وعرفتها. عليك أن تعرف وجوهاآخرى بحيث تطردها متى تشاء لا أن ترسخ في ذاكرتك وتسجنك، تعال أعرّفك على أستاذة جامعية. تهتم بماندل صديقك»

دعني يا سامح، وقتي لا يتسع لمعرفة أناس آخرين.

«كما تشاء»

بعد أن تناولنا الغداء شعرت برغبة في أن أسأل سامح عن اسمها.

«لماذا.. اسمها لا يعنيك»

«ربما أعجبني الاسم، أحياناً للأسماء أسرار وقدرات خاصة تفتح عوالم وتغلق أخرى.»

«اسمها علياء.»

«علياء.. علياء. اسم جميل.. كأني أسمع بها.»

«احذر هذه العلياء.. ليست كما تظن..

«يا سيدي، لم يعد في القلب متسع»

«أنا أمزح.. ولكنها امرأة نادرة. أعرفها منذ كنا ندرس في أوروبا»

أجل أنت امرأة نادرة يا عليا.. ألف طيف وطيف. أطياف كثيرة وامرأة واحدة تختصر كل النساء اللاتي عرفتهن.

....

- ب -

ها هو موعد المحاضرة يقترب. لافتات صغيرة تنغرس بجدران المدارس، تذوب الأتربة تحت مطر كانون ويبقى اسم الأستاذة عليا كشجرة صنوبر وحيدة في ساحة مهجورة.

«مجنونة هذه المرأة. هذه الأيام لا أحد يعرف باب المركز الثقافي»

«الآن عصر الرغيف والتجارة. الشعراء الكبار لا أحد يحضر محاضراتهم. فمن سيحضر محاضرة تتحدث عن ماندل وعلاقته بدارون. لمن ستلقي هذه المرأة محاضرتها. لتبق في منزلها ككل النساء، تطبخ وتغسل وتمسح البلاط بعد دوامها. أو لتنشغل بزينتها إن كانت عازبة، لعلها تستعرض عضلاتها المعرفية أما الرجال، بالتأكيد لا بد من رجل يقف ورائها، - المرأة لا تصل مكانة إلا والرجل يدفعها، وعندما يلغي الرجال من الأرض وتبقى المرأة ربة الكون سيكون الرجل وراءها. - هذه هي نظريات المجتمع الأبوي. المرأة لا شيء، وأنت يا عليا لا شيء في مدينة ترتدي الثياب الأوروبية وتأكل بالطريقة الحديثة وتفكر بطريقة أجدادنا الجاهليين. الداخل غير الخارج. الخارج مزخرف. والداخل مشروخ جداً. كدت أصرخ في الساحة العامة للمدينة وأنا أسمع بعض المتفيقهين الذين يمرون بالبطاقات التي تعلن عن موعد المحاضرة. كنت مع المرأة أبداً - ولكن ليس كل امرأة. بعضهن - كما الرجل - لا يستحق أن يعطى الحرية. شعرت أني في موقف التحدي أمام الجميع

وموقف الدفاع عن امرأة اسمها عليا. لم يخطر في بالي أنّ صديقة الدكتور سامح ستصبح كل عالمي. رحت أفكر بها. وددت أن ألتقي سامح لأسأله عنها أكثر ولكن لم أرغب في التراجع عن موقفي أمامه. بمعنى أن أمرها لا يعنيني، وماذا لو كان سامح يحبها.؟

لأعترف بأنها شغلتني. كيف سيكون لون شعرها؟ كيف ستكون ابتسامتها. قامتها. صوتها. في اليوم الثاني اتصلت بسامح. أردت أن أسأله هل صديقتك بيضاء أم سمراء. لكني ترددت. شعرت أن هذا السؤال لا يليق بشاعر مثلي ولا بامرأة مثل عليا. ثم ماذا يعني المظهر. أمي قالت الظاهر قشور. وهي قشور تافهة لا تدل على الجوهر. والمرأة لا تعنيني فقط بمظهرها. ولكن لنفترض أنها جميلة قد تكون ذات مضمون داخلي غير مريح. حاولت إبعاد هذه الهواجس عن أفكاري فلم أقدر. فكرت بزيارة أمي العجوز. أخذت سيارة ومضيت. كان المطر يرخ بغزارة. وكانت الأرض موصولة بالسماء. لقد سورها النهر من كل الجهات فتدلى الصفصاف، ومالت أشجار الحور، نزلت من السيارة. رأيت امرأة عجوزاً تجتاز فسحة الدار وهي تجر بقرة، لا أعرف إن كانت أمي أو زوجة عمي، وقفت أتأمل السماء الهاطلة. والأشجار التي ترتعش والنهر الغاضب. تمنيت أن أقرفص ماويلاً أمام الماء المحمل بالقشّ والأشجار المنخلعة من جذورها، لمحت طيف امرأة كانت تسكن ذاكرتي، نادتني بصوت رفيق، ماذا تفعل هنا يا علي..؟! لم أرَ أمامي إلا غيمة تتحرك، المقبرة على بعد عدة أمتار مني، النهر هو الفاصل الوحيد بيننا. قبور صغيرة وكبيرة متجاورة ومنكمشة تحت المطر، شعرت بحنين جارف لأبي. بكيت. لم أشعر إلا والسائق يقول لقد تبللت يا استاذ.

هي ليست المرة الأولى. هذه المرة استعادة لطفل كان يجرفه الطوفان كل عام. صعدت السيارة. عد بنا إلى المدينة. عد إلى جابالا المسورة بالبحر وأشجار البرتقال. المكتظة بالزواريب الضيقة والمطاعم الصغيرة والأطفال الراكضين باتجاه القرى. تسوقهم الأمطار والغيوم ويسوقون هم محافظهم.

في العودة مررت بالدكتور سامح.. شكوت له بعض الكآبة التي أعاني منها. حدثته عن القرية وكيف لم أستطع الدخول. شعرت أنها تطردني لأول مرة. تذكرنا معاً أمسيات الريف. أمسيات القمح والقطن المعبأ والمتدحرج بأكياسه في حاكورة

المنزل. أيام يا علي. هز رأسه بأسى. لم أقدر أن أصبر أكثر. وجدت نفسي مندفعاً لأقول: كيف حال صديقتك إن موعد أمسيتها يقترب. لقد أخبرت زملائي وأصدقائي كي يحضروا. ابتسم سامح: لا تزعج نفسك. هي تعرف الكثرين في المدينة. لقد عاشت مرحلة من مراحلها في هذه المدينة.

«صحيح؟»

«أجل. ولقد حدثتها عنك. إنها تتابعك عبر الصحف والمجلات الأدبية وهي من المعجبات بشعرك»

شعرت أني أقترب أكثر من عليا. أقترب من عالمها. لكن ظل هاجس أن يكون سامح أكثر من صديق لها. لم أسأله. غير أني فهمت أنها صديقة غالية لا أكثر.

- 4 -

إنها الليلة الأخيرة.

إنها النقطة الفصل. بين ماض وحاضر. قد لا ينفصلان. قد يستمر أحدهما في الآخر. إلى الوراء أو إلى الأمام. لكن علي هذه المرة لم يعد قادراً على الفصل. كان شيئاً ما يتجاذبه.. المدينة ذات الكوابيس المفزعة. وأمه العجوز التي تسرد كلما لقيته قصة والدها. قد لا يكون والدها، يقولون تبناها، فهي بلا جذور معروفة. إنها تبحث عن امتداد لها في علي. وعلي لا يريد أن يتزوج الآن. تكفيه امرأة تعبره بعد حين وقصيدة تفارقه ولا تعود. تعلم أن يعيش موزعاً. لكن عليا هي النقطة. والقادم هو الحرف. غداً محاضرتها. إنه لا يقدر على النوم. يتقلب في فراشه كالمذعور. يسمع صوت صحون تتكسر في بيت الجيران المجاور. ينظر من النافذة فيرى طائراً غريباً يشبه طائر الرخ يقف على شرفة المنزل المهجور. وهو لا يعتقد بأنه مهجور. الجيران هم الذين يقولون. ليقولوا ما يشاؤون. هو غير مجبر على تصديق مقولاتهم. إنه شديد التمسك بما يراه.. الطائر يفتح جناحيه ويغلقها، كأنه يريدان يحمل المدينة كلها، شعر عليّ بالإنقباض كان الوقت ليلاً. وكانت المدينة قد هدأت واستراحت تحت خيوط المطر وراحت تسبح في أضواء المصابيح المنعكسة على الاسفلت المغسول فتظهر الطريق كأفعى سوداء تلمع.. «أفعى؟! يرتجف علي» فيهز رأسه.. «متى كنت هكذا؟» كنت تمسك الأفعى من رقبتها. تخنقها وتأخذها إلى شجرة

تعلقها وتسلخ جلدها الذي تملحه وتأخذه إلى «محلاً» ليصنع لك منه صندلاً محترماً. ولكن يبدو أن كل شيء قد تبدل. يقفز علي في الهواء كأنه يجتاز ساقية. يرفع صوته وهو يخاطب نفسه كأنه يخاطب جاره. لا. لا يا علي. حتى الآن الأمور ماشي الحال. يفاجئه صوت صحون تتكسر.. صوت طناجر تقع على البلاط. أنين بعيد يأتي عبر الليل. اقترب من النافذة. لم يجد أحداً من الجيران يقترب من نافذته وينظر إلى الخارج. الستائر ما تزال مغلقة. فتح باب المنزل وخرج باتجاهِ جاره. نقر على الباب بأصابع مرتعشة. فتح الجار بابه قليلاً وقال بصوت أجشٍ «ماذا وراءك؟ هل انتهى السكر من عندك؟. هكذا ظن الجار لأنه اعتاد أن يقرع علي الباب ويسأله بعض السكر أو القهوة ليكمل سهرته مع قصيدة جديدة أو مقالة ساخنة.

لا. لا السكر موجود. شكراً لك. اقترب علي أكثر نحو الجار وهمس:

«أما سمعت جلبة في بيت أم رافع؟»

«لا لم أسمع شيئاً. قد يكون صوت الرعد.»

«أبداً. صوت الرعد أعرفه.

«يا سيدي فخار يكسر بعضه» وأدار ظهره باتجاه الباب جذبه علي من قميصه وقال: لم أرَ رعداً يخرج منذ زمن طويل. لعله هو الذي يصدر أصواتاً غريبة في المنزل.

«قلت لك. فخار يكسر بعضه.. يا أخي اتركني أنام. عندي شغل وعيال تحتاج إلى خبز.. اسألك يا رب نفسي»

عاد عليّ منكسراً.. حاول النوم فلم يستطع. فكر أن يكتب قصة حول هذه الليلة البائسة. الطائر الكبير ما يزال معلقاً على الشرفة. بينما الهاتف يرنّ. يرن. لكن علي لن يرد. إنه يحاول الآن أن يهرب من نفسه أو من رجل آخر اسمه يشابه اسمه وجاره لا يرد عليه ولا يشاركه هذه الأطياف التي يراها. كم هو حزين وبائس. هل وصلت الحياة الجديدة إلى هذه البوابة المسدودة؟ في القرية عندما يصرخ أحد يجيب جاره فوراً. يشاركه أحزانه وأفراحه. الحياة هنا لا تطاق. يريد أحداً يتكلم معه. يريد صديقاً يدفن قلقه في صدره ويفرّغ كل هذه الأحزان أمامه في كأس أو في فنجان قهوة. هل يتصل بسامح..؟! سامح يعمل في العيادة والجامعة.. سيكون متعباً

بالتأكيد هو متعب الآن. هل يتصل بزميل ما. يتردد. الهاتف يرن. في آخر صوت للهاتف يمسك «من. سلوى؟!

«مابكِ.»

«لديّ ريبورتاجاً ولا أستطيع أن أكمله. لقد كلفني به المدير.

«حول ماذا؟»

«حول نشأة الإنسان والعوامل المؤثرة من الناحية العلمية والناحية الميثولوجية. لو افترضنا آدم أول الخلق.. فماذا يمتّ له اسماعيل. ومَن الأول اسماعيل أم الضحاك؟! هل لديك مرجع ما.؟

«ربما. أعتقد أن تاريخ ابن الأثير سيكون مفيداً.

«هل أستطيع أن آتي إليك؟»

«بالتأكيد»

«أنا قادمة»

ارتبك عليّ.. شعر أنه أخطأ. لماذا يسمح لسلوى بالدخول إلى منزله في هذا الليل المطر.. دعت نفسها مرات كثيرة ولكنه رفض زيارتها. هي امرأة لعوب. تخطط باستمرار لاقتناص رجل يرفضها كي تنتقم لأنوثتها المجروحة. يعرف هو كل ذلك.. لهذا لن يسمح لها باقتناصه. سيقدم لها القهوة وابن الأثير أو الطبري. سيتركها وحدها تستخرج موضوعها. ـ ولكن أنا بحاجة لأن أتحدث إلى أحد. بحاجة أن أبكي. أو أن أرقص. أرقص إلى أن أقع على الأرض. بحاجة إلى زوربا آخر كي أمسك باللحظات الهاربة وكي أحدد اتجاهات روحي الممزقة. بحاجة لأمرأة أثرثر معها ولكن ليست سلوى. هي امرأة مثيرة. لا أحتمل وجودها معي منفردة في منزل والمطر ينهمر والبرد يحتاج إلى اثنين كي يطير. لكني سأحبط خطتها إذا كانت نواياها سيئة.

كان علي يمشي في المنزل ذهاباً وإياباً. رفع بعض الكتب عن السرير ورتب الطاولة. جهّز سخانة القهوة.. حاول أن يتصفح كتاباً إلى أن تأتي فلم يقدر. كان مضطرباً ـ كأني أرى سلوى لأول مرة»

مع ذلك قرر ألاّ يخون ليلى مع امرأة عابرة. ليلى المرأة الوحيدة التي دخلت حياته ولم تخرج. إنها كل النساء اللواتي مررن به على الرغم من فراقها منذ زمن طويل. يتنهد بحسرة. - أنا لا أستطيع أن أشرب قهوة آخر الليل دون أن أذكرها - سمع وقع خطوات تمر في الشارع الخلفي أشعل ضوء المدخل الضيق الذي يؤدي إلى فسحة دار مبلطة بالأحجار الرمادية وعلى هذه الفسحة أن تتوزع بين أبواب خشبية، كل باب يسوق إلى عالم مختلف، إلى مخاوف وأحزان وأفراح ووسائد وأحلام كبيرة.

كانت شقة علي مضطربة. مرتبكة. حاول ترتيبها. طالعته بطاقة المحاضرة للأستاذة عليا. سحب البطاقة عن الطاولة. تفحصها جيداً ثم أعادها إلى وسط الطاولة ولأنها صديقة صديقه. سجل تحت اسمها «ص. ص» تأمل الحرفين بهدوء كأنه يتأمل جدول ماء ينساب بلا صوت. ماذا يخبيء له الغد؟ ماذا تخبيء له الساعات القادمة؟ افتقد هدوءه عندما سمع من جديد صوت كؤوس تتكسر، دخل رعد فجأة ساحة هدوئه. حطم كل زجاج تأملاته وأحلامه. راح يزرع صحن الدار ذهاباًوإياباً بينما المطر يهطل متقطعاً. شعر بالبرد. دخل ثانية منزله. اقترب من المدفأة. صوتها يئن - أيكون هذا الأنين هو صوت المدفأة يا علي؟ لا. لا. لا يمكن أن أخطيء إلى هذا الحد. سمع وقع حذاء يقترب إنه حذاء نسائي. حذاء عالي الكعب.

نقرات خفيفة على الباب، يتقدم متثاقلاً نحوه. يفتح الباب ويقف مواجهاً لسلوى.

«هاي»

هكذا تحيي الجميع. وعلي من هذا الجميع. نظرت إليه بهدوء وقالت هل أفهم أنك تعتذر عن استقبالي؟

«آه. أنا متعب يا آنسة»

«كم أنت غليظ. لماذا لم تقل ذلك على التلفون؟ الآن بعد أن جئت تحت البرد والمطر. أين الشهامة العربية ألا ترى أني أرتجف من البرد؟ ابتعد أيها الرجل المقدود من الصخر.

«أنا..؟!»

«في الجريدة يقولون عنك هكذا وأنا أدافع عنك. الست مخلصاً للزمالة..؟
«جداً!»
تفضلي.
قبل أن تستقر سلوى على الكنبة الملاصقة للمدفأة قال علي أسمعتِ إنهُ يئن»
«من؟ ماذا تقول؟»
«ألم تسمعي أنيناً؟.
«لا. لم أسمع شيئاً.
«يبدو أنه صوت الهواء. أنت تعرفين البحر ورياحه. يرش ملحه على البيوت ويهز النوافذ والأبواب لدرجة أن المرء يتوقع قدوم يأجوج ومأجوج.
ابتسمت سلوى وهي تمشط شعرها المبلول بأصابعها فتستنفر العطر الذي يختبىء بين خصلات شعرها وتحت طيات ثيابها.
- بيتك مريح.
- كأنك ترينه لأول مرة.
- نعم. أول مرة أدخله.
-........
- ألا يوجد عندك شاي.؟
- سأصنع لك الشاي ثم أعطيك المراجع التي تحتاجينها.
تحرك علي باتجاه المطبخ. كان يشم رائحة عطر سلوى أينما استدار شعر أنه مأخوذ لأول مرة. نهضت تتبعهُ - أنا أصنع الشاي -
- لا أبداً. أنت ضيفتي. اقتربت منه. أعادها برفق. وعندما لا مست يده يدها شعر أن شيئاً ما اضطرب في صوته. عندما عاد من المطبخ وجدها تتفحص البطاقة «ص. ص» نظرت إليه بدهاء وسالت
«ألا تعرف هذه المرأة؟»
«لا. أبداً. سأحاول أن أحضر محاضرتها»

«لماذا؟»

«لأرى كيف تحاضر المرأة في مدينة الرجال.!

«فقط؟ أم أنك تطمح لشيء آخر؟

«ما هو مثلاً؟

«الرجل عندما ينوي حضور محاضرة أو ندوة لأمرأة فأول شيء يخطر في باله جمالها.

«أهي جميلة..؟»

«أنصحك ألا تحضر»

«لماذا؟. أتعرفينها»

«طبعاً. هي امرأة مختلفة. خبيثة! ذكية! طيبة!. لا أعرف أن أصفها. شيء من الجمال شيء من الحزن. من الدهاء. لا أعرف. لأعرف.

غداًأتراها.

المطر يهطل في الخارج. الرياح تصطك بالجدران فيهتز الجسد. أنين بعيد ينساب مع الليل - هل عاد رافع من المقبرة؟ - ربما يحمل السكين بيده محاولاً الإنتقام من رعد. مأساة إذا كان الأمر كذلك. يا إلهي.

علي! ماذا تهمس؟ نظرت سلوى باندهاش «ما بك»

- لا شيء يا عزيزتي. أفكر بخاتمة قصة أكتبها الآن.

- هل انتقلت للقصة؟! لمن تترك الشعر.

- القصة سيدة الأدب الآن. إنها تتماشى مع عصر السرعة

- ولكن هذا يشتتك.

- لا. أبداً. لماذا لم يؤثر ذلك على جبرا ابراهيم جبرا؟ لماذا لم يؤثر على شكسبير؟! الكتابة هي الكتابة. كما الإنسان هو الإنسان مهما غير نوع ملابسه..

- أهي قصتك مع ليلى؟!

- لماذا تشدينني إلى الوراء. اشربي الشاي لأجلب لك «ابن الأثير»

ـ شكراً.

تحرك علي بعصبية واضحة. لايريد لأمرأة مثل سلوى أن تتحدث عن ليلى. مع ذلك بعد أن تصفحت قليلاً بعض الوريقات سألت بحيادية.

«أتحب ليلى حتى الآن؟!

«هذا موضوع قديم.»

يفتح علي النافذة قليلاً محاولاً تغيير الحوار. قال أريد أن أغير الهواء الفاسد. لمح باب أم رافع ينفتح وينغلق. كل شيء هاجع، ساكن تحت المطر. كان يفرض سطوته. ورأس السنة يقترب. نهايات تشعر المرء بالكآبة.. كيف للمرء أن يتشبث باللحظة. لكل إنسان طريقته. علي يتشبث بالقصيدة فيوقف الزمن. سلوى تتشبث بالجسد.. جاره يتشبث بالكأس الملآى بالكحول. من بعيد تأتي نغمة أغنية قديمة. تنساب عبر الليل وتدخل أذن علي. تنتفض روحه المتعبة. يلتفت إلى سلوى ماذا لو أفرغ كل قلقه الآن في جسدها البض الذي يقطر شهوة وإغراءً.

«لا.. لن أخونك يا ليلى.. عندما أحب سافعل. أما أن أصطاد امرأة عابرة. لا. لا.»

يغلق النافذة ويرخي الستارة، يخطر له لو أن أحد الجيران قرع عليه الباب وشاهد عنده امرأة ماذا يقول له. كيف يبرر له ذلك..

هكذا سلوى دائماً تخاطر بتصرفاتها اللامدروسة وعلي يدرس كل حركة تصدر منه فهو لا يملك أي رصيد سوى سمعته أمام الجيران. لو رأتها أمه الآن لضربت على صدرها وراحت تركض في الحاكورة مكشوفةالرأس. ستقول : يا ويلي امرأة نصف عارية في الشتاء. ها هي تخلع جاكيتتها الخضراء وترمي حذاءها ثم تسند رأسها على ذراع الكنبة وترفع ساقيها إلى الكنبة وتطويهما، تسدل شعرها إلى الوراء. بينما صدرها يعلو ويهبط والكتاب في حضنها تحاول أن تقرأ ما يهمها. لكنها لا تستمر على هذه الحالة. تمد ساقيها فتنفرج تنورتها عن فخذين أملسين. حاول علي الإنشغال بكتاب بين يديه وهو يرشف الشاي. لم يعد يسمع أنيناً ولا صراخاً. ولم يعد يسمع صوت رافع ولا أمه، انحصر كل تفكيره في تنورة سلوى. بحركة التنورة. استرق النظر إلى صدرها وفخذيها. وهي تدعي الإنهماك في القراءة. راودته

فكرة أن يقترب منها ويمسح على رأسها وشعرها ويقبلها إلى أن ترتوي. لكن ماذا لو صرخت. ماذا لو أنها تدبر له مكيدة. لا.. لا. همدت حركته. بينما راحت سلوى تتحرك كل فترة وجيزة. مرة تدير وجهها يميناً ومرة إلى اليسار. تمسح شعرها، تشد تنورتها ثم تتركها بهدوء ترتفع إلى أن يظهر فخذها وفجأة تعود فتشد التنورة. نار المدفأة تتأرجح ورائحة عطر سلوى يزداد كثافة في جو الغرفة. علي مرتبك لا يعرف ماذا يريد. هل يقول لها هيّا ارحلي يكاد أن ينتصف الليل. لا. هو لا يريدها أن ترحل. يدخل المطبخ ويعود بقهوة ساخنة. «لماذا عذبت نفسك»؟

«أبداً أنت ضيفتي»

«شكراً» تقولها ببرود تام كأنها لا تفعل شيئاً. يتفقد مازوت المدفأة. لا الوقود كافٍ لساعاتٍ أخرى. ماذا لو انفتح الباب الآن وانكشف سر شقته. لكن الباب مغلق. اقترب منه، تلمسه وتفقد المفتاح فيه. ابتسمت سلوى. «ماذا تفعل» أتفقد الباب كي لا يفتحه الريح. يعود فيتلمس الباب من الأعلى إلى الأسفل. كأنه يتلمس ساقين أملسين لأمرأة فاتنة. يتذكر ليلى. لم يرَ ساقيها حتىتزوجها. أقفل الباب بهدوء. غداً سيرى امرأة أخرى إنه يعد نفسه بامرأة متميزة. سلوى لا تصلح إلا للسرير فقط.

صوت البحر يدوي بعيداً.. أنت ضعيف يا علي؟! - يستنكر ضعفه. امتحان صعب يضع نفسه فيه. سيكابر. لن تسوقه غرائزه. ينكب على طاولته الآن يريد فعلاً أن تذهب هذه المرأة من منزله. يريدها أن تغادر قبل أن تشعل الحريق في ستائر المنزل. لم يستطع الإستمرار في انكبابه راح يبحث عن شيء ما في المكتبة.

«عن أي شيء تبحث؟»

«....»

يقع الكتاب من يد علي على الأرض. ترفعه سلوى بعيونٍ شغوفة

«تعال نشرب القهوة»

لا. لن ولن أقترب منها. إنها تحيك مؤامرة ضدي. ولكن من الخاسر؟ أنا لن أخسَرَ شيئاً.

«بلى ستخسر الكثير يا علّوش» ينتبه لصوت يعرفه جيّداً. هذا هو صوت العمّ

صالح. يتلفت حوله فلا يجد إلا سلوى وقد اشتد لمعان فخذيها. يشعر أنه يتعارك مع مجموعة من النساء والرجال. وكأن ثيابه ممزقة وشعره منفوش وعرقه ينزّ بغزارة. يريد أن يسند رأسه إلى صدر أمه ويشكو إليها.. متعب أنا يا فطوم. اقترب من سلوى.. جلس مقابلاً لها. انحنت إلى الأمام بحيث لامس جبينها صدره وهي تقدم له فنجان القهوة. تراجع إلى الوراء. إنها هي. هي. ليلى تحملق بي»

«اتركيني بحالي. ابتعدي عني. ارجوك. لقد مللت الوحدة والضياع» سلوى تمسح على ساقيها وتتقوس قليلاً على الكنبة. ستارة الصالون تتحرك. الساعة الجدارية العتيقة تدق مقتربة من الواحدة ليلاً ويجب أن ترحل سلوى» ها هي ترتشف من قهوتها. فمها ينطبق على مرارة القهوة «اقرأ لي قصيدة» تقول بصوت هامس «هل انتهيت من البحث» «لا.. ولكني مللت»

ـ ما بك يا علّوش. يرشف القهوة. أنت ضعيف الليلة. ألم ترَ امرأة في حياتك.. طيلة عمرك لا تنساق وراء جسد المرأة إلا إذا أحببتها. الحب شيء آخر ولجسد الحبيب رائحة خاصة لا توجد عند جسد عابر. لماذا لا يكون هذا رجولة يا علوش.. أن تعفّ عند المغنم. لماذا يسمونه ضعفاً؟

«رجولة؟! هي التي أتت إليك. رفعت تنورتها وقالت لك انظر. وأنت تشيح بوجهك. تشدك وتقول لك انظر إلى متى تحترق»

«لا.. لن أضعف.. يسمع صوت العم صالح» ـ جاءتني امرأة فاتنة كانت تسكن جارتي، سافر زوجها بقصد التجارة وبقيت وحدها. قالت يا صالح أرجوك أن تساعدني في رفع كيس الطحين لأضعه في العنبر. قلت لها غداً. اتركيه حتى الغد، زوجتي قالت: لا يا صالح ألا تُساعد جارتنا؟!

ذهبت معها والليل يغطي القرية برداء شفيف. سارت قربي امرأة طويلة جميلة. لها جسد ملفوف. لكن لم أحاول النظر إليها يا بني يا علّوش.أنا أكره أن أنظر إلى غير زوجتي. دخلت المنزل بعد أن دخلت. ضوء الكاز ينوس هادئاً. الصمت ورائحة المؤونة ورائحة لحم مشوي، كل هذه الروائح تختلط ببعضها. قلت لها:

«أين كيس الطحين؟!»

«ألا تقعد يا صالح قليلاً؟»

«لا.. أين كيس الطحين لأرفعه إلى العنبر»

«ولكن عندي لحم مشوي أريد أن تتذوقه»

«شكراً يا أختي لا أريد.»

«طيب. ادخل هو في بيت المؤونة. دخلت يا علّوش. وجدت طاولة صغيرة عليها كأس عرق. ولحوم مشوية. وضوء صغير يضيء بخجل بيتاً للمؤونة فيه زاوية مفروشة بحصير وعليها وسائد والطاولة على طرفها الغربي. وقفت جامداً. دارت بي الجهات. لم أعد أر أمامي. أ أشتري البهدلة لاسمي. أنا صالح الذي لا يقبل أن يقوم بشيء ضد قناعته. وأنا قناعة مني لا أرغب في امرأة أخرى. تلفّتُ إلى المرأة فوجدتها تغلق الباب «بالمصرعان» لم تكن الأقفال الحديدية موجودة في القرية. «ماذا تفعلين؟!.

ألا ترى؟! أنت أعمى يا صالح؟! إني أقفل الباب. وبسرعة البرق خلعت ثوبها الخارجي ولم تكن ترتدي غيره فظهر جسد كحوريات الجنة اللواتي يتحدثون عنهن.. أخفضت بصري. لا أريدها أن تفتنني. لحظة هي ولكنها تلازم رجلاً مثلي طوال حياته. أنا أفعل ذلك في بيت جارنا صديقي، زوجها..؟! تفوه على النساء الساقطات. هذا الحديث يا علّوش لم أحدث به أحداً قبلك. صدقني يا بني علي ما يزال صامتاً أمام أنفاس سلوى المستلقية بكل غواية على الكنبة. لكن العم صالح يتابع سرد قصته على علوش الذي يجلس قبالته ويستمع إلى وصاياه وحكمته.. تنهد علي. كأنه يحث الذاكرة أن تتابع.. تابع يا عم صالح. العم صالح يتنهد بعمق ويتابع المرأة جميلة. جميلة جداً وزوجها غائب، اندفعت إليّ وطوقتني بذراعيها راحت تقبلني بنهم وتتوسل إليّ أن ألامس جسدها وأن أمرر أصابعي على ظهرها ونهديها و.. لم أفعل.. حاولت أن أبعدها بقسوة. ابتعدي أيتها الـ.. عند ذلك وقفت متحدية.. قالت إذا لم أمتلىء بك فإني ساصرخ صوتاً وأقول: إنك تريد اغتصابي. سأصرخ فعلاً وساجمع عليك الجيران وعند ذلك ستنهار أمام الجميع ولن تكون أبداً صالح الذي يتحدثون عنه. ألست رجلاً؟! لماذا لا تشعر بي. إني أتوسل إليك، أدركت فوراً قسوتي، وأدركت أنه عليّ أن أتصرف بحكمة، حضنتها بلطف وقبلتها على خدّها، قلت لها: أنا أشتهيك منذ زمن طويل. إني أحبك ألم تلاحظي ذلك؟! ولكن اليوم لا يمكنني أن أبقى أكثر من ذلك. قد تأتي زوجتي ظناً منها أني

تأخرت. أو قد يسأل عني أحد فتقول له هو عند الجارة عند ذلك يأتي قارعاً علينا الباب وتكون الفضيحة الكبرى لك أولاً.

أنا أحبك وعليّ أن أحميك من العيون والألسن. تعالي نتفق على موعد آخر. قالت: غداً. غداً لا أستطيع أن أصبر أكثر من الغد. «غداً يا حبيبتي. آتيك ليلاً. أدق الباب ثلاث مرات. تعرفين أني القادم.. اتفقنا؟!.» تمسكت بي بشدة. عبثت بشعري وجسدي ثم همدت ثورتها بانتظار الغدّ. ـ افتحي الباب ـ فتحت الباب خرجت مسرعاً كأن جيش العدو يطاردني. مشيت إلى مصطبة المنزل ولم أعد أقدر أن أتابع. ارتميت على الأرض ألهث. رأسي يدور يدور وأخذت أتقيأ. جاءت زوجة عمك صالح اندهشت ما بك. أدخلتني إلى المنزل عملت الزوفا وسقتني كأساً ساخناً. ما بك يا صالح «لا تخافي، لا شيء. لا شيء. يبدو أني أخذت شمس أثناء النهار» ثلاثة أيام بلياليها أعاني الإحباط. لمن أقول قصتي؟! ظلت سراً معي ولم أجرؤ أن أمر بعد ذلك بالقرب من منزل تلك الجارة. كانت تأتي هي أحياناً فتنظر إليّ منكسرة وأحياناً متحدية. لكني كنت أهرب منها عندما أراها. لا أريد أن أخلع ثيابي. الذي يخلع سرواله مرة يخلعه في كل مرة وببساطة أكثر. لدرجة أن هذه الحالة تصير حيوانية بحتة. الرجولة لا أن تتخذ عشرات الخليلات. الرجولة أن تتحكم بأهوائك إنه الجهاد الأكبر يا بني»

«يبدو أن مازوت المدفأة قد انتهى»

«حاضر. سأملأ المازوت للمدفأة. ألم تنتهي بعد؟!

«أتريد أن تطردني؟»

«لا. لا أقصد ذلك ولكن إلى متى ستسهرين؟!

العم صالح يقول لي اطردها. ولكن كيف؟المطر يهطل بغزارة والمدينة نائمة تحت لحاف كانون. أغلقت الأنوار آذانها. لا حسّ ولا حركة إلاّ حركة عطر سلوى. اتركني يا عم صالح وحيداً الآن. أنا أختلف عنك، يتردد. يأخذ شالاً صوفياً يفرشه على ساقيها.. السيقان تهزم أعظم الرجال «لن تهزمني بساقيها. ها أنا أغطيهما» تتنهد سلوى.. تختلق حديثاً مفاجئاً. مديرها غازلها البارحة وطلب أن تزوره في شقته الخاصة التي لا تعرفها زوجته. وزميلها الصحفي الجديد. و.. راحت تسرد

انهماك العالم كله بها. ماذا تريد أن تقول. لتقله وترتاح. هي أنت التي. لا تريد أن تترك له مجال إثبات رجولته. العم صالح يريده نسخة عنه. العم صالح لا يريد أن تغتصبه امرأة.

«ماذا تفعل؟»

«أفرش على ساقيك شالاً كي لا تبردي»

«أجل. البرد شديد. ولكن ألا تعجبك ساقاي.

«جداً. ولكن»

يرتعش صوت علي. كأنه يلامس جسد ليلى لأول مرة. ليلى التي تداهمه فجأة سيحاول التخلص منها.. يقع الكأس من يده. يسمع أنين أم رافع. يرى دم رافع يسيح أمام عينيه. يريد أن يصرخ. يبكي. سلوى تغمض عينيها نار المدفأة تندلع. عطرها.. عطر هذه الأفعى يطغى على كل شيء. رأس السنة يقترب. سيكبر عاماً وعاماً وسينتهي العمر بين صراع وصراع، أصابعه ترتجف. يريد أن يسند يده.. لا يعرف كيف راحت أصابعه تستلقي على فخذ حار أملس، امرأة ناضجة بين يديه. تتحرك كأفعى، تنزلق يده إلى الركبة. إلى القدم. يتراجع. يسحب يده. تتنهد سلوى كأن صوتها يأتي من عالم آخر... تهمس «غطيني» يقترب منها أكثر.. «أكره الجوارب» يشدّ جواربها.. يشق الجوارب ـ ابتعد الآن يا عم صالح» تمد ذراعيها. تطوق رأس علي. تقرّب وجهه من وجهها.. تعطيه شفتيها يأخذ حلاوة الشاي ومرارة القهوة. ينحني فوقها.. صدرها يرتفع وينخفض. يلامس صدره بحلمتي الثديين. «غطيني» تهمس كل لحظة. يسحب تنورتها.. كأنها تقول له «عرّيني» يشدّ التنورة إلى الأسفل. الأسفل.. النار تندلع. كأس الشاي يتكسر.... العم صالح تسقط دمعته على خده وهو يقف تحت المطر. «غطيني». لا. يتراجع في اللحظة الحرجة. يتراجع منكسراً. مهزوماً. تنظر سلوى إليه تلملم تنورتها وتقول «أنت لست رجلاً»

«الرجولة يا بني...

«أرجوك يا عم صالح.. أنا متعب غير قادر على استيعاب أي شيء.. الفلاحون في الحقول والشمس تميل إلى الغروب. يأخذ العم صالح مسبحته وينزل باتجاه

البحر. الجيران يتشاجرون على ماء السقاية الذي يتوزع في أقنية تمتد من نبع السن حتى السهول الشمالية. فأس تهبط على رأس أحد الفلاحين.. الدم يسيل.

يصرخ علي بأعلى صوته«

عندما استيقظ علي على صراخه كان متعباً وكان البرد يعضّ مفاصله. نظر حوله فوجد أنه ينام على الأرض والصباح يعمّ المدينة. تسربت خيوط شمس خجلة عبر النافذة لكن موجات الغيوم الشتوية ما زالت تركض من البحر باتجاه الجبال الصامدة في وجه رياح جبل الأقرع، على الطاولة كأسان للشاي. وفنجانان للقهوة. من شاركه المساء؟! حاول أن يتذكر... أخيراً فطن إلى أن سلوى زارته مساء ولكن لا يتذكر متى رحلت. وقد تكون ما تزال في المنزل. إنه يعرف جرأتها. قد لا تكون سلوى. على المرء الناضج أن يشك بكل شيء خاصة هذه الأيام. لكن سلوى بالتأكيد هنا. دخل غرفة النوم فلم يجدها. انتظر قليلاً لعلها في الحمام. أخيراً اضطر أن يقتحم غرفة الحمام. لم يصدق ما يرى. امرأة تنام على البلاط. اقترب منها إنها ليست سلوى. امرأة لا يعرفها.. - تمالك يا علي - نادى نفسه بصوت عالٍ. قارن شجاعته الخائبة بأيام عودته ليلاً من المدينة إلى القرية. وكيف كان يرى الضباع ولا يخاف. لماذا تخاف الآن يا علوش؟! سبقته غصّة فلم يكمل حواره. اقترب من المرأة أهي نائمة أم ميتة - هذه أم رافع. متى عادت؟! شدّ رأسه بكفيه. تراجع إلى الوراء. لقد قتلها رعد. ليس إلاّ رعد يقتل أمه. ولكن لماذا هي في بيته..؟! أسئلة كثيرة لا يعرف كيف يجد لها الجواب. منذ طفولته والأسئلة تطارده. فرّ من القرية. طاردته الأسئلة إلى المدينة وهاهي الآن لا تكف عنه. متعب أنت يا علّوش. هل تفكر بالعودة إلى طرقات القرية الظليلة.؟! جلس أمام قهوة باردة وراح يعيد السؤال بحزن.

- 5 -

- منذ شهور لم أرَ أم رافع وهي لم تدخل بيتي أبداً.

- ولكنها كانت في منزلك.

- أنا لم أكن في المنزل عندما دخلت.

ـ أين كنت؟.

كنت عند الأصدقاء.

كنت على البحر.

كنت تحت المطر أمشي. أمشي. أركض. كنت أشعر بحاجة للبكاء.. للصراخ.. جاءت سلوى مساء أخذت كتاب ابن الأثير ورحلت.

«أنا؟» أنا لا أجيء في الليالي من أجل مرجع ما. أم تظن بأني أدور على حلّ شعري؟

ـ لا. لا أقصد ذلك. ولكن جئت. شربت الشاي وأخذت مرجعاً.

ـ لماذا أجيء إليك. مرجع ابن الأثير لدي في مكتبتي. لماذا أجيء إذن أم تظن أن النساء مغرمات بك أيها الشاعر العملاق.؟ أعرف، أنتم الشعراء تظنون كل امرأة عاهرة.

ـ هل أنا قلت ذلك.؟! لم أقل هذا أبداً

ـ قلت ما يماثله.. أنت تظن نفسك خارج نطاق الشبهات.. ماذا تعرف عني؟! لو كنت كما تنعتني لما رضيت بالذهاب إليك. كنت أذهب إلى أي رجل ميسور.. رجل يغدق عليّ الهدايا والذهب... لا رجل يقدم لي كأس شاي؟ أو فنجان قهوة ويظن بأنه قدّم لي المرجان.

ـ آسف يا سلوى. لماذا أنت عصبية هذا اليوم؟ أنا واقع في ورطة وأنت تعرفين ماذا أقصد. أنت فعلاً جئت إليّ، وها هو قلمك عندي لقد نسيته على الطاولة وأنت تضعين خطاً تحت اسم الأستاذة عليا. أريدك فقط أن تتذكري كي تساعديني. تصوري انا أقتل؟! ومن؟!

أم رافع الطيبة المسكينة.

ـ ولماذا لا تقتلها؟! أنا لا أبرىء أحداً. قد تكون أنت القاتل. ووجود قلمي لا يعني وجودي في بيتك. قلمي أنت سرقته ولقد رآك مخرج الصفحة.

صمت لدقائق. أنا غير قادر على الرد. أي لغو أسمع؟ لا بد أن شيئاً ما يحدث ولكن لا أعرف ما هو.. حاولت أن أتذكر شيئاً مما كتبت.. الكتابة هي ذنبي الوحيد

في الحياة الدنيا..ربما أغضبت الأنبياء. أو ربما أغضبت الولاة والسلاطين الجدد. كل هذا لم يحدث.

ـ يا سيدي أنا بريء. والله العظيم بريء.

ـ أتظن البراءة بهذه السهولة.؟

ـ ماذا أفعل كي تصدقوني.؟!

برأيكم ماذا أفعل.. وما الذي فعلته؟ هذه البراءة التي تكلف المرء حياته إلى الأبد حتى ولو ظهر أمام الناس وشرب ودخل المحلات الماجنة. كان عليَّ أن أوقع.

وقِّع.. وقَّعتُ.. هي الحرية تؤخذ ولا تعطى.. أنا لم آخذ من هذه الحياة شيئاً.. كل الأشياء التي أحببتها هجرتني أو ضاعت مني.

أتوني بورقة بيضاء أنيقة. عليها أختام كثيرة. وأعطوني قلماً مذهباً

هنا.. في الأسفل. وقع في أسفل السافلين. كل حروفي منذورة ومهداة لسلطان القلعة التي تتوسط المدينة منذ ألف عام أو أكثر. وعلي أن ألقي كلمة عصماء أتوسل فيها إلى الإله الأكبر. كبير الآلهة. أن تبقى القلعة بعيدة عن الزلازل والبراكين خاصة وأن المدينة أي جابالا ضربها الزلزال عدة مرات ودمّرها عن بكرة أبيها. هكذا سنبرئك يا علوش، ضحكوا بعد أن وقعت.. ابتسم كبيرهم.. اهتز كرشه.. في الحقيقة لم تكن المرأة إلا خيالاً. وهماً من أوهام الشعراء. هو الذي جاء وقال رأيت امرأة مقتولة في منزلي. «واحد مجنون ماذا تقول له؟»

عدت مزمجراً بعد أن كنت خارج الباب أمشي باتجاه الشارع. صرخت أولاد الـ.. لماذا فعلتم بي هكذا.؟

«كي تخرج براءة»

لا. أنا لست بريئاً. أنا رأيت امرأة لم أتعرف إليها جيداً. رأيتها ميتة. أنا لست بريئاً..

«اخرج. هيا وإلاّ....

ركلني أحدهم بحذائه الضخم. سقطت على الأرض. سمعت امرأة تضحك.

هي.. سلوى. سلوى تضحك عليّ.. أتكون هي التي ارتدت ثياب امرأة أخرى وادّعت أني قتلتها؟!

آه يا سامح. لم أعد أعرف شيئاً.

عندما عدت إلى عملي ظهراً. جاءت سلوى وقدمت لي مظروفاً.. قالت افتحه. فتحته فرأيت صورتي مع امرأة لها جسد سلوى ولكن لها وجه لا يشبه وجه سلوى.. المرأة عارية وأنا ادثرها بجسدي. لم أندهش.. تابعت سيري.. كانت السنة الجديدة قد رَحَلت. وكان شهر آذار على الأبواب. شهور مضت على محاضرة الأستاذة عليا.. شهور لم نتحدث عنها أنا وسامح.. شعرت حقيقة أني أسير وفق خطة مرسومة لي.. لم أعد أنا الذي أحرك أحجار شطرنج حياتي. حتى كلماتي عليّ أن أربطها كي لا تصير باتجاهات ممنوعة..

لقد نضب الشعر في أعماقي. لم أعد أكتب شيئاً. وعندما أخلو إلى نفسي مغلقاً عليّ الأبواب أحاول كتابة نصوصٍ جديدة خارجة عن قانون المعاهدات. لكن سرعان ما أجد رجالاً ملثمين يقتحمون عليّ غرفتي يمزقون ما أكتب ويخرجون دون صوت. في الصباح أجد أوراقي في سلة المهملات. منذ ذلك الحين فقدت صوتي واعتبرت تلك الهزيمة. هي هزيمتي الكبرى إنها تفوق هزائم الحروب. كما أني فقدت البياض وخبر البحر. نضب الموج يا عليا... أتسمعين..؟

ها أنا أقصّ عليك أشياء كثيرة لم أكن لأقصها على أحد. هزيمة الكاتب الكبرى أن يفقد الإلهام. يفقد الكلمة التي يحارب بها. يأكل بها. يصافح الناس بها. بصراحة لم يبرح وجه أم رافع وجهي بعد تلك الحادثة.

أنا أفعل هكذا بهذه المرأة.. الأم؟! المرأة التي لا تشيخ ولا تفنى.. تركت المنزل ولم أعد إليه إلا في أقصى حالات التعب. لم أعد أطيق رؤيتي أتشظى في منزلٍ مسكون بالجرائم والقتلى. تصفحت المدينة شارعاً شارعاً. والمقاهي وشاطىء البحر، تسكعت أياماً حتى صدقت نفسي. أجل صدقت بأني فعلاً قتلت أم رافع ولا بدّ لابنها رعد الذي يجاورني في بيت مهجور.. لا بد لهذا الرجل من أن يخرج ذات ليلة صاخبة ويقتلني كما قتل أخاه. لكني أتساءل أين ذهبت جثتها؟! لماذا اختفت؟! هل طارت؟! آه.. متعب جداً كيف أقتل أماً. إنها امرأة طيبة. جميلة. تذكرني

دائماًبخالتي هدبا. حتى أني كنت أناديها.. يا خالتي هدبا. يستغرب الجيران من تكون هدبا هذه؟

إنها عليا..!

ألم أخبرك قصة خالتي هدبا؟!

أنا أحكيها لنفسي أحياناً. في أيام وحدتي وحيرتي أقص حكاية هدبا على نفسي، أفكر في كتابتها بشكل سيناريو وإرسالها إلى محطات التلفزة والأقمار الصناعية التي تغزو عقول الأجيال حالياً. من الأفضل أن أترك الكتابة على الورق. الآن عصر التلفزة. عصر الشاشة.. لأكتب على الشاشة ولكن عليّ أن أقرأ بنود المعاهدة. لا حب. لا جنس. لا سياسة. لا.. لا.. مجموعة من اللاءات هذه يجب أن أعلقها كتعويذة في بيتي. في الواقع قصة خالتي هدبا لا تتفق مع هذه اللاءات لأنها تنتمي إلى الحقيقة التي تفوق التسامح اللائي.

خالتي هدبا فتاة جميلة. زوجها جدي من رجل يكبرها بثلاثين عاماً. وعندما اعترضت جدتي. قال جدي الرجل لا يعيبه إلا فقرُه. كانت خالتي في الخامسة عشرة من عمرها. وكان زوجها في الخامسة والأربعين. كان أميراً. هكذا قال الجدي.

....

- 6 -

«أنا أمير يا شهاب. اطلب ما تشاء بهذه الفتاة الجميلة.

«أميرا! على العين والرأس. ولكن أنت غريب وهدبا لم تخرج بعد من قرية «سيانو»

«الآن أنا غريب.. ولكن عندما أصير بعلها سأكون ابنك وهدبا تصير زوجتي قرة عيني. سأضعها في قصرٍ شاهق. سآخذها إلى بلاد كثيرة. وأنت ستغسل فقرك. وسأساعدك لشراء السهول المحيطة بالقرية كلها. ستصير سيداً وتتخلّص من العبودية والذل، وسأكلم الحاكم الكبير كي يمنحك الألقاب ويبني لك قصراً، ستكون ظله هنا في هذا السهل.

لم يفكر جدي طويلاً.

ولكن لماذا أتذكر هذه الحادثة الآن؟

لا أعرف يا عليا. لا أعرف. بطاقتك التي في جيب سترتي هي التي تحضني على نبش ذاكرتي، ربما لأنساها نهائياً، سأحاول كي أغتسل من ماضٍ لم أصنعه.. وربما كي أغفر لنفسي قصوري في مستقبل مسيّر أنا فيه. ألم أوقّع على معاهدة لا علاقة لي ببنودها..؟! أتساءل أحياناًوأنا أرى النساء المتبرجات.. لمن يتبرّجن؟! للذي قضم حلمة ثدي خالتي؟! امرأة ترش العطر. وامرأة تلقي محاضرة. وأخرى يقضمون ثديها. وامرأة عجوز ترش قصائدها الغنائية والعتابا في تلافيف الزمن الذي خذلها... لو أن «ماندل» بحث عملية التهجين بين النباتات والإنسان؟! ربما تخرج من المرأة شجرة؟! شيء مضحك أليس كذلك؟! طيب. بين الحيوان والإنسان. شيء جميل. أجل. أنت يا عليا تقتنعين بفكرتي. ماندل صديقك هذا لم يعبر إلا عن عصره. لم يصل بتصوراته إلى عَصرنا. ألم تقولي: يخرج من المرء ذئبٌ أحياناً؟ الهجن الحديثة تعزز نظريتك. الذئب يسكننا والعكس صحيح.

أتدرين؟! في البداية استغربت ما أخبرتنيه.. الآن وعلى ضوء نظرياتك وآرائك بدأت أحاكم الأشياء بطريقة مختلفة. الآن أدرك لماذا قضم زوج خالتي حلمة ثديها في اليوم الأول لزواجه.

جدّي بنى قصراً وصار بعد ذلك باشا. ولم يعد بحاجة لأن يدق باب القائمقام ويدخل.. صار يدخل دون استئذان. وتحول من رجل فقير يهاجم الباشاوات ويفنّد سرقاتهم ويدافع عن المظلومين إلى باشا.. جدي صار باشا. وصار له أزلامه وأعوانه. وصار له مرابعون.. وتزوج امرأة غير جدتي بنى قصره على تخوم القرية بعيداً عن الفلاحين أخوته وأقربائه. بعد ذلك نقلت خالتي إلى خيمة خارج قصر زوجها. اجتمعت حولها نساء مجللات بالسواد وعرّافات، وزنجيات وأخذن يجمعن لها من نباتات الصحراء ـ الخالية ـ الأعشاب النادرة ليحرقنها ويرششنا الرماد على الثدي الذي التهمه الذئب البشري.

«أين أنا؟!»

أنت هنا يا هدبا. على مشارف بلاد فارس. حيث ما تزال فرس الفارس المقتول تهيم على وجهها.

«أين أهلي..؟

«أهلك نحن؟!

تغمض هدبا عينيها وتبكي سيولاً تهرب في رمل الصحراء «الخالية» كل يوم تعاود البكاء والصراخ. تتلمس ثديها فلا تجد إلا بقاياه. تضرب رأسها بالحجارة والأمير لاهٍ مع نساء أخريات اشتراهن.. جوارٍ وعبيد.

«أريد أهلي»

«اخرسي يا امرأة. أنا اشتريتك كما اشتريت أحذيتي»

«.....»

«يا خالة. أريد أهلي»

كانت تنتظر العرافة بفارغ الصبر لتبكي في حضنها.

«يا ابنتي ستعودين إلى أهلك. ولكن اصبري.»

أي صبر. الصحراء ضيقة. الصحراء قذىً في القلب والعين ستظل.. الليل يهبط والنوم يرتفع ليصير سيد القصور والخيام. تسمع على البعد صراخاً يأتي من مأوىً للأيتام الإناث.. صراخ يشق الليل. تتكور هديا على نفسها خائفة. يطرق الأمير بابها. «اخلعي ثيابك»

ترتعد خوفاً. صوت فتيات صغيرات يبكين... يندبن. تمر العرافة مسرعة. تضرب رأسها وتصمت.

«اخلعي ثيابك»

تخلع هدبا ثيابها. يعربد الأمير. يصول في ميدان الجسد الفضي.. يمزق. يهرق.. يلوك. ثم يمضي. تلملم امرأة طفلة أشلاءها وترنو إلى القمر البعيد.. تمزق روحها الصيحات التي تذوب في عتمة آخر الليل. تدخل العرافة مولولة.. من يجرؤ على الكلام..؟!

ماذا يجري يا خالة؟! ما هذه الأصوات الليلية؟! «لا تسألي يا هدبا.. أنت غريبة.

والغرباء لا سند لهم» تصمت هدبا. ولكن عندما يأتي الليل تتحرك الثعابين في جسدها وروحها يتحرك الخوف كمنجنيق يقذفها إلى حيث الصوت. ماذا يجري؟! لماذا يأتي هذا العويل من جهة المأوى.. دار الفتيات؟!

«لا تسألي الأمير يا هدبا»

«الأمير يأتي بصديقه. يكرم صديقه فيقدم له هدبا.. وهدبا عليها ألاّ تسأل. لقد اشتراها... له الليل ولها النهار تنطوي فيه على جراحها. لا يجوز لها أن تنجب، وإلاّ رماها في الصحراء. هي جارية وكفى.. في النهار لا ترى الأمير يكون منشغلاً بالعبادة والتقوى وزيارة الأيتام وتوزيع المعونات والمساعدات وافتتاح صالات البيع، ومطاردة بائعي الخمور وحلاقي النساء من الرجال.

«أيتها العرافة.. ماذا يجري؟! أهِبُكِ كل أساوري وأقراطي وأعدك ألاّ أقول شيئاً.. قولي ما هذه الأصوات التي تنوح وتصرخ.

«إذا لم تفي بوعدكِ ستموتين في هذه الأرض ولن أسمح لك باستنشاق هواء ديارك..

«أعدك»

هذا الصراخ. يأتي من جهة دار للفتيات الصغيرات.. يدخل عليهن ابن الأمير وصحبه. يجرّب فحولته في اليتامى. إنه يجرّب ويجرّب قبل أن يذهب إلى حوريات الغرب. عليه أن يكون فحلاً، متدرباً.. عليهن أن يتقن فنون حربه الهمجية.

ما تزال الفتيات المقهورات يصرخن وما يزال الليل مدلهماً. بعيد أيها الصبح وبعيدة أنت يا هدبا كل مساء عليها أن تتعطر بالطيب الذي يجلبه الأمير لنسائه الصغيرات.وأن ترتدي الغلالات المذهبة التي تشفّ عن أثداء نافرة وورك مستدير أملس وسيقان كالرخام. يأتي الأمير إلى وليمته بمفرده أحياناً وأحياناً بشكل جماعي... هذه الليلة جلب معه نفراًمن أصدقائه.

«اخلعي ثيابك يا امراة وارقصي.. ارقصي لنا»

«لا..لا.

«قولي يا مولاي وأميري. حاضر»

«لن أقول..

«أنا مولاك.. ملك يدي أنت. أريدك أن تسعديني وتسعدي الأصدقاء. ماذا تخسرين»

تتوسل هدبا. ولكن لا فائدة. تبكي. تشتم والدها. لا بد أنه يصلي الآن فأذان الصباح قد حان. لقد زوجني رجلاً أميراً.

«اخلعي يا امرأة اخلعي حذاءك وثوبك وجسدك. أطعمي أثداءك وفخذيك للجوعى. صياح يأتي من الجهة الأخرى.. يفتل الأمير شاربيه مغتبطاً. لا بد أن ابنه قد فتح قارة جديدة ليدخلها الخراب الأبدي والجوع ولن تعيد نظريات ماندل ولا غيره الخصب إلى هذه القارات المهانة. مهما حاولوا التهجين. عندما نهجن وردة بيضاء مع وردة حمراء. هذا يعطي وردة زهرية اللون. ولكن عندما نهجن انساناً بحيوان = نسمع صراخ طفلة = ونرى ذئاباً تنتشر في كل مكان.

في المساء الأخير جاء الأمير في جولته لكن لم يظفر بالعدد المعروف من النساء..

«هدبا هربت يا مولاي»

هدبا ترتدي لباس الرعاة، وتتوه في الصحراء. تصادق الوحوش البرية والغزلان. «والله صادقتهم ولم أصادق الإنسان» تشردها الرمال والهضاب. سنوات تفترسها جهات ضائعة. يغتصبها رعاة. ويشفق عليها آخرون. حملت في الصحراء. أنجبت بين الرمال ودفنت ابنها بالرمل.. لكنها أخيراً خرجت من الكثبان عجوزاًتسأل عن بلاد الشام تضع عينيها وترنو إلى الشمال المورق في ذاكرتها.. شمال مجدور بالعذاب والحنين. تبكي وتسقط على سيقان الحراس.. «ممنوع دخولك يا امرأة بلا هوية» لقد فقدت التعلق والتواصل مع البشر منذ زمن بعيد. إنها نعجة ترعى الأعشاب وتستحم بالرمال والأتربة. باعها والدها كما يبيع الشعراء قصائدهم. كما تبيع عاهرة صاحبها. هدبا خالتي التي حملت على كتفيها إرث الهجن والنظريات الوراثية الكاذبة. كيف وصلت إلى القرية لا أحد يعرف. استيقظت القرية صباحاًلتجد هدبا تنام في ساحة قصر جدها. لن تدخل القصر. إلا لغاية واحدة تريد أن تقتل جدي والدها الباشا. والد أمي الذي علّق الأوسمة والألقاب على دم ذريته. وخالتي هدبا الخرساء لم تطق البشر.. فرت في البراري. تسري كما الهواء والمطر.

مرة تظهر.. ومرة تذوب.. زوجة جدي الجديدة أنجبت ابنة جميلة. باعها جدي هذه المرة لأمير أوروبي.. أمير لا يرتدي الكوفية والعباءة. يأتي لا بساً الشورت ومعلقاً على صدره أوسمة أسرته النبيلة. وحيثما تمشي خالتي تنبت ورود صغيرة خافتة اللون حزينة الرائحة، يفترش الأرض خوفاً من أيدي الناس.

جدي الباشا. صار مزاراً. قبره تحول إلى مزار. جدي الذي يملك القصور والحقول والمرابعين تحول إلى مزار لأنه مات يوم عيدالأضحى فصعدت روحه إلى السماء. قائمقام المدينة لم يقبل إلا أن يبنوا له قبة مذهبة.. ثم جمعوا ثيابه وسيوفه وقصائده التي اشتراها من شاعر مغمور ونسبها إلى نفسه.. وضعوا لجدي كل هذه الأشياء الخالدة في قفص نحاسي تتوارثه الأجيال.. جيلاًبعد جيل. ووضعوا حارساً على القبر. وبعدها بدأت النساء بالتوالي لزيارته.

«الشيخ شهاب يشفي من العقم»

إنه جدي وأنا حفيده الذي دثّر سلوى وأحبّ ليلى التي تحولت إلى طائر بحري فرّ مني، وأنا علّوش الذي انتظر طويلاً حتى التقى بامرأة نادرة تدعى عليا. أي أنتِ. أنتِ التي أعادت إليّ حروفي فاستعدت البحر والمدينة. وجزءاً من صفصاف القرية. حتى منزلي الصغير المليء برائحة أم رافع، الذي لم أكن أحبه.. صرت أحبه لأني سأصمت في زواياه الرطبة وأكتب القصائد لعينيك. مررت بفترة تشبه حالة خالتي هدبا. همت في البرية. أستعذب أكل الأعشاب.. وكنت أرى شبح خالتي هدبا يمر.. أقسم لأمي بأني أراها. وأمي لا تصدق أبداً.

«خالتي لم تمت يا أمي»

«ماتت من زمان. لا تقل هذا الكلام ثانية»

«أنا رأيتها عند نهر ـ الشحادة ـ تأكل السلبين والدردار. تنظر إليّ وتبكي. لم تكلمني ولا مرة واحدة. لكن نظراتها كانت تدل عليّ وتعرفني.

في الحقيقة كان عليّ أن أقتل أم رافع.

لا أريد أن أستعيد خالتي مرة أخرى. لا أطيق رؤيتها تتعذب.. وكان لا بد أن يموت رافع.. أن يظل مكانه.. هكذا هي الأدوار. هكذا هو القدر. من يقدر على تغيير قدره؟

قدري أن نلتقي. وأن أمتلىء بصوتك يا عليا. حاولت إبعادك عن حياتي فلم أستطع. أنا لا أصلح إلا للشعر وعليّ أن أهرب.. كل قراراتي باءت بالفشل. عليَّ أن أعترف. عندما دخلت منزلي بعد غياب. دخلتِ معي. كان صوتك يتغلغل في مسامي. أيعقل أن تتسلل إلى عالمي امرأة فتنتشلني فجأة من ضياعي. وتعيدني إلى اسمي الحقيقي. اسمي الذي ضيّعته عشرات المرات.

مرة يوم مات أبي. ومرة يوم افترقت عن ليلى. يومَ طارت. ومرة يوم خذلني الزملاء سلوى والجيران. حتى صديقي الوحيد «عدنان» لم أستطع الإطمئنان إليه أخيراً.

عدنان الذي يلحّ كل يوم لأن أكتب قصائد جديدة لسلطان القلعة الأبدية. وذلك بطريقة مختلفة ومتميزة لأنال أكبر جائزة.

«أخي كن عصرياً. الحياة تحتاج إلى بعض المسايرة» «يا أخي.كن حيادياً على الأقل..» ماذا لو كتبت قصيدة في عيد ميلاد السلطان. سيدعوك إلى مصيفه على البحر الهندي. سيمنحك الجواري و قوارير الذهب. «هه.. أتظنني غانية أوروبية. لا يا صديقي»

«طيب. يرضى عنك و تسوّق كتبك»

ساير الناس يا علي. ساير أكثر..

أجل..المطلوب أن أساير. أن أكذب. فأحصل على لقب جديد غير لقب الولد ابن فطوم. دخلت عالم الأدب والصحافة فأعطوني اسمي. لكنهم يأخذونه متى يشاؤون. حتى سلوى زميلتي التي حدثتها كثيراًعن ظروفي في مكتب الجريدة. وكنت قد حدثتها عن ليلى وعن أمي فطوم. وخالتي هدبا وجدي الباشا. تتآمر عليّ الآن. أنا لا ألوم سلوى. إنها ضحية ظروف أعرفها. ضحية الإقطاع الحريمي الجديد الذي ينتج عن الإقطاع الوظيفي..

قلت لصديقي الدكتور سامح «أنا متعب يا دكتور. لقد فارقني الحرف. وأخاف من رجل يدعى عدنان. ابتسم سامح.. أتخاف من رجل؟! أجل. أخاف من هذا الوغد الذي يطاردني طيلة الدوام ليسكب في أذني نصائحه ونظرياته الجديدة التي تتماشى مع النظام العالمي الجديد ـ انظر بسام إنه أكبر

تاجر في البلد.... انظر أدهم إنه أكبر مستورد للسيارات - «يا أخي عش الواقع»

ما هو هذا الواقع يا سامح الذي يحدثني عنه عدنان؟! أيظنني لا أعرف ما يدور حولي. إني أتمزق يا صديقي. عدنان يقول لي ذلك؟ ما هذا الواقع الذي يجرف سلوى.. سلوى ابنة الشيخ - فضل - الذي يؤذن للجامع الكبير. سلوى الموظفة المحترمة جداًفي الجريدة، تصبغ شعرها بعد أن تنزع الإيشارب.. وفي آخر النهار تذهب إلى منزل خاص لرجلٍ خاص أتراها تعد له القهوة فقط؟!

ماذا تفعل امرأة في منزل رجل الساعة الواحدة ليلاً؟

سامح هزّ رأسه بحزن. قلت سأقتل سلوى يا سامح، هناك ظواهر فاسدة على سطح الكرة الأرضية لا يكون علاجها بالتسامح. تحتاج إلى بتر.. إلى القتل. شَدَّ على يدي وقال لماذا تريد أن تدمر نفسك بهذه الحساسية المفرطة. يا أخي لن تستطيع تصحيح العالم وحدك؟!

لماذا يكرر هذه العبارة دائماً - التدمير - ويقول سلوى ظلّ من الظلال التي تنبثق عن الأصل.

....

- 7 -

عندما رأيتك لأول مرة كان بعد خروجي من السجن بفترة قصيرة. أغلقت عليّ أفكاري. لا أريد لأحد أن يقتحم عليّ خيالي الجارف.. كنت متشبعاً بوجهك العذب. برقتك. لم أفتح الراديو. ولا التلفاز. لا أريد أن أسمع الأخبار. لا أود أن ينتشلني أي صوتٍ من دائرتي الخاصة جداً والرائعة جداً إلى عالم القتل والتدمير والحروب القبلية. دخل ظلك منزلي. حاورته في أمور كثيرة. تبين لي أن جذورنا تتلاقى في امتدادات متشعبة إلى تربة قصر قديم. قد يكون لك خالة أو عمة مثل خالتي. أو جد مثل جدي. لكن الحوار انقطع إذ كانت طرقات قوية على الباب. هرعت باتجاه الباب. لا أعرف لماذا توقعت أن تكوني أنت وربما تمنيت. إنها أنانيتي المفرطة.. عندما فتحت الباب - أتعرفين من وجدت؟ وجدت رافع.

رافع الذي انطمر بقنابل النابالم.. حرقته أيام حرب حزيران. دخل دون كلمة.

لم يقل عفواً ولا مساء الخير. جلس على الكنبة. تركت الباب مفتوحاً. هل أهرب؟!

لا أعرف لماذا نخاف الذين يعودون من العالم السفلي؟! ولكن رافع لم يذهب إلى العالم السفلي، رافع صعد إلى عالم النور. إنه شهيد والشهداء لهم الجنة والحوريات. لهم الخلود. دَفَع دمه للحظة صدق. لحظة إيمان. وضع يديه على وجهه وراح يبكي. مسح وجهه بعد نوبة بكاء وقال: أنت ألم تقتل أمي؟! آخر شيء كنت أفكر فيه. حتى أنت يا علّوش!؟

ماذا أقول.. هالني تصريحه. كيف أقنع رافع بأنهم هم الذين قتلوها. وفي كل مرة يريدون أن يخنقوا أحداً يحملون جثتها ويلقونها في بيته. ثم يحملون الشهود الذين يشهدوا بأنهم رأوا بأم أعينهم طريقة قتلها.

«أقسم لك يا رافع. لم أقتلها. هم قتلوها.»

«كيف أصدقك؟!.»

«انطلق من نفسك يا رافع. لا أقدر على إثبات العكس. لكن أنا بريء. سلوى وحاشيتها ألبستني هذه التهمة.

«سلوى ابنة رجل تقي. لا يترك صلاة. فأرجوك يا علي لا تلبسني رأسي بالمقلوب؟!

«لم ألبسه بالمقلوب حتى الآن.. أنت تقول هكذا يا رافع؟!

نظر إليّ بحزن مشوب بالقلق والشك.. أعرف ما يدور في خلدك؟ أعرف يا رعد؟ يا إلهي. لم أستطع الصبر. صرخت..رافع. أنا لست رعداً. أنا علّوش. انظر إليّ. أنا علّوش الذي أمه فاطمة. أنا لست رعداً... لست رعداً

وقف رافع وثيابه تتزين ببقع دم حمراء كأنها ورود مصفوفة. وجهه مغبر. وعيناه دامعتان. نهض باتجاه النافذة. أسند ظهره إلى الجدار. تنهد. قال بصوت هامس.. ما الفرق.؟! ما الفرق بينكما. ثم فجأة غاب عن عيني. شعرت بدوار وأنا أنظر إليه. ثم امتلأت الغرفة بضباب كثيف. لم أعد أرى شيئاً. فركت عيني. أغمضتهما وفتحتهما. لم أرَ رافع. لم يخرج من الباب. لكنه غاب بعد أن سكب عليّ اسماً جديداً. اسماً يقتل. أنا لا أقتل الأمهات. الأم لا تُقتل. لكن رعد قتل أمه.

أنا لا أجرؤ يا عليا أن أقتل وردة. أحياناً لا أرغب بتقديم الورد لك يا عليا لأني

أخاف موت الورد.. إني أحزن لتساقط أوراق الخريف. وأحزن على الغيوم المسافرة. وأبكي عندما أرى أسراب الطيور في بداية كل صيف تغطي سماء «جابالا» وهي في طريق هجرتها إلى بلاد أخرى. سامِح قال لي الحزن يهدد حياتك بالخطر. اترك الحزن... لولا أنه صديقي. ولولا أني أعرف سامح وتفوقه. لنعته بالغباء. الحزن لا يُترك أنا لا أشتريه. الحزن موقف. الحزن طريق في التعبير والتفكير.. الحزن يعني الإحتجاج. ولكن ماذا تقصد يا سامح بالخطر؟!!

أي خطر تتحدث عنه؟!.

أيهما أكثر خطورة. الكراهية أم الحب؟!. الوحدة أم الحزن؟!

أنا وحيد يا سامح. وحيد والعالم حولي مكتظ.. وحيد لأن الزمن لا يقبلني. أنا خارج هذه اللعبة الحالية. لعبة النظام العالمي الجديد. خارج لعبة المقامرين الجدد.. آه.. ربما عليا تقدر أن تجعل مني رجلاً يتآلف قليلاً مع الجدران الإسمنتية.

صرت أعرف الشوق لأنني أكابده..

صرت أعرف الغياب. لأنه يكويني

وصرت أشعر بذاكرة دافئة للمقاعد التي نجلس عليها.

اتصلت بالدكتور سامح قلت له: صديقتك رائعة. ابتسم وقال «الحمد لله»

فكرت أن أكتب لك رسالة صغيرة بعد غيابك الطويل. فكرت أن أسأل عنك في الجامعة ولكن قيل لي أنك تدرسين في جامعة حلب هذه الفترة. أ أرسل رسالة إلى جامعة حلب؟! ما الذي كنت سأكتب؟! أتعرفين ماذا؟! سأكتب كلمة واحدة. أو عبارة واحدة «أنامشتاق إليك» لكني تراجعت في اللحظة الأخيرة. اعتبرت ذلك نوعاً من التهور. التهور يعني أن يعبر المرء عن مشاعره بحرية؟! لكن ما يفعله زميلي عدنان من انتهازية وسرقة ليس تهوراً. التهورُ أن أصرخ بملء صوتي وأنا الشاعر المعروف بأني أحبك. وقد تقولين أنت هذا عني. وربما تحدثت إلى صديقاتك بهذا وقلت: إنه مراهق كبير الرجل يتحكم بمشاعره. أليس كذلك؟! العم صالح قال ذلك. وأنا رجل وأثبتّ أكثر من مرة بأني رجل. هل هناك أكثر رجولة من أن أخلص لامرأة أحببتها سنوات طويلة وهي غائبة جسدياً عني؟!

قلت لها.. لن أخونك أبداً إلاّ إذا أحببت. عند ذلك لا أعتبر هذا خيانة. هل الحب خيانة؟!

بصراحة لم أحب بعد ذلك.. بعد ليلى لم أحبّ. لم أجد ليلى أخرى دائماً كنت أبحث عنها بين النساء. دائماً كانت تنظر إليّ من وراء شغاف ضبابي. وكانت دمعتها تهبط بهدوء كلما رأتني أقترب من امرأة يستهويني جسدها فقط.

«عليا أنت تستهويني بجسدك وروحك وصوتك وتفكيرك»

هذه المشاعر ليست عابرة.. هذه مسألة موت أو حياة.. أنت تعيدين لي الحياة. ان أستلطف زهرة؟! وأن أشتاق لأمي ثانية. أليست إعادة للحياة؟! أن تعيديني إلى ذاكرتي القديمة. للأرض التي أوصتني بها أمي. وتجعلينني أحب المدينة والمرفأ الصغير المكتظ بالزوارق، بهواء جبل الأقرع.. بجبل «ديروتان». وشجرة الدلب القديمة في «عين شقاق» وسيانو. «وفريشات».. كل هذه الأماكن بدأت تنمو من جديد في حديقة قلبي.

أحياناً يخطر في البال أنك أنت كل هذه الأسماء. أنت جابالا الحميمة. أنت لاوديسيا القريبة من مسقط القلب.. أنت الحروف التي بدأت أتصل بها كي تأتي. أنت الفوّار.. وتلّ سوكاس. لن أشرح لك معنى كل هذه الأسماء التي تعود إلى جذورنا الأولى الممتدة من بعل إلى سلوقس. إلى عُبادة بن الصامت الأنصاري. إلى «زيبل»(*) ابنة أرواد إلى حربة مغروسة في الجنوب من زيبل.. وإلى الشمال والشرق من أرواد.

(*) زيبل: اسم جابالا القديمة: جبلة.

الصابرة على حروب البحر والملح والزمن.

أنت أدرى بقصدي يا عليا.. قصدت الجذور

الجذور الواحدة لبداية الإنسان. جذور؟! إذا لماذا تتعارك هذه الفروع وعلى ماذا؟! لماذا لا نعود إلى البدايات الأولى؟! ها أنا ذا أعود إليك أنت بدايتي.

يا للبدايات المؤلمة! ها أنا ذا أشرب للمرة الأولى قهوة بلا سكر. مثلك.. سأقلدك.. أتسمحين.؟! جدّي لا يقبل أن أقلّد امرأة. أنت لست امرأة كالتي

يقصدها جدي. أنت. منديل أمي الضائع..لا. العبارة ليست شعرية. سأشطبها.. قد تأخذ معنى لا أقصده.. ثم بدأت باختيار العبارات البسيطة التي يمكنني أن أكتبها في دفتر مذكراتي.. لقد ارتحت لك كثيراً. لكني شطبت العبارة أيضاً عندما خطر لي الدكتور سامح.ماالذي يجمعه بك.. اي صلة بينكما.؟! لا أريد أن أقحمَ نفسي في مكان ليس لي. ربما كان يحبك. ربما العكس. ومن واجبي كصديق لسامح أن أحترم هذه العلاقة. لأعترف بأني شعرت بحزن حقيقي. هل كان عليَّ أن ألتقيك إذاً؟!.

لم أستطع المكوث في المنزل. كرهت هذا المكان عندما فكرت للحظة أنك قد تكونين ملك رجل آخر. لا أقصد المعنى المادي أبداً. أقصد المعنى الروحي. تركت قهوتي وغادرت المنزل ليلاً. شعرت بنار الغيرة. أنّبت نفسي على هذا الشعور الذي لا يحق لي أن أحمله. نزلت باتجاه البحر.. مررت بالمقبرة. باب المقبرةْمفتوح على مصراعيه وشجرة التين النائمة عند الزاوية تحرس وحدها الأرواح المتطايرة ليلاً.

اقتربت من المقبرة.. بدأت مفاصلي تختلج. شممت رائحة ريحان أخضر. كل يوم تقريباً أمرّ من هنا. ودائماً أشعر بالألفة بيني وبين الأموات. إنهم أناس مهذبون لا يزعجون أحداً. صامتون، يحدقون بالعالم المتغير بالقاتل والقتيل.. باللص البطل.. صامتون لا يثيرون أية أسئلة. لا يركبون سيارات فارهة. ولا يستمعون إلى الموسيقا الصاخبة المزعجة.

ويوم شاهدوا الملك يمدّ يده بالورد والريحان للعدوّ القديم الذي قتلهم وقتل أبناءهم يقف بالقرب من قزم العمامة صاحب الشفاه الغليظة لم يثيروا شغباً بل ظلوا مثلنا تماماً.. مثلنا يتفرجون على الوادي المقدس وهم يرمون فيه أوراقهم الذليلة. وعندما انتهى التوقيع. وبدأ الوادي بالإهتزاز قهراً ظن الملك أن الوادي يرقص طرباً.. وعاد الأموات إلى قبورهم... ها هو شعر رأسي يقف متأهباً. لماذا.. السقوط تم.. والمعاهدة تمت.. والإتحاد السوفيتي صار روسيا.. وزوجة ابن خالي لم تعد قادرة على العودة إلى أوكرانيا بلا جواز سفرٍ خاص مع أن ابن خالي الطالب تحول إلى تاجر كبير ومقاول محترم.. مقاول دولي.. المقاولون كثر.. يقايضون الأعلام الحمراء بكومة أحذية إيطالية وبعض فطائر الهمبرغر.

أسمع صوتاً قادماً من أحد القبور.. «لقد بلعنا الطعم والصنارة معاً»

أشعر أن الثلج يتساقط على رأسي. برد شديد يجتاحني مع أن الصيف ينتشر بغباره وهجيره ورطوبته. جرجرت خطواتي كأني أجرجر طرقات كثيرة. قد يعود الأموات.. ألم يعد رافع؟! عاد احتجاجاً على المعاهدة؟!! لا أعرف. لكن أدرك أخيراًآن الملك اشترى بدمه بندقية وأطلق عليه ثانية. إذن قد يخرج الأموات إليَّ الآن. يمسكون برقبتي. ها أنا أشعر بيد تطبق على رقبتي.. أتلمسها فلا أجد شيئاً.. أشعر أني أختنق. «هات خمسمائة ليرة - والله لا أملك هذا المبلغ.. «هات الدخان الذي معك. لا أريده إلا تبغاً مستورداً.

«ولكن أنا موظف وراتبي لا يكفي ثمن قهوة وتبغ مستورد وإيجار منزل.

«هه.. أنت لم تدخل بعد اللعبة الجديدة؟! وشهرتك ماذا تفعل بها؟!

«أرجوك ابتعد. ارتكني. يا أخي اللصوص يختبئون هنا.. وراء مقابركم لماذا لا تمسكون بهم؟ أنا رجل بحالي.. وقعت معاهدة ألاَّ أغضب الملك أبداً. فاتركوني. هل أنا أملك صوتاً؟! لا. لا صوت لي. كنت أظن بأني أتكلم. ولكن ها أنا لا أقول شيئاً. لماذا كل هذا الخوف؟ في قريتي المقبرة تنام على تخوم القرية. وعند أطرافها يمر النهر العظيم.. حيث تتدلى أشجار الصفصاف بكل وقارها على الأموات. كانت أجمل الأماكن وأهدأها للقراءة هي المقبرة. كنت أسند ظهري على قبر عمي رمضان وأنا مقرفص أقرأ المعلقات، وأحل الوظائف وأحفظ القرآن.

رائعة.. كانت بداية الخريف.

الورق الأصفر يتساقط كبتلات زهرة كبيرة. ورق حور. تين. زنزلخت. عندما سقطت ورقة توت على رأسي قفزت متراً عن الأرض. التفت. لعل أحد الموتى يسقط على رأسي. ولكن لم يكن هذا الشيء الغريب أكثر من ورقة توت تقاوم الموت. - يا لي من أبله - هبت نسمات خريفية فسمعت تكسر الأوراق اليابسة وتطايرها. مرت بالقرب مني عربة «طنبر» تحمل البطيخ.. شعرت بقليل من التماسك. لكن هدوئي لم يستمر إلا دقائق إذ رأيت فجوة في جدار المقبرة.

لماذا هذه الفجوة ما دام باب المقبرة مفتوحاً. وما دام الأموات يخرجون متى يشاؤون. لا حديد. لا حراس. فلماذا إذاً هذه الفجوة؟ يعني هناك صراعٌ بينهم.. هناك من يتسلّط عليهم ويريد التحكم في دور خروجهم. وهنا. من هذه الثغرة..

يهربون كطلاب المدارس. بدأت أرتجف. أردت أن أدندن بصوت عالٍ فلم أستطع. شعرت بوهن في ساقيّ. لم أعد قادراً على المسير. يدي ترتعش. صرخت بأعلى صوتي فسمعت صوتاً لا يشبه صوتي. جاءني صوت من وراء الجدار. «لا تصرخ. لا تصرخ. يا علوش. ألم تعرفني؟! أنا أم رافع.»

أجل. إنه صوتها الذي أعرفه. لقد قتلتني يا رعد.

«أنا لست رعداً. صدقيني. أنا علي.»

أنت هو.. ستنزل عليك لعنتي. من يقتل أمه يقتل عرضه. ويقتل روحه، فتستبيحها الشياطين وتعبث بها. تمسخها وتحولها إلى حيوان لا يعرف إلا البراري. فلا ينعم بدفء ولا ينعم بمأوى.

«يا خالتي أنا علوش.. انظري إليّ جيداً.»

«كلكم مثل بعضكم.. كلكم متشابهون.»

آه. يدها تضغط على عنقي لكني لم أستطع الإمساك بها. كانت عبارة عن كتلة نورٍ تهبط على صدري. تخنقني.. تبهرني لا أدري.

....

- 8 -

عليا.

أنا لم أحمل سكيناًفي حياتي إلا في ذلك المساء. صدفة هي. لا أعرف لماذا وضعت السكين في جيبي.

آه. أم رافع تخنقني. إنها تدفعني إلى الجريمة. هي الأخرى صدقت مّا يقولون. أنا أقتل؟!! حاولت أن أشرح لها الأمر. لم تعطني فرصة. صرخت.. يا أم رافع أنا أحترمك وأحبك. أنا يا خالتي هدبا أحترم قهرك القديم ولا يمكنني أن أقتل نملة فكيف أقتلك؟ هم الذين يدورون بجثتك على الآخرين ليرغموهم على توقيع صك خاصٍ بهم. إني بريء. والله بريء. بريء يا خالتي. أصابع عديدة تتشابك وتخنقني.. كل الأموات خرجوا إليّ. وقفوا فوق رأسي وفوق كتفيّ. أسقط على الأرض. الثغرة في جدار المقبرة الشمالي تتسع. تتساقط عدة أحجار. أحاول بشراسة

أن أسحب السكين من جيبي. لا. لا أريد أن أقتل. بل هم الذين يجبرونني أن أقتل. بكيت من هول الجريمة التي سأقوم بها.. سحبت السكين.. وأخذت أغرسها أينما كان. في الكتف. في الظهر. سمعت تأوهات وأنيناً. ابتعدوا إنه يحمل أدوات الدمار الشامل التي يتحكم بها الشيطان. الدم يسيل وأصواتهم تبهرني. أم رافع تبكي. أسمعها.. أجل أسمعها تنادي ابنها.

بعد تلك الصرخة المكتومة من ورحي ومن أنين أم رافع لم أسمع أي شيء. عندما فتحت عيني كان الصباح الخريفي يدلق أنواره على الفضاء وكنت أنا على رصيف المقبرة يتكوم الغبار على ثيابي.

مرت امرأة مع طفلتها. اقتربت الطفلة مني ووضعت عند رأسي قطعة نقدية. نظرت إلى الطفلة فهطلت دمعتي.

عدنان يقول. أنت تبكي كالنساء. وهل تملك غير الدموع في زمن الإبادة النووية؟ رائحة عفونة البحر تخرش أنفي. رائحة أجساد تتفسخ. رائحة الغرب القادم مع الرياح الغربية. قال: بل تملك.. تملك القصيدة.. تستطيع بها أن تكون ثرياً ومحترماً. اسمك له وزن يا أستاذ. أرسل إلى الملك قصيدة وسترى أن ملك الذهب الأسود سيرسل لك سيارة ويعطيك منزلاً. و....

أسمع صوت أسمهان ينبعث من نافذة تطلّ على المقبرة. يمرّ رجلان ينظران إليَّ شذراً.. يهمسان «هذا شاعر المدينة المجنون»

الكلمة تلدغني كأفعى.

أنت تعرفين يا عليا أن بعض الكلمات كالعقارب. أو كالسكين تشق جلد الوجه.نهضت باتجاه سامح. سألت ممرضته عنه. لم يأت بعد يا أستاذ.

لقد تأخر سامح.. كنت بحاجته «هل أراه في المنزل؟».. ربما. هرعت إلى المنزل... المدينة مليئة بورق الزنزرخت والتوت. عربات الجبس والبطيخ تنام على الأرصفة. نساء ريفيات نزلن باكراً يتسوقن.. بدوية تحمل على رأسها طنجرة لبن. قرعت باب سامح ودخلت دون انتظار الاذن. كنت متعباً. متعباً جداً.. خجلت إذ رأيت امرأة جميلة تشرب القهوة مع صديقي سامح. لا بد أني جئت في وقت غير مناسب. لماذا دائماً يحدث عكس ما أرغب. لا أريد أن أتطفل على أحد.. ولا أن

أفرض زماني وصوتي وأشيائي على الآخرين. الحقيقة: ظننت سامح وحيداً كعادته. لكن هدوء سامح وصوته الهامس أكّدا لي بأنه عاشق. لا بد أنني قطعت قبلة. أو عناقاً. أو ربما كان يزرع شعر حبيبته بالياسمين الذي اعتاد أن يسرقه عن أسوار المنازل في كل ذهاب وأياب إلى عيادته.. الآن أدركت يا صديقي لماذا تقف أمام كل ياسمينة. الآن أعرف وأعذر وأحترم وأقدر.. بالتأكيد سامح لا يتسلى.. هو لا يعرف أن يتسلى مع امرأة لا يحبها.

لا بد أن مشاعر جميلة تكتنفهما. وقفت جامداً كصخرة لم أعرف هل أتراجع أم أتابع وكأني لم أخمّن شيئاً. في الحقيقة خجلت من نفسي. ابتعدت إلى الوراء خطوات لكن سامح نهض ورحب بحرارة. تفضل يا أستاذ علي!!

تفضل يا أجمل الأصدقاء. أخذني بيديه. كدت أبكي كطفل ضيّع أمه في زحمة المدينة، فأخذ يبحث عنها في كل أم ترتدي مثل ثيابها. أو مثل منديلها. ليصنع منها أماً. وضعت المرأة التي بهرتني فنجان قهوتها ونهضت هي الأخرى تسلّم بحرارة. أسفت بصوت هادىء إذ قطعت عليهما القهوة.

في الحقيقة سامح دائماًلم يغير نظرتي إليه. إنه شهم دائماً. وصداقتي به ترجع إلى أيام الطفولة وإلى زواريب القرية.

حين هممت بالخروج بعد السلام. قال سامح مبتسماً.. أين.؟! اين. ألا تريد أن تتعرف بالأستاذة عليا.؟!

غير معقول.. إني عاجز عن وصف اللحظة. كدت اسقط لهول الدهشة. تخيلت آلاف المرات. شعرك. وجهك. صوتك. لكن كنت أخاف من المفاجأة. خفت أن تسقط خيالاتي في بئر النسيان. أو في تهيؤات لا تتطابق مع الواقع. لم أستطع أن أقول أكثر من كلمة «أهلاً» انتظرت يدك أن تمتد إليّ فمددت يداً ترتجف. قال سامح. هذه عليا.. ونظر إليّ ثم قال: هذا هو الشاعر الكبير علي.. طبعاً أنتِ قرأت له لأني أهديتك دواوينه اليس كذلك. ربت سامح على كتفي وقال: عليا معجبة بشعرك وهي منذ مدة تريد أن تتعرف عليك.

وتلاقت عيوننا. أتذكرين..؟!

كان من المفترض أن يتم اللقاء قبل ذلك بكثير. سامح شرح لي سبب وجودك.

عليا جاءت في موضوع خاص. وها هي مسافرة ألآن. تفضل يا علوش.

سامح لا يناديني إلا علّوش في الحالات الحميمة والمريحة. يبدو أنه كان سعيداًفي تلك اللحظة. استأذنتِ أنتِ وغادرت على أمل أن نلتقي ونتحدث عن الأدب وأمور أخرى. شعرت أن روحي تغادرني. أنا لا أعرفك في هذه اللحظة فقط. أنا أعرفك منذ شهور بعيدة. منذ اللحظة التي حدثني عنك سامح.. شعرت أنك المرأة المقدر لها أن تدخل حياتي. لم أوضح شعُوري لسامح. خفت أن أجرح مشاعره. لم أكن قادراً على البوح بكلمة. كما أني كنت متعباً تراودني العبارة التي سمعتها.

«ها أنا أسمعك يا صديقي. ماذا هنالك يبدو أنك متعب»

«سامح. لا أريد أن ألف وأدور. أريد أن أسألك سؤالاً محدداً»

«قل.. ستجدني دائماً عند حسن ظنك. يا لي من مغرور.»

في الحقيقة كان سامح سعيداً لكني أطفأت فرحه فجأة عندما سألته سؤالاً محدداً. ـ هل أنا مجنون؟ ـ أرجوك أجبني. شيء طبيعي أن يجن الإنسان في إحدى مراحل عمره.

دهش سامح. ماذا تقول يا علي..؟ سؤالك يكفي ليكون جواباً بالنفي.

سامح أرجوك. هذا المساء لم أنم في بيتي. وجدتني على باب المقبرة عند الصباح لم أسمع إلا الكلمات الجارحة. ما الذي يحدث يا سامح.. العالم السفلي هو الحقيقة المؤكدة؟!

علي.. ماذا تقول. أنت جاد في طرح هذه الأسئلة.؟! لاحظت تخوّف سامح. لمتُ نفسي. لماذا أنزع صباحات الأصدقاء. ابتسمت. قلت: سامح كنت أمزح معك. أرجوك لا تزعل. بصراحة جئت مبكراً لأستلف منك ألف ليرة لديَّ سهرة اليوم. وقبل أن أمشي قلت له: بابتسامة «على فكره.. صديقتك جميلة»

غادرت سامح إلى الجريدة. الجرائد مفروشة بأخبار موجعة. صورة طفل فلسطيني يحطم صهيوني ذراعيه ورجليه ويزجه في حفرة ترابية وهو حي. وهناك صورة أخرى لطفل مفقوء العينين. وفي الصفحة الداخلية صورة لأمرأة من البوسنة امرأة أربعينية تقف إلى جانب ابنتها وتبكي وهي تشير إلى بطنها.. أنا حامل من

عدوي الذي اغتصبني واغتصب ابنتي. صورة أخرى لآلاف الرواندين القتلى المرميين في منبع نهر النيل. لم أستطع أن أشرب القهوة التي حملها إليّ الآذن تركت الفنجان وغادرت المكتب إلى مكتب آخر

لا أستطيع أن أكتب العمود الصحفي المطلوب.

سيزعل المدير.

«ليدق رأسه بالـ... بالبحر.»

«هس»

تقترب سلوى. تهمس. لا تقل هذا عن المدير. قد يسمعك.

«أنت تقولين ذلك يا سلوى؟ شكراً لتحذيرك. نظرت إليها باشمئزاز وخرجت.

عندما التفت في الطريق باحثاً عن تاكسي رأيت سلوى تتبعني.

«ماذا تريدين»

«أريد أن أعتذر منك»

«لا وقت لدي الآن. عندي موعد.»

كنت ممتلئاً بوجه امرأة تدعى عليا. لم أجد مكاناً في ذاكرتي حتى لمعاتبة سلوى. كنت مشغولاً بك يا عليا. مشيت أبحث عن مكان يتسع لهواجسي. لم أجد أرحب من الجامعة. أغادر باتجاه الجامعة التي تحتوي عليا. أنتظرها أمام الجامعة كمراهق يحب امرأة للمرة الأولى. لم أجد في ذلك أي خجل. الحب حق إنساني. لكن زميلي عدنان تبعني هو الآخر مع سلوى. اعترضا طريقي في السوق.. تراجعت عن قراري وركبت أول تاكسي إلى مدينتي.

عندما نزلت من التاكسي مشيت باتجاه السوق الضيق الذي يجتاز جابالا من الشمال إلى الجنوب ماراً بالسوق المسقوف. على بوابة سوق الذهب اعترض طريقي عدنان. قال يجب أن تتصالح مع سلوى يا علي. فوجئت إذ لم أعرف ماذا أقول. قفز إلى ذهني سور المقبرة المفتوح. سمعت صوت أم رافع يقول: أسمعتم. القاتل يصافح المقتول والمقتول يعتذر للقاتل. تفصّد العرق من جبيني. شعرت أن ثيابي تضيق عليّ. وأن أوراقاً وأتربة تتساقط على رأسي وتهرش جسدي. بدأت ألهث

كأني في قيظ تموز مع أن الخريف يرسل نسماته اللطيفة على المدينة فيعطي للسوق المسقوف طراوة ورطوبة لذيذة. القبو مظلم. واجهات بائعي الذهب تلمع وكأن الجوع لا يعرف طريقه أبداً إلى المدينة. غيرت طريقي ومشيت لم أرد.. لا أحب المواجهة في اشياء مفروغ الحكم فيها. هذا لا يعني انتصاراً ولا يعني بطولة. تبعني عدنان وأمسك بذراعي. يا رجل. كأن بينكما ثأراً. هززت رأسي «وهو كذلك»

كيف لها أن تقابلني؟!

لتذهب إلى مديرها المحترم.

هناك سيوفر لها الويسكي بدلاً من الشاي وستنام على أريكة حريرية. وقد تجلب معها صديقاتها لتوزع عليهن جزءاًمن عطاياه الخيرة. وفي الصباح تكتب مقالة عن تحرير المرأة والفهم الخاطئ للحرية، أليس كذلك يا مس سلوى؟! لم ترد سلوى، بل أخذت تقطّب حاجبيها وبدأنا نثير الانتباه بوقفتنا المعترضة. مرّ أحد الجيران التفت إليّ. هل هناك شيء يا أستاذ؟!.

لا لا.. لا أبداً»

انفجرت سلوى باكية. شدني عدنان وقال هنا لا يمكن الكلام بالراحة دعنا نذهب إلى مكان ما.

لماذا؟! لتحوكا مؤامرة جديدة؟! وربما قتلت أحدكما؟! أليس كذلك يا سلوى.؟

تركتهما ومضيت. مشيت شارداً. تائهاً. لا أعرف أين أذهب. قررت هذه اللحظة أن أغادر جابالا وأسكن في لاوديسيا. قريباًمن سامح وقريباً من المرأة التي بدأت تثير زوابع جديدة في عالمي. عليّ أن أتمسك بهذه الزوابع. سامح يقول. عندما تأتي الزوبعة. لا تعترضها. امش معها نحن في زمن ماتت زوابع القلب فيه. قد يقضي المرء عمره كله دون أن ينبض قلبه بحبّ حقيقي. لذلك تمسك بحبك الحقيقي. يا إلهي كم أنا خيالي وأحمق لماذا أفترض أن هذه اللحظات تهيء لي حباً حقيقياً؟! لم أعد قادراً على المسير. خانتني قواي. كأني مهزوم في معركة. مررت بسور المقبرة. شعرت بالخوف. بدأت أسعل. أتحسس رقبتي. براغيث أخذت تلسعني أهرش رقبتي. أغيّر طريقي. يصادفني أحد الشعراء يبتسم يهرع إليّ قاطعاً طريقي.

ـ يا أستاذ أريد أن آخذ رأيك بإحدى قصائدي.

ـ والله الآن أنا متعب.

ـ أرجوك. لحظة فقط. منذ مدة وأنا أبحث عنك. حتى أني زرتك في منزلك ولم أجدك.

ـ طيب تعال من هنا. عندما لاحت المقبرة ثانية. قال.

ـ أما سمعت يا أستاذ.؟! سيصنعون حديقة مكان هذه المقبرة.

ـ صحيح؟!

ـ صحيح.

تمنيت أن يتركني لكنه رفض إلاّ أن يذهب معي إلى المنزل ليقرأ لي آخر قصيدة كتبها. كانت الأوزان تشل خياله. والقافية تشده إلى الخطابية والمباشرة فيضطر لاختيار كلمات لا علاقة لها بالمعنى إلا لتوحيد القافية.

نظرت إليه وقلت: ألا تلاحظ معي أنه عصر الإنهيارات الآن. انهيار الحدود والحواجز والنظريات وأشياء كثيرة؟

ـ أجل. أجل. أنا متابع ممتاز للسياسة ولأوضاع العالم

ـ إذن متى تنهار حواجزك التي تضعها على القصيدة؟! متى تخرج من عباءة الجاهلية؟! الآن يا صديقي زمن الكتابة. الكتابة بلا مدارس. الآن (انعكاس) الحالة السياسية. الحالة العالمية على الكتابة وإلا لا نكون عصريين كيف نعبّر عن عصرنا؟!

ـ فهمت يا أستاذ. أعتذر لأني أثقلت عليك.

ـ لا أبداً. لكن اعذرني لأني لا أقدر أن أتابع معك الحوار في الحقيقة لديَّ مواعيد.

لقد تنفست الصعداء عندما صرت وحيداً. اتجهت إلى البحر. كان البحر رائقاً. زرقته غامقة. مرّ بائع ذرة مسلوقة. اشتريت قطعة واحدة ونزلت مقهىً يقدم «أركيلة». لم أتذوق عرنوس الذرة. رميته في البحر. عرانيس الذرة لا تلوث البحر. أنا أحافظ على البيئة. السمك سيأكل عرنوس الذرة لكن الأرض كيف ستبتلع أكياس النايلون وخاصة السوداء منها.. قريتي التي لا تعرف التسوق إلا قليلاً.

ونساؤها يحزمن أغراضهن بتنانيرهن مع ذلك حقولها مليئة بأكياس النايلون. تتطاير مع كل هبة ريح. أمي قالت والله يا بني أكياس النايلون السوداء تخيفني.

يومها. ضحكت. لماذا يا أمي؟!

«تكون المرأة منا تمشي في الليل مجتازة حاكورة الجيران إلى منزلها فجأة ينطّ كيس أسود في نقرتها. يا لطيف تظن أن فأراً قفز إلى ظهرك»

«صدقتِ يا أماه. ولكن خطورتها أكبر من ذلك».

أمي لا تعرف شيئاًآخر عن خطورتها. هي تخافها فقط. وأنا الآن مشتاق إلى أمي. يجب أن أسافر إليها.

في الصباح اتصلت بسامح ودعوته إلى القرية.

«لا أقدر يا علي.»

«يا أخي. اترك العيادة هذا اليوم. الطقس جميل. خالتك فطوم ستطبخ لنا ديكاً بلدياً على برغل بالحمص.. ما رأيك. ألم تشتق إلى جابالا وإلى قرية الصفصاف. سنزور جدي الشيخ شهاب وعند قصره سنشرب القهوة. تعال نمشي. نقضي يوماً في التسكع واسترجاع الطفولة. أريدك أن تكون معي. من سيانو نغرّب باتجاه نهر السن.. آه. نقطف النعنع البري ونشرب قهوة عند المصبّ.

«يا ريت يا علي. لكن عندي مواعيد كثيرة. وستأتي عليا من حلب عند الظهر واتفقنا على تناول الغداء معاً. تعال أنت نتغدى سوية.

«ربما..؟! لا أعدك»

تمنيت فعلاً أن أرى عليا. لكن لا أدري لماذا ترددت. مع ذلك عندما اقتربت الساعة الثانية عشرة هرعت إلى سامح.. كانت عليا في انتظاره في العيادة.

وحيدة رأيتها تجلس والدكتور سامح في الداخل عند مرضاه. ابتسمت وقلت أنا مدعو إلى الغداء. اضطربت. لا أعرف ماذا يعني ذلك.. لكنها كانت لا تتنازل عن ثقتها الكبيرة بنفسها. اقتربت قليلاً مني وقالت: أنا حقاًمعجبة بشعرك. وعندما بدأت تتحدث عن بعض القصائد لم أعد أسمع إلا رنين صوتها. شعرت أني أعرفها منذ زمن بعيد. وتيقنت أنها فعلاً ملأت كل جوارحي ولا أعرف كيف.

امرأة لبقة. متحدثة ذكية. امرأة خبرت الغرب. وأدركت أقنعة الشرق. طال حوارنا إلى ما يقرب الساعة. عندما خرج سامح كان منهكاً. استلقى على الكنبة الجلدية لدقائق وقال هيّا: لننطلق.

«ماذا تريد أن تأكل؟

«عليا تختار. عفواً. الأستاذة عليا»

«لا أرجوك قل لي عليا فقط. الأستاذة في الجامعة. أنا هنا مجرد معجبة بالشاعر الكبير»

كان الطعام خاص جداً، وكان البحر القريب يضفي أنسنة ووحشة في الوقت نفسه. شعرت أني وحيد مع هذه الحورية. لماذا لمَ أرك منذ ألف عام؟

ابتسم سامح.. ها.. لقد التقيتما إذن.. عليا يا سيدي تؤمن بالماورائيات وهي تظن أنها كانت قبل ألف عام امرأة أخرى.

«صحيح؟!»

«صحيح.»

لم أغادر عليا حتى حددنا موعداً للقاء جديد على غداء مشترك.

كانت هذه المواعيد. مواعيد عذابات قادمة. لم أدر أبداً أن الطريق يسير بنا. لا نحن نسير. ولم أعرف أن للمصادفات قواها السحرية. يا عشتار كيف لي أن أغوي توأمك؟! وأنا؟! مجرد شاعر يركض وراء القصيدة والقصيدة ضاعت منه ولم تعد إليه. مجرد شاعر. وقع على صكوك معاهدة تنصّ على الغاء الشاعر بداخلي

الشتاء يقترب... خريف يحزم حقائبه ويحاول الرحيل بأقل قدر من الحزن. هكذا هو الخريف دائماً يوقفني في كآبته وخيالاته. لا أعرف مالذي يجتاحني عند هبوب أول النسائم المسافرة. ولا أدري ماالذي يجعل روحي تشفّ عندما أرى أوراق التوت تتساقط. وتحمر أوراق الصفصاف قبل أن تهوي إلى قاع نهر قريتنا.

هكذا هو الخريف يا عليا. يذكرني بك. ويستحضر في مساءاته اللاسعة أزمنة كثيرة، بخور مزارات. جدي شهاب. جدي الباشا الذي يقال بأنه ليس جدي. وأنه لم ينجب أبداً بل نساؤه هن صاحبات الفضل في الأبوّة الغامضة..

وهكذا في الخريف يجتاحني الحنين لأشياء بعيدة. أشياء كل خريف تبتعد أكثر وأنا أشتاقها أكثر. لذلك أكثر من الذهاب إلى القرية. وأكثر من التجوال في القرى المجاورة. أنشر صمتي على الفروع والأقنية التي توزع ماء السن ونغرّب إلى نهر «الرميلة»

«يجب أن تتزوج يا علي يا بني... «الحي أبقى من الميت» زوجتك ماتت. والعمر يمرّ.»

«ليلى ماتت؟!!»

لا أعرف. ليلى لم تمت. ليلى سافرت ولم تعد»

أم رافع أيضاً سافرت ولم تعد. وخالتي ذهبت ولم تعد. والخريف يرحل ولا يعود. عليّ أن امتص أكبر كمية من ضوء الخريف. إني أحضر نفسي للبيات الشتوي حيث الشمس تنام طويلاً تحت الغيوم. وحيث المطر. المطر. المطر والرعد.

....

- 9 -

- يجب أن نلتقي يا عليا.

- أين.

- تعالي هنا في جابالا.

- لا. لا أقدر.

لا أدري لماذا عندما أذكر اسم هذه المدينة يرتجف صوت عليا. أتخافني في مدينة خارج حدودها المعهودة.؟!

بعد المكالمة الهاتفية نزلت إلى البحر حيث تتوزع المقاهي والأصدقاء. لا أحب أن ألتقي أحداً أعرفه.. أريد ان أمشي وحيداً أصف أفكاري لعل قصيدة تنبع من مشهد الغروب حيث الأفق يرتسم بعيداً كأحلام لا نطالها. شعرت بحزنٍ يخيم على قلبي ويقبض على صوتي. يبدو أني اشتقت لأمي. هذا الشهر كله لم أزرها. وعندما يأتي الشتاء انطوي في مدينة رمادية. لا أعرف لماذا أتذكر العم صالح. منذ زمن بعيد لم

أره «الحق عليّ» يبدو أني ولدٌ عاق. لا. الأمر غير ذلك. الحياة العصرية امتصّت كل مقومات شخصية المرء. قتلت الجوانب المكملة لشخصية الإنسان. الزيارات. الأصدقاء. الأقرباء. الواجبات. حتى الواجبات لا نقوم بها. نكتفي بباقة ورد كما أنه الطرف الآخر لا يريد أكثر من ذلك.

عندما كان ينزل إلى جابالا كان يزورني أحياناً. ومرّة زارني وأنا في العاصمة.. مشيت يوماً بكامله.. كان يستعرض لي أحوال القرية وحالة أمي. وجدي والأقرباء. وكنت أستعرض له دمشق بكل عراقتها وغرابتها وذئابها ووردها.

منذ مدة طويلة لم يزرني العم صالح. هل هو لا ينزل إلى المدينة؟! لعله مريض. سأزوره في أقرب عطلة.

انتبهتُ أني أكلّم نفسي، انتابتني نوبة ضحك. في المقهى البحري طلبت بابونج. ولكن ما إن رشفت واحدة حتى دخل اثنان من الشعراء التافهين الذين يصلبونك على الطاولة لساعات طويلة. يشتمون فلاناً. ويشككون بفلان. ويدعون أن كتاباتهم تفوق كل أدب.. لكن ليس لهم حظ.. حظهم قليل.. فكرت. يجب أن أفرّ من هذين الجروين.. تركت البابونج وهربت. انتابتني حالة شوق لعليا. «في المنزل سأكلمها».. لا.. لا علّوش.. لماذا فوراً عليك أن تبدي ما في روحك؟!

«ولكن لماذا لا.. أصبحت في مرحلة من العمر لا تسمح لي بالمراوغة» الريح الباردة تزرع في الجسد قشعريرة لذيذة.. رائحة المدينة بدأت تتغير استعداداً لفصل قادم. تشرين له نكهة خاصة في ذاكرتي لا أعرف كيف؟! مرة أحبه. ومرة أغضب منه. وأحياناً يطيب له أن أتأمله من وراء الزجاج وهو يزرع ذعره في الشوارع وأكياس النايلون وفي ثياب النساء... هناك رجل يحدق بي.. رجل يقترب مني. هذه الفترة أنفر من الناس.. لا أحب هذه التجمعات التي تهدر الوقت في التّنظير والنظريات.. قد تستمر الجلسة إلى صباح آخر أو مساء آخر كلها حول تمحيص الوضع السياسي والإقتصادي. فإذا ما اعترضت.. قالوا: ما هو دور الأديب إذاً؟!

دور الأديب؟! يا للسخرية.

من يشرك الأديب في المخطط السياسي. أنت كأديب تطلع على المخطط السياسي والإقتصادي. وكأديب تفهم ما بين السطور.. وكمواطن محترم عليك أن

تبصم. تبصم وكفي.. لا يطلبون منك غير ذلك. فلماذا تهرش روحك؟! كأني أعرف هذا الرجل الذي يقترب مني. إنه يقصدني. أجل.. إنه «حسن» صديقي الشاعر. منذ زمن طويل لم ألتقِ به. أين كنت يا حسن..؟!

ربما لم أكن اسأل عنه شخصياً.. ربما كنت أسأل عني أيضاً. عن طفولتي التي تركتها في الحواكير وجئت هنا أرتدي مجبراً السموكن في حفلات رسمية ومؤتمرات أدبية. حسن ظل كما هو يرتدي ما يحلو له..، أحيانا يستعيدُ ذكرى الأيام الخوالي فيلبس «القنباز» وقد يرتدي «الشروال» الأبيض مع قميص قطني.

كيف الحال..؟!

هنا لا يمكن شرح كل شيء. ألا تدعوني إلى منزلك؟!

طبعاً يا حسن.. المنزل منزلك..

شربنا الشاي وبدأنا هموم المستقبل.. ثم انتقلنا إلى هموم الشعر.

«سأقرأ عليك قصيدة يا علوش.. آخر قصيدة كتبتها.»

«هات. أسمعني»

«لا.. الأمر يحتاج إلى كأس»

«حاضر. أمرك يا حسن. ولكن متى كنت تشرب كأساً. لا تقل لي إنك عاشق.»

«العشق شيء.. والموت حباً شيء آخر. الشاعر لا يحيا بلا حب»

«قل الإنسان. الإنسان بلا حب جثة تتحرك بلا هدف ولا غاية»

«وأنت؟!!..

«أسمعني القصيدة.»

«ولكنها ستحزنك.»

«لماذا.. لأنها في رثاء.. غمغم حسن. في رثاء العم صالح»

«العم صالح مات؟! يا إلهي. هذا اليوم تذكرته كثيراً. لا يمكن.»

حسن يقرأ القصيدة.. وعلّوش يفرك دمعته ساهماً

رجل يرشف كاسه.. يستعرض آلهة وخرائب. يستحضر بعل وتهامة. ويقرفص

في حدائق الشعر أمام العم صالح الذي دفنوه قرب شجرة دلب. تظلله صفصافة قديمة كان قد زرعها منذ طفولته. «أنا وهذه الصفصافة توأمان» عندما انتهى حسن من قصيدته كنت قد اجتزت عشرات السنين، كل طفولتي ويفاعتي وشبابي. كل هذه السنوات. وأحياناً رائحة عطر. أو لفتة من امرأة. أو دمعة، تخيلت العم صالح، رجلاً متوسط القامة. أبيض الوجه. شعره أبيض. لا أتذكره إلاَّ بالشعر الأبيض. كان يمزح ويقول: «لقد ولدتني أمي عجوزاً» لم يكن عجوزاً. كان حكيماً. يحفظ الشعر. آلاف الأبيات في جعبته. ويحفظ سيرة بني هلال. وألف ليلة وليلة. وحكايات كليلة ودمنة. من الصعب أن تقول له شيئاً وينساه. له ذاكرة مذهلة.

«والله يا بني يا علوش شاركت في حروب كثيرة»

«والله يا بني ظُلمت كثيراً بسبب آرائي: كلهم يريدونك أن تسمع وترى وتخرس بعد ذلك»

«إذن مات العم صالح؟!!

رجلٌ يفتح منزله للضيوف ابداً

آخر مرة رأيته في المدينة يسير ببطء ويلهث تعباً. مشيت معه. لم يكن يمرّ أمام متجرٍ أو مخزنٍ للحبوب، للثياب، للبقاليات إلا ويسلّم على الجميع. الجميع يقف له احتراماً. كان صادقاً في التعامل. ومعروفاً جداً. نظر إليّ مشفقاً، ابتسم وقال: اسبقني يا بني إلى القهوة حتى لا تتعب من الوقوف معي، سبقته وطال انتظاري.

«يا عم صالح هل عليك أن تمر بكل فرد في المدينة؟!

«كلهم أصحابي وأحبابي يا بني.. ايه، قد لا أراهم ثانية.

«حدثني يا عم.. ما أخبار القرية؟! وما هي أخبارك!

تنهد وقال: أتعرف؟! مياه النهر جفت من زمان. قطعوا مياه النهر فامتلأت «دواوير الماء» التي كنت تسبح بها بالطحالب والحشائش والقصب البري. لم يعد هناك دوار ماء ولا شلاّل ولا جنيات. تغير الطقس يا بني خفت الأمطار. أما مكان البيادر.. أتذكر البيادر؟ حيث كنا ندرس القمح والشعير.. وحيث كان زعيم القرية لا يحلو له أن يمرر خيوله إلا فوق تبغنا ومحاصيلنا. كان التبغ يتكسر كالزجاج. ويفرط كالرمل..

وحيث كنا نتعارك من أجل الأرض.

لم تعد هذه البيادر موجودة. لقد حرثوها وحولوها إلى بساتين. سدّوا الطرقات. سدّوا النهر وعليك أن تصل إلى القرية أن تلفّ وتدور عشرات الدورات. سابقاً كنا نمشي كما يحلو لنا.. كانت الأرض واسعة.

ضاقت الأرض يا بني الآن.

ضاقت بنا على وسعها.

على كل حال، القرية مهجورة ألآن خرج الجميع منها وأنتم أولاً.. أمك لم تعد تطيق الظلم والإضطهاد. كثيرون غيركم، أنا لن أترك القرية لن أغادرها، وسأطلب أن يدفنوني فيها.

عندما تضيق الأرض لا بدّ من الحروب. ألا تفعل الدول الكبرى هكذا؟! عندما يكسد سوقها تبحث عن الحرب. لماذا برأيك اخترعوا حرب الخليج؟!

آه.. هواء المدينة رطب جداً. ضاق صدري يا علوش.. قم بنا. اشتر لي بعض الحلويات من عند «أبو هاني» سأعود.. «خذ النقود» لم يكن يقبل أن أشتري له شيئاً دون أن يعطيني النقود أولاً. كان يقول «أنت موظف. والموظف في بلدنا فقير» ثم يسعل سعالاً حاداًويتنهد بصعوبة إذ كان يعاني من الربو القصبي. أضحك، ولكن أنا شاعر كبير.

- الشعر لا يطعم خبزاً هذه الأيام إلاّ إذا كنت مثل الشاعر «مقصود»؟!

«مقصود ما غيره..؟!»

«مقصود يذهب إلى عمّه الجنرال يستجديه الكتب والهدايا، ثم يستعطف ويمدح جنرالات آخرين باسم عمه الموقر. بنى قصراً وخصص القبو كله لمكتبة عامرة. عندما زرناه في آخر عودة له من بلاد «الواق. الواق» حيث كان مدّاحاً.»

أدهشتنا المكتبة.. مكتبته.

«ما هذا يا أستاذ مقصود؟! ما هذه المكتبة؟!»

«والله كما ترون»

«كم هي مكلفة.. أليس كذلك؟»

«جداً. جداً.. دفعت بها ثروة كبيرة»؟

«ولكن لماذا ومن أين تصرف على هذه المكتبة الكبيرة»

انتفخ مقصود. وأسند رأسه إلى الوراء على كرسيه الدوار وقال بصوتٍ عريض:

«الحقيقة هذه المكتبة هي من عائدات كتبي..»

ما تدرّه علي الكتابة.. اشتري به كتباً. كيف إذاً سأطور نفسي؟!

«شيء عظيم يا مقصود..الله يعطيك العافية. هذا هو زمن الشعر.. ولكن نحن نعرف أن بعض الشعراء يجوعون»

«يرحم بيّك.. أنت قلتها.. بعض الشعراء يجوعون. هؤلاء ليسوا شعراء يا صالح..» كتمنا صرخة غيظ وضحكةً قاسية إلى أن خرجنا من منزل مقصود. مقصود كما نعرف لم يسمع به أحد لولا عمه.. وهو لا يُملك إلا ديوان شعر واحد.

لم يكن العم صالح يسكت على الخطأ أبداً. لكن في الفترة الأخيرة خفتَ صوته.. قال الكلمة التي لا جدوى منها يجب ألا تقال.

«هل اشتريت لي الحلوى؟!»

ماذا يفعل العم صالح بالحلوى؟ لا تتساءلوا.. كَبُرَ.. ولم يُبقِ الزمن له أضراساً، ولا يقدر أن يأكل «البون بون»

حمل الكيس وقال: الآن سيلاقيني الأطفال.. أطفال القرية فأسلم عليهم بالحلوى.. ماذا يجمعني بالطفل الذي تفصلني عنه أجيال؟! إنهم لا يتذكرون شبابي يا علوش..ولا يعرفون كيف يتحاورون معي. وهم كالفراخ نلقمهم المعاملة الحسنة. غداًيقولون جدّنا صالح جلب لنا الحلوى. على الكبار أن يجدوا الطريقة المناسبة للحوار مع الأطفال. أليس كذلك يا علّوش.

«أجل.»

أوه.. يا علي.. حدثتك كثيراً. حدثني أنت عن أحوالك»

«لم أرد»

هل اصرخ على لحظات مرت ولم أكن أعلم أنّها الأخيرة..؟!

كيف حالك يا بني..؟

ثانية لم أرد..

كان يعرف الجواب. تأسف لأني لم أظل في القرية. وقال: من سيزرع الأرض إذا هجرها أهلها..؟! الغرباء لن يشفقوا على أرضك.. ولن يحبوها كما تحبها أنت ولو جلبت الأيدي العاملة. ثم حدثني عن أشياء قديمة وقال: بأنه رأى خالتي هدبا في المنام.

نسيت أن أخبركم أن العم صالح هذا كان له الأثر الكبير في نفسي. خاصة وقد أحببت ابنته ليلى الجميلة وتزوجتها لفترة قصيرة. ثم.. كل منا رحل في حال سبيله.

العم صالح قال قبل أن يودعني: يا بني عليك أن تتزوج.

«حسن يلقي قصائده.. وأنا أفترش السنوات. وأختار منها ما يعجبني. وأحياناً أضيع ولا أصدق أني مررت بكل هذه الأزمنة. أنا علّوش الذي أفاق على فارس مقتول.. قال لصحبه سيقتلونني، وسأعرف من يقتلني، وقال لقومه، ستتفرقون، وستذبحون وتعانون الظلم والقهر، لكن لن أغير القدَر، دعوني على ظهر حصاني، سار الحصان، واختفى الحصان وعلّوش يشهد الواقعة. يرى بأم عينيه كل شيء ولا يجرؤ على قول شيء، مطلوب منه أن يترك كل شيء على حاله وأن يتطهر بالعذابات الأرضية.

«هل أعجبتك قصائدي يا علوش؟!

لأعترف أني لم أنتبه إلى قصائد حسن أبداً. عندما قرأ الأشطر الأولى من قصيدته الرثائية للعم صالح غبت عن مكان حسن لم أقعد معه لحظة بعد ذلك..تركته وذهبت إلى القرية ثم إلى مملكة سيانو. ثم طرت إلى جبل «كاسيوس وشاهدت ابنة بعل الندية» مشيت إلى مدن بعيدة. ورأيت مملكة أوغاريت شقيقة قريتنا سيانو التي تتصارع مع عدوها «الموت الجبار» تفتته وتطحنه ثم تنثره ليعود أخاها بعل حياً.

أنا ماذا أفعل..؟! كيف اعيد ليلى.. كيف أصارع اليمّ الهائج وأستخلصها من الهاوية. وأذروها على الطبيعة لتنبت أزهاراً كيف!!

بدأت أنتحب. فوجيء حسن بي. هو يسألني وأنا لا أريد أن أتكلم. لماذا بهذهالأسئلة.؟! كل واحد منا يحمل في روحه إرثاً طويلاً ممتداًإلى آلاف السنوات،

أنا هنا الآن في جابالا. كيف وصلت إليها والزلازل دمرتها عدة مرات وجاءها.. الاسكندر المقدوني قبل المسيح بمئات السنين، وجاءها عبادة بن الصامت إذ أرسله جدنا العظيم. الخليفة عمر بن الخطاب لتحريرها.. وتسألني يا حسن ما بي؟!!

عدة في واحد.. قتلى وظالم ومظلوم.. ملوك ورعاة. عصاة ومطيعون أَنجَبِلُ كومة تراب، ينفخون الروح.. أصير عِلّوش.. أصير آخر.. وآخر ينبثق عني.

«لم تقل لي رأيك يا علي. رأيك يهمني»

هل أقول له كنت مأخوذاً بالعم صالح يا حسن. مأخوذاً بنضاله، أستعيد ثوراته ضد الظلم والفقر والزعماء. وكنت أستعيدُ ليلى. لكن ختاماً لكل شظايا ذاكرتي رائعة يا حسن القصيدة. أنت محق في رثاء العم صالح. وعليَّ أن أرثيه أيضاً.

لكن يبدو أن الشعر هرب مني هذه الفترة.

عندما أحببت ليلى كنت كل يوم أكتب قصيدة. حسن يشرب الشاي وأنا؟! يبدو أن ثورة كآبتي لم تنته بعد.

رائحة ليلى تغمرني.

ها هي شجرة التين التي حفرنا على جذعها اسمينا قبل أن أذهب إلى الجيش. كانت حرب تشرين في أولها، وكانت أرض الجولان المحروقة بالنابالم والمرويّة بدماء الأبطال ما تزال تبعث برائحة الحنين والثأر، حرب حزيران لم تكن بعيدة كثيراً. وأنا لم أكن قد نسيت اشتعال البحر وبترول بانياس والطائرات اللعينة التي تحرق وتدمر البيوت الآمنة. وعندما كبرت شاركت في حرب تشرين «1973».

شجرة التين تبكي وليلى تبكي وأنا صامت تتعارك في داخلي الهجرات والأحزان

«ليلى أرجوك لا تبكي هذه الدموع تحرقني.»

أخذت يدها بين يدي. كان الغروب يشلح نداه على الأرض. وكان الخريف في أوجه.

«غداً لن أذهب إلى المدرسة. سأظل لأودعك»

«لا لن تغيبي عن المدرسة، لا أريد أن أودع أحداً. الوداع يزلزلني.» لم أودع

أحداً إلا العم صالح. زرع في رأسي كلمات كثيرة عن الوطن والأرض والرجولة. عندما وصلت إلى الجولان رأيت الصخور تتأهب من حريقها لتعود إلى الخصب. ورأيت الآلهة المقهورين يتجولون في سماء القنيطرة، سمعت صوتاً يناديني: يا هذا.. أنت من سلالتي. وأنا من سلالة أوغاريت. خذ السهم وابدأ.

بدأت الأمطار تنهمر والرعد يضج والأرض تحترق. ونحن نتقدم. نتقدم نصل إلى مشارف طبرية. ياه.. وأنا ألامس الماء المقدس، هلل الجميع وتذكرت ليلى.. أخرجت صورتها ورحت أتفرج على عينيها.. هما الوطن. هما القرية. صوت قوي يجلجل في أذني. العم صالح الذي يقرأ كثيراً قال لي: صوت الرعد. صوت الإله بعل، صوت «هدد» الذي يهدّ الجبال. لقد ترك قمة «جبل كاسيوس أي جبل الأقرع» ومضى باتجاه طبرية يا عم صالح. إني أراه الآن. سيزرع الأرض المحروقة ثانية وستعود مجدل شمس والقنيطره، ستعود وسنرقص في «غابة الجولان القديمة»

عليا أنا لم أعد من الجولان مع الباقين، صحيح أننا انتصرنا لكني أنا فقدت المقدرة على تحديد الجهات، رحت أمشي في طرقات صخرية بركانية.

«جبّاتا الخشب»

لقد تهت، ببساطة تهت لأني نفرت من قطيعي محاولاً استطلاع المكان بعيداً عن الجميع حيث يمكنني الاهتداء إلى قصيدة تفوق بوصفها قصيدة «وقعة عمورية الشهيرة» لكن تهت، لا أعرف أين أسير، استبدّ بي الجوع والعطش وأنا ألمس الصخور المجدوزة بالرصاص. وأمرّ بالتلال تلوّح لي إلى أن فقدت القدرة على السير. لا أعرف كم من الوقت مرّ على ضياعي إلى أن انتشلتني دورية سورية وأعادتني إلى أهلي. ما الذي جرى لا أعرف. ليلى ترتدي السواد الذي زادها بهاءً ووقاراً.. لم أعرفها في البداية فأخذت تنتحب وتشد ثيابها، أخذتني إلى شجرة التين.

«علي.. انظر»

أقرأ على الساق.. «علي.. ليلى» من هؤلاء؟!!

علي؟! أنت؟!

وليلى.؟!! لا أعرف. لا أعرف. اسم امرأة. أخذت تعيدني إلى أمكنتي القديمة، تحدثني، لكني لم أكن أسمع شيئاً، كنت أسمع أزيز الرصاص يخترق دماغي.

وطائرات تغطّ كالنحل في شعري. أصرخ بين اللحظة والأخرى. هه.. سقط زميلي. أجل. انظروا القنيطرة التي تحولت إلى أوابد. ابنها سقط في القنيطرة وأشير إلى امرأة عجوز. أبدأ هستريا البكاء. أبكي بحرقة. ثم أخرج من يدي الجميع وأركض في القرية. هذه ليست الجولان، وهذا النهر ليس البحر الميت، هذا الماء ماذا؟!! أحد مشايخ القرية اقترح أن يربطوني إلى شجرة التوت ويضربوني ليخرج الشيطان مني.

«هو شيطان واحد؟!

«هو آلاف الشياطين، ثم كل يوم يزيدونهم واحداً»

عصا التوت اللعينة تنهمر على جسدي كأن سقفاً ينهار عليّ. أتألم. أستغيث، ليلى تبكي وتداري صراخها بالصبر، أستغيث بأمي. وأمي منشغلة بحزنها. «ضاع الولد، الحرب جننته، يلعن أبو الإسرائيليين، أولاد الكلب. الله يهدهم. هكذا أمي، كل يوم تفتح صدرها وتدعو الله أن ينتقم من العدو الذي شرّد وهجّر أخوتنا وأولادنا وأطفالنا.

الشيخ يضربني والفضاء يحترق. يحترق. والجولان يحضر بكل طائراته وقنابله إلى أن أغيب فيجرّدني ككلب أجرب ويرمونني في بيت المؤونة وعندما تولول أمي يزعق الشيخ في وجهها. هس يا امرأة اصبري كي يشفى ابنك.

كان العم صالح غائباً عن القرية. كان في حلب وعند عودته ركض الأطفال نحوه، جاء عمّو. جاء العم صالح.

العم صالح يجتاز الطريق الترابي الأبيض الذي يشرّق عبر مفرق لطريق ينعطف شمالاً باتجاه نهر صغير. ها هو يعبر النهر. ها أنا مربوط على شجرة التوت. بدأت أتعرف إلى الأشياء التي تتحرك أمامي. هذا الرجل أعرفه. الرجل الذي يفيض وجهه بإشراق إلهي. أعرفه. يرتدي سترة سوداء وقنبازاً أبيض مخططاً بالأسود و «شملته» السكرية على رأسه، ذقنه نابتة بيضاء. اقترب نحوي. لم يسلم على أحد. الشيخ يقول له. الحمد لله على السلامه يا صالح. العم صالح يقطب جبينه. ماذا تفعل يا شيخنا؟!. ماذا تفعل أيها الـ.. رآني كثور منبطح على الأرض. أشخر وعصا الشيخ فوق ظهري. تهبط وتعلو. رمى العم صالح أغراضه على الأرض وهرع إليّ.. أيها المجنون. ماذا تفعل؟!

«الولد ركبه الشيطان بسبب الحرب»

«جُنَّ الولد يا عم صالح»

الشيطان؟!!

أي شيطان تتكلمون عنه؟!

الشيطان لم يدخل إلا في جسدك يا شيخ. متى تتخلى عن طرائقك الوحشية؟!

ـ أخذت الولد من بين يديه.. إنه مثل ابني. ولد ذكي. مجتهد ـ شاعر ـ لطيف ظلّ شهراًعلى هذه الحال. كل يوم أحدثه بهدوء. وأمنع عنه زيارة الثقلاء ـ

هكذا كان العم صالح يروي حكايتي. وكانت عيناه تدمعان.

ـ وشيئاً فشيئاً استعاد علوش ذاكرته. عرف ليلى أولاً. صرخ بأعلى صوته: ليلى. مشتاق إليك «بالجهل كانوا سيقتلون الولد» لم يخبروا الدولة به، كانت عالجته. يا أخي هذا محارب في الجبهة وتعرض لنكسة نفسية. هذاالشيخ يحتاج إلى قصّ يديه.. الحمد لله.. شفي علّوش»

= علّوش. سأقرأ لك قصيدة أخرى. أريد أن أطبع ديواناً باسم ـ عنت»

= يعني؟!!

= يعني أخت بعل. ألسنا من يرث أعظم أبجدية. وعلينا أن نذكر بها دائماً وأن نتمثل رموز تلك الحضارة العريقة التي منحتنا أول تنويط موسيقي وأول أبجدية.

«عظيم.. ها أنت تغرف من الميثولوجيا. اترك لي قصيدة الرثاء للعم صالح أرجوك. العم صالح كان سابقاً لعصره. سابقاً لأولاده بكثير»

يهز حسن رأسه.. أتذكر كلبته السوداء المرقطة؟!!

«أذكرها يا حسن. كيف لا أذكرها.؟ كانت تقطع لقاءاتي الليلية مع ليلى.

أنادي ليلى من وراء نافذتها كي تخرج لنمشي في العتمة. كان يكفي أن نمشي في الظلام متجاورين لنمتلك العالم كله. ولكن الكلبة اللعينة كانت لنا بالمرصاد. دائماً تكشف خططنا بنباحها فتحتمي ليلى بي لكني أبعدها عن صدري مضطراً قبل أن يخرج أحد من منزله. تندفع ليلى باتجاه بيتهم وأنا أصعد السطح الترابي عن طريق السلم الخلفي. عندما عرف العم صالح بالأمر.. طلبني

إلى مشوار صغير. حدثني صراحة وقال عيب أن أفعل ذلك. يجب أن أدخل المنزل من بابه.

ـ هذه الكلبة ماتت.

ـ ذهب الغالي ولا أسف على الرخيص يا حسن.

ـ لو تعرف كيف؟! منذ أيام فقط. عندما مات العم صالح. انزوت الكلبة عند عتبة منزله وعيناها تدمعان. في اليوم التالي رفضت الأكل. وفي الثالث والرابع.. هكذا لم تقبل الكلبة الطعام. حاولوا كثيراًأن يطعموها فرفضت الأكل نهائياً حتى ذبلت وماتت على عتبة بيت العم صالح. الحيوانات تحزن فتصور ذلك؟

ـ يا إلهي، معقول؟!

أشعر بالإختناق. لماذا حضر هذا الماضي كله دفعة واحدة في قصيدة حسن. هل جاء قصداً ليوقظني على أثلام جديدة؟! منذ أن سكنت أمي بعيداً عن القرية نوعاًما لم أعد أزورها.. حتى حسن لم أره منذ زمن طويل. الآن جاء حاملاً إليَّ ربع قرنٍ رماه أمامي. بعثره وقال أتعرف من الذي يمشي هناك؟ من سقط هناك من الذي يصمم على أن ينتقل إلى الآن. بعد سنوات عديدة. وأنا ماذا أقول. هل أراهن على الذي سيمشي إلى ما بعد؟!

«اقعد يا حسن»

«لا. سأعود إلى القرية. المدينة تخنقني. أشعر أني منبوذ فيها. هي لا تخصني لأني لا أملك بها صخرة أجلس عليها.

«قد يقضي المرء منا عمره كله وهو لا يملك هذه الصخرة. أتقول عندئذ إن هذا الوطن لا يخصنا.؟!

«أنا أقول:»

«أبقى اليوم.

«لا.. السيارات متوفرة ومتى شئت تعُود إلى قريتك هناك في القرية تجد لك وسادة. هنا أين سأنام.؟! ينظر حسن حوله إلى المنزل المتواضع ثم يقول: ربع قرن أيها الصحفي والشاعر وأنت ما تزال على سرير وكنبة وطاولة وكرسيين، والله

عمتي لطيفة لا تقبل بذلك. وخالتي سعدة لا تقبل أن تزوج ابنتها لرجل مثلك ثروته كنبة.

«هه.. ثروتي قصيده. أيها الثرثار الجميل.

«يا سيدي الحال من بعضه.

«ماشي الحال. إلى اللقاء»

....

- 10 -

أغلق حسن الباب ورحل.

أغلق الذاكرة يا وغد.

رجل يغلق المحضر، رجل يفتح ثغرة في سور المقبرة. هناك في مدينة تغرق بهدوء في البحر، مدينة تدعى لاواديسيا فيها امرأة من خضرة الأرض، إلى الشمال من لاوديسيا. رأس شمرا. أوغاريت. المرأة قالت للرجل أنا سكنت هذه المدينة.

الرجل يندهش. أيرجمها؟! هذه امرأة مجنونة. ولكن لماذا يطلق الواحد منّا هذه الأحكام؟ لماذا تحول بعل في أوغاريت إلى هداد.. ومنه انتقل إلى مردوك..لماذا صار جوبيتير. لماذا تقمصه «تشوب» إله الحثيين؟

آه يا تليبنو.. يا إله الخصب الآخر. الـ «هو». لماذا تنام عندما تغضب من الآلهة كيف لك أن تنام. هل النوم هو هروب.؟!

أغمض عينيك قريباً سيأتيك النحل ويلسعك لتستيقظ وتنشر الخصب كم من الوقت هربت.. ثم عدت. ثم هربت ولم تعد حتى ألآن؟ الذين يرحلون لا يعودون. لكن الماضي الذي تركته يعود إليّ وكأن الآلهة سخرت لي خلية نحل تبحث عنه وتقرصه كل لحظة ليفيق ويأتيني. لمَ؟.

حسن أغلقَ الباب ورحل.

العم صالح أغلق دفتر الحياة ورحل.

ليلى أغلقت اليمّ ورحلت.

عليا تفتح عليّ كل أبواب الرحيل وأنا اجتزت مرحلة من مسيرة القدر التي لا أقدر على تغييرها، الحكومات تسقط. والأسوار بين الدول تنهار. والذي كان يطلق الرصاص علينا صالحناه وصرنا نسهر معه ونحتفل بأعياده.. هاهو الملك المبجل ذو اللحية البيضاء لحية النقاء. ها هو يراقص زوجة عدوه الذي يتغذى على شهقات الأطفال. الملك في وادي عربة يحتفل. وأنا أكتب آخر صفحة في مجلد الذاكرة كهذه المرحلة..

كلبة العم صالح ماتت احتجاجاً على الزمن.

أنا يحضرني الزمن بكل فخامته، الذي فات مات يا حضرة الملك أليس كذلك؟!

حسن أغلق الباب ورحل. خلّف ربع قرن في المنزل ومضى. كأنه لم يفعل شيئاً.نشر حبل طفولتي كلها على البلاط العاري. أشعر بالبرد مع أن الشتاء لم يدخل بعد إلى المدينة. ما تزال نسمات البحر دافئة نوعاً ما. أرتعش. أشعر بوخزٍ في قدمي. ها أنا الآن فوق الصخور السوداء المحروقة في الجولان. أركض حافياً. جائعاً. الهضاب تدور بي.. تل الفرس. تل أبو الندى. تل.. تلال كثيرة أحضنها.. ها هو سرحان زميلي لا يرد عليّ.. سرحان لا يرد.. سرحان. سرحان. انفجر باكياً لم أرَ شاباً ميتافي حياتي إلاّ سرحان.. يهرع قائد الكتيبة. يركلني.. اركض. هيَّا.. غيّر مكانك.. حملناه ومضينا.. لم تصل سيارة الإسعاف حتى سقط قائد الكتيبة وراح جسده يضيء بالنابالم. لم أعد ارى أمامي ولست قادراً على الحركة أو الكلام. صورة ليلى في جيبي. سرحان.. آه يا سرحان ماذا أقول لأمك؟ سرحان جاء يشارك بالحرب بإرادته، لم يكن مجنداً.. بكت أمه. لكنه رفض ان ينصاع لدمعها. سرحان.. ـ الله يسامحك يا حسن ـ أشعر بتأنيب سرحان، هل صعب عليك أن تتذكر سرحان يا علوش؟!

لا.. ولكني حزين لأجلك، لا طاقة لي على الحزن. الأشياء التي نحزن عليها الآن وسابقاً لا قيمة لها يا سرحان.

ها أنا يغمرني النهر. أسبح في مائه.. أمي تقول: لم تنظف جسدك جيداً.. تنظر إلى رأسي. تفلّيني من القمل. جدتي تقول. رشّي رأسه بالد.د.ت أوه. رائحة

الد.د.ت تزكم انفي وتخرّش حلقي. أكاد أختنق يا أمي. يغمي عليّ.. تهرع أمي باتجاه مزار القرية. تشعل البخور وتبتهل. يراها العم صالح. يا مجنونة.. يا مجنونة. هذه مادة سامة. خذيه إلى النهر ارميه في الدوّار. أشعر بالانتعاش.. آح. الماء بارد.. أنظر حولي لأرى ليلى النحيلة.. ذات العيون الواسعة «حميدوش» راعي أبقار القرية يشبب بقصبته. ابعد الأبقار عن ماء النهر الآن.. الماء ملوث بالد.د.ت. اسقيها من الجب، يصفّر حميدوش أنغاماً رقيقة عذبة كان من المفروض أن يدخل فرقة الإذاعة. ثم يختمها بالدلعونة، وسكابة. ثم يا بو الزلف» تتناطح الأبقار مع بعضها. ترتفع أصوات الصبية. يهربون من أمام الأبقار التي أصابتها «الدودابة»(*) حشرة القرّاد في آذان الأبقار. الأبقار تركض في الظهيرة تأخذ في طريقها ليلى. ليلي النحيلة تسقط تحت بطن ثور تزحلق على حجارة الدار، تصرخ ليلى. تركض الأمهات. يتفقدن أطفالهن.

- يهرع الرجال يحاولون سحب ليلى من تحت بطن الثور الذي انكسر فخذه. نبكي نحن الأطفال على ليلى الصغيرة. يقلبون الثور. بصعوبة. يحملون ليلى وهي غائبة عن الوعي. من يوم الحادثة هذه دخلت ليلى ذاكرتي. دخلت ولم تخرج. ولم تسمح لأخرى بالاقتراب. لا أعرف إذا كانت عليا ستقدر على الدخول.

لماذا جئت يا حسن؟

الجذور المتشعبة تمتص رطوبة جهات كثيرة. أردت أن أقطع بعض الجذور لأتفرغ للمدينة التي أسكنها فقط. ألا يكفي ضغط العمل وحرتقات الزملاء.. عدنان. سلوى. العمود الصحفي. أوه. أشعر أني بحاجة إلى سامح. بحاجة إلى أن يسمعني أحدهم.. الجدران. البحر. أي شيء آخر المهم ألا يقاطعني كي أطرد هذا الماضي كله وأنتهي

«رجل يضحك على نفسه»

«رجل يريد أن يطرد الماضي. هل تصدقون كذبة من هذا النوع؟!»

أعرف أني لا أقدر.. نحن شعب ماضوي. أنا أريد أن أطرده لأنطلق إلى الأمام. لأعيش الآن لهذا السبب تركت الشعر العمودي. وشعر التفعيلة وكتبت النثر.. فقط. الحاضر سيفرض نفسه شئنا أم أبينا. ما معنى أن نضع رجلاً في الجاهلية ورجلاً

في الغرب.؟! ستتشظى يا سيدي الشاعر. لأول مرة أشعر بحاجة للقصيدة. منذ شهور طويلة لم تدق عليّ القصيدة بابها. ها أنا أهيء القلم والأوراق. لكن للأسف لا يوجد عندي بن. أحتاج إلى القهوة كي تكتمل طقوس كتابتي.

عليّ أن أستعير من الجيران. أقرع الباب.. تفتح امرأة شابة. لا أعرف هذه المرأة.

«عفواً أنا قصدت الأستاذ سعيد جاري. هل هو موجود»

«لا. لقد ترك المنزل وأنا هنا الساكنة الجديدة. هل تريد شيئاً؟!.

«عفواً. أنا...... كنت. أريد بعض القهوة.

«من عيني يا أستاذ. ألست الشاعر والصحفي....»

«أتعرفينني..؟! طبعاً وأتابعك.

«شكراً»

«ولكن لماذا لم تطلب القهوة من أم رافع؟!

ارتعش جسدي. ماذا تقول هذه المرأة.؟! تقول إنها جارة جديدة. ومع ذلك تعرف أشياء كثيرة.

«تتابع.. لقد عثروا على ثياب رعد فقط»

«منذ متى تسكنين هنا؟!

«منذ رحيلك يا أستاذ.

«أنا لم أرحل. وأم رافع ماتت..»

«أم رافع لم تمت. كانت عند ابنتها في دمشق، لماذا تقول ماتت «فأل الله ولا فألك» يا عيب الشوم.

أترك القهوة وأمشي، الجارة تنادي عليّ بالقهوة ولكنني أغلق الباب ورائي مهزوماً مهموماً، بماذا تخرّف هذه المرأة؟

«خذ القهوة يا أستاذ» لم أردّ تكورت تحت اللحاف. أشعر بالبرد. كان تشرين يهم بالرحيل ليدخل تشرين آخر. أم رافع كانت مسافرة؟!! من الذي قتلته أنا؟! وسلوى اغتصبت من؟!

سلوى؟.... اجل بعض النساء يغتصبن الرجل. هي التي أغوتني راودتني عن نفسي وصورتني، هددتني بالصور. من أين لها الصور؟! يا لغبائي. إنها صورة ممنتجة، أجل عملية مونتاج بسيطة تخربط الدنيا.. مونتاج صورة. مونتاج صوت. إنه زمن. الكمبيوتر. آه يا علّوش. أيها الفلاح الحزين. ها هي صكوك معاهداتك، أنت توقع هنا. والملك في وادي عربة يوقع هناك

أنا أقتل؟!

مرة قتلت رجلاً.. وإذا به الفزّاعة التي تستخدمها أمي في حقل الخيار لتفزع منها العصافير التي تسرق البذار.

سلوى.. ماذا تفعلين بضحاياك.. أم أنت الضحية؟!

الله يسامحك يا حسن؟!

خمسة وعشرون عاماً، رميتها في حضني وذهبت. كنت قد خيَّطت جراحي. ربطت كيس الماضي كي لا تهرب إليّ شياطينه وخيباته. لماذا فتحت الكيس في هذا الوقت؟ كدت أن أخرج. عليا تقف لي بالباب تريد أن تمسك بيدي. وأنا أريد أن أضمها. أضمها وأبتدىء من جديد.

المتفوق يبتدىء ولا ينتهي.

وعلى الشاعر أن يبدأ كل يوم. ليندهش كل يوم. مسكينة سلوى. لماذا فتحت الكيس يا حسن؟

....

- 11 -

لا.. جارتنا كاذبة.

بالتأكيد كاذبة. أنا قتلت. يا أخي أنا رأيت امرأة مقتولة في حمام المنزل. امرأة. فزاعة. ثوب.. لا أعرف. المهم رأيت امرأة. هددوني. قالوا: إما أن أبيع لهم نفسي أو سيلقونني في السجن بتهمة القتل المتعمد والأعمال اللاأخلاقية خاصة وأن أم رافع امرأة جميلة جداً ولا يعرف الزمن طريقه إليها.. قد تكون أكبر من أمي. أو أكبر من جدتي. ومع ذلك هي تظهر ابنة عشرين عاماً. امرأة

فاتنة. يهواها الرجال.. وهي لا تهوى إلا أولادها. قلت أبيع نفسي. ظننت أنهم سيأخذون كلية.. قلباً.. عضواً.. ولكن الأمر لم يكن هكذا.. وإذا بهم يريدون أن أبيعهم صوتي وخيالاتي.

دهشت. فلم أقل نعم.. ولم أقل لا. صمتّ كمن وقف على رأسه الطير. قد أصرخ بعد قليل. آه يا أمي. كم أشعر بأني أحتاجك الآن. هل كان عليك أن ترحلي الآن إلى دمشق إلى عند أختي لتقضي وقتاً عندها؟!! بحاجة إليك الآن. كي نذهب معاًإلى «المحفارة» حيث التراب الأصفر. نأخذه لنسدّ ثغرات الحيطان والأسطحة كي تمنع الوكف.. وحيث جارنا يمسك بقرته وكل فترة يقترب بها من الزرع يدعي بأنه سها ونام والبقرة دخلت وحدها إلى الزرع.

آه.. جاء الشتاء يا أمي. ألن تكومينا تحت اللحاف الوحيد؟!. أخوتي وأنا بينما تذهبين أنت إلى جرة اللبن لتخضيه

أنا هادنت؟!!

ماذا أقول لأمي؟ وكيف أرد على عيني جدّي الذي يأتي مساءً على جواده ويرقبني من وراء زجاج النافذة. وعندما أصرخ من أنت؟! يبتسم بود ويقول: أنا جدّك «أحمد» جدك لأبيك. حاول أن تتذكرني.

ماذا أقول لحليب أمي المخلوط بالتراب والقمح والعنفوان؟ ماذا أقول للعم صالح الذي كتفوه على جذع شجرة وتركوه يموت جوعاً أمام القرية كلها. ثم أهانوا كل من يقترب منه لمدة ثلاثة أيام فقط لأنه رفض أن يتخلى عن منزله لزوجة زعيم القرية بحجة أن منزلها قديم وتسكنه البراغيث

«السيدة المحترمة يا عم صالح كرهت قصرها وتريد أن تصطاف في منزلك الجديد» «ولكن لم أسكنه بعد.. طينه لم يجفّ بعد.. خشب سقفه ما يزال يحمل رائحة الحقول ورائحة مياه النهر..... هذا النهر الذي يغضب شتاء ويثور فيكسر الأشجار ويطغى على الحقول. «يا أخي أسرتي في العراء وهي أحق بالسكن فيه»

«ولكن زوجة الزعيم تعاني في المصيف من البراغيث في قصرها ومن الفسفس (بق الفراش» فغر العم صالح فاه. «وأسرتي؟»

«أسرتك نسكنها في بيوت القصر السفلية.. نطرد عائلة الدوري «أبو حسن» وتسكنون مكانها.

«أنا أقبل بطرد أسرة إلى الأكواخ ومن أجل ماذا؟! من أجل: الست»

كان حسن صغيراً مثلي وكان يلعب بالحصى لعبة «التكرعة» سمع كلام العم صالح ولكنه تابع لعبه

«طيب.. أتضنّ بمنزل لعدة أشهر لزوجة الزعيم؟!

«أجل»

أتذكر ذلك يا حسن؟!

كنت أمسك بيد أمي حين سمعت العم صالح يصرخ ويشتم ثم ساقوه إلى شجرة زيتون وربطوه. ناديته.. عم صالح. عم صالح.

«اخرس يا كلب...أبوك وأبو العم صالح. انقلع من هنا.

«اترك عمك صالح في محنته يا بني»

ما معنى المحنة يا أمي؟ لم ترد أمي. وعندما تعبت من أسئلتي تنهدت بعمق وقالت: اسكت يا ولد. فسكتّ.

الآن أدرك تماماً أنه كان عليّ السكوت من زمان. لأن الذي صرخت لأجله ما يزال هو تقريباً مع فارق في الأدوار. أنا أقول ذلك في كل مرة ولكن لا أدري ماالذي يدفعني للصراخ.

ها هو المطر يذكرني بالوكف. بيتنا الذي كنا نأكل فيه وننام فيه. ونخبز فيه ونستقبل الضيوف فيه وهو عبارة عن غرفة كبيرة فيها ساموك في الوسط. ومطبخ صغير. أو ربع غرفة بلا ماء ولا مجلى يقال لها مطيخ. وكانت شجرة رمان تتدلى فوق جرة الماء وشجرة توت فوق المصطبة.

أيها اللعين. يا حسن. هل كان عليك أن تفتق ذاكرتي وتنبش كل الذي فيها..؟! عليا تحاول ان تفعل الشيء نفسه وكأنك عندما تلتقي إنساناً مهماً بالنسبة لك عليك ان تنبش ذاكرتك أمامه ليتعرف عليك. كم وغداً في داخلك وكم شيخاً وكم لصاً..؟ وإذا هو رفض سيرتك.. تحب نفسك مواجهاً لنفسك لتذكرك

بنضالاتك القديمة مع الوحل. وطريق المدرسة الطويل. الطويل. الذي لا ينتهي. وبثيابك الصيفية الشتوية معاً. وبموقدة الحطب. ومنقل الفحم الذي يملأ الجو دخاناً وبشبابة الراعي.

حسن؟!

«مكدس» الحطب الذي يرقدُ وراء المنزل فيه القطن. أغصان صفصاف زيتون. وبلان.. «مكدس كبير» تلة حطب جاف. وتلة أخرى «جلّ» هذه التلال هل تكفي لتشعل الذاكرة وتنتهي. يا أخي نحن أولاد الآن ومعاهدتي. وحبك الفاشل. وليلى. والعم صالح.. وكلهم.. كلهم مع الست زوجة زعيم القرية. كلهم.. لنحرقهم ونبدأ من جديد. لكن صوت أمي يحفر في اذني.

تخضّ أمي جرة اللبن النائمة على خرقٍ بالية وتطلق العنان لصوتها الحزين. الجرة تعلو وتهبط. صوت أمي يدبغ جدران المنزل الترابي القديم بالأمل والقهر والانتظار. أخوتي ينامون جميعاً. أنا أتظاهر بالنوم. صوت أمي يفجّر في روحي اشياء لا أعرف كيف أعبّر عنها. أريد أن أبكي وأصرخ معاً. وأحياناً كان يخطر لي أن أقول لها: كفى يا أماه. أرجوك كفى. عند المساء كنت أشعرُ بالتعب فقدميّ حقل شوك وكومة ديس. أتقلب يميناً ويساراً. لا أستيقظ إلا على نباح كلبتنا.. فإذا كان النباح عادياً ويستمر بوتيرة واحدة أتابع نومي. وإذا كان النباح قوياً أيقظت امي كي أحتمي بها من اللصوص الذين يمرّون على القرى يقطعون رباط الأبقار الغافية ويسوقونها أمامهم. أو يدخلون المنازل الآمنة تنهض أمي مسرعة تقول بصوت عالٍ «لص؟! أي لص كلب ابن كلب يجرؤ أن يقترب من بيتي؟!»

العم صالح قال لأمي هامساً «احذري من زعيم القرية» هذا الآغا المحترم الذي ترين صورته في الجرائد وقد رشح نفسه للمجلس النيابي. يلبس احياناً ثياباً غريبة ويتصرف تصرُّف اللصوص هو لص حقيقي عينك، عينك في النهار» ولكن في الليل يتخفى كي ينال من بعض النساء الوحيدات. لقد دخل خيمة «ريما» لم تعرفه في البداية. صرخت لص.. لص. ولكنه غطى فمها بكفيه.. كاد أن يخنقها.. قال لها أنا لست لصاً يا بنت الكلبة.. أنا الزعيم. أريدك يا ريما ولكن لا أريد لأحد في القرية أن يعرف.. عند المغرب رأيتك تملئين جرة الماء من النبع.. سلبت روحي يا بنت الحرام. ساقاك العاريتان في الماء أذهبتا عقلي. ألم تشعري بي؟!

«بلى.. بلى يا سيدي. ولكن قد تعرف بنا القرية وينفضح أمري..»
«ولماذا لم تخافي أن ينفضح أمرك مع «هوّاش»
«هواش أحبه يا سيدي. أحبه والقرية تعرف ذلك»
«وأنا ماذا...؟! أنا أشتهيك أكثر منه.»
«لا.. لا. يا سيدي.. أتوسل إليك يا آغا.. سأصرخ إذا أجبرتني على فعل شيء لا أريده»

لم يستغرق الوقت إلا دقائق حتى كانت ثياب ريما مشقوقة وثدياها يندلقان من ثوبها.. شعرها منفوش وهي تركض مسرعة باتجاه منزلنا. «يا عم صالح. يا عم صالح»

هرب الزعيم.. ولم يصدق ريما أحد.. الزعيم يأمر والكل يطيع. الزعيم قال: إنه شاهد لصاً في طريق عودته من المدينة. ورجاله أكّدوا ذلك. وقالوا إن هذا اللص يدّعي بأنه الآغا.. هل يعقل أن يفعل ذلك الآغا يا عم صالح.. «لا. أبداً. الآغا رجل وقور محترم. يخاف الله»

لكن من الذي حمل خيمة «حسنة»؟! يا رجال.. حسنة نائمة في خيمتها أمام منزلها.. الزعيم لا يريد أن تثار الضجة حوله. أفضل طريقة أن يحملوا الخيمة كهودج، حسنة نائمة لم تستيقظ إلا وهي في حضن الزعيم في مكان آمن، اصرخي ما طاب لك يا حسنة لن يسمعك أحد. رجال الآغا يقهقهون ويرسمون بخيالاتهم أجمل صور الفحولة لسيدهم وهو يغتصب امرأة لم ترزق بأولاد. أنين الآغا وتأوهاته مسموعة لدى الرجال. صراخ حسنة المكتوم الذي غاب أخيراً. تمنى رجال الزعيم أن يكونوا مكانه.. سيرون ماذا تفعل حسنة ومئة حسنة غيرها سيمصونها حتى العظام.. وسيرتوون بعد ذلك مع برميل عرق

«ولَك يا ناس حسنة حامل.. حسنة زوجها مات في حرب (48) حرب فلسطين. وحسنة كيف هي حامل الآن بعد هذه السنّ، يا عيب عليها؟!

لم يقل أحد يا عيب على الرجل الذي فعل ذلك. ولم يوبخه أحد إلا زوجته. حسنة حامل. حامل، إلى أن وجدوا حسنة تطفو على وجه الدوّار في يوم عاصف.

تنتفض أمي كلبوة «فَشَر» من يجرؤ على الاقتراب من بيتي أنا عندي رجال

والتفتت إلينا نحن الصغار. تنظر أمي من شبّاك، وهو لم يكن شباكاً، كان طاقة» ثم تتجه نحو الباب تفتحه بحذر فلا تجد أحداً.. تعُود إلى فراشها. اشعر بها مضطربة «نم يا علوش» اللصوص يأتون من الداخل يا ولدي.

أنام.. أنا علوش. الولد المطيع ولا أعرف الداخل من الخارج. المهم هو أن أمي تطوقني بذراعيها وتهدهدني حتى أغفو. ثم سنذهب صباحاً إلى المحفارة. «لقد كبرت يا علوش يا بطل.»

- 11 -

في الصباح.. امرأة تعد الحليب والخبز لأطفالها.

في الصباح الأطفال يتسابقون إلى المدرسة بصنادل جلدية عتيقة.

وفي ذلك الصباح لم نذهب إلى «المحفارة حيث التراب الذي نجدد به طين المنازل» كانت الرياح الخريفية محملة بورق التوت. تعرت شجرة التوت التي أمام منزلنا. العم صالح يربط بقرته في المرج ويعود ليلعب المنقلة مع رجل غريب لم أعرفه.. ناولني قطعة حلوى. ثم تابع حواره مع الرجل الغريب. سمعته يقول هامساً وهو يعد. 7 ـ 8 ـ 9.. «الظلم لا يدوم يا أبو محمد»

ـ يا سيدي لو رجعت لحكايات الأقدمين لرأيت أن للظالم نهاية مهما طالت. وهذه الأرض التي نبذل دمنا في سبيلها ستكون لنا ذات يوم. أما هذه «الدبابة» زوجة الآغا التي لا يتسع لها قصرها. سيتسع لها القبر.. لك أن تتخيلها كبارجة تدور في القرية يوم أمس تبحث في أكداس الحطب المكومة منذ بداية الصيف عن أغصان كينا أو سرو لتلبس صاحب الحطب حالة سرقة.. كل السرو في العالم سروها.. وكل من يحمل غصن كينا من شجرتها.. الحياة ما عادت تطاق يا رجل.

ـ يالله ـ المستقبل قادم ـ هؤلاء الصغار سيكبرون. نظر إليّ العم صالح وابتسم هو يراني منهمكاً بالإستماع إلى حديثه فأعطاني حبة مربى أخرى تشجيعاً لي ثم ردَّد ابياتاً شعرية ما زلت أحفظها حتى الآن. وعندما سمعت صوت أمي يناديني هرعت إليها. فذهبنا إلى المقبرة. سنعشب قبور الأجداد يا بني.. كل سنة أمي في هذا الفصل تجبرني على تعشيب القبور. كان الشوك يغطي القبور. والبلاّن ينتشر بينها..

حين دعسنا على بعض القبور الغائبة تحت الأعشاب سمعت أنيناً. لم تقل أمي شيئاً. سارت بي إلى قبر آخر، قبرٍ طويلٍ مزخرفٍ. هذا قبر جدك يا علوش - والدي - يقولون إنه والدي. لم أفهم شيئاً. يقولون؟! لكني ولد مطيع لا أكثر من الأسئلة.

«لقد رأيت جدك يا علوش في منامي. رأيته يعاتبني ويشهر منجلاً في وجهي» عندما ظهر حمدان الكسيح في المقبرة لم نكن قد انتهينا من تعشيب قبر جدي. نظرت إليه أمي باندهاش.. «ولك حمدان متى صرت تمشي؟»

«شفيت بفضل الله وبفضل الشيخ شهاب.»

«الشيخ شهاب والدي؟!»

نعم.. والدك الطاهر - النقي. رأيته في منامي يمسك بي ويأمرني بالنهوض. قلت له لا أقدر على السير يا عمي. قال: قم.. قمت. امشِ..مشيت. رشَّ على ساقي تراباً.. قال هذا من ترابي. في الصباح نهضت من فراشي كالنمر.. لذلك نذرت له البخور والدجاج.

صمتت أمي. كأني أراها الآن. امرأة قوية البنية. قوية الملاحظة. شديدة البأس.. سريعة البديهة. تطلق أبيات العتابا كأنها تسكب ماءً. لو كانت رجلاً في هذا العصر الرجالي لكان لها شأن. فجأة بهت لون أمي. تلعثمت ولم تعد قادرة على لفظ حرف واحد. تركت المقبرة ومشت باتجاه «حاكورة المنزل» لتعشب شجيرات الزيتون الصغيرة... دخلت المنزل.. جدتي على الباب تدلك يديها المتيبستين.. وضعت «المنكوش الصغير على الأرض».. أسمعت؟! قالت موجهة الكلام لجدتي..

«ماذا؟!»

«والدي ظهر له كرامات.. والدي شهاب ولي.. طاهر. نقي.

«ماذا تقولين يا فطوم»

«كما سمعت.»

«والدك.؟!! أنت تعرفين من والدك يا فطوم.. اذهب من هنا يا علي: أنا أذهب كما تأمرني جدتي. لكن لا أنسى همسهما..

«وهل أنجب أولاداً حتى يكون أبوك.. وهل هو إلاَّ.. لقد باع هدبا هي ليست ابنته.. عرف أن زوجته تلتقي برجل آخر وسكت كي لا تنفضح رجولته.. كان «سلّوم» يقوم مقام أبيك يا فطوم.

ماذا قالت جدتي لأمي المنكسرة. كدت أبكي عليها.. أمي المنكسرة الظهر. العارية الرأس «هيّا إلى المحفارة يا بني»

امرأة تحمل منكوشاً وكيس خيش وتشير إلى المحفارة. يتبعها طفلٌ صغير لم يتجاوز العاشرة.. نحيل.. أسمر البشرة. حافياً يسير.

المرأة تسير مثقلة بالهموم. والطفل تشده الطريق إلى الوراء.

أشياء كثيرة تنقلب الآن ويظهر وجهها الداخلي. أشياء تأخذ مساحات واسعة في الذاكرة ثم تبدأ بالموات.

جدةٌ هرمة تقلب كفيها أمام عتبة منزل ترابي. امرأة تتمتم بالسفر برلك والجوع. بالشيخ شهاب وأقنعته. مَن يصدقها؟! الذي يطويه الزمن يستمر على قداسته أو على قذارته.. من يقدر أن يصحح التاريخ؟ حتى لو أن اللقى الحجرية وجدت مكتوبة بحقيقة أخرى فلن يقدر أحد أن يصحح رُقم الزعماء.. من يقدر أن يقول أن بعل إله أوغاريت لم يضحِ من أجل الإنسان؟!

الزعيم يضحي من أجل القرية. هل تجرؤون أن تقولوا عكس ذلك؟!

القرية لا تضحي بشيء.. أكثير عليها أن تقدم نساءها وأرزاقها للزعيم الذي وهبها الحياة؟!

أمي تحفر. وأنا أعبىء كيس الخيش بالتراب. ننقله إلى القرية. على المصطبة ونعُود ثانية. نحفر. نملأ. نسكب كومة تراب أصغر على الباب. ماذا يقول سلوم البري لا أعرف؟

كنا ننقي التراب من الحصى قبل أن نسكب عليه الماء والتبن عندما قدم سلوم البري

«أليس هذا سلوم البرّي يا علوش؟»

«نعم هو يا أمي»

كانت تشكو أحياناً من تشوّش الرؤيا. فتكحّل عينيها بالكحل العربي لتبدأ الدموع السوداء بالتساقط على خدها راسمة طرقات وشواطىء مخيفة.

نادت أمي «يا عم سلّوم»

اقترب سلّوم. كان رجلاً مسناً. يتوكأ على عكازة جرداء من العقد والزينة

«خير يا فطوم.»

«خير يصيبك»

«أعرف أنك تفسر المنام. وأنا رأيت والدي في المنام. يقرع عليّ الباب ثم يدخل ويخلع ثيابه. أخاف منه وأشعر أني غير قادرة على رؤيته.. أقول له يا أبي أين أنت. خذ ثيابك. يضحك بصوت عالٍ: يقول لي أنت لست ابنتي. سأشرب دمك الآن. كان يركض في أرض المنزل. يحمل منجلاً وهو يبحث عني ليقص رأسي. لكنني أراه يسقط على الأرض والأفاعي تخرج من أصابعه» ثم رأيت حمدان الكسيح صباحاً. قال إنه شفي عندما رأى والدي في المنام. صمت طويلاً سلوم. حملتُ له الماء. ثم قال بعد هذا الصمت.

ـ المنام بداية تشير إلى أنه رجل طاهر.. ونهايته مخيفة. على كل حال والدك ولي من الأولياء.

ـ أرجو ذلك يا عم سلوم ولكن؟!

هزت أمي رأسها وأطلقت نهدة دون أن تضيف شيئاً آخر. بينما رفعتُ أنا رأسي عالياً معتزاً بجدي. فخوراً بالحكايات التي تنسب إليه. يشفي ويبارك رزق بعض الفقراء.

«نحن فقراء يا أمي. لماذا لا يبارك جدي لنا في رزقنا لنصير أغنياء.»

«لا يبارك إلاّ الله يا بني.. لا تفخر كثيراً وترفع رأسك عالياً تقع بعد ذلك.»

في العيد.. ادَّعت جارتنا أنها دعت الله والشيخ شهاب فرزقها الله بصرة صغيرة فيها بعض المال حملها إليها أحد الأصدقاء ولم يفصح عن اسم مرسلها.

جدي لم يرسل لنا في العيد حلوى.. ولا ثياباً جديدة.. كنت أريد من جدي محفظة مدرسية بدل المحفظة القماشية التي تبلل كتبي بالمطر.

«اسكت يا ولد.»

هكذا أنا اسكت.

عدنان قال لي اسكت بعد عشرين سنه.. سكتّ.. لماذا. لماذا؟!

«أنت لست رجلاً.. سلوى هكذا قالت؟!!»

«أنا لا شيء.. أنا ولد وكفى.. اسكت يا ولد. اسكت. لم يعد أحد يقول اسكت.. صرت أسكت وحدي. لا حاجة لأحد بعد الآن أن يقول لي هذه الكلمة. لقد حفظتها وعقلي يرددها آلاف المرات ويعرف متى ينذرني بالسكوت مع الأسئلة الجارحة التي تحز في نفسي.»

(الحال القديم. كالحال الآن. وما سودته في صفحات ومقالات لم تجدِ نفعاً إلاّ في أنه أنثر رمادي أمام الآخر. لن أعود ثانية إلى الحياة كما عاد بعل الإله لا أخت لي ولا أحد سيذري رماد أجزائي. في الحقول لتمتص الأزهار والكلمات والصحف والأوراق..

«والبتول عنت» أخت بعل.. الإله الذي قتله الجبار «موت» انتقمت لأخيها، طعنت «موت» ودفنت بعل على رأس جبل كاسيوس المقدس. عند ذلك عاد بعل = هداد - إلى الحياة ليتابع التضحية من أجل الإنسان.

«الكلمة= بعل. الكلمة المقتولة يا عليا»

هذا العماء هو «موت» الإله الجبار الذي يفتح شدقيه. شفة في السماء وشفة في الأرض. نحن بين فكي الجبار).

اسكت..؟!

على الطفل ألاّ يسأل.

أنا لا يحق لي أن أقترب من أمي وهي تتحدث إلى العم صالح حديثاً هامساً. ولكن لم تمض شهور حتى صار قبر جدي شهاب.. مزاراً مبلطاً بالرخام.. حوله الأشجار الصغيرة. ونافورة ماء. الدجاج يذبح كنذور.. والخراف. والثيران الكبيرة... دجاج القرية مرض بمرض «أبو هدلان» تذبل الدجاجة وتموت خلال يوم واحد.. نذروا دجاج القرية للشيخ شهاب.. شفي

الدجاج. وراحت الأضاحي تنحر. هكذا نساء القرية يقسمن. فإذا مرضن صرخن يا شيخ. وإذا هاجم الذئب الدجاج. صرخن يا شيخ. في الصباح يجدون الذئب ميتاً أمام المنازل.

«سلوم» قال.. العمى القرية كفرت. وابتعدت عن الإيمان لفترة طويلة. بعض الشباب الطائش زرع في القرية بذور الشر.. قال ديمقراطية، وطبقية قال هه!! مساواة؟! والله خلقنا درجات.؟ ابتعدت القرية عن الروحانيات يا ناس.. خربت الضيعة «الآن حقت الحقيقة»

استطالت الرقاب. اندهشت الوجوه. ثرثرات هنا. وهناك. نحن الأطفال -حسن وأنا وسامح الذي وفدَ جديداً إلى القرية لا نعرف شيئاً نذهب إلى المدرسة.. ونعودُ من المدرسة. وفي الصيف يتناولنا الخطيب بعصاه اللينة.

يبدو فعلاً أننا بحاجة إلى أولياء جدد.

«اللي بيعرف. بيعرف»

جدتي تقول هكذا وتنظر إلى أمي ممتلئة بالغيظ. كانت القرية أحياناً تسبب لنا المشكلات الصغيرة مع زعيم القرية. لم أكن أعرف لماذا؟ في الوهلة الأولى فكرت أنهم سيحبوننا أكثر ألسنا عائلة مزار القرية الجديد؟! ولكن يبدو أن جدتي لا تؤمن بشهاب.. وأمي أيضاً. كذلك العم صالح وبعض الشبان لهم ملاحظات كثيرة سمعت أطرافها.

انزوت أمي بعيداً.

والله يخطر في البال يا صالح أن أبني بيتاً في أرض «الدلب» لقد كرهت هذه القرية. أتركها.

كيف تركت أمي القرية؟! الآلهة يا أمي يسكنون الأعالي. تل سيانو ما يزال مليئاً بالآلهة والأولياء والمزارات الجديدة. ديغول نفسه، بعظمة فرنسا كلها يومئذ في فترة الانتداب على سورية جاء وزار سيانو.. أتتركينها أنت؟!

ديغول. بذاته أكل من دجاجات قريتنا.. وزوجته شربت من ماء سيانو. لم تندهش. كانت تعرف بأنها سترى بشراً مختلفين عن كل الناس.. ملوك وعبيد.. هذا هو نظام المملكة يا سيدتي. نحن نتآمر فقط. يومها غضب بعل الذي يسكن

الأعالي وصب لعنته على الساحل كله لذلك استمر في فقره المدقع. كأني بأمي الآن وأنا عائد من المدرسة. «أريد أن آكل يا أمي»

«كل.. الأكل أمامك تحت الطبق»

«أرفع طبق القش لأرى البرغل.»

«كل يوم برغل. كل يوم برغل. كرهت هذه الحياة. أشتهي اللحم. لقد شممت رائحة لحم في الطريق.»

لحم؟! فغرت أمي فاها.. لحم؟!! نحن نأكل اللحم من العيد إلى العيد وكفى الله الصابرين ثوابا.

بكيت. وأضربت عن الأكل. الشاعر سرحان مرض من كثرة تناول اللحم. عمّه الجنرال كل يوم يرسل إلى القرية خروفاً «يقول له. أطعم الجيران والكلاب. والقطط. واترك قليلاً للجرذان الجائعة..»

....

- 12 -

أتدرين يا أم علي؟!

زعيم القرية ذبح دجاجات أم العبد.

واليوم ذبح خروف العم صالح.. القائمقام سيزوره الليلة. هكذا يقولون.

أم العبد بكت بحرقة.

«الآغا كالذئب يا علوش»

«لا تقل هذا الكلام لأحد» جدتي توصيني.

النسوة شكون أمرهن لله.

إحداهن قالت سأنذر دجاجاتي كلها للشيخ شهاب. عند ذلك لن يستطيع أحد ذبح الدجاجات إلاّ برضاه. لكن الدجاجات كل يوم تذبح. والشيخ شهاب لا يحرك ساكناً.

وعندما حلّ عيد الأضحى ذبح الزعيم عجلاًلبيت «الدوري». جدي لا يحرك

ساكناً مع أن والد حسن صديقي ذهب وبكى أمام المزار.

«جدك يا علوش دعا على امرأة رفعت ثوبها عن ذراعيها وهي تعجن. وعندما انحنت وهي تقرفص ظهر ثديها وجزء من بطنها. كانت تتقصد ذلك لتغوي الرجال الذين يجلسون على المصطبة المقابلة لبيتها. جدك دعا عليها.. فماتت بعد أيام بالجدري»

ـ والدك يا فاطمة «كنتِ صغيرة» له حوادث كثيرة تثبت أنه مقرب من الله وأن الله منحه الكرامات الكثيرة.. بوسطة القرية الوحيدة التي تصل القرية بالمدينة.. قتل سائقها بعد أن تدحرجت بالوادي لأن حمدان الكسيح نذر لوالدك الشيخ شهاب ديكاً أزرق منقطاً بالأبيض. ذبحه الشيخ يومها ودعا علىالسائق لأنه لم يقف ويحمله من المدينة إلى القرية. كانت الشتوية قاسية وكان حمدان الكسيح لا يقوى على السير.. ظلّ الليل بطوله يمشي.. وصل القرية عند أذان الفجر. يمشي قليلاً ويختبيء من المطر تحت شجرة. أو بجوار منزل إلى أن وصل أخيراً.

حمدان شكا وقلبه مجروح.

هكذا الأحاديث.

تكبر. تكبر. تصير تلاً.. ماذا في جوف التل.. تلّ سيانو الذي يسكنه الفقراء الآن ماذا في داخله..؟!

تلال كثيرة. وملوك توقع معاهدات واتفاقيات سرية وعلنية والرعايا هم الرعايا.. يعملون لنجدة الملوك من الفقر.. الملك الفقير عند البتراء ينام قرير العين بعد الصكوك الجديدة.. هكذا هي الحال يا حسن.. ماذا تنفع القصيدة مع حال مهلهل.. لا تعرف كيف تبدأ. ولا تعرف كيف تنتهي.. الواقع سبق النبوءة.

أتذكر واقع القرية والثرثرات الكثيرة والفقر. ونحن في مراحل الطفولة الأولى يا سامح؟! بالتأكيد قريتك الأولى كانت هكذا. كل القرى كانت تعاني الفقر والعطش والجوع والعري.. وكذلك في المدينة. أتذكر رفاقنا الفقراء.؟!!

الآن كم تغير أمر الفقر.. صار هناك فقر روحي وهذا أسوأ أنواع الفقر.

أحاديث جدي تشوى مع قرامي الزيتون المحروقة شتاءً حيث يصير الشتاء كله في موقدة الحطب التي تتوسط المنزل. وفي أغلب الأحيان هي حفرة مليئة بالجمر يصعد

منها ضباب يغطي الوجوه فلا تظهر انفعالاتها ولكن نسمَع الصوت فنعرف المرء من صوته.

وفي يوم رمضاني والقرية يكللها رمضان والمطر الغزير جداً. دعا العم صالح عدداً من الرجال إلى الإفطار. أخذت الأحاديث تدور حول معجزات جدي. كنا نحن أطفال القرية نتحلق في المساءات حول الرجال الكبار. أحياناًيطردوننا فتغيم الدنيا بوجهي، نهربُ. لكننا نعود ثانية. نقضم حولهم التين اليابس وننتظر أن يوزعوا علينا بعض حبات التمر. أو الحمّص المملح. اشتد النقاش بين الرجال حول معجزات الشيخ شهاب. الشبان صامتون. قال أحد الرجال: مرة رأيت شهاب «قدّس الله سرّه» عائداً من الكروم يذكر اسم الله ويسبّح بمسبحته التي تلمع كالبرق أهداها له القائمقام. كانت أصابعه نحيلة. طويلة كأقلام من نور. رأيت دمعة في عينيه. وقفت. ما بك يا شيخنا؟! لم يجبني. مشيت أتبعه. وجدت صخرة منتصبة على هيئة امرأة والحليب ينزّ من ثدييها، كانت الصخرة مغطاة بالأغصان والأعشاب اليابسة. رأيت الشيخ يتأملها بحزن. وقفت أنا الآخر. سمعت أنيناً خافتاً. نظرت إلى الشيخ. أدرك أن أسئلة تطوف في عيني.

«ما هذا يا شيخ ـ سبحانك ربي الأعلى ـ؟!»

سبحت الله عشرات المرات.

قال: لله في خلقه شؤون.

«لم نقل لا.. ولم نعترض على حكمته»

ـ هذه المرأة لم تكن طاهرة يا ولدي.

ـ كيف يا شيخ؟

ـ لقد راودت رجلاً عن نفسه وهي أم ـ أستغفر الله العلي العظيم ـ عند ذلك دعوت الله أن يمسخها. هكذا ألهمني الله. لم أكن أقصد إيذاءها فهي أم. لكنها تحولت إلى صخرة. هذا يحزنني كلما مررت بوادي الجن. سميته «وادي الأم»

صمت الشيخ بخشوع وأقسم عليّ ألا أقول هذا السرّ لأحد.

فارس استغرب الأمر. واستنكره. ثم ضحك حتى انقلب على ظهره. نهض شاب آخر يدعى «فاطر» إذا كان ذلك صحيحاً كيف له أن يبيع ابنته هدبا؟!

ـ اسكت هدبا فاسقة منذ طفولتها.

ـ أنت تقول هذا يا حمدان؟! كيف عرفت ذلك؟!

ـ هدبا طفلة. باعها والدها لرجل فاجر. باعها واشترى ألقابه. متى كان شهاب نقياً؟ كلنا نعرف كم كان مزواجاً.

ـ كان يبحث عن صبي.

ـ آ...فقط؟!.

اختلف الرجال وضرب فريق شهاب فارس ورفاقه. كان الدم يسيل من أنف فارس ويصب من صدغه. أشار حمدان قائلاً: أنت سبب كل البلوى في هذه القرية.. جيل فاسق.. فاسد. لا يعرف الله ولا يؤمن بقدرة قادر. أمكم الفاسقة تعلمكم الفجور. لم أعرف أبداً من هي أمهم. إلاّ أمهم الحقيقية التي تسكن في أقصى الشمال ونفر من أتباعها المحليين الذين يسرقون أنفسهم عندما يظهرون على الساحة وقد أحاطت بهم هاله لا تلبث أن تزول.

«سلوم ينهض خارجاً دون أن يقول شيئاً»

لكن حامد لم يسكت. ظل يثرثر.. قال لفارس اذهب يا كلب. يا مخرب.. أنت تحاول تخريب الضيعة كما تخرّب الشعر العربي.. يقولون عنه شاعر.. «تفوه.. شاعر شو..» ولك هل نظمت بحياتك قصيدة؟!! إنه يسمي هذيانه شعراً.

يومها لأول مرة أسمع أنّ هناك شعراً جديداً لا يعترف به العجائز. كنا نقرأ الأناشيد المدرسية والقرآن فقط، هذا في الشتاء. نغرّب إلى المدينة. ونشرّق مساءً إلى القرية. نستمر ساعات في المسير. نجتاز أنهاراً ووديانا لكن في الصيف كان على الأطفال أن يرعوا الأغنام.. أو الأبقار. وقد تكون بقرة واحدة كي نوفر أجرة الرعي التي يأخذها حميدوش.. وحين تمرّ بنا زوجة زعيم القرية تبتسم ابتسامة صفراء وتقول: أليس الرعي أسهل من حفظ الكتب والذهاب إلى المدرسة في البرد والوحل والنهر الهادر..؟! نهز رؤوسنا.

فتقول.. هكذا قولوا لأمهاتكم كي ترتاحوا.

«والله المدينة يا أم علي تخرّب وتنزع أخلاقهم. ألا ترون ما حلّ بفارس هذا

الشيوعي الكافر. وبفاطر هذا البعثي اللعين.. لأ.. والقائمة كبيرة.. المدينة تنزع الجيل الجديد..»

«ولكن أولادك يذهبون إلى المدينة.»

«صحيح ولكن أنا لا أتركهم.. أنزل معهم. لا أفارقهم حتى لا يعبث بأخلاقهم أولاد الحرام»

«أينما ذهبت يا ست يوجد أولاد حرام! نربي أولادنا على الأخلاق الحميدة ونتركهم.. القبضاي يلاحظ على علّوش أي شيء ناقص» تزم زوجة الآغا شفتيها وتنهض كبارجة مستندة إلى عصاها ووراءها تسير فتاة تقوم بشد ثوبها من الخلف.

عندما تبتعد عن أمي.. تبصق أمي وهي تقول «تفوه..» تظن أنها ستضحك علينا؟ والله سأعلمك يا علوش حتى تكون مخرزاً في عيون الظالمين.

العم صالح يمتلىء وجهه بالحزن.

حامديطلق تهديداته. يرتجف من شدة الغضب. يصرخ.. لأول مرة سأقول سراً. لقد منعني شيخنا من البوح به.

يا جماعة. السرّ يحتاج إلى رجال اشدّاء. إنه أصعب من حفر الجب. وأنا حملت السرّ زمناًطويلاً. كنت أشعر بتعبٍ شديد. وبانتفاخٍ في بطني. كبر بطني. صار كبطن الحامل.

شعرت أني أحتاج إلى شخصٍ أقول له ما يتعبني. أريد أن أشكو. يا ناس.. هذا السر الدفين يعذبني. لكني رأيتَ الشيخ شهاب في منامي يتوعدني كيف تخون الميثاق يا حامد.؟!

الشيخ لا يريد لأحد أن يدري بكراماته.. حتى زعيم القرية كان يأتي إلى الشيخ ويفضي إليه ببعض الأسرار... الزعيم يأخذ برأي الشيخ في أمور كثيرة حتى أن ديغول عندما زار «المملكة» أحضر الزعيم وحضر الشيخ إلى جانبه. لكن الحقيقة أنا تعبت. ومولانا الشيخ سيغفر لي لأنني مضطر أن أقول هذه الحادثة لأثبت برهانه على الأرض.

لكن الذي حدث لي يشبه ما صار لحلاق الاسكندر.. عندما قصّ شعره رأى قرنين للإسكندر. فهدّده الاسكندر بالقتل إذا فضح السرّ.. مرض الحلاّق. كبر بطنه

وكاد أن ينفجر. إلي أن صادفه أحد الحكماء.. رآه الحكيم هزيلاً متتفخ البطن. منزوياً لا يكلم أحداً. وعندما أدرك حاله طلب إليه أن يذهب إلى بئر مهجورة. بعيدة.

«اخفض رأسك إلى الأسفل. وقل السرّ الذيَ تحمله يا حلاق، أنت تحمل سراً خطيراً ومتعباً. ذهب الحلاق إلى البئر.. طأطأ رأسه.. راح يردد العبارة إلي أن زال انتفاخ بطنه وخف ثقله. شعر بارتياح. ولكن لم تمضِ أيام حتى نبت في الجبّ حبتان من الذرة.. استطالتا وصعدتا خارج البئر.. وكان كلما حركهما الهواء واصطدمتا ببعضهما رددتا السر «الاسكندر ذو القرنين. الاسكندر ذو القرنين.»

هكذا لا بد لسرٍ إلاّ أن يظهر.. أنا لا أقول السرّ لأرتاح. أقول لأثبت شيئاً. «يعني هو لا يفشي الأسرار.. كم كان منافقاً هذا الرجل يا حسن» الشيخ لقب بالباشا في آخر ايامه ـ منحوه لقب الباشا.. قد يكون الشيخ باشا.. حامد ما يزال يتكلم..

المطر ما يزال يدق على الجدران.

الوكف ينزل فوق إخوتي.

أنا أتكوم في زاوية من زوايا بيت العم صالح.

ليلى النحيلة ذهبت تنام..

حامد يجرش الصمت بصوته الأجش.. الباشا.. يحب الفقراء.. وكان يدافع عنهم. ويوم قابل القائمقام. قال له بالفم الملآن.. وللك لماذا تفعل هكذا بعباد الله. من قيض للك أن تستعبدهم أنت وزعيم القرية.. كيف تأخذون أرزاقهم وتذبحون عجولهم في مناسبات خاصة بكم.؟! في اليوم التالي زار القائمقام الشيخ الجليل واعتذر إليه فأكرمه الشيخ وذبح له خروفاً. ابتسم العم صالح ولم يقلْ غير تلك الكلمة «ومن أين أتى شهاب بالخروف؟! كلنا نعرف أنه كان فقيراً يوم جاء إلى القرية حاملاً زوجة وابنتين صغيرتين»

«الله الرازق يا صالح»

«الله قال له تاجر بابنتك؟!»

«اسكت يا فاطر»

أكمل يا حامد.. حامد يكمل وكأنه لم يقاطع.. وأتعرفون جمول؟ جمول أرملة ولهاأربعة أطفال. الشيخ كان يرسل لها الطعام والثياب. وكانت جمّول امرأة جميلة. قلت له يا شيخ لماذا تفعل هكذا عليها أن تعمل.. قال لي:.. لا يا بني.. هكذا افضل من أن تأكل بثدييها. مع ذلك خشية المعصية تزوج الشيخ جمّول ورزقت منه بصبي. لم يخبر أحداً بالأمر غيري.. كان يذهب إليها سراً ويعود سراً حتى لا يجرح مشاعر زوجاته.. وأحياناً يرسل لها ما تحتاجه معي. لكنها لم تصُن نعمتها. لقد أحبت رجلاً فقيراً. رجلاً يعمل مرابعاً.. أغراها بشبابه. وذات يوم مقمر من أيام الربيع.. القرية نائمة. تسبح في عطر الكروم. اللوز. الزنزرخت. المشمش.. والزيتون والرمان.. دق الشيخ شهاب المنزل.. خرجت. قال لي: أرأيت هدبا؟!

ـ لا.. يا شيخ. هدبا هنا؟!

ـ يقولون أنها تحوم حول المنزل. تريد أن تحرق القصر على كل حال هي مجنونة. تظن أني بعتها.. لا. أنا لم أبعها.. هي تحمل لعنة سلالتها القديمة. أريدك يا حامد أن تسهر على المنزل وتحرسه لأني أثق بك فأنا ذاهب إلى جمّول: هي فتية كما تعرف ولا يجوز أن أطيل عليها الغياب.

لم يقرع الباب على جمّول.. دخل كعادته من الباب الخلفي للمنزل الترابي المغروس بين شجيرات السماق واللوز. لكنه سمع حركة. أنصت. ظنّ أن لصاً يريد اقتحام المنزل. اقترب إلى الداخل.

جمّول عارية. عارية كما ولدتها أمها. ضوء الكاز ينوس.. الشيخ ما عاد يقدر على المسير.. جمّول واقفة. عارية يلتصق بها رجل شابٌ.. الجسدان متشابكان.. فرك الشيخ عينيه.. يقترب أكثر. لم يشعرا به.. كان الشاب يمرر أصابعه بلطف وهو مغمض العينين على ثديي جمول وهي كأنها في غيبوبة إلى أن استلقيا على الأرض من شدة النشوة.. كاد أن يغمى على الشيخ. جمّول بين ذراعي رجل غريب؟!!

تمالك الشيخ نفسه.. بهدوء استدار. خرج. طفرت دمعة من عينيه. فتح ذراعيه وراح يدعو الله أن يقصف عمر جمّول. الموت هو العلاج الوحيد لهذه الفضيحة.

جمّول تخون الشيخ؟!!

لم ينته حامد من حديثه حتى دخلت جدتي التي كانت قد سمعت صراخاً وشجاراً في بيت العم صالح. وعندما سمعت طرف الحديث قالت: اخجل يا حامد. لقد صرت جداً وتكذب.

ـ أتكذبينني أيتها العجوز الخرفانة؟!

ـ جمّول أكلت فطراً ساماً فماتت.. طبخت الفطر لأولادها من شدة الفقر والجوع. قالت لأولادها لا تأكلوا. أنا سآكل أولاً. ربما كان الفطر ساماً. الأطفال رأوا أمهم ميتة أمامهم.. جمّول قالت لي: الشيخ يهددني. يريدني أن أتزوجه. والولد الذي نسبه الشيخ إلى نفسه ليس ابنه.. إنه ابن جمّول لأنها فعلاً كانت تحب رجلاً آخر.

ـ هذا من غيرتك.. تختلقين الأكاذيب.

ـ أنا زوجته ويحق لي أن أغار.. شيخك هذا لم ينجب أبداً. لقد تزوجني ولديّ ابنتان.. فاطمة وهدبا.. إنهما ليستا ابنتيه أشهدوا على ذلك يا صالح. شهاب كان زير نساء..

التفتت أمي فوجدتني في الزاوية. قم يا علي.. قم.. أخذتني أمي من يدي ومضت بي بعيداً. ألهذا كان أبي يشتم والد أمي..؟! ألهذا جدتي قبلت الفقر ولم تقبل العيش مع شيخ وباشا. وزعيم.

أمي لم تقل شيئاً. إنها لا تريد أن تخرّب ذاكرتي. أنا كنت بدأت أفهم. لكني كنت أدعي عدم الفهم. في الحقيقة فوجئت ولا أزال مدهوشاً.

جدي قتل امرأة بالفطر.

جدي سرق ونهب محاصيل كثيرة.

«جدي؟!!

لكن جديَ أحمد كان فارساً. لقد حارب الفرنسيين.. وقابل ابراهيم هنانو.. زمجر حامد وقال: لا بد أن لعنته أصابت القرية وستصيب الناس.. ما هذا الفجور؟ الحقيقة لم يقصر ابن الشيخ الذي لم يورّث أحداً من مال أبيه. لقد سافر إلى بيروت وعندما عاد منها كان كما الخرقة البالية يطلب الإحسان من أي كان.

«خالي» المزعوم. في بيروت ينتقل من ملهى إلى ملهى يسكن الفنادق وينام على الموائد الخضراء.

....

كل مساء يجب أن تبدأ المعركة السياسية. في كل القرى. هكذا يحدث في كل البيوت أيضاً. في البيت الواحد عدة أحزاب. على الجدار الواحد عدة آلهة متصارعة.

في آخر الليل تخرج امرأة من بيتنا. تعانق امرأة أخرى بحرارة ثم تبكي أمي آه.. يا هدبا..

عبارة واحدة تحل اللغز.

سأنتقم يا فطوم.. سأقتله. سأسحق شهاب هذا سأقتله.. هدبا امرأة من ظل وضوء. شعر أبيض. أسود. تغيب كأنها لم تكن. هي حقيقة؟! خيال؟! لا أعرف. فعلاً لا أعرف يا عليا..

«كلهم كذابون يا فطوم.. لا تصدقي أحداً»

سمعت خالتي هدبا تقول بصوت مقهور. حامد هذا ابتلع نصف مال شهاب. والدنا العظيم. وحمدان هذا.. كان يرسل زوجته لتغسل سيقان والدك. وغسيل السيقان يحتاج إلى الليرات الذهبية التي كان يأخذها من الناس «زكاة»

....

حسن..

أدور في المنزل. حسن عاد إلى القرية وأنا مازلت أسرد على مسامعه كل هذا الماضي المخضب بذكريات قديمة.. ذكريات تعود إلى ألف عام. آلاف الأعوام. ذكريات تؤجج في تعرجاتها حروب الآلهة. وحروب القادة و.. و.. و. والملك يا صديقي هو الملك.

الهاتف يرن..

ـ ألو..

ـ سامح..

ـ آه ـ كيف حالك يا صديقي؟

ـ تتذكرك أنا وعليا.

ـ صحيح.؟

ـ سأدعوكما على الغداء.

ـ في مكان ريفي.

ـ كما تشاء يا عزيزي.

ـ ماذا تعمل الآن.؟!

ـ أنا؟! كان عندي حسن.. شاعر القرية المحترم. أخبرني أن العم صالح مات. مات منسياً. أنا عاق يا سامح.

ـ لا تقل هذا؟

ـ هذه هي الحياة. لذلك أعاقب نفسي بسرد الماضي كله على ستائري. وغرفتي. وأوراقي.. سأسرد كل ما تخبئه ذاكرتي.. أريد أن أحيي الأوجاع القديمة.

ـ كل هذا من زيارة حسن؟!

كان عليه أن يزورني.

حسن أو واحد آخر. مشابه لحسن. كان يجب أن يزورني ليعيدني إلى ذاكرتي المسلوبة.. الشعوب التي بلا ذاكرة تموت سريعاً يا صديقي.

ـ الموت حق يا علي.. العم صالح أكل عمره. رحمه الله. لماذا يواسيني سامح.. ربما هو الآخر يواسي نفسه.

«موت العم صالح يعني موت الشاهد الوحيد على جراح لا تندمل بسهولة ويجب ألاّ تندمل.. عندما يضيق الجرح بينك وبين عدوك تستطيع أن تصافحه.. قزم العمامة لا جراح عنده.. مدّ يده لعدوّه في حقل أخضر ترعى فيه الخنازير. خنزيران كبيران باركا امتداد هذه اليد الملوثة.. بعد ذلك نصبت الطاولات.. تحت الطاولات كانت أشلاء رافع.. وأشلاء قائد الكتيبة.. وأشلاء أطفال الحجارة. أوه.. أشلاء كثيرة يجب ألاّ يهضمها الزمن.

جدتي هرمت ولم تعد قادرة ان تسرد ذاكرتها القديمة لتحيي ذاكرة حديثة.

وأمي أيضاً هرمت.

ها هو فنجان قهوتي السادس. وذاكرتي لا تكف عن الدوران في أوراق بعيدة. دوران إلى الخلف.. الكاميرا تدور. تدور تلتقط تفاصيل صغيرة ليلى.. جمّول.. نساء كثيرات. ورجال كثيرون.. فارس وفاطر وآخرون طواهم السجن سنوات طويلة.

«تعال يا سامح.. أطبخ لك مجدرة برغل»

الآن؟!! الآن مجدرة في آخر الليل.؟!

ماذا قالوا لك عني.. أ أنا حكيم مثلك.؟!

اجلب عليا معك.. صوتها يريحني.

أ أقول لها..؟!

«قل.. قل.»

أجل. بحاجة إلى عليا الآن. بالتأكيد هي عاشت واقعاً مشابهاً لهذا الواقع.. أو أنها تعرفه.. ألم تخبرني بأنها من منطقة قريبة لقريتي.؟! في قرانا عائلات كبيرة لها ألقاب غير مسجلة في الدوائر الرسمية. هذه الأسماء الرسمية لا نعرفها في القرية. قد تكون معروفة لدى أمي. الله يسامحك يا حسن. أنا بحاجة إلى علي.. إلى علوش.. ذلك الولد الذي يقولون له اسكت فيسكت. اسكت يا علوش. لا أريد أن أسكت.

أشعر أحياناً أني خلقت قبل الآن.. ربما أثّرت عليا على ذاكرتي بحديثها..؟! ولكن أنا أعرف هزائم كثيرة وحاربت في حروب كثيرة. ولم أنتصر حتى على نفسي. للساق الواحدة عدة فروع.. فرع أنا من أصل قديم يغور في العالم السفلي.. ليلى. هدبا. عليا.. فروع لجذر آخر.. ما صلة هذه الفروع بالعالم السماوي والعالم السفلي.. ما صلة السماء بالأرض. شهاب بالشيخ شهاب.؟!

لكن هذه الجذوع ينخر أحياناًفيها الدود. تدهنها بالكلس.. وتزين أغصانها بالمصابيح. ولكن للأسف. النخر موجود. والفراغ يأكل الجوف. العم صالح قال مرة وأنا أقلم شجرة وأعالج جذعها من النخر. لا فائدة يا بني.. الشجرة ستموت. الجذع منخور، لا يوصل الغذاء اللازم إلى الأغصان. ازرع شجرة غيرها.. رفضت. يا عم

صالح الأدوية الحديثة قادرة على شفاء الشجرة. هز العم صاح رأسه وتابع طريقهُ. لكن الشجرة لم تعمر طويلاً. أدوية. تقليم. ماتت الشجرة.. وكلام العم صالح ما يزال حياً في الذاكره.

الترميم لا يعني الخلق. إنه تجديد من الخارج.

كنت دائماً أرمم نفسي. حسن جاء وكسر الشجرة فوجدتها منخورة. كسر الشجرة ومضى. تركني أبكي عليها وحدي.

منذ مدة وأنا أهرب من زيارة بعض الأمكنة التي تواجهني بذاكرة حزينة. لقد هربت. لم أكن أريد رؤيتها كشجرة منخورة. ولا أريدها أن تعيدني إلى الوراء والأمام قدامي.. ستضعني في المفترق الصعب. وسأقارن. وسأضيع. قلت له يا حسن.. لا أريد أن أرى كل يوم رأس الحسين أمامي تتدحرج.. ايضاً لا أريد أن أنسى طريق الدم.. عند ذلك أكون بلا تراث.. بلا هوية.

الهوية قاتلة أحياناً.

ما اسمك يا كلب؟!

إلى من تنتمي.؟!

ما اسم أمك؟!

أي الأشجار تحب. أي الأطعمة تحب.. ما نوع النساء التي تتشهى.. وأي العطور تفضل؟؟!

«لماذا أنت سوداوي؟!

«لأنهم لا يصدقون شيئاً يا عليا»

أقسمُ أني شاهدت رأساً يتدحرج من جامع السلطان حتى البحر. المدينة ملأى بالدم.. والأقزام توقع المعاهدة على أن هذا ليس دم الحسين. دم من هذا يا عليا.؟!

«إنه دمنا.. دمنا نحن. كل المضطهدين في العالم»

إنهم يقتلوننا كل ليلة. وكل ليلة نعودُ إلى الحياة. يجب أن نعيش ليجربوا بنا آخر مبتكرات القتل النووي. او لماذا الابتعاد آخر المبيدات الحشرية.؟ حيوات كثيرة إذن

نحياها. ما معنى ألاّ أكون انا رعد. أو رافع. أم حسين آخر.!! زميلي الذي قتل في الحرب حفروا له القبر ثلاث مرات.

أكان جسداً وهمياً؟ أم رأساً كرأس الحسين «لماذا يقطعونه كل يوم؟»

وضعُوه في تابوت وغطوه بالورود وأخذوه إلى درعا.. قالوا هذا «بدر الدرعاوي» فتحوا له القبر.

أم بدر الدرعاوي شقت ثيابها. وأخته راحت تركض في البراري.. «لا يجوز يا خاله.. هذا شهيد.. شهيد» والشهيد له الجنة

شهيد أو غير شهيد الفراق هو الفراق. الرحيل هو الرحيل. مرّ.. مرّ. مرّ. رجال ينصبون سرادقاً للتعزية.

ورجال يصلون على قبر الدرعاوي.. ونساء يرمين الورد ويقبعن في سواد كئيب. الجيران يحملون الطعام لأهل الشهيد البطل.

ثلاثة أيام مرت.. كانت ثقيلة كصخرة جاثمة على الصدر.

اليوم الأول. يا لهول الكارثة. الثاني. هناك كثيرون مثله. الثالث. في اليوم الثالث. هذا ليس بدر الدرعاوي.. ابنكم لم يمت.. بدر عاد.. عاد بدر.. شق القبر وخرج..

إذن مالذي يمنع جدّي ان يشق قبره ويخرج؟! مالذي يمنع خالتي هدبا من الخروج في أوقات معينة لتشم رائحة البشر؟!

لا.. بدر لم يخرج من القبر.

هذا المدفون هنا ليس بدراً إنه «اسماعيل العلي»

أم اسماعيل. مثل أم بدر. شقت ثيابها. ورجل عجوز نزل سطح منزله وقرفص عند جثة ولده وراح يبكي.

اسماعيل وحيد أمه.. أبوه تزوج امرأتين حتى أنجب اسماعيل. «ستكون عوني يا اسماعيل. وستفاخر بك أخواتك البنات قريناتهن.. هن بدونك في القرية مكسورات الصوت. أنت صوتهن يا اسماعيل.

«اسماعيل شهيد يا عمي»

اذبحوا الخراف.. وزعوا الطعام للفقراء عن روح اسماعيل.. لا تبكي يا أم اسماعيل. تعذبين ابنك في القبر.

انتهت فترة العزاء. انزوت أم اسماعيل في زاوية قرب القبر، تقضي نهاها وفي الليل تعُود إلى عويلها الذي يملأ القرية. عند الصباح الباكر قرع مجموعة رجال باب أم اسماعيل.

«من.. من يقرع عليّ الباب»

«إنه اسماعيل. اسماعيل يا أمي»

ركضت الفتيات ولكنهن فوجئن بجمع من الرجال.. أحدهم يقول:

«يا عمي اعذرونا.. هذه الجثة ليست جثة اسماعيل.. ولدكم اسماعيل معنا في السيارة، مات البارحة. كان مجروحاً وكان بين الأحراش والصخور. هذا الشاب الذي دفناه عندكم هو «جاسم الجزراوي»

افتحوا القبر..

بدأت المعاول تكشف الستر عن شاب كان قد ارتاح في قبره ودخل العالم السفلي أنهم مثل «أكتيون» الصياد الذي اقتحم على الإلهة أرتميس خلوتها وهي في البحيرة. فمسخته إلى أيل. طاردته كلابه ومزقته إرباً»

المعاول تحفر وتنزل إلى القاع تخلخل ذاكرة بدأت تنبت في جسدٍ آخر. قدّموا التحية للجثة. غطوها وحملوها إلى الجزيرة.

«دعوا القبر مفتوحاً»

العالم السفلي كله حفرة واحدة.

«ضعوا اسماعيل في الحفرة بدلاً من جاسم» ابكين من جديد أيتها النساء

استبدلوا الجثث. واستبدلوا الأسماء. أعادوا جاسم إلى أهله. رأت امه العجوز ابنها في التابوت.. فسقطت على الأرض ولم تنهض. دفنوها قرب ابنها. وهكذا انتهت معركة الأسماء.

جدّي يزورونه من كل القرى.

إنه يشفي الدمامل. ويخصب العاقر.. لذلك قرر زعيم القرية الموقر كتابة

«عريضة» منمقة. تحمل توقيع عدد كبير من أهل القرية يطلب فيها حراساً ودركاً لحماية ضريح جدّي من الوحوش البرية وكذلك حماية ممتلكاته.. وطالب بأخذ الحاكورة التي كانت تزرعها أمي بالشوفان والشعير.. لأنها تحيط بقبر جدي. وستكون من أملاك المزار.

وافق القائمقام على طلب الزعيم.. وولى الزعيم على أملاك جدي كلها.. زرع الحراس الأشجار والورود. فتحوا طريقاً وطلبوا من رجال القرية رصفه بحجارة النهر. ثم سجنوا من قطف زهرة من «دوّار» جدي.

إذن أنا «يا سامح» عريق الجذور.

أمتد بجذوري إلى الولي المقدس شهاب. لكن لا يعبأ بنا جدي لماذا لم تتغير أحوالنا ياأمي. ألسنا فقراء.؟! الأولياء يحبون الفقراء ونحن أهله.

كم تمنيت أن تشتري أمي لي محفظة جلدية. رفاقي في المدينة يسخرون مني لأني أحمل حقيبة قماشية. يركضون ورائي وينادونني «فلاح. فلاح» «ريفي.. ريفي» أجل أنا كذلك.

لا أعرف ماذا يقصدون بذلك يا أماه.. هل الفلاح يعني حرامي؟! أم أنه وحش.؟!

لماذا ينادونني هكذا؟ لا أريد أن أذهب إلى المدرسة بعد الآن.

«لا.. ستذهب يا ولدي. نحن لا نملك إلا كتبك وهذا الرأس الذكي»

جارنا حمدان الكسيح يرتدي جزمة جلدية وابنه يحمل محفظة جلدية.. أليس هو فلاح أيضاً؟!

تصرخ أمي بعد طول صبر على أسئلتي وتقول لي «اسكت يا ولد» فأسكت. كنت مطيعاً لأمي. أعرف أنها فقدت مملكتها مثل جدتها عشتار. مرة سألت خطيب القرية.. يا أستاذ لماذا لا تعيد المزارات الأيدي المقطوعة لأصحابها الذين دافعوا عنها..؟! دافعوا عن ماذا؟

«من يا ولد؟!

«عاطف قطعت يده دفاعاً عن الشيخ شهاب»

«اخرس يا ولد. ما هذا الكلام.. من عندك أم من عند صالح الأهبل؟! هه.. صالح أهبل؟! العم صالح يزنُ بعقله مدينة.

ولأني لم أخرس طردني بعد أن علقني إلى شجرة الميس الكبيرة وراح يضربني على ساقي ويقول «دود الخلّ منه وفيه». مرّ زعيم القرية وقال للخطيب. «الله يعطيك العافية يا أستاذ.. الأولاد بحاجة إلى تربية شديدة هذه الأيام»

حاول العم صالح أن يخلّصني فرفض الخطيب.. ضربه العم صالح أمام التلاميذ وأخذني من يدي ومضى بي. في المساء تسلل الخطيب إلى بيت العم صالح سراً. كنت في بيت العم صالح أحمل لهم الحليب من بقرتنا. سمعت الخطيب يقول:

«إذا مشيت يا صالح في مدينة العوران ضع يدك على عينيك»

«ولكنك ظلمت الولد.»

«أريد أن أعيش يا صالح.. أريد أن أعيش. إني مجبر.. «مكره أخاك لا بطل»

«بسيطة. إنه طفل وسينسى»

....

أنسى؟!

من قال بأني أنسى.. الذاكرة الأولى للطفل هي الخزان الكبير الذي ينهل منه كل طرائق حياته بعد ذلك.. الذاكرة الأولى هي أساس بناء شخصيته.. ما زلت أحس بالظلم يطاردني حتى الآن.. الظلم لن يبارحني أبداً لأنه يعشعش في ذاكرتي الأولى. ويحتل جزءاً كبيراً من مساحاتها الواسعة.

«سلوى قالت لي مرة بغضب: أنت ما تزال طفلاً»

ومرة كنت أروي حادثة لعليا بعد أن تكررت لقاءاتي بها ـ ابتسمت وقالت. أحياناً أجد بك طفلاً يختبيء بين عينيك»

لم أفهم.. أتعني التدليل أم التقليل من شأني؟!

ولكن عندما رأيتها على البحر بمعطفها الأبيض. هي.. هي. أجل. أدركت أنها لا تقيم وزناً لآلامي لأني طفل. والأطفال ينسون.. لذلك عليّ أن أحمل رأسي المقطوع وأتجول في المدينة دون أن أصرخ «آخ» فارس الذي تشاجر مع حمدان

الكسيح ومع حامد، فارس الشاب الفارع الطول يزين رأسه شعر أسود لامع. لا أنسى صوته أبداً.. غاب الرجل منذ أمدٍ بعيد لكن ما يزال صوته قابعاً في رأسي.. «شاعر حر..» وفاطر.. ذلك الشاب النحيل ذو العينين الخضراوين. أيضاً لن أنساه.

الطفولة خزان كبير.. ألم أقل لك؟!

«هه.. شاعر. قال شاعر؟

أسمع سخرية حامد الآن. وأرى نظرة القهر في عيني فاطر. الشيء الطبيعي أن يرفضوا شعره.. عقلية متعلقة جاهلة تمشي إلى الوراء أبداً. أنها لا تحب إلاّ التراجع.. يجب أن يشنق أمامهم غاليليه حتى يصدقوا أن الأرض تدور. وأن سور برلين هدم. وما كان اتحاد سوفيتي تفكك.. وأن تماثيل الحرية اسودت كثيراً أو سقطت..؟!

أما سمعتم؟!

ماذا؟!!

دخل رجل إلى مبنى الجريدة وراح يبدي ملاحظات كثيرة.. عند ذلك اجتمع حوله الزملاء وطلبنا القهوة. رشف من فنجانه رشفة كبيرة وقال أما سمعتم؟! ماذا؟ كل يوم نسمع آلاف الأخبار والمفاجآت لم نعد ندهش.. الموت شيء عادي. الكوارث.. حتى زلزال القاهرة صار عادياً.. حتى زلزال وادي عربة صار عادياً. ماذا تريد أن تقول؟! كان الرجل غريباً في شكله وصوته.

«أخاف ألاّ تصدقوني؟!»

«كل شيء قابل للتصديق ـ. أنا لم أكن أصدق أنّ عليا تلهو بي أبداً.»

«قل يا رجل»

«اليوم صباحاً وجدوا تماثيل الحرية في العالم كله تحمل سياطاً وتركض وراء الناس»

«ماذا؟!»

كما أقول لكم.. التماثيل تركض في الساحات العامة.. حتى أن أحد الأطفال قتل مباشرة في موسكو.. وفي إحدى العواصم اجتمع الشباب وسرقوا تمثال الحرية..

سجنوه في بيوتهم.. بعد ذلك: قيل لن تقدر امرأة أن تمشي وحيدة في الشارع. ولن يجرؤ زعيم على الظهور أمام الناس.

في باريس هرب تمثال الحرية.. وفي واشنطن قفز تمثال الحرية المزعوم وهو يحمل آلاف المسدسات يطلق النار شمالاً وجنوباً وفي كل الجهات. كان يرتدي جزمة كاوبوي.. ويضخ السمّ من عينيه. بعض التماثيل كانت تسأل عن هوية المارة.

ما اسمك.؟

إلى أي بلد تنتمي.

«مع من أنت وضد من؟!»

آخر زمن هذا.. كما قالت جدتي.

الأرض تدور. الحرية تغير رموزها.. وأنا ما زلت أنا.. تمرّ علي الأيام ولا أصدق بأني فقدت أشياء كثيرة.

....

أنا أحبّ عليا يا سامح.

أحبها. لأول مرة أشعر أني أحبّ فعلاً. وأن للحياة طعماً آخر غير الذي كان.

ـ ولكنك غارق في الحزن.

ـ لا أعرف لماذا من شدة الفرح نحزن أحياناً. بصراحة مشاعري مختلطة حزن وفرح.. نسيان وتذكر.. مرحلة جديدة أقدم عليها بعد سنوات طويلة من القهر والوحدة والسقوط. ألم يسقط جدار برلين. سقطت قصيدتي يا سامح. ولكن أنا خائف.. لم أستطع بعد أن أثق بمشاعر الآخرين.

هذه الأيام أتصفح أوراقي. أي أفتح ذاكرتي، أنبش فيها.. كانت البداية مع حسن الذي بدأ معي أول صفحة. بصراحة لم اعد أخرج كالسابق إلى الأماكن العامة. ولم أعد أزور أمي إلا نادراً. حسن حمل إليّ القرية القديمة ورماها في غرفتي وهرب.

أناهربت أيضاً من القرية. الآلهة طردتني وحرمتني نعمة الهدوء لأني لا أستحق العيش بين الأولياء. لكن عندما نزلت إلى المدينة طاردتني القرية. هويتي. اسمي.

لوني. صوتي. لم يكن أمامي إلاّ أن ارم الهوية فأحذف الوكف والنهر الغامض. أظهر كرامات جدّي وجذوري العريقة. وعليّ أن أحذف مرحلة طويلة من حياتي.. أي أن امسح ذاكرتي.. يا سيدي أنا لم أعرف الوكف. ولا البرد. كان عندنا «سوبر ماركت في القرية» وكان والدي يركب سيارة كاديلاك.. وزعيم القرية لم يظلم أحداً ولم يغتصب امرأة. وكل هذه الأراضي الممتدة من البحر حتى كل سيانو. وخربة الورد.. و.. وكل القرى المعلقة بالجبال حتى السهل.. كلها للزعيم اشتراها من تعبه. المحتل لم يساعده. وهو لم يكن عميلاً. كان وطنياً..هكذا يا سادة تريدون؟!! ورحلة بحيرة قطينه ألغيتها تماماً..

سامح وأنا في الرحلة. الباص يقف عند البحيرة. طلاب كثيرون ينزلون. افرشوا طعامكم يا أطفال. سنأكل هنا. حاضر يا أستاذ. العشب الأخضر يملأ الأرض نضارة. نيسان يتلألأ عبر المدى الأزرق. انتشرنا على العشب كزهور بريّة. جلست أنا وأنت يا سامح.. زوادتنا كانت الخبز البلدي المشوي على التنور.. «وقرص شنكليش.. خيار وبعض بقايا التين اليابس.. وما إن أخذنا نلتهم الخبز اللذيذ حتى تجمع حولنا ثلة أطفال تنظر شذراً إلينا ثم بدأوا بموجة ضحك وسخرية. هيه.. فلاح. فلاح.. لم نعرف يومها ما هذه اللعنة الأبدية التي تطاردنا.. هذه أيضاً حذفتها من قاموسي. عندما جاء وقت الغداء لم نجرؤ على تناول خبزنا.. الأطفال كلهم يأكلون ونحن نتفرج عليهم. بكيت يومها يا سامح من الجوع. أنا كنت أكبر منك قليلاً. هدهدت جوعك بأن ندير ظهرنا وننبش من زوادتنا لقيمات نأكلها سراً. نظر إلينا المدير وسأل: ألا يوجد معكم طعام يا بني..؟!

«لسنا جائعين يا أستاذ»

ربت المدير على ظهرينا.. وأعطانا تفاحة وعدة كعكات.. هل أنسى هذا المدير الرائع.. لا والله.. الناس ليست سواسية ياسامح. أليس كذلك..؟! العم صالح قال مواسياً بعد عودتنا «معليش يا بني» إنهم أطفال. والأطفال يجهلون ما يلفظون. الفلاح هو الذي يطعم الناس وهو الذي يحافظ على الأرض. إنه الإنسان الحقيقي الذي يأكل من تعبه فعلاً.

ايه.. الآن أرى هؤلاء الأطفال أنفسهم يفاخرون بأن خبزهم خبز التنور. أحياناً يخطر لي أن اصرخ بأعلى صوتي.. أبي. أبي. بحاجة أن يكون لي أب. عليا قالت

لي الكلام ذاته: مهما كبر المرء دائماً يشعر أنه بحاجة إلى أب أحياناً يتمنى أن يقتله. ولكن يظل الحنين قائماً للبحث عن أب حقيقي. «لا تضربوه. إنه يتيم» يا إلهي! أية قسوة تحويها هذه العبارة! «اليتم يعني الضعف. الشفقة.» الأم الضعيفة. أم بلا أب.

- 12 -

أبي لا يرد. يظل قابعاً في عالمه السفلي. يتفرج على حراس جدّي وعلى دموع أمي. وعلى الشيوخ الذين يتلقفون الزكاة ويتقاسمونها مع الزعيم.

«أين تذهب كل هذه الأموال يا شيخ؟»

- ماذا تقصد يا صالح؟!

- كما تفهم يا حامد.

- للفقراء طبعاً.

- ولكن الفقراء لم يأخذوا شيئاً. حسن والده فقير هل أرسلتم إليه حذاء مدرسياً؟! أم العبد امرأة أرملة هل أعطيتموها شيئاً لأطفالها؟!

- نحن غير مكلفين بكتابة عريضة بأسماء الذين نوزع لهم..أظن أن هذا يتنافى مع سرّية وخصوصية المعونة.

إنه سرّ. ولهذا ظل الفقراء فقراء. وأنا أظل أنادي أبي ولا يرد.

....

- 13 -

البحر يدخل من النافذة.

الرجل الذي يقبع في منزله يكاد يختنق.

الرجل يصرخ بأعلى صوته. يأتي جاره «ما بك؟! الرجل ينفي أنّه رأى البحر يدخل إليه ويريد أن يقتله.

الكرسي الذي أمامه يسقط على رجله. الكرسي لم يسقط. العالم سقط داخله. هذا الرجل هو نفسه الذي ذهب إلى قريته وعاد خالي الوفاض. لم يقدر أن يتأقلم

مع القرية. رأى بأم عينه كيف قتلوا حميدوش الراعي. اجتمع عليه حراس المزار.. حميدوش كان يريد الدخول إلى حضرة القبر. حاولوا إبعاده فم يفلحوا. طلب نجدة المزار.. نجدة الشيخ شهاب بأن تشفى زوجته.. طلب الحراس منه عجلاً مقابل السماح له بالدخول إلى حضرة المزار الرخامي المليء بالبخور والجوخ والأوعية النحاسية. غضب حميدوش «ولَك لو كان عندي عجل كنت بعته وعالجت به زوجتي»

«وهل يقدر الأطباء على شفاء زوجتك يا مجنون؟!.

«نجرب على الأقل ولكن لا أملك المال.»

«ها.. أنت جئت إذاً ليس إيماناً منك بمولانا الشيخ. أنت تشكك بقريتنا وشيوخها رجالها.»

«والله أنا أصدق العم صالح. أنتم لصوص. فعلاً لصوص»

«هذا الرجل يتطاول على مقدساتنا ورموزنا يا رجال.»

«حميدوش يشتم مولانا شهاب»

الآن حميدوش. يتململ في دمه. القرية الطينية المنخفضة، المتلاصقة والمتباعدة. والساحة المزروعة بالمصاطب تتكوم حول حميدوش. أثافي الحطب أطفأت نارها. طناجر النحاس الكبيرة التي تحتاج إلى «مبيض نحاس لتخلع سوادها وازرقاقها» الملاعق الخشبية.. الوجوه الثائرة.. فاطر.. فارس. برهوم. و.. كل ذلك وكل هؤلاء يدخلون مع البحر إلى غرفة الرجل الذي يحلم بحبيبة بعيدة لا تأتي. بقرية لم تعد ولن تعود قريته. وبمدينة لا تصير مدينته. هذا الرجل الذي يخرج صباحاًإلى الجريدة. يركب عدة سيارات ويعود بعدة سيارات. ينزل البحر. يصعد.. يتصل عشرات الاتصالات بالهاتف. يحلم. يكتب ويمزق. هذا الرجل هو أنا. علوش. عليّ. لا هذا ولا ذاك.. لا أعرف من أنا؟!

قلت لأمي: من أنا يا أماه؟!

أمي لا ترد. تمضغ تعبها وتعجن الأيام بانتظار خبز الزمن القادم. لعلّ قمحاً جديداً نبت في ساحة القرية. لم تكن الأيام التي مرت بقادرة على إخماد حريق في أشياء كثيرة أنا أشعلت بها النار.

ـ جدي حوّل قصره للحريم. يجرب فحولته.. جدتي لن تسامح أبداً، وأمي التي عرفت بانها ليست ابنته لن تسامحه أيضاً. قال حامد لأمي: اشربي البحر يا فطوم. والدك لم يورثك شيئاً. النساء بربع عقل يا فطوم.

أمي؟!!

أمي كانت أخت الرجال. كانت داية القرية. تشاورها النساء في أمورهن المادية والمعنوية. تحكم بين الرجل وزوجته. أعرف أن أبي كان قاسياً عليها لكن في كل حوار عنه كانت تتطرق لحادثة قديمة ما تزال تجرحها.. أبي صفعها.. وهي لا تنسى أنه ضربها لذلك كانت تقف موقفاً عدوانياً من أقربائه الذين سببوا لها الأذى.

«لماذا لا تغفرين يا أماه. الله غفور رحيم. انسي الماضي»

أعرف الوجه الحقيقي للأشياء التي حولي. كيف أنسى؟!

أمي صارت «موسوسة» وشكاكة أكثر ـ ميتها لا يموت ـ رغماً عنها جدي هو شيخ القرية. والزعيم أمر بجمع التبرعات لتجديد «الخلعة التي على قبر جدي» وشراء البخور. تبليط حوش الضريح. ومدّ المياه والقرية عطشى.

منع الجميع من دخول الغابة التي تسوّر القبر. إنها مخصصة للأغنام التي يملكها جدي الشيخ شهاب. الأغنام هذه تنحر في المناسبات عن روح جدي توزع على الشيوخ وأصدقاء الزعيم. أي توزع على الفقراء كي يحفظ الله الجيل الطالع من الشبان من الغواية والشرور والأفكار الفاسقة الهدامة التي لا تؤمن بمولانا الشيخ.

أختي قالت.. لو أنهم عمّروا لنا بيتاً يا أخي.. ألسنا نحن من عائلة هذا الرجل؟!

هزت أختي رأسها. فاجأتها أمي بكلمة «اخرسي أنتِ.. كلكم الحمد لله تعرفون الكلام»

سكتنا جميعاً ولكن جارتنا التي دخلت تضرب وجهها وتشد شعرها وتصرخ. يا أم علي.. أما سمعتِ؟!

هرعت أمي إلى العتبة. ماذا؟!!

لقد سرقوا خراف المزار.. يا ويلي ماذا يحلّ بنا. ألا يكفينا كل هذا الفقر؟ أنكفر أيضاً؟ قولي شيئاً يا أم علي.. أنت فرع من أصل ـ والفروع لها قداسة الأصول.

كأن شيئاً لم يكن. أمي لا تحرك ساكناً. تفضلي. تقول للجارة. من أخبرك؟!

ـ حامد أخبرني. أخبرت العم صالح فلم يترك المنقلة ولم يتحرك من مكانه.

ـ قطبت أمي حاجبيها. بالتأكيد سينزل غضب الله علينا. اللعنة من يجرؤ على سرقة خروف أبي.. ساد الصمت. ولكن عندما خرجت المرأة مترددة أمام ردة فعل أمي فهي لم تفهم شيئاً. قامت أمي تخبر أمها العجوز التي انقطعت عن الناس في سريرها الخاص.

«من يجرؤ على سرقة والدك غيرهم»

«حامد يعرف من السارق»

«حامد رجل كبير» قلت لأمي. كرهت هذه الأحاديث. وكرهت التوتر الذي يظل ملازماً للقرية.. كانت هذه فترة الخمسينات المكتظة بالقلق والجَيَشان والجوع والعنف للخروج من شرنقة قديمة تخنق الأنفاس «لقد كبرت بما فيه الكفاية يا أمي. أرجو أن تسمعيني» لكن أمي لا يوجد عندها أولاد كبار. الولد هو الولد. فنحن صغار أبداً. اسكت يا ولد.. أتظن أنك صرت رجلاً؟! الرجولة ليست بالطول والعرض.

أتلمس وجهي. أتسربل بغضب مكتوم. ينزُّ العرق من راحتي.. أنا ما زلت ولداً؟!!

ربما.. لاحظت أن أمي لا تصدق أي شيء. لقد خرج الزعيم وحراسه وأزلامه. والشيوخ. وجمع من الناس للبحث عن خراف جدي.

رحلة البحث تستمر من الصباح حتى الظهيرة حيث الصيف حارق والرطوبة خانقة. وحيث أن الجوع بدأ يستبد بالزعيم ورجاله. فضحك العم صالح مرة وقال الزعماء لا يجوعون. قلت له: ولا يموتون. إنهم يتناسلون واحداً بعد آخر ياعم:

الزعيم يأمر الرجال بذبح خروف وطبخه سريعاً ليكون طعاماً للذين ناضلوا في البحث عن خراف المزار لحفظ مهابته وكراماته.

«هذه مسألة مقدسات. مقدسات يا حامد.»

«صدقت يا زعيم»

«ثروة مولانا الشيخ شهاب هي ثروة القرية.. ثروة الفقراء ولا يجوز العبث بهذه الثروة»

«صدقت يا زعيم.»

استمرت عملية البحث في كل مكان وامتدت إلى البيوت. والجيوب.

«خروف جدي ضاع.»

«العم صالح قال: سيستمر البحث طالما الخراف موجودة ومتوفرة للذبح عند الغداءات المقبلة. كل يوم يذبحون خروفاً من القطيع من أجل الرجال المناضلين. بعد الغداء يتناولون قليلاً من نبيذ حامد المعتق. ثم يلقون بعض القصائد العصماء ثم يعودون إلى بيوتهم ليبدؤوا غداً.

«لم يجدوا الخراف المسروقة.»

«لم يمت أحد في الضيعة. ولا في المناطق المجاورة»

«لم يأتِ الطوفان. أين لعنة مولانا؟!»

بعد أسبوع مرض الزعيم. فتوقف البحث عن الخراف. انزوى في قصره. في البداية كان رجال القرية يتدافعون لزيارته. في الفترة الأخيرة خفت زيارات الناس. يبدو أنهم تأكدوا من عدم شفائه. لكن حامد قال إن الزعيم لا يريد أن يراه أحدٌ الآن. فهو لا يتكلم بل يشير إشارات بيده.. اقتصرت الزيارة أخيراً على حامد. وحمدان الكسيح ومعهما أحياناً سرحان. يذهبون محملين بالدجاج والسمن والخراف والبط الذي جمعوه من أهل القرية. يضعون ما يحملونه في مدخل القصر. تاتي امرأة قصير سمراء تأخذ هذه الهدايا وتخبر سيدتها بالقادمين. تخرج زوجة الزعيم.. طويلة. سمينة. بيضاء البشرة.. تزن أكثر من مئة كغ. اشارت إلى حامد بأن يدخل.. دهش حامد عندما رأى سيده يثغو كخروف.. خرج حامد راكضاً. خائفاً وعندما رأته أمي. قال لها: يا أم علي أنا لم أبح يوماًبسر.. الرجل يعرف من حفظه وكتمانه للسر.

«هذا صحيح يا حامد. ماالذي جرى.»

«غداً يقولون أنا أفشيت سرّ الزعيم»

«معاذ الله يا رجل. أنت ذراعه اليمنى. بل واليسرى أيضاً.. وقد تكون سيقانه.. كما كان سرحان وأنت بالنسبة لوالدي.

«هه.. أرأيت؟! أنت قلت ذلك. هل أخبرتك مثلاًأن الزعيم يثغو كخروف..؟!

«تبتسم أمي وهي تشيح بوجهها.. لا. أبداً لم تقل لي يا حامد أي كلام عن هذا الموضوع» غداًعندما ينتشر الخبر في القرية. يقولون: الله قادر على كل شيء يضع برهانه في أضعف خلقه.

حمدان يبكي ويقول أن شوكة صبار دخلت حلق الزعيم ونمت في بلعومه. حتى أن جسده كله الآن شوك صغير يشبه شوك الصبار. شوك يشبه الشعر.

العم صالح «إنهم يعرفون كيف يختلقون الأكاذيب»

إنه الخبر الفصل بالنسبة لي.. إني أقع في شكوك كثيرة ولا أعرف كيف اصل إلى الحقيقة. أحياناً أشكك بأمي. لماذا تعارض هذه المرأة المعجزات عن جدي..

كان الحري بها أن تعرف هي وجدتي وأن تصدق ربما كان الزعيم هو السارق! ولهذا أظهر الله الحق.. لكن لماذا لم يمرض حامد وغيره؟! أسئلة لا أعرف لها جواباً.

جدتي لا تحب شهاب. وأمي كذلك ولكل منهما أعذارها. حتى خالتي هدبا التي يقال بأنها تستوطن البراري وتظهر أحياناً في الليالي المقمرة وهي تدور حول قبر جدي صارخة سأقتلك. سأقتلك لها هي الأخرى أعذارها.

في الواقع.. جرّدوا أمي من حقوقها كلها كإبنة للزعيم الديني للقرية. لدرجة أنهم يخافون أذاها. هناك أشياء غامضة لا أعرفها. لذلك كان لا بد من فعل شيء أريد أن أرى الزعيم. أنا الولد اليتيم.. انتظرت حتى هبط الليل فتسللت إلى قصره وتسلقت جدرانه. أريد أن أسمع الزعيم وهو يثغو. قبل الوصول إلى شرفة القصر رآني الحراس. ماذا تفعل هنا يا علوش بن فطوم.؟

أنا.. أنا.. أريد..

ماذا يا كلب.. أمك أرسلتك أليس كذلك.. أمسك بي الحراس واتهموني بالسرقة.

«لم أسرق شيئاً والله.»

«لماذا تصعد إلى القصر ليلاً إذاً؟»

لم أجد أمامي غير البكاء. بكيت بشدة. ضربوني لأعترف. أتوا بحبل طويل يربطون فيه الأبقار عادة وربطوني به.

«قل لماذا جئت»

لا أقدر أن أقول جئت لأسمع ثغاء الزعيم.

اخترعت كذبة محترمة. جئت أتفرج على القصر من الداخل.. يقولون فيه بركة ماء،اشجار وأشياء لا تخطر على بال. ويقولون فيه جنيات وساحرات وطيور غريبة. أمي قالت إن قصر الزعيم لا يحتاج إلى طين لأنه لا يعرف الوكف. لم أصدق أمي. كل البيوت في القرية تحتاج إلى طين في الخريف. أمي تسوقني كل سنة إلى «المحفارة» أحفر. أحفر. ثم ندوس الطين بأرجلنا. ثم نطلي به الجدران والأرض والسطح. فينبت الشوفان البري على الأسطحة لدرجة أن قريتنا ذات البيوت المتواصلة.. تصير حقلاً من الشوفان البري والشعير. والقمح البري.

ـ لماذا أنا أقول كل هذه الأشياء.. يا عليا..؟!

الحراس كانوا يعرفون ذلك. وكانوا يطينون بيوتهم. هم حراس ولكنهم من القرية.

ـ تعبتِ؟!! لا بد أنك تعبت من أشياء لا تخصك.

الواحد منا يرغب في آخر ليشاركه كل ما في داخله.. كيف نشارك بعضنا إن لم نعرف كل هذه الأشياء.

في القديم يقال أن ملكاً كان يستأجر الرجال الأشداء ليسرد عليهم حكاياته. وكان على الرجل ألا يتفوه بكلمة. يظل يسمع إلى أن ينتهي كل ما في جعبة الملك. عند ذلك يودع الملك الرجل ويهديه بعض المال ويقول له لا تعد إلى هنا ثانية لقد انتهى ما سأحدثك به.

عليا. قهوتك لذيذة. وصوتك لذيذ.. أشعر أني الآن أبتدىء حياة أخرى لذلك أستذكر كل هذا البؤس لأرميه بعيداً.. لأنتهي منه. هذا الماضي الذي يطاردني.. أنا بحاجة لمن يسمعني. شهرزاد كانت تسرد حكاياتها كي لا تقتل.. عندما تنتهي حكاية تبدأ أخرى.. استعانت بالكلمة.

عندما تموت الكلمة. نموت؟!!

عندما تموت الذاكرة نمسخ؟!!

لا أعرف. عليا. كل ماأعرفه أني أحبك وأحتاجك.. لا يمكن أن أنسى حتى حسن يا عليا.. حسن صديقي. أتدرين ما فعل بي؟!

ألقى قصيدته عن العم صالح. تركها عندي. فترك عندي ربع قرنٍ ماذا أفعل بكل هذه الأكداس؟ لا بد أن أحاول اكتشافها من جديد. ترك النهر والصفصاف، والبيوت، الحقول. حذائي المرقع الذي آخذه كل شهر إلى عند «محلاً» يصنع لي نصف نعل حتى صار نعله بسماكة الكعب وصارت أصابعي تخرج منه إلى الهواء الطلق أو إلى بحيرات الماء.

ـ لو أنك سايرت الزعيم يا فاطمة. كان يقدم لأولادك الأحذية والهدايا.!!

ـ كيف أساير الزعيم؟.

ـ يعني هو أخذ مال ابيك بعد رحيل أخيك إلى بيروت. ولن تستطيعي أن تفعلي شيئاً. رضيت أو رفضت. «لذلك اليد التي لا يستطيع المرء كسرها. يقبلها ويدعو عليها بالكسر»

ـ لا أقدر.. هذا الزيف لا أستطيع القيام به.

وأنا كذلك يا عليا.. لا أستطيع. لا أستطيع. وحدك تجعلين لحياتي معنىً. ما تزال كلمات هذه المرأة في مسمعي. قدمي الخارجة من الحذاء بدأت تنكمش.. محّلا كل شهر يقول لي: «شو يا علوش» متى تشتري حذاءً جديداً؟ أبتسم وأقول له: مالذي يضيرك؟! هكذا أفضل بالنسبة لك. كل شهر أجلب لك اربع بيضات بلديات وحذاء يحتاج إلى ترقيع.

أفرك معدتي. الجوع بدأ ينشب أنيابه عندما تذكرت البيض البلدي الذي صار نادراً. أتجه إلى المطبخ الرطب. أجد أن الشمس قد غادرت. وأجد أنه عليّ الانزواء بين كومة السنوات الباقية كي لا تهرب القرية مني أكثر. ألا يكفي أن أضيّع المدينة أيضاً؟!

لقد انتهت محاضرتك الآن يا عليا.

لا بد أنك الآن في المنزل فالليل يغدق بعتمته على البحر كله.

«علوش يسجل هذه الملاحظات.. لماذا؟!»

أنت الآن تشربين الشاي الساخن.. آه من صوتي يؤلمني يا علي.. أطوقك بذراعي. وأقول سلامة صوتك.. ربما كنت عند سامح الآن. لن أتصل به سأصنع قهوة.. لا أريد أن أتناول غير القهوة.

«اصنع لي فنجاناً معك يا رعد.»

أتلفت حولي. من يكلمني؟!

اسمع صوتاً غريباً. أفتح الباب وأغلقه. رعدٌ قاتل. وأنا لاأقتل. دون إرادتك. أنت حجر شطرنج في هذا الزمن: تهب الرياح الغربية تقلب كل أوراقك.

«اختر»

«ماذا أختار يا سيدي»

«اختر الحياة..

«ها أنا أختار الحياة»

«لا.. أنت لا تختار الحياة بهذه الطريقة.. أنت تختار الموت.»

«كيف أختار الحياة إذاً.»

«ادخل عالم النسيان. انسى كل ما قلته. انسَ أنك علي.. انسَ ما تبحث عنه.

«يعني أُلغى»

«تماماً..»

«ما المقابل.»

«تعطيك اسماً جديداً وقصراً. وذاكرة جديدة وتاريخاً جديداً. يا إلهي.. اضرب رأسي بالجدار.. عليا.. لا أجد إلاّ اسمها أناديه.

أنا علي الذي رضع حليب أمه فطوم الجبارة وزرع ذاكرته بصوت العم صالح.. وصوت الأجداد وأكتب الشعر الحرّ مثل فارس عليّ أن أنسى ذاكرتي.. أصير قميصاً.. يلبسونني ويخلعونني متى يشاؤون. لا. أصير حذاء. وكلما اهترأ وضعوا له

نعلاً جديداً أفتح الباب وأصرخ بأعلى صوتي: أنا علي. أنا علي.. اسمع أيها الجبل المقدس. كاسيوس = صفّون = الجبال العالية كلها.. أنت يا من تسكنك الآلهة. اسمعي أنا علي. بن ابراهيم. بن فطوم. بن.. وابن. إلى أن أصل إلى جده هداد = بعل المعظم مروراً بالفارس المقتول الذي يجوب أركان الأرض على ظهر حصانه.. مروراً بكل الزلازل والثورات. و.. مازلت أحمل وعاء السكر.. ماذا أفعل..؟!

«أنت متعب يا علي..»

«سامح.. أنا بخير.. لماذا تقولون بأني متعب.؟

قطرميز السكر بيدي. أجلس على العتبة. أسمع نقراً خفيفاً على الباب. صوت خفيض يقول «افتح».

«من؟!!»

«عليا.. آه ربما كانت عليا»

ركضت إلى الباب أفتحه. رائحة عليا تقترب. رائحة عطر ونعنع بري يخلّصني من وجه محلا. ووجه سلوى وعدنان والمدير. والزعيم والحراس.. هذه الوجوه سألغيها. لاأريد أن يطفح قلبي بالألم. كرهت هذه المهدئات.

«ما بك يا أستاذ؟!»

امرأة تسد عليّ الباب. لماذا تنادي يا استاذ.؟!

«أنا ناديت..؟!»

«أجل. ناديتني.»

«لا أظن.. ربما سقطت الركوة من يدي. سمعت صوتاً. الحقيقة كدت اكسر قطرميز السكر أيضاً.. كانت الركوة ساخنة»

«هل حرقتك المياه الساخنة؟!!

«لا. شكراً»

انحنت الجارة التي ترتدي قميص نوم شفاف ـ تكتشف الحرق المزعوم في يدي لامست يدي. ابتعدت عنها. دخلت إلى المنزل وأغلقت الباب. ها هي امرأة أخرى

تريد اكتشاف عالمي. ربما لأني أنزوي فأشكل سحراً خاصاً لهذا النوع من النساء الوحيدات في أنصاف الليالي. شعرت أني أرتعش.. يدي تهتز. «هات عنك السكر.. أنا أصنع لك القهوة. أنت يجب أن تتفرغ كلياً للشعر. أنت مبدع كبير يا أستاذ»

تأخذ السكر من يدي وأنا ملجوم اللسان. لا أعرف ماذا أريد. لن اقسم بأني لم أكن أريد امرأة تنتشلني من كومة الذاكرة. ولكن لم أكن أرغب أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة.

جاءت بالقهوة.. هذه الجارة الرقيقة. إنها لا تخاف البرد. قميصُها مفتوح وثوبها شفاف للدرجة أن تفاصيل جسدها تظهر دون قصد.. وعندما قدمت لي القهوة انحنت أمامي إلى أن نفر ثدياها من القميص شعرت أني أتهاوى.. ظلت على نفس الحال وهي تقول لي: أنا أكتب بعض المقطوعات يا أستاذ. أرجو أن تساعدني قليلاً. إني أحب الكتابة. عندما نظرت إليّ رأتني متلبساً بالجرم المشهود. كنت أرتشف من ثدييها النافرين كفرسين مشاكسين. لم تحرك ساكناً. ابتعدت إلى الوراء وعندما وقفت منتصبة. ظل جزء من حلمة الثدي الأيسر ظاهراً. فاضطرت بحركة عادية أن تعيده إلى مكانه داخل الثوب.

لم أكن قد رأيتها إلاّ عدة مرات. في الصباح. أو في المساء وأنا عائد من العمل.. في الحقيقة هي جميلة. لكن لن أحتاج منها أكثر من أن تسهر معي. نتحدث عن الشعر. لم أجرؤ أن أبتسم لها. لا أريد أن أتورط مع امرأة لا أعرفها.. ولا أريد أن اخون عليا التي أحبّها. أتذكر سلوى الآن. لا. لا. يجب أن تخرج هذه المرأة من بيتي. كم هي جريئة. لكنني كنت اتمنى في أعماقي أن تبقى. مع ذلك التزمت حدود قيودي. أمي قالت: حافظ على عرض الناس حتى يحافظ الله على عرض أخوتك البنات. مدت يدها العارية فلمست جبيني. انت متعب يا أستاذ؟!

«أجل.. لذلك أرجو أن تذهبي وتنامي»

«لا.. أبداً. أناأحب السهر. في الحقيقة منذ مدة أردت الدخول إلى منزلك لأعرف عالمك الغامض.. من أين لك بهذا الوحي.»

بدأت تقرأ بعض أشعاري.

«ليتك تذهبين إلى النوم.»
«أبداً. لن أذهب. أنت حساس جداً أراك وحيداً باستمرار.»
«أجل.. أنا هنا وحدي. مقطوع من شجرة.»
«ها.. ألا يوجد امرأة في حياة الشاعر؟!»
«ربما..»
«ربما..؟! بل بالتأكيد.. إذن من أين لك هذا الشعر الغزلي؟!!
«كان ذلك فيما مضى»
«كأنك الآن عجوز أتعرف.. أنا أحب الرجل الأربعيني.»
«صحيح..؟!»
«صحيح. وأنا...»
«ألا تؤمن بحرية المرأة؟!»
«نعم.. جداً.»
«يعني هي تقدر أن تقول للرجل الذي تحبه أنا أحبك»
«طبعاً»
«إذن.. أنا.. أحبك.»
هي تحبني. أسمعت يا عليا..؟! وأنا أحبك. مثلث.. رؤوسه متباعدة. بل هو مربع. وأنتِ أعتقد تحبين سامي. تلميذك النجيب.
أو سامي يحبك؟! لا أعرف. ضاعت المراكز ونقاط التلاقي. في كل مرة تضعين عذراً وفي كل مرة تروين لي مشكلة أو عائقاً.
«أنا لم أحب سوى مرة واحدة. أحببت شاعراً يدعى رعد.»
قالت الجارة ذلك فصرخت. رعد..؟!
دهشت أتعرفه؟؟
«لا..لا.. لا أعرفه. أعرف رجلاً مجنوناً كان يدعى رعداً خفت عليك منه»
تملكتني رعدة في جسدي. سقطت القصيدة التي كنت أقرؤها من يدي شعرت

بخوف يجتاحني. لا أعرف لماذا أنا خائف. من المرأة أم من رعد.. خائف من أنوثة طاغية أم من مواجهة جديدة لواقع جديد. «أنت لست رجلاً» سلوى تصرخ في وجهي وتبعق بصوتها القوي.. يرتعش الليل بين يدي. لاأعرف كيف رحت أتقدم خطوة. فخطوة. أم أعود إلى قناعاتي القديمة. لم أفتح قميصها. ولم أقطع أي زر من أزرارها.. هي بنفسها فتحت قميصها. تركته يسقط من أعلى وهي التي رفعت ثدييها بيديها كأم تريد أن ترضع طفلها الوحيد الجائع.. لأعترف بأني كنت جائعاً ولكن ليس أبعد من أن ألثم حلمتيها وأرشف عبير جيدها.. كانت تتلوى وتتهاوى.. همست بصوت عذب: «أريد أكثر. أكثر».. شعرت أني لا أملك أن أعطيها أكثر.. لا يمكن.. راحت تقبلني بنهم «ألن تكتب لي قصيدة.؟!»

سأكتب. أجل. على يديك. ظهرك. فخذيك. ثدييك. بطنك. وتابعت هي.أريد أكثر. أكثر.. كانت الأرض العطشى.. وأنا كنت الغيم الذي لم يسقط منذ سنوات طويلة. ولو أنّها جاءتني بوقت غير هذا لما استطاعت أن تشرب مائي. لكنها جاءت في وقت كان كل شيء قد بدأ ينهار. كرامات جدي. سور برلين.. اتحادات. منظمات. معاهدات. والملك يلثم حلمتي امرأة يهودية الآن وأنا أرتشف قهوتي المرّة. «أريد أكثر.» تراجعت. شهقت وراحت دموعها تنهمر.. «أنا أريد أكثر ولكن لا..لا.»

خفت. تراجعت.. الرجل هو الذي يملك نفسه ويسيطر على رغباته. ولكن هي.. أنا لا أريد أن أؤذيك..

«لا.. أنت لا تؤذيني.. إن لم تفعل سأصرخ.. سأبكي. سأموت»

«أي امرأة هذه. ما عدت قادراً على الخلاص من رغباتها. بدأت أنكمش كسلحفاة خائفة»

«هيّا. ارتدي ثيابك.. أرجوك.. أتوسل إليك»

كدت أبكي وأنا أنهزم للمرة الألف. خرجت الجارة تجر خيبتها المؤلمة.

....

أي امرأة أنت يا عليا.

أنا لم أضعف بقدر ما كنت أبحث عنك في امرأة أخرى. صدقيني هذا كل

الذي حصل. أقول ذلك لا لتغفري لي ولكن لتعرفي كم أحبك وحين لم أجدك أبعدت هذه المرأة عني.

هذه المرأة لم تعرف إلا لغة الجسد. أنا لم أحاورها كما تشتهي إلى النهاية.. حملها كاذب.. لم تحمل مني صدقيني. أنا لا أتخلى عن امرأة لي في اعماقها بذرة. أتفهمين عليّ..؟!

هي التي تدعي. هي تحبني. أنا واثق بأنها ليست حاملاً. ولكن تدعي ذلك لتحوذ عليّ.. قد أضعف يوماً يا عليا.. أرجوك دعيني من هذه القسوة!.

أنا لاأريد حواء الجسد فقط.

عندما استيقظت صباحاً.. دقت عليّ الباب لم أفتح. اضطررت للغياب عن الدوام كي لا أراها.. دقت كثيراً. لم أخرج. قبعت في المنزل. لا أريد أن أرى احداً. سألت عليك لم أجدك. كنت سأعتذر عن موعدنا. لم أكن قادراً على الخروج من دوامة الأمس. شعور بالاثم وشعور بالهزيمة وشعور بالحزن. كل هذه المشاعر تختلط وتعذبني.

هذه المرأة لم أكن أعرف اسمها.. كنت أقول لها. «يا. يا»

«أنت متعب يا علوش»

«أجل أنا متعب يا عليا.» رحت أرنو إلى الستائر بعد أن أخذت حبة مهدئة من الحبوب التي وصفها لي سامح. ثم حاولت ان أقرأ كتاباً جديداً اشتريته من المكتبة. لم أقدر.. شعرت بغربة قاتلة في منزلي. في المدينة كلها. كأني لا أعرف أدوات منزلي ولا مقلمتي. كأني لا أعرف المدينة شارعاً شارعاً. فكرت بالإتصال بأصدقاء كنت قد نسيتهم.. عليّ أن أستعيد علاقاتي بالآخرين... سامح قال عليّ أن أتصل بالناس. أن ألهو معهم. ولكن أنا لست من زمنهم يا سامح. لي زمني الخاص..

«هذه أزمنة الشعراء»

«ربما. ربما يا سامح»

«ولقاء جارتي أليس لقاء»

«لو كان جدك حياً لأحال هذه المرأة إلى صخرة. أو إلى شجرة.»

يضحك سامح. فتظل عليا صامتة. أشعر بالخذلان. تدير عليا وجهها وتقول:
«أنتم هكذا أيها الرجال»

المقهى مليء.. الطاولات عامرة بالطعام والشراب. أنا لاأقدر أن اشارك في كل هذه الملذات. أنا لست ابن هذا العصر.. لا أعرف إلى أي عصر أنتمي إلى الأمام؟!! إلى الوراء. إلى ماذا.. ولماذا لا أنسجم مع الواقع الجديد؟

«أنتم ترويكم كل امرأة. أي امرأة»

ـ لا أبدأيا عليا. صحيح أنها مثيرة ولكن أنا لا أرتوي إلا من امرأة أحبها..

وأنا لا يمكن أن أحب هذه المرأة. حاولت مراراً ورفضت.. أليست هذه بطولة في زمن الأيدز؟!

إنها لا ترضي فكري وعقلي.

نعيد الضحك حين أتذكر أنه يمكن أن أنقلب إلى صخرة. تقفز إلى ذهني ضحكة العم صالح حين سمع بأن امرأة حوّلها جدي إلى صخرة. «جدي كان زير نساء»

الزعيم أمامي الآن.. لقد مات في آخر الصيف. بعد ذلك انفض بعض أزلام الزعيم عن الإيمان بجدي.

«الشيخ شهاب لم يشفِ ابني من لسعة العقرب فمات يا حسرتي»

«شجرة الكينا التي ماتت أغصانها أمام بوابة المزار لم تخضرّ في الربيع. لقد ماتت الشجرة القديمة»

نباتات السبع المتطفلة على حقل البندورة وحقول الفول قضت على الموسم مع أننا حملنا تراباً من تراب مولانا ورششناه في الحقل «لم يمت هذا الطفيلي اللعين»

يا شيخ حامد.. ما الذي يجري. من مولانا. شهاب أم الزعيم؟

«شيء من شيء.»

هكذا بدأت بذور الشك تنمو. تكبر. في تلك الفترة كنت مشغولاً بحب ليلى ولا يهمني من العالم كله إلاّ أن ألتقيها عند دوّار النهر.. مات السبع. مات الضبع كل هذه الأشياء لا تعنيني. مرة رأيت ليلى تستحم في الدوّار.. ثيابها على الصخرة

وهي تستحم بين القصب البري. تسمرت مكاني. لأول مرة في حياتي أشاهد جسد حورية. لم أتشهاها.. بل خفت عليها. أشحت وجهي. لم أتمالك إلا أن أعاود النظر إليها. زاغ بصري. همست. ليلى؟! شتمتني فابتعدت ولم أخذلها.

ليلى تستحوذ على تفكيري يا حسن. يبتسم صديقي ويسمعني أشعاره التي ينظمها في حبيبته.

«هذه سرقة يا حسن. هذه الأبيات ليست لك»

«عندما تحب بصدق ستعرف أن الشعر يأتيك وحده»

كتبت لسامح عن ليلى.. سامح كان في أوروبا.. والعم صالح كان في أوج معركته مع الجهل..

«الشيخ حامد لم يقدم للقرية أي شيء إلا كرش الوجاهة الذي يحمله هو ومعاونوه أما نحن فجلد وعظم. نكاد نموت ومع ذلك علينا دفع المال للزعيم.

يندفع رجل من تحت مصطبة مجاورة ويشتم العم صالح. الرجال تجمهروا.. صاح آخر. مات الزعيم وهو يثغو كالخروف.

«إنه الخروف الذي سرقه. لقد ثغا في بطنه حتى مات»

«الشيخ لا يقبل أن يسرقه أحد.»

كنت صاعداً من على ضفة النهر ممتلئاً بوجه ليلى وصوتها الجميل. لأرى امامي إلاّ الزهور والعصافير تطير فوق رأسي. والمدن الملونة حين انتبهت إلى معركة الرجال. هذا بالأيدي وذاك بلسانه يشتم. يمر الشيخ حامد أمام الجميع دون أن يحرك ساكناً وحمدان يقف متفرجاً. نظرت إلى أمي باندهاش وسكتّ.. يقال بأن جدي زهد بكل شيء. وصار متصوفاً. هكذا قال حامد. أشعر بالحزن يغمرني. أنظر إلى العم صالح أراه متجهم الوجه. حزيناً. أتخيل أنهم ينبشون قبر أبي وأنه يموت للمرة العاشرة. جرح عدة رجال.. وتفرّق أهل القرية إلى عدة فرق.. راح الخوف يلف القرية. ولكن وحدهم الفقراء دائماً يتلقون الضربة القاضية.

العم صالح يقول.. يا حامد. لماذا لم يمسخنا مولاك. ألسنا أعداءه؟ حتى ذلك الشاب الذي شتمه وضربتموه لم يتحول إلى صخرة.

ركضت أمي باتجاه حامد.. انتزعت عكازه من يده كي تمنعه من المسير حتى يسمع ما تقوله. لكن حامد سحب العكازة من يدي امي ومضى.

«هربت؟!»

أسرع حامد فأسرعت أمي. كنت معجباً بها وهي ترشه بالكلام النابي وهو يسير صامتاً.. وصلت أمي إلى قبر جدي.. تبعها العم صالح وبعض الرجال قالت أمي: « انظروا»

هذا الرجل جاء بعجله منذ الصباح وهو ينتظر الشيخ حامد كي يذبح العجل ويوزعه على الفقراء

«ها هو حامد يا أخي.. شيخنا الكبير» قالت أمي للرجل الغريب

«الحمد لله أنك لم تتأخر أكثر. إني أنتظرك.»

«الحمد لله على السرّاء والضّراء. إني أنتظرك.»

حامد يشير بيده ويغمز بعينه أن يكتم الجميع أنفاسهم أمام الغريب يجب ألاّ تنشر غسيل القرية القذر أمام الغرباء. ولكن لم يأبه لكلامه أحد. الرجل الغريب لا يفقه ما يدور حوله.

«أريد أن أذبح العجل فداءً لولدي الذي شفي من الحصبة»

«حاضر»

يأخذ حامد السكين. يسنّها جيداً ثم يقرأ عليها الفاتحة وبعض الآيات التي تقرّ وتحلل الذبح للحيوانات.. يرفع صوته «سبحان من حللك للذبح» يعود فيسن السكين عدة مرات. يمسك حامد بالعجل. يغرس السكين في عنق العجل المربوط في رقبته. اتجه العجل إلى حامد. ركله فسقط على الأرض. قفز الثور في الهواء وأخذ ينطح صاحبه حتى أغمي عليه. عاد العجل إلى حامد الملقى على الأرض. نطحه إلى أن سال دمه. لم يستطع أحد أن يوقف الثور الهائج. دخل إلى داخل قبر جدي. روّث داخله. دمه ينزف. السكين ما تزال عالقة. نطح القبر بقرونه. سقطت قطعة الرخام المستطيلة. انكسرت مباخر الجمر. ابتعد حراس المزار. الثور يخور. يملأ المكان رعباً. يلتفت يميناً ويساراً. جمد الناس. فرّ حمدان وبعض رجال الزعيم.

العم صالح ينادي. إلى أين يا رجال.؟!

العجل يخور. فجأة ابنثقت خالتي هدبا تجر جدتي التي صارت كالشبح. خالتي: من أن جئت؟! لم ترد كانت فتية. شامخة كحورة. خالتي لم تهرم. وقفت ترنو إلى حامد وهو يلفظ أنفاسه. أمي كالخرساء. ظلت تشهد ما يجري دون صوت. تساءلت بحزن: هل سقط كل شيء؟! كنت أتمنى بدافع الغرور العائلي أن يكون جدي صاحب براهين وكرامات. أحد الرجال يقول.. شهاب بريء مما يجري إنه إنسان عادي. الزعيم ألبسه هذه الحلة. سوّاه شيخاً.. أجبره على بيع ابنته لأنه اغتصبها أولاً. شهاب أتوا به وزعّموه.. فلماذا أنتم هنا شامتون. هم نسبوا إليه الخوارق.

معقول هذا؟!

صرخ آخر. أنت تكذب «ولاه» شهاب شيخنا وسيبقى.

«وبقي المشهد.. بقي ولا أنساه أبداً»

خالتي كحورية تتقدم الجميع. تقول بصوت هامس. لم تكن كما يصفونها مجنونة.. قالت وهي تتلمس حجارة القبر والقبر تلوث بالدماء.. أنا أحبك يا أبي ولا يمكن لإنسان إلاّ أن يعجب ذات يوم بأبيه. لكن لن أخدع نفسي أكثر وأصدق بأنك ولي الله على الأرض. رأيتك وأنا طفلة تفضح «سلمى» ابنة الجيران الصغيرة. كانت سلمى رفيقتي عند الخطيب. قلت لي سأقطع لسانك إذا تكلمت.. وعندما فعل بي الزعيم ما فعل لم تقطع لسانه. لكن أعطيتني لذئب يمصّ دمي.. كانت خالتي تحمل عصا كعصا الساحرات. يا حامد.. «نادت» حامد لا يرد... ـ أنا لا أب لي يا عم صالح.. يا علوش أنا لا أب لي يحميني.. هذا ليس أبي. الجميع صامت. والعجل واقف ينزف. حامد يا عم صالح وضع السم للزعيم وادعى أنّ لعنة أصابته. حامد أراد أن يتزوج زوجة الزعيم. ويأخذ كل شيء لأبي وللزعيم. حامد رش السمّ لدجاج القرية. وحمدان عالجه الزعيم في المدينة. رأيته أنا عند الطبيب.

وأنا!! أنا العاهرة.. انظروا ما بداخل القبر. تعالوا وانظروا.. العجل فتح كوة. أخذت خالتي تحفر بعصاها الكوة. اقتربت جدتي.. أخرجت جدتي صرة فتحتها..

لم يكن فيها سوى بقايا عظام بالية ينخر فيها الدود والقوارض. ومن قاع القبر. خرجت أفعى رقطاء. سبحت على الأرض ثم عادت إلى وكرها»

اندهش الجميع.. كأن على رؤوسهم الطير. حتى أنا لم أستطع أن أصدق ما أراه. يقولون إن جسد الأتقياء لا يبلى.. يظل على حاله عصياًعلى التراب.. شهاب كان بالياً.. متعفناً.. والأفعى تسكنه.

صاح رجل فقطع الصمت.. لا تكذبوا هدبا. أناأعرف كل ما قالته. سلمى أختي. وجمّول قريبتي. هو الذي قتل جمّول لأنها رفضته. بل لم يكن هو. بل الزعيم دفعه ليفعل ذلك.

العم صالح ظلّ مكفهراً. أمي لم تقل شيئاً. لأول مرة أراها حزينة. أمسكت أمي بجدتي وبخالتي. ومشين معاً باتجاه المنزل. العجل سقط أخيراً. دمه ملأ الساحة. تحرر الرجال من هول الصدمة. حمدان يعق.. اللعنة عليك يا هدبا.. كل المصائب منك القرية كانت سعيدة-بحياتها وبنذورها وأوليائها... هدبا هذه قتلت ما تربينا عليه.. يا مختار. لم يعد غيرك هنا. أرسل وراء الدرك ليقبضوا على هذه المجنونة.

ـ لو اقتربت منها فلن أتراجع عن ذبحك كهذا العجل. ارفع شريكك حامد وادفنه ـ

لأول مرة أرفع صوتي. لأول مرة أشعر أن لي صوتاً وأني رجل. مشى إلى جانبي العم صالح. شدّ على يدي. ابتعدت أمي وخالتي وجدتي.. هن يبتعدن ونحن نسيرُ.. أين خالتي هدبا.؟! كأنها الغيم الذي تسوقه الريح. كأنها المطر الذي تحضنه الأرض. اختفت خالتي فبكيت. وتكورت جدتي على عظامها النحيلة. فجأة تحولت من ولد إلى علي.. لم أعد أمر بمراحل الصمت الطويل. لقد بدأ صراخي. وبدأت أسئلتي تتفجر في قصائد جديدة مختلفة.

لم أجد الجواب الكافي. ولا الشكوك الكافية التي تخرجني نهائياً من قوقعة آدم إلى قوقعة الطيور والحيوانات. بما كان في ذلك الخلاص من أسرِ روحي وجسدي. قبل أن أبدأ القصيدة أسأل نفسي إلى من سأتوجه؟!

إلى القاتل. أم إلى المقتول. إلى المعلم أم إلى التلميذ.؟! إلى الشعب الطفل أم إلى السلطة الرجال؟!

إلى الريف البكر الذي فقد عذوبته وعذريته. أم إلى المدينة التي لم أستطع مسكها بيدي؟ إلى المدينة التي ضاعت بي أم التي ضعتُ بها.. أدور الشوارع وأدور الحدائق والمقاهي ومكاتب الأصحاب أسأل عني فلا أجدني.

أسأل عن علوش الذي كان وعن علي الذي شهر السكين في وجه حمدان ولا أجد أحداً. وقفت بباب المدينة ورحت أستجدي كل داخل وكل خارج. هل رأيتموني؟! خجلت من السؤال. رحت أمشي باتجاه البحر. هذا البحر الذي يدفن غصته في قلبي وموجه المالح في روحي. أغوص في الملوحة والغربة كي أستعيد بعض جراحي التي تذكرني بي.. بالنعنع البري. بالشوفان الذي ينبت على أسطحنا. بعواء ذئب يسطو على دجاجات القرية.. بالأفعى التي كانت تسكن قبر جدي.. ولكن.. بقيت الأسئلة هي. هي. تكبّر الروح الضيقة تريد الخروج من الجسد الواسع. لقد ضاق كل شيء.. كل شيء.. أخرج من البحر بعد أن استسلمت له. ثم أشتمه: أيها البحر أنت غدار. أنت كالزمن. لا يؤتمن جانبك أبداً. مرة تضحك ومرة تعوي كذئب أتذكر ليلى.. لن أتصالح معك يا بحر حتى أتصالح مع نفسي. ها أنا أخاصم نفسي أبداً ربما أصالح الأشجار والزهور والأعشاب ولكن كيف أصالح الحياة.. كيف أصالح ذاكرتي القديمة مع الآن.. كيف أصالح ذاكرتي الحاضرة مع الذاكرة التي تركض من بعيد قادمة بسيارات إسعاف.. كيف؟

المدينة ضيقة مع ذلك لم أجد علوّش.

تاريخ واسع. واسع. مع ذلك لم أجد الفارس الذي ما يزال يرقد على ظهر فرسه منذ ألف عام ولم يتسع له التاريخ بعد.

إني الآن في مفترق للبداية والنهاية معاً.

آه.. يا جدتي؟! لا أستطيع العودة إلى الجوف المظلم «البدء» ولا أستطيع الخروج من عنق الزجاجة.

فقدت أشجار قريتي قدسيتها. لم نعُد نصاب بالحمى إذا كسرنا أغصان شجرة الميس.. ولم نعد نهدل كالحمام إذا سرقنا حمامات الجيران.

هل تفهمني يا عم صالح؟!

ربما كانت تجربتك التي تتمفصل مع نتوءات العمر الطويل أشد إدراكاً ووعياً من

كل ما قرأناه. الآن أستخدم المهدئات. موضة العصر الجديد. وآخر مبتكرات الحضارة.

ما مضى - كان صوتك يريحني أكثر من مهدئات سامح. أكثر من أمسيات جارتي «يا. يا.» وأكثر من قصص «فيصل الذي عاد من الغربة»

«شيء مضحك والله»

تذكرت فيصل. في الحياة اشياء مضحكة رغماًعنك. فيصل يكتب قصصه في مقهى المدينة ثم ينشرها ويدعي أنه كتب قصته في مدريد وأنه كتبها منذ عشر سنوات، وعندما يقدمها في أمسياته يقول: هي لا تمت للواقع هنا بأية صلة.؟!

أي هي ابنة غير شرعية للمكان.

هي هذا الكم الهائل من البذاءات التي تصيب النساء اللائي يرفضنه. ولأنه ليس الشخص الذي يعجبهن كان من الطبيعي أن يكون هذا الرفض الذي يبعث في نفسه مشاعر غير طبيعية تتسم بالحقد

يرشف قهوته ثم يفرك صدغيه. ويقول: نساء ساقطات لا يركضن إلاّ وراء المال..

عليك ألا تناقشه إذا قال ذلك. لأنه من غير المعقول أن تقول له ما قالت امرأة جاهلية لرجل أديب عندما رفضته قال بحسرة:

«أترفضينني وأنا الأديب الأريب؟!

فردّت المرأة قائلة: «ليس لديوان الرسائل أريدك»

فيصل عندما حدثته مرة عن عليا.. قال هي مثلهن.. كلهن سواسية لا.. لا يا فيصل. صدقني.

هو لم يصدقني. وأنا لم أتعب روحي معه.. امرأته التي يكتب أو التي يبحث عنها هي امرأة سيئة السمعة.

المرأة التي أبحث عنها وأكتب عنها. إنسانة بكل مقاييس الإنسانية.

لو كان العم صالح موجوداً وسمع كلام فيصل لقال له: انقلع.. يلعنك. كأنك لا تعرف إلا الخمارات ومحلات الدعارة لذلك لا تتحدث إلاّ عن هذه الأشياء.

العم صالح رجل طويل التجربة. الإنسان هو التجربة كما الكاتب هو اللغة.

يا عم صالح. أعرف أن هذا اليوم لا بدّ آتٍ. إنه الوداع. الفراق. ولكن أشعر أن جزءاً من تجربتي غاب. ها أنا أشعر بالخواء. بالفراغ. أبحث عن الامتلاء. كيف؟! زمن الصداقات انتهى. انظر. ها أنا أستهلك قهوة كثيره.. وشاياً وكتباً. وحبراً وأكسر أقلاماً. فكرت مرة أن أستجيب لرغبات جارتي «يا.. يا»

صدقني لا أعرف اسمها. قصداً لا أعرف اسمها. هي تدعي أنها حامل مني. وتدعي بأني أحبها. ذهبت إلى عليا وأخبرتها كل خيالاتها المريضة. «وحياتك يا عم صالح» لو استجبت لها. ولرغباتي ايضاً. لما حصل ما حصل.. هي ليست حاملاً صدقني وعندما اكتشفت لعبتها. ادعت أنها أجهضت بسبب القهر. لم أعاتبها بعد جلسة الطبيب. ولن أعاتبها. إنها مريضة فعلاً. هي تحب ولكن عبرت عن حبها بطريقة خاطئة. طريقة لم نعتد عليها نحن الشرقيين بعد.

ليلى كانت تسبق الكثيرات حالياً.. ليلى الصغيرة ـ الجميلة لم تكن تؤمن بالزمن الاستهلاكي. أجد في عليا صورة أخرى لها.. بل هي يا عم صالح. لها الابتسامة نفسها. والشعر نفسُه.. لها الصوت نفسه. «هل أنا مجرم لأني أبحث عن ليلى مرة أخرى».

عليا زعلانة مني.. تظن بأني خنتها مع جارتي.. أنا لم أفعل. معها حق.. لأنها لا تعرف العم صالح. عليا أحياناً تتقوقع في محارة الحريم. تمدّ رأسها إلى النور وتعيدُه ثانية لتختبيء تحت المحارة. هي تخاف أن يقطعوا رأسها بسيوف الجاهلية التي يرثونها.. تخاف أن يقطعوا صوتها. ومن يقطعوا صوته تنقطع أفكاره ويتصحر جسده..

كم أنا بحاجة إليك يا عم صالح. لأعترف لك بسر.. مرات وددت أن أناديك «أبي»

أشعر أني بحاجة إلى أب.. أب أبكي بن يديه. ويعاقبني إذا أخطأت. ويشتم أولاد الجيران الذين يضربونني.

كنت سأطلب إليك أن تسامحني لأقول لك «يا أبي» لكني خجلت. وعندما أخبرني حسن بأنك رحلت بكيت بحرقة وانتظرت إلى أن غادرني حسن. بعد ذلك

أغلقت الأبواب والنوافذ ثم رحت أصرخ. يا أبي. يا أبي.. يا أبي. كنت أظنك أحياناً عصياً على الموت. ربما كان الموت بداية. ولكن كيف أجد البديل لحضورك.؟؟ أعتقد أن البديل هو استحضارك دائماً.

موتك الآن فتح جمجمتي. أخرج كل الذي خبأته. وأنكرت أني أعرفه.. هل كان عليّ أن أقول أني مشيت حافياً إلى أن صرت في الصف الأول؟! هل أقول ان زوجة الآغا ضربتني لأني أردد الأناشيد وأحفظ الأشعار الثورية؟!

هل أذكر..؟!

كان الآن مفروض عليّ ألاّ أذكر شيئاً. وأن أقول كي يقبلونني في زواريب المجتمع الراقي: نعم أنا والدي باشا.. أجل باشا... وأنه كان يرسل أمي إلى الاستجمام كل سنة في أوروبا.

«ولَكَ فيصل لماذا لا تذكر في قصصك مكاناً واحداًمن مدينتك.. شارعاً. جداراً. أو من قريتك الموجودة بالجراد والبرغش. لماذا؟!.

«وأنت لماذا تريد أن تبهدلني يا علوش؟

«أن تذكر أن العم صالح كان أستاذك هذه بهدلة»

أن تفرش ذاكرتك وتقول للأصدقاء: هنا تركنا البيوت الطينية المطلة على بعضها والمتصلة «بكوى صغيرة ـ طاقات» أو فتحات تمرر الضوء والصوت للاطمئنان وللمناداة عندما يأتي اللصوص.. أو عندما كان يقتحم الفرنسيون القرية فيطلبون أبي. أو العم صالح وباقي الرجال.. كان أهل المنزل الذي يبدأ الدرك الفرنسي بتفتيشه أولاً يدخلون طفلاً من الكوّة إلى بيت الجيران وهكذا من كوّة إلى أخرى. ينتشر الخبر فيتهَيأ الرجال للمناوشة أو للاختفاء.

أنا الآن بحاجة يا عم صالح إلى هذه الكوة لتصلني مع نفسي. ولتصل الذي مضى بالذي يأتي كي أنجز مشروع إنسانيتي. ها أنا أحاول. أحاول بشراسة. والكوة كما ترى لا تتسع لي الآن. فكيف أعود من خلالها إلى الوراء؟!

لا يتسع لي إلاّ البحر. هذا الغدار ـ الجميل ـ الفاجر الذي سلبني جزءاً من حياتي. المرأة التي كانت تكلمني. أخاف أن أفقد الجزء الآخر يا عم صالح.

موتك.. أخرج الأموات كلهم وجاء بهم إلى غرفتي. كل اللذين أعرفهم

حضروا.. أناديهم. أصرخ.. أبكي. لا يردون. فأقلب الطاولة في وجوههم. أسمع ليلى تبكي. عاتبة تشهق.. في وجهي تقلب طاولة أوراقك؟!

أنت؟!!

ليلى.!!

أنا علي!!

أقترب منها فتبتعد. آخذ كرسياً وأجلس عليه كيّ تطمئن إلى هدوئي.

ليلى.. أتذكرين القرية.!!

تهز رأسها نفياً.

أتذكرين العم صالح.. رسالتي الأولى...؟

أوه ياحبيبتي. لماذا؟! لماذا.. فقدان الذاكرة شيء مخيف. يعني فقدان الهوية. الاسم. الشكل.. يعني الذوبان بالذي يلقننا ذاكرة هو يشكلها. تذكري معي حاولي.

أعطيتك الرسالة الأولى. كنت صاعدة في الطريق النهري تحملين جرّة الماء. الشمس تلقي خيوطها على شعرك وتتخلل شجرة الصفصاف المتدلي على الماء. النهر يُسقسق بهدوء وهو يغسل سيقان الحور والزيزفون. القرية كلها مشغولة بإدخال جرار الماء وتعبئة الفوانيس بالكاز قبل هبوط الليل. وإدخال الأبقار وإغلاق الأبواب على الدجاج. خوار بقرة تنادي ابنها الذي مات والذي حشوه بالتبن. كذبوا عليها «هذا البوّ» هو ابنك.. تصدّق البقرة وتبدأ أمي بحلب البقرة.

العم صالح يصلي.. كنت أنت تدندنين بصوتٍ هامسٍ «سكابا يا دموع العين».. سمعتك.. خرجت من بين الصفصاف.. وعندما اقتربت منك قلت «لقد أفزعتني»

«هل أنا جنيّ»

«في النهر يقولون يختبىء الجن.. ربما كنت منهم»

دائماً كانت كلماتك لاذعة. مع ذلك عندما ابتسمت عرفت أن ذلك أول إشارة لي للمرور بلا أسلاك شائكة.

قلت لك: «أريد أن أقول لك شيئاًيا ليلى».

وقفتِ. ماذا؟!

لم أستطع أن أقول أي كلمة جمدت الكلمات في حلقي. بدأتُ أرتجِفُ كأن برداً مفاجئاً أصابني مشيتِ.. لم أستطع ان أقول اي كلمة. لم أنادِك ولكن مددت يدي بصعوبة. أعطيتك ورقة مطوية.. ربما اعتقدت للوهلة الأولى بأنها مسألة رياضيات. كان طبيعياً أن أحل لك المسائل. وأن أساعدك في مواضيع الإنشاء. أخذت الورقة ومشيت. لا أعرف كيف تجاسرت وناديتك بصوت كأنه يخرج من قاع وادٍ عميق «ليلى». لم تردي. تركتني ومضيت. لم أرك بعد ذلك عن قرب إلا بعد اسبوع. حاولت الصمود في وجه هواجسي وقلقي دون أن يدري بي أحد. كانت القرية تمور بالتوتر السياسي والاقتصادي وكانت الخلافات الاجتماعية وحملات المجالس النيابية قائمة.. ومشاكل الزعيم. وكل مرة أنتظرك على باب المدرسة وكل مرة تخذلينني بوجود زميلة معك. بعد الرسالة أُعطيتك وردة.. كنت قد سرقتها من حديقة المدرسة الزراعية التي أدرس بها.. أتذكرين.. مدرسة أبي العلاء المعري التي تتصدَّر مدخل المدينة؟! المدرسة مازالت. لكنهم «الغوا» القسم الزراعي في المدرسة. والأستاذ الذي كان يعلمنا كيف نربي النحل. شاخ وصار لا يعرف أحداً منا.

قدمت لك الوردة. أخذتها ولم تقفي. «ليلى» تبعتك.. كان الطريق ترابياً مفروشاً بالغبار الأبيض الذي يشبه بودرة التلك. هذا التراب الأبيض كان يصبغ أحذيتنا السوداء بطريقة بدائية. وكان يتطاير فوق رؤوسنا كدوامة مع كل نسمة هواء.

«أنت مستعجلة جداً»

«ولماذا أقف؟!»

صحيح لماذا تقفين. أنا أيضاً لا أعرف. سألتك ألم تقرئي الرسالة..؟!

«لا.. أنا لا أقرأ رسائل من أحد»

«وأنا لست أحداً.. أنا علوّش.. سأقرأ لك الرسالة.. هي كلمة واحدة. كتبت لك فيها.. «اسكت.. قاطعتني»

«كتبت.. وجهك لا يفارقني»

تجرأت.. كم كنت شجاعاً يوم قلت لك ما بداخلي.. كنت قد انتصرت في كل معارك الأرض..

انتظرت الرد طويلاً. لم أعد اقرأ جيداً ولا آكل جيداً. أشرد. يسألني الأستاذ.. ما بك يا ابني يا علوش؟ تمرين أنت في سطور الكتاب. وصوتك يتردد مع كل أصوات النساء لم أعد قادراً على دخول بيت العم صالح. خفت أن يكتشف هذا الرجل الذكي ما يجول في أعماق. سألني.. ما بك يا علوش لماذا لا أراك هذه الأيام؟!

«منشغل بالدراسة يا عمي»

بدأت أخاف صوتك.. لا أريد أن أسمعك وأنا عند العم صالح. صوتك كان يجعلني أرتجف.

انتظرت طويلاً. وأنت لم تقولي شيئاً. أدخل منزلكم مدفوعاً بقوة. وأخرج مدفوعاًبحزن.. أنزل إلى النهر. أحاول اصطياد لحظة أنفرد فيها بك. لكن أهل القرية كالنمل المجد.. في عملهم. في الطرقات. في الحقول. أنزوي تحت شجرة الدلب. أتخيلك. «لو أنك تردين الآن» كانت قواي خائرة. حاولت العودة إلى المنزل فلم أستطع. نادت أمي.. لم أرد. هبط الليل سريعاً. ثم بدأت حركته تتباطأ. أمي تبحث عني في بيوت الجيران وأنا أبحث عنك عند شجرة الدلب. صاحت ديوك القرية. أمي تقسم بأني لم اغادر المنزل أبداً دون علمها.. أسمع صوتها البعيد وأنا ألتف بالعتمة والقصب البري والنهر وأستند إلى شجرةالدلب. العم صالح يطيّب خاطرها وجدتي تقول لأمي «قلت لك ابنك مجنون».. لن أرد على أحد أكره هذه القرية العجفاء. الضفادع تنق. عصافير تزقزق. يبدو أن الفجر يقترب.. نجوم تسقط.. وسماء تبدأ بالارتفاع.. ها هي ترتفع. ترتفع. أنفصل عن بحر السواد أجدني على الأرض والسماء عالية جداً. زرقاء جداً. غيوم تحبو على وجه مشرقة ونسمة لاذعة. الندى يهطل على الأرض.. تكشفت الستائر السوداء عن قرية بدأت تتململ من نعاسها.. حملت أوجاعي وعدت إلى المنزل.. عندمارأتني أمي صرخت وراحت تتوعدني.. لم أرد عليها. الآن شعرت أني قطعت حبل السرّة مع الجميع. أندس في فراشي الموجوع. أغطي رأسي محاولاً النوم. كان أيار في آخره عندما رأيتك تقرأين تحت شجرة المشمش.. تجولت في الحقول ومن هنا انعطفت إلى شجرة المشمش كي لا ألفت نظر أحد. مشيت بهدوء وتسللت إلى الشجرة هززت غُصناً فتساقطت

ثمرة مشمش فوق رأسك. «آخ» سمعت صرختك المكتومة وأنت غارقة في الكتاب. أنتِ لم تسمعي صراخي مع أني ملأت الفضاء نحيباً. أخذت الثمرة وأنت تنظرين إليّ ثم رميتها في وجهي وقلتِ «كل» قلت ذلك بغضب. ولكن عندما لمست طرف ابتسامة قلت «لا أريد» قطفت ثمرة وقدمتها لي وقلت ثانية «كل»

«لا أريد»

«لماذا؟»

«لا أحب المشمش»

«أنا أحبه.»

«ما لي علاقة بالأشياء التي تحبينها»

«خذها. من يدي»

يا يدك التي تسور العالم. يا يدك التي تساوي مشمش الأرض كله.. أتذكرين قصيدة «يدها».

يدها بستان كرز يزهر على قميصي.

يدها مدينة تتجول في أرجائها السحب •

مدّي يدك نصطاد البحر ونرتق شباك القدر. آخر القصيدة كتبت «لها.. وأحبها» أسابيع من الهلاك الذي ذقته على يديك وبعد هذه الأسابيع المريرة الطويلة جاء ردك بسيطاً عميقاً. «وأنا كذلك»

لم أكن أحتاج لغير هذه العبارة. كانت كافية لأصير سيد العالم. سيد الزمان. كانت كافية لأشعر أن القرية حبيبتي. وكل شيء جميل. احترت أين أخبيء هذه القصاصة الزرقاء التي غيرت مجرى حروبي كلها.. هادنتُ العالم كله. اخذت أغيّر موقع الورقة من كتاب الهندسة إلى كتاب الجبر. لم أكن أخاف من أخوتي. بل كنت أخاف عيني أمي.. كانت تعرف القراءة وكانت بحكم تنظيفها للمنزل تجمع القصاصات التي أنساها. عينا أمي تتهماني دائماً بالتقصير. وعندما رسبت في امتحان الثانوية. بكينا معاً. أمي بكت بحرقة. أنّبتني بشدة. بعد ذلك أمسكت بيدي وقالت: يا بني لكل جواد كبوة. عليك أن تنهض. وعندما رأيتني أنتِ حزيناً،

ضائعاً. قلت لي بهمس حنون لا تزعل.. مررت أصابعك الغالية على وجهي. ولم أتمالك إلا أن أطوقك ونحن تحت شجرة الصفصاف الكبيرة المتدلية الأغصان فوق ماء النهر. كان الليل في أوله. وكان القمر ساطعاً يغتسل بماء النهر. وكانت القرية تخلد إلى الهدوء.. اتفقنا أن نلتقي تحت شجرة الصفصاف. لأول مرة وأنا أركض في دوائر القلق والهموم والفشل، شعرت أنك قريبة مني. بكيت بصمت وأهرقت دموعاً خرساء. الفشل شيء مرّ.. مرّ جداً يا ليلى.

راحت أناملي ترتب خصلات شعرك وهي ترتعش. القمر يرانا والنهر وشجرة الصفصاف وأبي الذي يطلّ من قبره كل فترة. أزهار النعنع البري التي تملأ ضفاف النهر تتفتح في جسدي. لم تكن أزهار شهوة. كانت أزهار من نوع آخر.. من نوع مقدس يصلنا باللانهاية. كان وجهك ساخناً.. اقتربت شفاهنا. ولم نسمع شيئاً إلى أن سقطنا في الماء. ابتلّت ثيابنا. نهضنا. لم نقل شيئاً. ولم ننظر في عيني بعضنا بعضاً كل منّا مضى باتجاه وعاد إلى منزله.

ولا أعرف ماذا أناديها الآن؟! أهو شعور بالذنب لأني أحب عليا. أم لأني افتقد عليا فيها؟!

أيهما التي تبرر للأخرى وجودها..؟! الإنسان ليس خزاناً للعواطف يجمع المتناقضات. أنا لا أقدر أن أراكم شيئاً فوق شيء آخر. أنا؟! لا أعرف لماذا أذكرُ ليلى بالتفاصيل الصغيرة. هل أريد نسيانها؟! أم أريد استعادتها. لا أعرف.. آه. رأسي يؤلمني.

لا أريد أن أستعيد جراحاً قديمة يا عم صالح.. حسن جاء وألقى بين يدي كل مصاطب القرية. وليلى حضرت دون إذن مني. كانت فوق المصطبة. وكنت أنا أمرّ قربها.. رشت الماء على المصطبة كي تكنسها.. فاحت رائحة التراب المبلول.. فاحت رائحة الماضي المدفون تحت التراب.

خرجت ليلى!

لأعترف. أريد أن أمحوك يا ليلى. ولأعترف لك بأني أناني.. صرت أحب نفسي وأكرهك.. لماذا تطاردينني كلما التقيت بامرأة. أنا الشاعر المعروف.. نساء كثيرات دخلن بيتي ولم يدخلن أعماقي بسببك. كنتِ قاسية. كنتِ تطردين

الجميع. أنت ميتة يا ليلى ألا تعرفين ذلك؟! سأعاشر الكثيرات لأنتقم لحضورك المفاجىء ولغيابك. ارحلي عني. إني أكرهك كلما امتلكت امرأة بين يدي تخرجين إليّ حاملة غضبك واتهاماتك «تخونني يا علي؟!!»

بصراحة. حاولت. وحاولت خيانة وصايا العم صالح. وتمنيت أن أتحرر من صفصافة النهر. ومن عيني جدتي العجوز. لكن في كل مرة أقبل فيها امرأة كنت أقبلك أنت. وعندما كنت أحيط امرأة بذراعي. كنت أحيط جسدك. كم أنت شرسة. وقاهرة. وأنانية. ها أنتِ تشيئينني في الحضور وفي الغياب. رسوبي في الثانوية سهّل عليّ التفكير بالزواج. كان العرس بعد عودتي من الحرب. لم نفوّت شجرة الصفصاف يوماً. نستند إلى جذعها. ندعس النعنع البري. «المشرور» عند أطراف الحافة النهرية. تفوح رائحة عبقه من أوراقه. وجاء آب. كان شديد الحرارة. وكانت هزائمي في أوجها. فقداني الذاكرة وخوفي المتكرر. فجأة ترتفع درجة حرارتي وأجدني في الجولان. النابالم يتساقط كالمطر. وطائرات النسور تحلق.. القنيطرة الحزينة تحدق بنا. الهزائم القديمة تحدق بنا هي الأخرى أنا في الجولان الآن.. مطر القنابل يتساقط. نتقدم.. ها نحن نتقبدم. أشلاء حولي. أبكي بحرقة. أتلمس الحجاب التي وضعته أمي في رقبتي.أتلمس القلب الذي يحضنك. آب اللهّاب.. الرطوبة القاتلة «آه.. خذني إلى البحر يا علي»

«حاضر ياحبيبتي»

لماذا هذا الطلب الآن.. كنت في إجازة وكان عليّ تلبية رغائبك.. وكنت غارقاً في بحرك حتى رأسي.. «خذني إلى البحر» يجب أن آخذك لأرتاح قليلاً من هاجس الكتابة لمجلة الجنود التي حولوني إليها أخيراً.

«خذني اليوم إلى البحر»

«حاضر..» أعرف أنك تسبحين في دوّار القرية أيتها الشقية. أتذكرين يوم تسللت من داخل القصب البري الذي يحيط بالدوّار؟ هي لم تكن مرة. بل مرات. في المرة الأولى لم تريني. وفي الثانية شتمتني.. وفي آخر مرة. فوجئت بي في الماء. حملتك بين ذراعي كوردة أخاف أن تفرط وريقاتها. لم أقبلك. خفت عليك مني. قطعة نور أنت بين أناملي. نورٍ قدسي. كيف أطفئك؟!!

أعرف أنك تسبحين.

لم أعترض.. سأنفذ رغباتك. كل ما يحلو لك أمر. الهجير ينشر الرطوبة. الهواء ساكن. لا يتصادم مع الموج ولا يثرثر مع الرمل.. أمي تضرب كفاً بكف.. يا ناس.. النهر أمامنا.. وهو يأخذ زوجته إلى البحر.. عيب.. الرجل يأخذ زوجته لتتعرى أمام الآخرين. ـ آخر زمن ـ جدتي تقول وهي تعد الحصي الذي بين يديها المرتجفتين «ما قلت إلك إبنك مجنون؟» الله يرحمك يا جدتي. شط الرميلة خالٍ لا أحد هناك إلا نهر قريتنا يغرّب باتجاه الجسر. بعد الجسر يصبّ مع نبع «غرنيو» في الدوّار. نباتات السويّده ونباتات السعد.. القصب البري.. العيصلان.. اليغنص.. صفصاف بري.. شماريخ وقرّام.. كل ذلك يشكل غابة هابطة باتجاه البحر مارة ـ في تلّ النقعة ـ حيث المزار القديم ـ هذا المزار غير جديّ طبعاً أنت تعرفين ذلك يا ليلى.. بعد ذلك تغرّب المياه. تذوب في ماء البحر.. وتصل إلى شواطىء قبرص أو مصر.. وغيرهما.

فرشت قميصي لتجلسي عليه.

«لا.. يا علوش يا حبيبي.. البحر سجادتي»

«البحر سجادة. نحن نفتق وسادة البحر ونغوص في ريش أحلامها.» أليست عبارات جميلة؟!

«أجل.. يا حبيبتي ولكن...»

أردت أن أغيظك. هذه الـ ولكن تغيظك.. أعرف أن لديك موهبة في الكتابة ولكن لم تكن ضمن خطة حالية!.

«اسمعي يا روحي.. أنا لاأريدك شاعرة.. أريدك للمطبخ. آ.. هذا الشعر الحر... لا يعترف به حامد.

«هذا هو البحر. ليبتلعه...»

غضبتِ مني. ورحت ترددين أسماء شعراء كثيرين يكتبون العالم بشكل حر. ابتعدت عني وأخذت تخلعين ثيابك.

«ماذا تفعلين»

«أريد أن أسبح»

«قد يمرّ أحد الصيادين»

«أعتقد أن البحر للسباحة يا علي»

«أجل. ولكن!!. لأول مرة أجدني أتّفق مع أمي. إذاً أنا لم أقطع حبل السرّة مع القرية ومع أمي وأشياء كثيرة.

«ولكن سأسبح يا حبيبي. لماذا جئنا إذن؟

ونزلت البحر كحورية. لم أستطع أن أعترض مع أن شرقيتي ظهرت فجأة. كنت كسمكة مذهبة. مازلت أذكر قميصك الشفاف الذي التصق بجسدك العاجي وأخذ ملامح صدرك وردفيك وشعرك يتدلى كشلال يصبّ على ظهرك.. كنت تقضمين خبز التنور بنهم وجوع. «كُل»

«خبز حاف؟!»

وماذا تريد أكثر من الخبز. إنه خبز الأرض. خبز الفلاحين أيها الفلاح. ضحكنا وأخذنا نبتعد قليلاً عن الشط. «ها هو أحد الصيادين» فوراً غصتِ بالماء. وعندما ابتعد الصياد شعرنا بارتياح. لم يكن مؤذياًولا طاغياً. لا أعرف لماذا شعرنا أنه يتقصد ايذاءنا. بالأحرى. أنا شعرت. كنت أغار عليك. هو لم يفعل شيئاً. إنه يبحث عن رزقه ونحن«الذين اعترضنا طريقه. مع ذلك أردت أن أذهب إليه وأشتمه.

«لا أريد أن أسبح»

«طيب كما تشاء»

نخرج من البحر. هناك على بعد أمتار توجد شجيرات تين صغيرة متقزمة بسبب الهواء الملحي. طلبت أن أجلب لك التين الأخضر. مشيت بتثاقل نحو شجرة التين بينما افترشت الرمل يا ليلى. ولكن عندما عدت لم تكوني على الرمل.. كنت داخل الماء. ناديتك. قلت أنا قادمة.. فرشت الخبز وبعض الجبن والعنب ووضعت ثمرات التين أيضاً ورحت أنتظر عودتك. أنا أناديك وأنت تضحكين وتلوحين بقميصك الذي خلعته في الماء. «تعالي». لوحت لك بالتين. كنت تبتعدين. القميص الشفاف في يدك. غضبت لأنك تعرّيت مع أنك ترتدين الماء. ناديتك بصوت خائف.. تعالي. ما هذه المزحة العامام ينتظرك.. كنت أعرف أنك تشتهين التين. وكنت أدرك أن بداية كائن تتكون في أحشائك يا حبيبتي. أجل. كنت أعرف. نزلت الماء

أتبعك. مزاحك ثقيل ها؟ تعالي لماذا تبتعدين. الموج يأتي ويروح دوامات الرمل تحت قدمي.. أنا لست سباحاً ماهراً إني أعرف أن أسبح على الشطّ.. لا أعرف أن أدخل إلى العمق.. الأعماق الغامضة مخيفة. حتى هذه اللحظة كنت مقتنعاً بأنك ستعودين. وأنّ البحر لا يهزم امرأة جريئة مثلك.

وكنت حتى تلك اللحظة أظنك تمزحين معي. رحت أتبعك ببطء. أخيراً لم أعد أسمع صوتك. ناديت.. لم تعودي تلوحي بيدك.. ترتفعين مع الموج وتسقطين مع هبوط موجة عنيفة. ليلى.. قميصك لا يرتفع. قميصك يحمله الموج بعيداً.. شعرك بقعة بنية في البحر. قميصك يرقص مع الموج. قميصك المفجوع يقترب مني. أصرخ بخوف.. لم أعد أملك نفسي. حاولت السيطرة على قواي في هذه اللحظة الحرجة فلم أقدر. تغيم عيني والملح يملأ فمي. أدخل الأعماق باتجاهك. أفقد توازني مع قوة الموج. أرتفع وأنخفض. عيني عليك. تبتعدين. تبتعدين وتتحولين من بقعة كبيرة إلى نقطة صغيرة في عالم أزرق. أزرق. صاخب. يا إلهي. اختلطت ملوحة قهري بملوحة البحر. أيتها النقطة التي تقف في أول سطر للموج.. اقتربي إليّ.. أرجوك. ليلى اسمعيني أرجوك.. الماء يحملني حيث يشاء. أنت تذهبين باتجاه الغرب.. ـ أحلم يا علوّش بأن ندور العالم أنا وأنت. أريد أن أعرف ماذا وراء هذا البحر. أي كيف ينتظم هذا العالم. هذا الكون أتخيل لو جفّ البحر ماالذي يحدث؟!

أتخيل كل هذه الأشياء يا ليلى وأنا لم أعد قادراً أن أرفع يدي وألوّح لقميصك.

بدأت أبتلع الماء المالح. بدأت أزفر السنوات. أفرش على هذا الموج آخر لحظاتنا. وآخر رائحة القرية. شعرت أن النهاية تقترب. خارت قواي. أسلمت نفسي للموج ربما أستعيد لحظة قوة أجرّ نفسي إليك أيتها الهاربة. ولكن عبثاً. أنت تطوقين الماء كله. تطوقينني وشعرك ينساب طليقاً كعاصفة وأنت كنقطة في غبش بعيد. أنتفض لا يمكن أن نفترق. لا.. لنكن معاً. بدأت أعاند الموج من جديد. ها أنا أقترب منك. ها هي النقطة ـ أنت ـ تكبرين. مددت يدي إليك. شعرت أن يدك تمتد لتودعني. لا يمكن أن ترحلي دون وداعي. أليس كذلك يا ليلى. ألم تمدّي يدك؟ بلى. قولي بلى أرجوك. ولكن لماذا غافلتني وأنا أجلب لك التين. أنت مددت يدك وأنا مددت يدي. ودعتك وأنت تغادرينني إلى العالم الغامض. الذي كنت تحلمين به. قلت لك: تعالي نعود إلى الشطّ. تينك المشتهى هناك. تعالي معي. ظللت أمدّ يدي إليك.

أمدّ يدي وأنت لا تردين على ندائي بكيت ولم أعد أراك ولا أسمع صوتي. اختلط الماء بالصمت. الأيدي المودعة بالأيدي الراحلة. اختلط الشطّ بالقاع وصرنا كنقطتين في فضاء لا نهاية له.

«انتباه»

كانت اللحظة البعيدة ماثلة أمام علي. من قال أننا نخلع الماضي كحذاء. من قال أننا غير قادرين على استحضار الذين غابوا. كل قتلانا من الجاهلية حتى الآن يحضرون متى نشاء وكل أبطالنا وخيولنا. لماذا إذن تجري كل تلك الدماء في ساحات المدن العربية..؟!

رشف علي القهوة. نهض واتصل بعليا أكثر من مرة ربما يخرج من الماضي الذي يسحقه لكنه في كل مرة يعود إلى سجائره وأوراقه ويستطلع وجه ليلى ولحظتهما الأخيرة. إنه الإنشطار. نحن ننشطر.. ما زلت في هذا الطور. لم نكوّن بعد بنيتنا الخاصة بنا.

قال الرجلان اللذان حملانا من القاع إلى الشطّ: كنّا نلقي الشباك من أجل الصيد. رأينا نقطتين تعلوان وتهبطان بعيداً في دوامات زرقاء وإذ بالنقطتين امرأة ورجل. حملناهما إلى الشطّ. المرأة ماتت.. والرجل كتبت له الحياة بعد عمليات التنفس الإصطناعي. وكل المدينة سمعت بالتين يا ليلى. وأنت الوحيدة التي لم تكترث لهذا الأمر. وكل المدينة عرفت بأنك كنت تحملين ولدي في أحشائك..

عندما فتحت عيني رأيتك بجانبي. ورجلان يقفان فوق رأسينا. ظننتك نائمة. وكنت مغطاة بقميص غريب. ناديتك فلم يصل صوتي إليك.

«لماذا كل هذا النوم يا بني.»

«ماذا وراءنا يا أمي؟!»

كنا في أيام العرس الأولى وكان ممنوع علينا أن ننام إلى الضحى. كان يجب أن نذهب إلى الحصاد. أو إلى الحقل للحراثة. أو.. العمل يلاحقنا. ها أنت شبعت نوماً يا حبيبتي. لم يقدر أحد أن يوقظك. زرعت لك شجرة تين. أثمرت الشجرة وماتت لأن الدود نخرها. لكني زرعت لك شجرة أخرى وها هي الآن تثمر لا أعرف من يأكلها.. لقد هربت من القرية. لأعرف من منّا قتل الآخر. كان البحر ينادينا معاً.

هزمنا البحر أنا وأنت والجنين. لقد أجهض حبنا. لم أستطع الانتقام. هل يقدر أحد أن ينتقم من البحر؟

إنه البحر. يرأف ويغدر. يثور ويهدأ. يتقدم ويتأخر. لا يثبت على حال. ربما كان الريف هو ملاذي الحقيقي. ملاذ البراءة التي ضيعتها. حيث لا بحر ولا غدر. لا شعر ولا لهاث في مدينة بعيدة لا تعرف كيف تصلها. في الريف حيث كان علي الخروج إلى الحقول. أزرع القطن واللوز والزيتون. وفي الشتاء «نقطع قرامي» الحطب. نشعل النار في أرض المنزل الكبير وأكتفي بقراءة ديوان العرب القديم.. هل كان ضرورياً أن أدخل الجامعة وأغترب. أغترب. إنها المعرفة الجديد.. المعرفة التي كلما زادت. كلما زاد اغترابي. كم أنا غريب هذه اللحظة يا ليلى. لذلك أبحث عنك كي أقصّ عليك كل ما جمعته خلال عشرين سنة مضت. قد أكون أنانياً. بحاجة لمن يسمعني. ولأنك لم ترغبي بسماعي أبحث عن بديل.. قد تكون عليا البديل. أريدها أن تسمعني لكن هي الأخرى تبحث عن رجل لا لكي يمارس معها الحب. ولا لكي تعيش اللذة العابرة ولا الخالدة. إنها تبحث عن رجل يصنعها.. أتفهمين عليّ؟.. أنا لا أخونك يا ليلى. أنا أبحث عنك.

علي ينهض فيكسر فنجان القهوة.. يمسك بأوراق كثيرة يمزقها.. يصرخ بأعلى صوته.. أيتها الغائبة. العاهرة. ارحلي. سأخونك. أقسم أني سأخونك لأتخلص منك. سأخون قريتي لأتخلص منها. أنا لست سوى قشة تطفو على بحر الزمن. ماذا تفعل القشة بالبحر..؟! لماذا تطالبينني بأشياء تفوق طاقتي. يركل الكراسي برجله. صوت حطام ينبعث من الشقة.

«لن أفتح»

كان الباب يقرع. قرر ألا يفتح. لا يريد أن يرى أحداً. ربما بعد أيام يشتري جارية أو عبداً ويأمره بأن يسمعه إلى النهاية.. لا عمل له سوى أن يسمع. ولا عمل لعلي سوى أن ينشطر ويتناثر.

....

الباب يقرع بشدة. يهدأ على كرسي. الباب يقرع. يسمع همساً خافتاً. لا بد أنها الجارة «لا أريد أن تدخل» يظلّ صامتاً. لن يفتح.. قرع الباب يهدأ قليلاً ثم

يُركل بقوة.. تغيب الأصوات ولكن فجأة ينفتح الباب عنوة.

«أنت هنا؟! هنا ولا تفتح؟! ماالذي يجري؟

علي مايزال يفترش أحزانه. سامح وعليا ينظران إلى بعضهما بذهول ينظر علي إلى وجه سامح. يقول بصوت ضعيف»

«ماذا تريد؟!»

«علي.. ما بك. أنا سامح»

«أي عليّ تقصد؟!

«علي الشاعر. صديقي. الذي كنا نشوي الحنطة الخضراء ونعمل فريكة في البراري مع حسن أتذكر حسن؟!

«تقصد رعد.. رعد الذي قتلني؟!

«علي. ما بك؟»

«أنا لست علي. أنا رافع. كنت أدفن زوجتي ليلى.. كان في بطنها طفل صغير.. ناداني.. أنا سمعته يناديني.. بابا.. زعيم القرية ركل زوجتي في بطنها. مات ابني. مات. مات.»

تقترب عليا وهي تبكي.. تحضن علي بذراعيها.. تناديه. علي. ما بك. أنا عليا. انظر إليّ. لقد جئتك أعتذر لأني سببت لك كل هذه المتاعب. سامحني على مواعيدي الخائبة. كنت مجبرة. أنا لي اعتذاري أيضاً. سنعوض عيد رأس السنة والفراق الذي امتد بعده.

- عيد رأس السنة؟!! أنا لم أدع أحداً. أنا قابع في قبري. لماذا تدخلون عليّ قبري. طردت المدن. والنساء. والحياة.. هذه الكلبة جارتي تدعي بأنها حامل مني.. أنا؟! أنا مت منذ زمن طويل.. كنت أقتل نفسي. أليس الإنسان هو قاتل الإنسان.. أخيراً نجحت وقتلتني.

«علي» أنت اتصلت بي وقلت لي تعالي.. إني متعب. وها أنا جئت..

«ابتعدي عني يا سلوى.. لماذا تطاردينني بترهاتك.. ابتعدي يا سلوى وإلا ذبحتك..»

تفرفص عليا قرب علي، وتبكي. القهوة جافة على فناجين مكسورة. شعر علي منكوش يحني رأسه إلى الأمام مطرقاً إلى الأرض.. يلفظ بعض الأسماء بين لحظة وأخرى..

جدتي ماتت.. أسمعتم..؟! كان يجب أن تموت منذ زمن بعيد كي تريحني من ألقابها. ولكن.. لجدتي ذاكرة في المنزل. العم صالح مات هو الآخر العم صالح ذاكرة مستقبلية. ماتت ليلى. اتركوا جثتها أرجوكم. يا أخي غطّونا معاً. يكذبون عليّ ويقولون هي نائمة. إنه البحر الغدّار. ها هو يدخل غرفتي. أكاد أغرق في البحر القادم ساحباً جسده كله من المحيط إلى هنا. إنه يستلقي على صدري. أكاد أختنق. ليلى. أرجوك أبعدي سلوى عني. أظافرها تنشب في جسدي.

تبتعد عليا. يهمس سامح.. يجب أن تراعي ظروفه يا عليا.. إنه متعب جداً. أرجوك لا تزعلي من كلامه.

«لا.. أبداً أنا زعلانة من الزمن»

ينقل سامح صديقه علي إلى المشفى وهو صامت حزين، من الذي يقول الحقيقة. عليّ الآن. أم علّوش المقبل..؟! يشعر سامح بدوار شديد. يشد على يد عليا ويخرجان من غرفة الشاعر الكبير.

ـ ب ـ

أتحبينه؟!

امرأة ترشف القهوة في غرفة واسعة مليئة بالأصص الفخارية. وحيث السقف يتدلى منه أصيص «شعر البنت»

المرأة تسند وجهها بيديها وتنظر إلى نبتة «اليوغا»

هناك في الزاوية رجل نحيل.. وسيم الوجه. تجاوز الأربعين بقليل. يدخن وينظر إلى المرأة الحنطية الجميلة.

الدخان يتصاعد بهدوء عبر ممرات هوائية يمرّ فوق شعر المرأة ثم يخرج من النافذة التي تعلو رأسها.

ينفتح الباب وتدخل سيدة تجاوزت الخمسين من العمر..

«سيدتي. صديقتك على الهاتف»

«قولي لها بأني مشغولة»

«حاضر.»

الرجل يعيد السؤال نفسه «أتحبينه؟!»

المرأة تجيب بعد صمت.. ما هذا يا دكتور.

لم تكن المرأة سوى عليا.

ولم يكن الرجل سوى سامح. ولم تكن الغرفة سوى صالون عليا.

«هذا سؤال ككل الأسئلة. أنا صديقك. وصديق علي. إن كنت تحبينه يجب أن تقفي معه. تسانديه على الزمن.. علاقتكما الآن تتخبط منذ فترة طويلة.. أعتقد أن هذه الفترة كافية لأن يحكم الإنسان على عواطفه

لم تضف عليا أية عبارة. صمتت إلى أن انتهى فنجان قهوتها سامح احترم صمتها. عندما أنهت عليا فنجانها نهضت وقالت لسامح: «الآن نمشي إلى المستشفى» في غرفة علي جلسا صامتين. ولكن عندما دخل سامي الشاب الوسيم ابن الجنرال المعروف في المدينة اعتدل سامح في جلسته فشعرت به عليا وقرأت بعض ملامح الضيق على وجهه.

«ذهبت إلى منزلك لم أجدك. وفي الجامعة أخبروني بأنك لم تأتِ ولكن ممرضة الدكتور سامح أخبرتني أنك هنا. آسف لتطفلي. ولكن كان يجب أن أسأل عنك. قال سامي بكثير من اللباقة.

«لا. لا بأس. بعد قليل نذهب سوية»

عليّ ما يزال نائماً.. سامح يرقب هذا الشاعر المستلقي. كأنه يرقب فترة من عمره.. إنه حزين.. لم يكن علي ضعيفاً أبداً. ما الذي يجري في المدينة. البارحة سمع أن أستاذاً جامعياً وقع في غيبوبة النسيان وكل يوم تتكرر هذه الحوادث حتى عليا لم تكن أكثر تماسكاً من علي.. الآن بدأ سامح يفكر.. ربما كانت المياه التي تروي منطقة ما من الساحل هي السبب؟! ربما كانت مياه نهر ما تؤدي إلى فقدان الذاكرة وإلى تشويش في العواطف وفي إمكانية التأقلم مع الواقع... لا بدّ أن الأمر

يحتاج إلى دراسة. طفولة علي وطفولة عليا مشتركة بعوامل كثيرة. حتى أنهما شربا الماء نفسه.. ربما كان هذا هو السبب؟! لا.. لا يمكن. هناك أمور أعقد من ذلك؟!

ما بك يا دكتور..؟! قالت عليا. كان سامح شارداً. ولكن عليا قطعت شروده عندما استأذنت الذهاب. نهض سامي. قالت لسامح سأتصل بك مساءً.

لم يقل الدكتور سامح أي شيء. ظلّ صامتاً يرقب الإثنين إلى أن مشت السيارة الفارهة.على امتداد الشارع ثم انعطفت باتجاه معاكس.. في السيارة لم يتحدث سامي إلى عليا.. فتحت هي الراديو.. كانت أخبار فلسطين تحتل النشرة المعاهدات.. السلام والعدو الاسرائيلي رشّ مادة سامة تسبب العقم في مدرسة للفتيات العربيات في الأرض المحتلة» تتدحرج دمعة على خدّ عليا. تمسحها بهدوء. ينظر إليها سامي دون أن يقول شيئاً. السيارة تسير ببطء. تشق طرقات المدينة.. المدينة تكبر. المدينة تكتظ بالبيوت المتشابهة لدرجة أنك لا تقدر أن تعرف بيتاً من بيت. كل البيوت ناصلة الألوان. كل البيوت لها أسوار كأسوار المقابر. كل البيوت باهتة إلا بعض البيوت للتجار والجنرالات والمتعهدين. تهبط السيارة إلى كورنيش البحر.. هنا في هذاالقسم الجنوبي لم تكن المدينة تعرف المقاهي ولا المطاعم. وهنا.. لم تكن عليا تجرؤ على النزول إلى هذه المنطقة بمفردها يوم كانت في الجامعة. كانت تخاف الحيتان البحرية التي تخرج فجأة وتنقض على الفتيات الصغيرات. تتنهد عليا وهي تمر بحي القصور. تتذكر حوتاً طاردها مرة. المرأة هي هي. يسحقها الواقع والماضي. وسيظل المستقبل ملاحقاً لها.

ـ مسحت عليا دمعتها.. تسربت إلى أنفها رائحة اليود البحري. السماء الربيعية تشع بالشمس الذهبية. البحر أزرق غامق. تتذكر عليا بكل القهر ذاك المستلقي في غيبوبته. علي الذي تجمعها به أشجار وحور وصفصاف. ونهر. ودوّار. تجمعها به أولياء. ومزارات. وزعيم وزوجته الجشعة. أيضاً بينهما قرى صغيرة وقرى منسية ضائعة بين دخان الحطب. وقرامي الزيتون. بين ضوء الكاز «والتمز» والوكف وخم الدجاج.. كأنهما ولدا في بيت واحد.. أحياناً لا تعرف إن كانت تحبه أم متعاطفة معه إنسانياً. أي متعاطفة مع ماضيها. علي هو الماضي الذي عشته يا سامح. ولكن هذا لا يعني أنه الماضي فقط. أريده الحاضر أحياناً وأحياناً... لا أعرف.»

ـ عندما ألاقي علي أستعيد جدتي نعامه وأمي ووالدي والأرض. الأرض التي سرقها برهان أدهم..

قال له: أتبيع الأرض يا أحمد القاضي؟!

ـ لا. لا أبيع. من أين أعيش أنا وأسرتي؟

ـ أعطيك أرض في مكان آخر تزرعها وتأكل ربع موسمها.

ـ لا. الله الغني. هكذا ماشي الحال.

«كانت عليا صغيرة. وكانت أختها الصغرى في القماط». والد عليا يحرث الأرض كي يبذر القمح. الخريف يضفي على المدى روعة وحزناً. دخل برهان أدهم «أين زوجك؟!»

«زوجي في الأرض يا باشا»

«قولي له سآخذ الأرض. بيعاً. هدية. قوة.. كما يريد»

«زوجي لا يبيع الأرض. وأنا لا أقبل أن يبيعها.. ألا تشبع من الأراضي؟! لديك الكثير. لماذا هذه الأرض بالذات»

«هكذا.. هذه الأرض في عيني.. لي غاية بها»

«عينك لا تشبع يا زعيم»

التفت برهان أدهم إلى أم هاشم. وضع البارودة في رأس الأم وهي تحمل الطفلة الصغيرة لكزها وقال: قولي لزوجك ما أخبرتك به. أو أطردكم من البلاد كلها. لكزها مرة أخرى فسقطت الأم على الأرض وسقطت الطفلة الصغيرة تحت أمّها.

بكى الأطفال. التفت إليهم الزعيم. قال للفتاة الكبرى «ستكونين جميلة يا فتاة»

وضع بندقيته في بطن الفتاة. لكزها إلى الوراء فسقطت هي الأخرى.

«هذه الفتاة هي عليا»

«هذا الراوي له ذاكرة عجيبة.. مالذي أخبره قصتي.؟!

«ما عملي أنا إذاً.. ألست الراوي الذي يطاردك؟!

«أنت تشبه الزعيم إذاً»

«لا.. وحياة عليا.. أنا لست كذلك.. أنا أبحث عن قصة. أختزل فيها أزمنة.. وجدتك بالمصادفة. إذا أردت أترك الاهتمام بماضيك وأبدا بالحاضر. أو أترجم لك المستقبل. أي أقرأ لك فنجان المستقبل عند ذلك قد أصيب وأصير نبياً أو أخطىء وأصير مشعوذاً. أليس كذلك؟ وإذا كان الأمر يزعجك كلياً فإني أذهب لالتقاط قصة امرأة غيرك.. النساء كثيرات. ولكل امرأة قصة. كالبيوت.. كالقرى.. هل أتابع؟!

لا.. أنا أتابع.. أنا أريد أن أصير روايتي الخاصة.. سأتحدث إليك. عليك أن تسمعني فقط.. وإن سمعتني إلى النهاية قد أحبك. أجل المرأة تقع في حب الرجل الذي يسمعها.. الآن دعني سأشرب الشاي بالزعتر لأستعيد هدوئي.

....

أبي يبيع أرضه للزعيم لأنه سيأخذها عنوة. أو أنه سيدبر مكيدة لأبي لأن الزعيم عميلاً لسلطة خارجية. ما يريده الزعيم هو الحق. لكن أبي ظلّ على اصراره. يا ناس. الأرض هي كرامتي. أ أبيع كرامتي وشرفي؟!

ذات صباح خريفي. كانت بقرتنا الوحيدة مذبوحة في الزريبة. أقسم الجميع أنهم لم يشاهدوا أحداً. وأن خنزيراً برياً سطا على القرية وذبح بقرتنا. لكن بعد فترة اعترض رجال الزعيم طريق أخي وضربوه بالفأس على رأسه. كان أخي يافعاً وكان يبذر الحنطة وحده في الحقل..

«يا أم هاشم يبدو أننا سنبيع الأرض»

ماذا تقول..؟!

كما سمعت.. هذه القرية لم تعد تحتاجني. سنشتري غيرها. لا تزعلي. حزنت أمي وبكينا نحن الصغار على بكاء أمي. لكن والدي ظلّ شامخاً كشجرة حور. في الصباح نزل إلى المدينة. باع أبي الأرض. وكتب العقد مع برهان الأدهم في المحكمة. قبض أبي سعر الأرض كما طلب. شعر بانقباض شديد. كاد أن يقع على بلاط المحكمة. حاول أن يواسي نفسه. غداًأشتري أرضاً وأبني بيتاً جديداً من طين. وحجارة. وتعب كثير. ثم يصير لي بيتاًجديداً. خرج والدي من غرفة العقارات. تلقاه الممشى الذي يطلّ على المساجين. الأبرياء والمظلومين. نظر إليهم أبي بأسىً

وهو يمسك بدرابزون الحديد. شعر أنه مسجون مثل هؤلاء. كان المشى طويلاً يلتفّ حول ساحة مربعة. وكان في الطابق العلوي لدار السرايا التي تتوسط المدينة حيث يهبط منها شارع إلى البحر. ويزنرها الشارع المسقوف. وتمتد أمامها ساحة صغيرة تنطلق منها البوسطة إلى القرى والمدن الأخرى. مشى والدي. فكر بأن يشتري بعض الحلوى لنا وبعض الدفاتر وأقلام الرصاص.. كان مدركاً لقيمة العلم. خرج والدي إلى شرفة دار السرايا حيث يهبط منها سلّمان حجريان قذران دائماً.

«أريد أن آخذك إلى مكان مريح. أراك متعبة»

«ليتك تأخذني إلى المدرج الروماني في جابالا أريد أن أرى مهد طفولتي»

(ليكن.. كما ترغبين يا أستاذتي»

«الآن نحن صديقان فقط..»

«أعرف. ولكن أريد أن تبتسمي. إني حزين لأنك صامتة أبداً»

«إني أتكلم.. ألم تسمعني؟!»

السيارة تشطر المدينة إلى غربية وشرقية.. ها هو جامع السلطان ابراهيم. وتلك هي الحديقة التي أقيمت في مقبرة.. ها هي المقبرة الغربية التي حدثني عنها علي.. ها هي القلعة كما يسمونها في المدينة «أي المدرج الروماني» فوق القلعة اختار الحاكم الفرنسي سكنه. جهّز حمامات وغرفاً وشرفات فوق المدرج.. الحاكم الفرنسي يسكن فوق كومة من الأزمنة. كومة من الحضارات والجثث والأوابد.. لم يكترث بكل ذلك «ولماذا يكترث أهي بلدته؟!» هناك غلى جنوب السرايا.. «على مهلك-يا سامي. لا تسرع» قالت عليا بصوت حزين يبطىء سامي.. إنه لا يعترض أبداً على رغبات عليا.. إنه تلميذها.. مهما ادعى أنه الندّ لها الآن في هذا المشوار إلا أنه في داخله يشعر بعكس مايدعيه. بهدوء سارت السيارة مواجهة لدار الحكومة القديم. «ها هما الدرجان الحجريان ما يزالان على قذارتهما» رأت عليا والدها ينزل السلم.. والدها الذي مات منذ سنوات.. ها هو يرتدي «شملته» الصوفية ويهبط كما هبط السلالم من قبل.. كم من الأقدام داست هذه الدرجات الحجرية. كم من البشر صعدوا وهبطوا إلى هذه الشرفة. ظالمون ومظلومون. مقهورات وقاهرات.. كما مرّ على هذا السور من المساجين. هنا.

وراء هذا الجدار الحجري القذر. تشهق عليا. سامي لا يجرؤ أن يحرك ساكناً. تمنى أن يأخذ يدها بيده. أوأن يقول لها اسندي رأسك على صدري كي ترتاحي. عليا ترى والدها الآن ورجال برهان أدهم يضربونه: هات ثمن الأرض يا كلب يتمسك الرجل بمال أرضه، يضربونه. يصرخ رافضاً.؟! من يسمع الغريب في مدينة مغلقة؟ رجال يصعدون وآخرون ينزلون. ورجال برهان الذين يحركهم كفزاعات يدحرجون الرجل الذي تجاوز الستين عاماً.. يخلصونه المال بينما يستمر الرجل في تدحرجه على السلالم الحجرية إلى أن يصل الساحة. يمرّ أهل المدينة أمامه فلا يجرؤون أن يحركوا ساكناً. أبو هاشم يحاول النهوض فلا يقدر. يقترب منه رجل عجوز يحاول مساعدته. ولكن فزاعات برهان الأدهم.. تركل العجوز وتقول له: اتركه.. لماذا تغضب روحك لأجله.. أتعرفه؟!

ـ لا أبداً لا أعرفه. ولكن أراه مظلوماً والله ورسوله لا يحب الظلم.

ـ اتركه يا عم.. إنه كافر. لقد شتم الرسول.

ـ شتم الرسول.؟! الله يحاسبه يا ولدي. اتركوه وشأنه.

أبو هاشم لا يحرك ساكناً. لا يقرّ ولا ينفي. كان مأخوذاً بالظلم الذي وقع عليه. إنه غير قادر على الكلام أبداً.

تنتفض عليا وهي داخل السيارة. لا. أبي لم يشتم الرسول. لا. أبي كامن مؤمناً بالله. أيها الكلاب. يندهش سامي. مالذي يسمعه.. يراها تتمتم وتحرك يدها. «آنستي.. ما بك؟»

«آ...»

«أراك متوترة»

«لا شيء. لا شيء. عذراًيا سامي. إني تذكرت شيئاً ضيعته هنا.»

تغطي وجهها بيديها وتبكي بصمت. تشعر بالقهر يتجدد من عليّ.. تتمنى أن تبقى الليل إلى جانبه. ولكن لا تقدر. ذكريات والدها جعلتها قريبة من عليّ الذي يعاني انهياراً حاداً.

«أتقبلين دعوتي يا آنسة؟»

«شكراً. أنا متعبة يا سامي.

«أشعر أنك تعاملينني بحذر.»

«لا أبداً. إني أحترمك. وأثق بك. لكنني فعلاًمتعبة ولا أريد أن أنزع مساءك، أريد أن أنزل أمام الحديقة. ثم أكمل أنا الطريق

كانت عليا تسكن وحدها في لاوديسيا بعد أن عادت من أوروبا. وكان أخوتها بحكم عملهم بعيدون عنها. أما أمها فرفضت أن تترك بيتها القديم. ودّعها سامي عند باب الحديقة. كانت الشمس تهبط بهدوء إلى البحر. وكانت أسراب الناس ممسكة بأطفالها. وكان الربيع دافئاً. شعرت أنّها وحيدة جداً وحزينة جداً. لم ترغب بالعودة إلى المنزل حيث الوحدة والفراغ.. أتذهب إلى علي؟! لا. لا. إنها مضطربة ولا تعرف أي قرار ستأخذ. مشت في الحديقة. رأت من بعيد رجلاًعجوزاً.. يشبه والدها ولكنه أكبر منه سناً. «خففي عنك يا عليا» وقفت.. أشارت بيدها. «كيف؟! يا أبي» لقد رأيتك اليوم. يدحرجونك أمام السرايا القديمة. رأيتهم يجبرونك على بيع أرضنا بعد أن خرجت من السرايا منذ ذلك الحين ونحن بلا أرض تسكننا بالحنين... حملتنا يا أبي إلى المدينة استأجرت لنا بيتاً متواضعاً.. أمي بكت على القرية.. بكت بحرقة على جاراتها. ونحن أيضاً بكينا.. لأن المدينة لم تستقبلنا ولأن القرية لم تحتوينا. لماذا يا أبي.. إنني حتى هذه اللحظة مهزومة.

ضحك شاب مراهق وهو يرى امرأة تجاوزت الثلاثين تكلم نفسها وتشير بيدها

«علي لا يصدقني يا سامح»

علي الذي يرقد في المشفى يظن بأني سبب غيبوبته. أنا؟! أنا لا أستطيع الذهاب إليه كلما أراد. كنت أرغب في ذلك. ولكن لا أجرؤ. وجه أمي يطاردني يدخل عليّ غرفة المحاضرات. تبصق في وجهي.. وتقول لي «يا ضيعان التربية.» لا أقدر. ما زلت غير قادرة على نزع ورقة التوت وأن أسبح في البحر. ولا أقدر أن أحرق عمامة أبي ولا دموعه. أشعر أني أختنق.. أبي ركلوه في المدينة لأنه أراد أن يقتل الذئب الذي طارد أخوتي في الذهاب والإياب.

ما تزال الذئاب حتى الآن تختبيء في ثياب البشر. أليس كذلك.

عليا تتابع المسير في الحديقة. تنتبه إليها امرأة مع أطفالها. تأخذ عليا مقعداً ترتاح

عليه. تطلب المرأة أن تجلس أيضاً على المقعد.. ولكن عليا تعتذر بحجة أن المقعد محجوز لرجل واقف يحدثها.

«ألا ترينه؟!»

«من؟»

«أبي..المقعد محجوز»

تتلفت المرأة حولها. مذهولة تنظر إلى وجه امرأة شابة جميلة. يصفرّ وجهها إذ لا ترى احداً يقف قريباً أو بعيداً منهما. تركت عليا المقعد واتجهت إلى الشارع الخلفي للحديقة. انعطفت يميناً. صعدت درج عمارة بيضاء. دخلت ممر الطابق الخامس.. أخرجت من حقيبتها سلسلة مفاتيح فضية كان عليّ قد قدّمها هدية لها. حاولت أن تفتح الباب فلم تقدر خرج شاب من الشقة «ماذا تريدين سيدتي؟» عادت إلى الوراء خطوة. نظرت إلى الشاب ولم تقل شيئاً.. عاد الرجل فكرر السؤال لكنها استدارت إلى الوراء وهبطت الدرج مسرعة. عند أسفل البناية وقفت تنظر «كل البيوت في الأحياء الشعبية مثل بعضها. يبدو أني أخطأت» دخلت مبنى آخر ولكنها لم تستطع أن تهتدي إلى المنزل. «يبدو أني ضيّعت الجهات في هذه المدينة البحرية» أنا أعرف أنني إذا اتجهت إلى الغرب أصل إلى البحر. وإلى الشمال أصل إلى مملكتي. وإذا مشيت باتجاه الجنوب أصل إلى جابالا.. إلى سوكاس.. إلى مملكة أخرى. وقد أخرج منها إلى نهر عذب ثم أمشي إلى أن أصل إلى حربة الفارس المزروعة في قلب الموج منذ ألف سنة وأكثر.

مشت كثيراًفي المدينة. كانت المدينة قد أشعلت مصابيحها.. فكرت أن تتصل بسامي.. ولكنه يظل في مقام التلميذ مع أنها تستلطفه. عدلت عن الفكرة. دخلت أحد المقاهي الصغيرة أسعدها أن المدينة مليئة بالمقاهي.. يبدو أن المدينة أخيراً ستتحول إلى مقهى كبير.

«قهوة سادة من فضلك»

كانت منهكمة بالقهوة عندما رأت والدها يدخل أولاً ثم رأت علي يتبعه وكل منهما يعصب رأسه.. ماالذي يجمع الميت مع الحي؟ لماذا جئتما. أنا بخير» ندهت للنادل بأن يجلب لها فنجانين آخرين من القهوة. استغرب النادل لماذا تطلب هذه

المرأة الوحيدة ثلاثة فناجين من القهوة. «نحن مشتركان في الإثم.. أنا ووالدك» ـ ماذا تقول يا علي؟! أتعرف والدي؟! ـ أجل.. أقول لك نحن مشتركان بالإثم. إثمنا أننا خرجنا من الطيون والوكف والكتب. تصوري أن قبر جدي كان فارغاً من الأولياء.. سنوات طويلة يضحكون عليّ ويقولون لي جدّك شهاب مولانا وسيدنا. أنا رأيت قبر جدي فارغاً إلا من أفعى. طلبوا مني أن أشعل له البخور مراراً ولكن..؟! والدكِ ذنبه الكبير ان ابنته أستاذة خرجت من الفقر إلى الكتب البيضاء إلى عالم أكثر رحابة من إطار البيوت.

«ما الذي يجمع الميت مع الحي؟! هل أنت الآن في عالم الأحياء؟! نحن نتحرك فقط. كالروبوت.» تجهم وجه علياء أخذت تنظر إلى الفناجين الثلاثة بخوف. «الحساب من فضلك قالت للنادل الذي اقترب منها ببرود. وعندما أعطته الحساب سألته. هل أنت حي أم ميت؟ لم يرد النادل. خرجت وهي مستاءة. المارة ينظرون إليها لماذا؟! هل شعرها منفوش.؟ هل حمرتها سيئة.؟ لم يكن هذا ولا ذاك. انتبهت على انها تمشي بلا هدف وتشير بيدها أحياناً. إذاً أنا وحدي؟! شعرت أنها متعبة لدرجة السقوط على الرصيف. غامت عيناها. ما الذي يجري حولها؟ منذ أن عادت من أوروبا وهي تقع في دوامات الكآبة والحيرة. يبدو أن صديقتي سعاد معها حق ـ نحن يا عليا لسنا أحراراً من الداخل لذلك نعاني من الإنشطار اللعين ـ لو أنماندل المحترم أوجد طريقة وراثية يتم فيها تهجين الفرح. بالنسيان.. ربما يخلق على الأرض جيلٌ متفائلٌ دائماً لا يعرف معنى الدمع أمام الكوارث. لاح لها وجه عليّ. لم يعرفها. قالت له أنا عليا. تلمست أصابعه. لم يقل شيئاً. ظلّ صامتاً. المدينة تشعل مصابيحها بجرأة.. آذار يعلن أعياده. أمام المركز الثقافي الذي يعترض الشارع لافتة كبيرة «عيد آذار عيد الفلاحين والطبقة العاملة» الآنسة قالت لها أنت أخذت صفراً في الوظيفة الرسمية المنزلية. بكت بشدة. لماذا يا آنسة غادة؟! لماذا آخذ صفراًفي الوظيفة المنزلية التي أنقلها عن الكتاب المدرسي؟ بينما آخذ العلامة الكاملة في الإمتحان؟ ـ لا أعرف يا عليا. اسألي نفسك ـ توسلت إلي الآنسة أن تريها الورقة لكن دون جدوى. ذهبت إلى المديرة وشكت إليها الأمر. المديرة ظلت صامتة لم تجد تفسيراًلسكوت المديرة. المديرة كانت قلعة وهي كانت مثل كوخ تهزه العاصفة. كل المدرسة صامتة وهي تبكي. كانت طفلة «أبوها فلاح». على باب المركز الثقافي «عيد

الثامن من آذار عيد الطبقة العاملة. عيد الفلاحين. الأرض لمن يعمل بها. و الـ. يا.. آنسة.. عليا أبوها فلاح. «ماذا يعني والدي فلاح..؟! هو فعلاًيفلح الأرض. يحرثها.. يزرعها ويبيع محصولها في المدينة» علي قال لها نحن يا عليا متشاركان بالإثم نفسه. إثم واحد يتكرر منذ أبينا آدم حتى الآن. ذنبنا أننا خرجنا من أثلام الأرض. ذنبك أنك أستاذة في الجامعة وفي الشارع أنت أَمَةٌ يركلونك ويعيرونك بثوب الأنثى. ألم تأخذي حقوقك؟! هذه هي المساواة.. أن يركلوك في الباص وفي العمل.. لا يشعرون بالأنثى الأم. الأخت. إلا عندما يريدون منها الأنثى... الجسد.

«أي مساواة هي التي تتكلم عنها يا علي؟»

أنا الآن مطلوب مني أن أعزز دوري كامرأة. وأن أرسّخ أنوثتي أكثر واختلافي أكثر. لأكون أنا. أنا أكثر. «آنسة. أبوها فلاح». أجل أنا مشتركة مع علي في الإثم نفسه. في الجريمة ذاتها. كثيرون مثلنا يشتركون معنا في الجريمة التي لا كفّارة لها. جريمة الفقر. والفقر جريمة لا تغتفر إلا بالتوبة عند طلب المساواة الإنسانية والتوبة عن النظر إلى الأعلى.. يبدو أن علينا أن ندلق رؤوسنا إلى الأسفل دائماً كأشجار مقطوعة من منتصفها. هواء المساء الربيعي يحرك الأوراق في الشارع. عليا تجتاز سينما الكندي وتتجه إلى الشمال. عليّ الصامت على سريره الأبيض أبداًفي عينيها. هي تسير ووالدها ما يزال على درج السرايا. رجال كثيرون حوله. ينظرون إليه. وآخرون يصفعونه. «هات المال يا كلب».. الشارع المتجه إلى الشمال يفيض برائحة الأوراق الخضراء التي لعب بها الهواء. أشجار تقف على طرفي الرصيف. هذا الهواء الأخضر يثقل على صدرها. هواء قادم من جبل كاسيوس الذي يقف منتصباً. علي قال لها: أنا لي منزل في أعلى الجبل.. ضحكا معاً قالت له هذا موطن الإله بعل ـ لا هذا موطن الإله هداد.. ـ كلهم مثل بعضهم ـ الشارع تميد شمالاً. والشمال هذا المساء صاحب الحزن لا تعرف لماذا. مرة قالت لأمها: «كلما اتجهت شمالاً أشعر بالحزن وأريد البكاء» لفحها هواء البحر القريب الممزوج بالملوحة والماء. تغلِقُ أزرار جاكيتتها الجلدية السوداء. الليل يغمر البيوت. والمصابيح تغسل عتمة الشارع. إلى أين تسيرين يا عليا..؟! تسمع صوت والدها وهو ملقىً على الرصيف. ـ لا أعرف يا أبي. على بعد أمتار لوحة كبيرة مضاءة بالنيون. «كافيتريا الوردة الزرقاء» فكرت بالدخول لتطلب سامح أو سامي هاتفياً. إنها شعرت بالضياع. الجهات تظهر

وتغيب. الشوارع المشرّقة تنقطع فجأة بشارع مهزوم إلى البحر. نقاط التقاطع هذه صعب اجتيازها. على المرء أن يكون حازماً في هذه النقاط. في المقهى تستريح على طاولة أمام زجاج النافذة. أريد شاياً.. ترشف الشاي الساخن. تنظر إلى ساعتها. تشهق.. كادت أن تصرخ «أين أنا؟» تستعيد بعض هدوئها.. المقهى مليء بالعاطلين عن العمل الذين يسهرون ليلاً وينامون نهاراً. هؤلاء المتطفلون على الحياة لا يشبعون من السهر. هي نفس الوجوه التي تراها في كل المقاهي. وجوه مترهلة.. حمراء من كثرة الشراب. عيونها جاحظة.

ترقب الوجوه باشمئزاز.. تشعر أن هؤلاء المحيطين بها أقزام مع ذلك هي تخافهم وتكرههم. «أعتقد أن بعضهم سماسرة، وبعضهم تجار جدد. هؤلاء تتزايد أعدادهم باستمرار. لدرجة أن المدينة قد تتحول كلها إلى مقاهي ومطاعم وفنادق من الدرجة الخامسة» ترشف عليا الشاي وتتأمل الشارع من وراء الزجاج. شجرة أكاسيا مزهرة. ووجوه مسرعة تذوب في العتمة أو بين الواجهات. يتعلق نظر عليا برجل يعبرها.. ارتجفت أصابعها وهي ترفع الفنجان إلى شفتيها. هذا الرجل أعرفه. لفحتها حرائق الدخان التي تتكون في المقهى.. تتابع الرجل الذي وقف ينظر إلى واجهة مقابلة. يدها ترتعش. جسدها كله. أعرف هذا الرجل. هذا الرجل هو «عبد الله محمد» رغبت بمناداته. خرجت من الكافتيريا. ناداها النادل. «أين الحساب» لم ترد عليه وقفت وراء الرجل تتأمله. نظر إليها مستغرباً ثم تابع مسيره كان يمشي بطيئاً. لقد تجاوز سنّ الشباب بكثير. مشت عليا وراءه. المصابيح تلقي بنورها المتعجرف على الأرصفة. الرجل يقف أمام واجهة أخرى. إنه هو. هو زوجي. أجل هو. طفرت دمعة من عينيها مسحتها بسرعة كي لا تراها أشجار الشارع. أسرعت تقترب من الرجل. يدها تربت على كتفه وتسأله: «كيف حالك» صوتها لم يخرج من حلقها. تتابع السير وراءه في ليل مظلم ومدينة لا تقبل تسكع امرأة في العتمة. فالمرأة الوحيدة في الليل عاهرة. فجأة التفت الرجل إليها بغضب وقال: ماذا تريدين يا آنسة؟!

«هو.. أجل. صوته نفسه. زوّجها والدها وهي ما تزال يافعة. كان اسمها ماري. ما تزال تتذكر. كان يأخذها معه إلى الحقول لحصاد القمح. وتجمع حطب الغابة المجاورة لقرية فقيرة مرمية في حضن الجبال الساحلية. ولدت له بنتاً. أسمتها «هدى»

ـ لا بد أن هدى الآن أكبر مني سناً وسأعرفها عندما أراها.. لها خالٌ على ظهرها. في الجهة اليمنى..»

أرادت أن تصرخ عليا. وتقول هذا الرجل قتلني. لقد ضربني بالعصا على رأسي. فأغمي عليّ.. أتذكر كلامهم «قالوا ماتت» سكبوا عليّ الماء البارد. فتحت عيني.. لا. لم أمت دفعة واحدة. لقد متّ على دفعات. كان قاسياً وجلفاً والمرأة لا تحب الرجل القاسي أبداً. عليا تمشي والرجل يمشي وذاكرة جديدة تتفتح من أروقة العتمة. عليا = ماري.. عليا تبكي ماري بحرقة. «مرة قال عبد الله أريد أن أشرب.. حملت له الماء وقدمته بكل أدب. أخذ «الطاسة» وسكبها في وجهي. صرخ بي هاتي ماء أكثر. عدت أحمل طاسة أخرى مملوءة بالماء. وقدمتها وعيناي مملوءتان بالدمع الصامت. نظر إليّ وقال ما بك؟! قلت لا شيء. قال: لا أشرب وأنت تبكين.

«أنا لا أبكي»

«خذي إذن. دلق الماء ثانية في صدري. «هاتي ماء يا امرأة. بسرعة. عدت بالماء للمرة الثالثة فشربه وما بقي في الطاسة دلقه في وجهي. ضحكت الجارات وانفرجت أسارير عبد الله. الآن هو رجل و يشعر بعظمته. نظر حوله مبتسماً وقال هكذا أربّيها على طريقتي ولست كغيري. تحسس بعض الشبان وتركوا المكان فقلت لأبي «خضر.. سأترك عبد الله يا أبي. لا يمكنني العيش معه» نهرني أبي وقال: والله أذبحك يا ماري. الرجل ستر المرأة. نحن آل خضر لا يوجد عندنا بنات يتركن أزواجهن. لكني تركته. تركته وهربت.. لبست ثياب امرأة عجوز ورحت أهرب من قرية إلى قرية. لكني مرضت بالحصبة.. ارتفعت حرارتي فعدت إلى أهلي. حملوا إليّ ابنتي الصغيرة. إني أسمع صراخها. أسمعها الآن. وها هو يمشي أمامي والحمى تلدغني. ها هو المنزل. منزل كبير مليء بالنساء والرجال والأحفاد. إخوة. جدات. كنّات. وحيوانات كثيرة تملأ الزريبة. في الركن الآخر مكان الخطيب الذي يعلم الأطفال دروس القرآن. ثوبي الصيفي هو نفسي ثوبي الشتوي. عندما تمزّق على كتفي لم أقل لأحد. أمه رأتني ألبس «جاكيت مصوف فوق ثيابي صيفاً»

«لماذا ترتدين هذه الجاكيت يا ماري؟» بردانة أنت.

لم أرد.. كررت السؤال ثانية. ما بك يا ابنتي. أعرف أن عبد الله صعب عليك ولكن طيب القلب ويحبك.

«أعرف.»

«اخلعي هذه الجاكيت.أنت صغيرة وجميلة. يجب أن تعتني بنفسك اكثر. سحبت والدة عبد الله الجاكيت فاضطررت لخلعها. عند ذلك ظهر كتفي عارياً. ضربت أمه صدرها بحزن.. - يا ويلك يا أم عبد الله - ثوبك مشقوق ولا تقولين؟! والله أنت أصيلة»

لمن أقول؟! أشعر أن النار تأكل جسدي. الحمى ترقد في مفاصلي.. الطفلة هدى تبكي. يأخذونها بعيداً. يدور المنزل بي. أطلب أبي. أريد أبي حضر لأراه. صوت الطفلة يشق روحي أكثر من شقوق الثوب الظاهري ولكن لا أقدر على مناداتها.. أسمعهم يتهامسون.. أدرك أني في وداعي الأخير. أنظر إلى الوجوه ثم أغمض عيني. أريد أن أتشبع بالوجوه. أنظر إلى عبد الله.. لأول مرة أشعر بالإشفاق عليه. يقترب مني. تلوح دمعة في عينيه.. يمسك بيدي ويقول لأول مرة «أحبك يا ماري لا أقدر على العيش دونك» إذن سأموت.. تذوب نهدة بين شفتي. يقتحم هذياني وجوه أهلي.. أريد أبي. عندما حضر أبي وجلس أهل المنزل صامتين. لاح لي وجه زوجي باكياً.. ثم ارتفع نحيبه. «لا تبك كي لا تحرقها» أعتقد أني سمعت مثل هذه العبارة. نظرت إلى أبي. أشرت إليه أن يقترب. أبي العجوز يعارك حزناً.. يعارك صرخة. إني أحس به. يده تمسح على جبيني الملتهب. رفعت يدي في الهواء.. كنت أرتدي خاتمين. هما كل ثروتي. خاتم فيه فيروزة زرقاء. وخاتم الزواج.. أبي.. ناديته بصوت هامس خائر القوى. انفرطت دمعة من عيني رحت أخفيها.. عند ذلك لم يستطع أبي أن يكتم لوعته. أشرتُ لأبي أن يأخذ الخاتمين. سحبهما من أصابعي. أعطِ الخاتمين لعبد الله يا أبي. إنها له. بكى عبد الله. وسمعت صوت طفلتي الصغيرة تلفظ حروفها الجارحة «ماما.. ماما» كانت الحربة تدخل في صدري كلما سمعت صوتها. غمامة كبيرة في سقف المنزل. وهناك طائر كبير أسود يرفرف بجناحيه فوقي. منقاره طويل. يريد أن ينقر عيني. أغمض عيني. صوت أبي يظلّ عالقاً.. ماري.. ابنتي ولكني لم أستطع الرد.. كنت أسمع نحيبهُ وكنت

أنتحب. لا أراهم ولا يرونني. شعرت بسخونة دموع وجهي. وبذقن رجل «تشوّكني» يبدو أنها النهاية.

الطائر يجثم على صدري وينقر عيني.. لم أعد قادرة على أن أفتح عيني. أسمعهم يقولون غطوا وجهها..

....

«ب أ»

امرأة تسير وراء رجل عجوز «لن يصدقك أحد»

مالذي تقوله فتاة شابة؟! أتدعين أنك تتقمصين امرأة أخرى؟!

«أنا لا أدعي.. بل هي الحقيقة»

الرجل يسرع. وعليا تسرع. رجل طويل أمامها. ما يزال يحتفظ بهيبته القوية. هو يمشي وهي تركض. انعطفت باتجاه ساحة الشيخ ضاهر. تابعت وراءه. انزلق بين السيارات. الزحمة تعيقها. سيارات جديدة تملأ المدينة.. راقبته وهو يتجه إلى كراج بلدته. ركضت بين السيارات. اصطدمت برجل.. الرجل يبتعد. خافت أن يضيع منها. نادت بأعلى صوتها «عبد الله.. عبد الله محمد» التفت الرجل.. امرأة شابة جميلة ترتدي ثياباً أنيقة تناديه. إنه لا يعرف امرأة بهذه المواصفات. تابع سيره. لعلها أخطأت. ركضت عليا إليه. أمسكت بقميصه.. نظر إليها مندهشاً.. ـ هذا أنت؟!! ألم تكوني ورائي عند دار السينما؟!!

«أجل. وتابعت كل هذه المسافة وراءك»

«ماذا تريدين؟!»

«لا أريد شيئاً. أريد أن أسألك عن هدى؟.

«هدى بخير. أأنت صديقتها؟

قد أكون صديقتها.. كانت طفلة يوم متّ. ويوم ولدت لم يكن فارق السن بيني وبينها كبيراً. أجل يمكن أن تكون صديقتي»

«ولكن من أنت»

«كيف حالك يا عبد الله؟!

لم تترك له مجالاً للجواب. أمطرته بأسئلة كثيرة. كيف حال القرية. وأمك كيف حالها. هل ما زالت أشجار اللوز التي أمام المنزل سابقاً؟! ثم أخذت عليا بالبكاء. «لماذا تبكين يا ابنتي.. هل أنت من قريتنا؟! ابنة من تكونين..؟!» في الحقيقة أمي ماتت.

«أم عبد الله ماتت؟!. يا لها من امراة طيبة.»

«أتعرفين أمي؟»

«أجل. أعرفها.. وأعرف كل شبر في المنزل. وأعرف الجاكيت الصوفية التي كانت تلبسها ماري. وأعرف آغا قريتكم اللعين.. لكن قل لي كيف حال هدى؟!»

أتقصدين الصغيرة أم الكبيرة؟!

ماذا يعني بالكبيرة والصغيرة؟! تابع الرجل. هدى الأولى.. ابنتي ماتت. ولكن عندما رزقت بابنة أخرى أخرى سميتها هدى إكراماً لزوجتي الأولى. هي صبية الآن وهي متزوجة تعمل معلمة!

- إذن ماتت هدى. ابنتي هدى ماتت.. تبعتني. هدى التي على ظهرها شامة ماتت؟!

«ولكن أنت من يا ابنتي»

أنا الآن ابنته.. أجل أنا ابنته.. لي ذاكرة ماري ولكن جسدي هو جسد امرأة أخرى وروحي روح امرأة أخرى.

اعذريني يا ابنتي فأنا لم أعرفك.

«أجل. لن تعرفني. أكثر من ثلاثين سنة مرّت. فكيف تعرفني؟ انهارت عليا على الرصيف ركض عبد الله باتجاه دكان مفتوح. حمل ابريق ماء وسكبه عليها. ها هو يعيد ذاكرته الأولى. اجتمع بعض المارة. همس أحدهم: ماذا فعل الرجل بهذه المرأة؟ أقسم عبد الله بأنه لم يفعل شيئاً. وهو لا يعرف هذه الصبية. كانت تسأله عن ابنته. حزنت فجأة وأغمي عليها. ابتلت ثياب عليا بالماء. نهضت وكأنها استيقظت متأخرة. نظرت حولها مذهولة لا تدري ما تقول. لماذا تستعيد ذاكرتها الآن؟!

للإنسان عدة ذاكرات.. كل واحدة فوق الأخرى. وقد تختلط التعاريج فتضيع الأزمنة والأمكنة. إنها مصابة بلعنة الأجداد.. منذ عودتها إلى هذه البلدة وهي تعارك هذه الأشياء الماورائية. الماضي الذي يحضر فجأة يكاد يصير الحاضر في مدينة يمتزج فيها الماضي والحاضر والمستقبل بحيث يصعب الفصل الأكيد. الخيمة والقصرُ. الجمل والسيارة. الهودج والتلفون الخلوي.. أرقى درجات الفسق وجماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. رجال يحجّون ومن هناك يسافرون إلى ممثلات هوليود. ما هذه المدن العربية التي لا فاصل بين أزمنتها ولا بين أشخاصها.. كل واحد يتقمص العشرات.. وكل قميص عاش في عصر.. ينظر الرجل إلى عليا الباهتة. الحزينة.

«هل أنت بخير يا ابنتي؟!

«أجل. أجل يا سيدي.

«سلامتك.. ولكن ماالذي جرى؟»

«لا شيء.. أحياناً أصاب بغيبوبة.»

«ولكن أرجوك قولي من أنتِ»

«أنا؟!! أنا لاتعرفني يا عم»

«طيب قولي ابنة من وأنا سأعرفك»

ماذا أقول له؟. لا. لن أقول. نهضت عن الكرسي الذي قدّمه لي صاحب الدكان ولكن عبد الله ما يزال يصر على معرفتي. ماذا أقول له. لن يصدقني أحد. أ أقول له أنا ماري؟! ماري التي ضربها مرات عديدة. والتي سكب الماء البارد على جسدها في عزّ الشتاء «أم تقول له إنها أم طفلته التي ماتت.. لماذا عليها أن تعيد نبش الماضي.. نبش الغد..؟ لتسر الأمور كما هو مخطط لها»

غابت عليا في العتمة. أخذت تبتعد عن العيون المندهشة المتسائلة. ناداها أحد المارة «آنسة عليا؟!!» لم ترد. لا تريد أن يعرفها أحد الآن. كان ضرورياً أن يسكبوا عليها الماء كي تفيق من اللعنة التي تطاردها.. تشعر بالبرد.. إنه برد الماضي الذي أعاد إليها توازنها. كادت أن تقول لعبد الله. أنا زوجتك ماري التي ماتت بالحصبة. ولكن لا.. ليس ضرورياً أن تقول له. هدى التي كانت صلة الوصل بين زمن مضى

وزمن حاضر ماتت. لا. لن يصدقها أحد. مرة قالت لأخوتها أنا لست عليا. أنا ماري ابنة خضر ضحكوا عليها. ويوم نادت والدها خضر الذي مرّ صدفة أمام قريتها وهو عجوز يركب فرسه.. قالوا لها عيب الإنسان لا يكون له سوى أب واحد. الآن هي بلا أب. لقد مات والدها أحمد القاضي. إنها تراه الآن يتدحرج على سلم السرايا. كانت صغيرة جداً وكان الأب يعيد هذه الحكاية الجارحة في لحظات الحزن.

صوت الشاب ينادي مرة أخرى «آنسة. آنسة عليا. أنا تلميذك.. هل أوصلك؟!»

«لا.. شكراً سآخذ تكسي..»

....

عندما رن الهاتف كان الدكتور سامح هو الذي يتصل. كانت تلهث وهي تقول «آلو»

ـ عليا.. ما بك.. كأنك تركضين.

ـ أجل. كنت أركض.. منذ أن غادرتك وأنا أركض يا صديقي. الآن وصلت إلى المنزل ولم أخلع حذائي بعد. ركضت طويلاً في شوارع المدينة المتشابهة القذرة. لماذا كنت أركض؟!» ركضت لأن امرأة راحت تتبعني امرأة كنت أعرفها منذ خمسين عاماً. يضحك سامح.. وهل تجاوزت الخمسين؟! أجل يا سامح.. أنا أكبر من ذلك.. بل قل مئة سنة. ألف سنة. هذه المرأة تسكنني وجسدي هذا قميص خارجي. تبدله الأزمنة عندما يتمزق

«أنت متعبة»

«كنت متعبة. الآن ارتحت بعد أن علمت أن هذه المرأة كان لها ابنة تدعى هدى. وكانت هذه الفتاة صلة الوصل بين مرحلة ماضية وأخرى حاضرة. هذه الفتاة ماتت.. صلة الوصل هذه لم تعد موجودة. هكذا عندما نفتقد هذه الصلات بين الحاضر والماضي نرتاح.. على الأقل نعرف إلى أي زمن ننتمي.

«عليا ماذا تقولين»

«كما تسمع. هذه الـ هدى التي ماتت قد تكون موجودة الآن بيننا باسم مريم. أو سلوى. أو تكون هي جارة علي أو هي امرأة أخرى.. يتبدل الاسم ويتبدل

القميص.. الجسد طلاء لروح لا تفنى صدقني. لقد رأيت عبد الله زوجي السابق. في زمن سابق. ناديته. وأخبرني أن ابنتي ماتت؟! «لن أناقشك الآن. ولكن سنتحدث عندما نلتقي. هل آتي إليك الآن؟!

«لا.. شكراً أنا أريد أن أنام. كيف حال علي؟

«علي تركته نائماً.. أعتقد أنه سيتحسن بعد أيام.. زارته جارته ولكن عندما رآها شتمها وقال من هذه البومة. إنها تريد أن تغرز مخالبها في وجهي.. لا تقلقي.. سأزورك غداً.. إلى اللقاء..»

«إلى اللقاء»

الشاي الساخن على الطاولة. عليا في سريرها.. تسترجع النهار كله.. أحياناً تشعر بالغضب من علي.. وأحياناً تشفق عليه.. لماذا تصر هذه الجارة على زيارته؟! هل حقاًلم يتورط معها؟!! تشعر بانكسار. ولكن لا تظهر ذلك.. ستقف إلى جانب عليّ حتى النهاية. ولكن لا تقدر أن تنسى أنه ربما خانها مع امرأة عابرة. ترشف عليا الشاي. مفاصلها ترتعش. كأنها كانت في معركة. الهدوء موجع أحياناً. تشعر بشوق إلى صديقتها سعاد.. ـ غداً سأكتب لها ـ يلوح وجه سامي. تمتد يدها لتتصل به ولكنها تتراجع قبل أن تكمل الرقم.

....

الأيام التي تمرّ رتيبة لا تؤرخ لشيءٍ مضى ولا لشيء يأتي.. كأن المرء يقتطع جزءاً من عمره ويرميه في سلة المهملات.

«أيها الراوي. لماذاتتكلم عني؟! ألم نتفق أن تسمعني؟!

«أنتِ صمتٌ.. كان علي أن أتابع كي لا يسبقني الزمن.. زمن السرعة. والإيدز والسقوط والسلام. أجل. الحروب تدمر الأرض. والسلام هو الشعار.. هو قميص عثمان.

«أنا كنت متعبة. لهذا سكتّ.. كان عليك أن تسألني رأيي..

«لماذا أسالك..!!

«نوع من احترام رأي الآخر»

«أتصدقين ما تقوله الجرائد..؟!! أتصدقين ما يقولونه في الخطب والاجتماعات. أي آخر. آخر.ماذا؟! آخر من.. هو صوت واحد واحد لا أكثر.

سأخبرك شيئاً.. غداً سيحتفل سامح بعد ميلاد علي. إنها نكتة. بأي عيد سيحتفل؟! ما قبل بعل؟! أم ما بعد حدد؟! سامح سيطلب إليك أن تهتمي بعلي أكثر.

«عليا.. ظلت تنظر إلى المرآة.. ما وراء المرآة يقف الراوي. أخذت حبة مهدّيء وضعت لنفسها كأس شاي اتصل بها سامي «قلقت عليك.. منذ ايام لم أسمع صوتك.. هل تسمحين أن أشرب عندك قهوة؟

«حسناً ولكن..»

سادت فترة صمت.. كيف تسمح لسامي بأن يدخل منزلها الجديد أمام جيران جدد. ماذا سيقول الجيران؟

هزت رأسها «ليشربوا البحر.. قد يصفونها بأسوأ وصف. سيقولون هذه امرأة سيئة السمعة.. وسيقولون. ولكن أمي قالت. المرأة الحرّة تدخل طابور العسكر وتخرج منه حرّة لا يمسّها أحد. أحياناً أخالفك الرأي يا أمي. لأن هناك عسكراً وهناك حرامية!

«سامي.. اعذرني اليوم. الحقيقة أنا متعبة»

«كم أنت جبانة! تسمع صوت الراوي. أ أنت متعبة أم كي تحضر المرأة التي تدير شؤون منزلك لكي تكون شاهداً على عفتك»

«أرجو أن تخرس.. لا تقاطعني.»

كانت تود أن يأتي سامي. أو سامح. أو علي.. بحاجة لمن يكلمها.. ولمن تشكو له ولكن ينتفض الراوي. كلميني أنا. أنا أسمعك. تنهض وتلقي بالكأس في حوض المطبخ.. تتناثر الكأس نثرات صغيرة. هي لا تقدر وحدها أن تتجاوز هذا الكم الهائل من التخلف الذي يجتاح نظرة الرجل إلى المرأة. لا تقدر أن تواجه المجتمع بمفردها مع أنها مصممة أن تفعل شيئاً.. قد لا يكون ثورة ولكن ربما يترك أثره على سلوك نساء كثيرات. تشعر بالخذلان والتصميم في الآن ذاته. أي امرأة هي؟! أستاذة في الجامعة وما تزال غير قادرة على استقبال أصدقائها في منزلها. تشعر أنها تختنق..

معقول أن تنصاع لعقلية الشارع الذي يأخذ تعاليمه من غبار تراكم ويجب أن ينظف؟! عليا بالذات عليها أن تتجاوز هذه الترهات. لا أحد يجبرها على فعل شيء لا تريده ولا أحد يجبرها على ترك شيء تريده وترغبه. وهي مقتنعة بالصداقة بين الرجل والمرأة.. ويجب أن يقرّ المجتمع بذلك ولو حصلت بعض التجاوزات. الأقمار الصناعية تدور العالم. تدخل غرف النوم. تفتش تحت الوسائد عن أحلام ممنوعة. مع ذلك هي لا تستطيع أن تشرب القهوة مع سامي؟!

لا.. لن تعيشي الآن بعقلية ماري السابقة.

«ألو.. سامي»

«ألو... تعال نشرب القهوة»

«أشرب الشاي»

«طيب. تعال.»

«شاي لذيذ «شكراً»

«ألست جائعا؟!

«لا..»

بدت عليا متماسكة. حاورت سامي في أشياء كثيرة. مفاوضات السلام مع العدو الاسرائيلي الذي اغتصب الأرض وشرّد وقتل. وشرذم. و.. ويريد السلام؟! «قد تتصالح» على الورق يا سامي. لكن الجراح القديمة لا تندمل إلا إذا استعدنا فلسطين عربية.. فلسطين هي الجرح في كل جسد عربي.

كيف تمدّ فلسطينية يدها لتصافح قاتل زوجها.؟ أو قاتل ابنها؟! الأرض.؟! يا للأرض. الوطن.. ولكن ألا ترى أن الإنسان هو الذي يصنعُ الوطن؟! ماذا يفعل رجل عجوز بمنزل يعود إليه في غزّة وقد خلا من أبنائه وزوجته.

«أسرٌ بكاملها طردت من منازلها ولم تعد إليها بعد.

والقزم هو القزم يفرش عمامته ليدوسها جندي يذبح أطفالنا.»

«لقد ثرثرنا كثيراً يا سامي.. ولكن هي مجرد ثرثرة. أظن أن أحداً لن يستمع إلى آرائنا.. إننا كمن يصرخ في الطاحون.»

«ستذهبين غداً إلى الجامعة؟!

«أظنّ ذلك؟!»

يودع سامي عليا بعد أن ترك بعض الهدوء في منزلها.. بدأ النعاس يثقل جفنيها.. تضبط منبه الساعة على أن يوقظها في التاسعة صباحاً. الساعة ترن. ولكن عليا متعبة ولا تريد أن تنهض.

إنه السؤال ذاته.

السؤال الذي يتكرر يومياً فلا أعرف كيف أجيب.

هل أنا أحبّ علي؟!

عندما كنا صغاراً كانت قراراتنا أسرع. كنا قادرين على اتخاذ القرار. الآن لا أقدر أن أقرر. هل هذا تراجع في مقدرتي العقلية؟!

لا أعرف حتى الآن إن كنت أحبّ هذا الرجل. سامح قال لي: حددي موقفك. وأنا لا أعرف أن أحدد وجودي ـ عالمي ـ اسمي. هل أشفق عليه؟! أم أشفق على نفسي؟

هل هو الصورة التي تكمّل صورتي لتكون الفرد الضائع في ظلمة مستقبل قادم يتهيأ لمهدي منتظر حتى ينتشله من ظلمته؟!»

أنا وعلي نرث زمناً قديماً من الخراب لهذا نحن علينا أن ندفع الثمن الآن؟! علي صرخ وقال بأعلى صوته. جدّي هو الذي سبب هذا الخراب فلماذا أحمل وزره أنا؟!» جدي الذي يعود إلى ألف جد هو المسؤول فلماذا تحاكمونني؟!

نحن كنّا جيل الحلم والأمل. الجيل الذي هيأ للثورة التوازن ما بين الجهد والمردود. وجيل ما بعد الثورة حالماً. وساعياً لأن ينجز مشروعه الحضاري. مشروع وجوده. ولكن للأسف أجهض الحلم قبل أن نكتمل. قبل أن تمشي قرانا باتجاه المدينة. وقبل أن تستقبل المدينة الأطباق الطائرة. أجهض الحلم قبل أن أخلع منديل أمي وعباءة أبي. وقبل أن يندمل صدر أمي من بندقية برهان الأدهم»

ـ لا أعرف لماذا هذا الحوار الطويل الذي تلقينه على نفسك وتعذبين ذاكرتك به.. الأمر بسيط ولا يحتاج إلى كل هذه المشورة. «أتحبين علي؟» ـ نعم... لا..

لأعرف. أ أنا أحب علي أم أحبّ نفسي؟! ولماذا نحمل فظاظتنا ونواجه بها العالم. معرفة الحق تجريح وفظاظة؟ الدفاع عن الكرامة والأشياء الجميلة فظاظة؟ لا أستطيع أن أتصور المدينة. البحر.. الأماكن الحميمة دون علي. ولكن هل هذا يعني أني أحبّه؟! أم لأني بحاجة إلى رجل؛ إلى من يستمع إليّ.. إلى من يشتقّ منيّ

«الأخ رجل»

«ولكن الأخ لا يكلمني»

«سامح.. ما هذه الأسئلة.؟!

«كان عليّ أن أسألك هذه الأسئلة كي تدركي أين تقفين. الزمن لا ينتظر أحداً والحياة قاسية تحتاج إلى مشاركة.. هذه المشاركة الآن باتت ضعيفة. أشعر أن سامح ما يزال نقياً.. لم تزيفه الحياة الجديدة. لا يقبل الأقنعة. أشعر بحاجة إلى أمي العجوز التي تسكن بيتها الريفي تزرع النعنع والثوم والحبق.. أقول لها يا أمي: تعالي ابقي معي بعد أن غادرك أخوتي هنا الحياة في المدينة أكثر راحة.

ترفض أمي باستغراب.

«المدينة؟! لا أستطيع أن أصعد الدرج»

«أحملك يا أمي. أحملك بيدي»

«أنت مشغولة يا بنتي.. سأظل وحدي عند ذلك. لا أحد يحدثني ولا أحدث أحداً»

«أنا أتحدث معك.. كل يوم نقصّ سيرة أبي. سيرة أخوتي.. القرية.....

ـ أمي هي الأخرى تبحث عن شخص يسمعها.. كلنا الآن في هذه الدوامة. وعندما ينتهي الكلام ما الذي سيحدث..؟!

«أنا فخورة بك يا عليا. ولكن يا ابنتي حديثنا المشترك قليل.. بماذا سنتحادث بعد ذلك» ستنتهي هذه الأشياء التي نتحدث عنها.. هنا في القرية أفتح باب بيتي.. واحد مسافر أودّعه.. واحد عائدٌ نستقبله ونسمع أحاديثه الجديدة. واحدة تطبخ مجدرة تفوح رائحتها على الجيران فترسل لهم صحن مجدرة مطبوخة «بالمقلي

الفخاري». طفل يقترب ويدخل باحثاً عن عش سنونو في سقف المنزل.. لا يا عليا. لا أترك بيتي.

«ولكن عندي أم عارف يا أمي إنها ستلبّي طلباتك وتخدمك»

«لا أقبل أن يخدمني أحد طالما أنا قادرة على الحركة.. يا عليا أريدك أن تتزوجي المرأة بلا رجل حديقة بلا ورد. وبلا سياج»

«والرجل..»

«الرجل كذلك يا عليا.. يجب أن يكون لك أسرة وأطفال.»

«أنتم السبب يا أمي»

«هل نظل نعيد الماضي؟!. أنت المتعلمة المثقفة تقولين ذلك.»

«لأني متعلمة أرفض أن تخططوا لي مستقبلي. وتحددوا مسار عواطفي.لولا منكم.. كان لدي ولد يافع الآن.. ولكن هذا نصيبي في الحياة. ثم إن المرأة التي تسير باتجاه العلم... تختلف عن المرأة التي تنتظر فقط الرجل والأولاد. سيكبر سن الزواج عند المرأة الجامعية. وسيكبر أكثر عند المرأة المتخصصة التي لا تنهي دراستها قبل الثلاثين من عمرها وقد يكون بعد الثلاثين»

سكتت أمي. وسكتّ أنا. لم أجرؤ على محاورتها. إنها محقّة. هل أحدثها عن ماندل مثلاً لتدير حواراً: وعندما يأتي الأصدقاء ويسألونها عن صحتها وأحوالها.. ثم ماذا؟! هل يحدثونها عن أزمة الغلاء. أزمة الحروب الآتية. أزمة الهرسك أم عن نهر النيل الذي فاض بالجثث المتفسخة القادمة من راوندا.. عشائر وقبائل وعروق.. و.. لا تقبل العيش على الأرض ويستبدلون حياتهم بموت فظيع. هكذا للزمن طبقات. يمرر سيوفه يبطء تحتها.

أمي في بيتها تخاطب رائحة السنين. تزرع الحبق وتبعثر ساعات الانتظار بين وريقاته. أمي تقول: في الجيل القادم أرجو أن يخلقني الله متعلمة.. ايه. كأني أراها طفلة تحمل حقيبة وتركض باتجاه المدرسة. ولكن لمن أنادي. يا أمي.. أخوتي قالوا: عيب.. الإنسان لا يكون له أكثر من أب... أليس عيباًأن يكون له أكثر من أم؟!

يا أم عارف قلت لك عندما تنظفين المنزل لا تحدثي جلبة.. إن هذا يقطع سلسلة أفكاري ويمنعني من التركيز على المحاضرة.

أم عارف تحدث جلبة لتؤكد لي بانها موجودة. هي لا تجرؤ أن تأخذ من وقتي في حوار قلت لها إنه عقيم. لذلك تضجّ بالأواني. بالأصص. تجرّ الطاولة الكبيرة. تحدث شيئاً ما يدل على سير الزمن الخطي.. هذا السير المقيت. أنظر إلى ساعتي. يجب أن أذهب إلى الجامعة لقد بدأ العدّ العكسي. أتذكر موعد سامح.. قال لي. سنحتفل.. يجب أن نجد سبباً للاحتفال لنخرج من قوقعة المجاملات المتعبة. أثناء الولائم تلغى المجاملات. ويفرد المرء شخصيته متخلياً عن أحزمة الوقار المصطنع.

«آ.. الآن أدركت سرّ الولائم الكبيرة التي تقام للمسؤولين» يضحك سامح.. تتذكر عليا الحوار فتضحك.

«خير يا ابنتي. أراك سعيدة»

«خير يا أم عارف.. اهتمي بشؤون المنزل»

«أشعر بالشوق الجارف للذهاب إلى ملاقاة علي. الصباح غائم. والسماء كئيبة وزعلانة. ضباب خفيف فوق البحر. فكأن الموج يطلق تنهداته إلى السماء. لماذا يحزن البحر. هذا الجبار؟! ما يزال الأمس ينفرط أمامي بوريقاته الشاحبة. سأحاول.. وفي كل مرة أحاول أن أغلق كتاب الماضي كي لا يصير هو المستقبل.. عليّ قال: سأبني لك بيتاً على الطريقة العربية القديمة..

«لا.. لا أريد يا علي.. أريد أن أعيش الحاضر. الحاضر و المستقبل. أرجوك. هذا الماضي يتعبني ونحن نحمل أوزاره قسراً»

«أريد قهوة يا أم عارف»

ولكن كيف؟!

الماضي جذع الشجرة التي تنمو عليها أغصاننا النفسية. الجذع المنخور سيعطي أغصاناً ضعيفة. وأوراقاً صفراء تميل إلى السقوط في كل هبة ريح.

«أغصان ترف على قارعة الحياة.

أوجدتنا العاصفة فانسكبنا على شبك الحنين.

أنا وأنت.

وأزهار المودة.

نحرقها.

فيوميء البرد للعصافير المتعبة»

قرأت قصاصة علي التي وجدتها في كتاب «لحظة الأبدية» تأملت على شعر علي الضائع. قررت الذهاب.

......

هناك أنا.

امرأة تجمع الأزمنة على الطاولة. أرتدي ثوباً سكري اللون. متناقضة بذلك مع قتامة السماء. أريد أن أكون مبتهجة. أستعير البهجة أمام علي. سأحاول أن أخرجه من الزمن القاتم. هذه مسؤوليتي. لولا ذلك لما ساق القدر هذا الرجل إليّ. لا بد أن يخرج. لن أسمح لعلي بالهزيمة. هزيمته يعني هزيمة الكلمة.. وهذه نهاية الصبر.. نهاية الفرح والأمل.. لا.. ما زالت الكلمة في البدء.

أنتظر طويلاً في كراج التاكسي. كل المسافرين يركبون «الميكروات الصغيرة» لا أستطيع حشر جسدي في هذه السيارات الخرافية التي ملأت البلد. أشعر بالاختناق.

«ألهذا يحنّ المرء للماضي..؟! أيحن للفَرس !الآن؟»

ربما.. أضيق زرعاًبالوقوف. اتجه إلى الرصيف.. أنوي العودة إلى المنزل. ولكن وقوف سيارة مرسيدس فارهة رشّتني بالماء وأجبرتني على التراجع.. نظرت إلى ثوبي الفاتح المرشوش بالماء القذر والوحل.. لا أعرف ماذا أفعل.. أ أبكي..؟! أم أضحك؟ يطل وجه امرأة مصبوغ بشتى الألوان. أتخيل أني أعرف هذا الوجه. أجل أعرف هذا الوجه. لم تعتذر. كانت تحدق بي. أعجبها منظر امرأة متأنقة وهي مرشوشة بالوحل.. الأناقة!! يريدون احتكارها هي الأخرى؟!. رجعت السيارة إلى الوراء قليلاً. وقفت قبالتي تماماً. مدّت المرأة رأسها خارج النافذة وسألت «ألست عليا؟» لم أرد. عادت وسألت. قلت: «أنا الأستاذة عليا»

صوتها أعادني إلى الوراء سنوات كثيرة ـ عندما يعود المرء هكذا مسافة زمنية ـ يدرك أنّ كل شيء يهرب. الطفولة. المقاعد. البراءة.. الـ ـ

ـ ألم تعرفيني؟!!

كيف لم أعرفها.. إنها هي. سحر. كانت تجلس معي في مقعد واحد. هي في المنتصف.. وأنا على اليسار. وسعاد في الطرف الآخر.

«أنا سحر»

كيف لا أعرف سَحَر الكسولة جداً. فتاة خرقاء. وضعتها المعلمة بيني وبين سعاد كي تنضبط وتجتهد. هكذا كانوا.. يضعون التلميذة الكسولة بجانب التلميذة المتفوقة. من أجل أن تصاب بعدوى التفوق.؟ يا للمهزلة. إذاً ماذا يفعل ماندل؟! ومع ذلك ورغم أننا ساعدناها في الإمتحان فإنها لم تستطع الحصول على الشهادة الإعدادية. بعد تلك الفترة لم أرها.. ولا أعرف ماذا حلّ بها. فقط علمت أنها انقطعت عن الدراسة وانشغلت بتسريح شعرها والبحث عن رجل.

«الرجل ملاذ المرأة»

«ما معنى أن تكوني مهندسة. جامعية. أو حتى أستاذة جامعية وأنت بلا رجل.؟! يعني المجتمع يرفضك»

عندما يلفظون اسمي امام المعارف القدماء. يقولون: أستاذة ممتازة ولكن حتى الآن لم تجد ابن الحلال.. انتبهوا.. أنا لم أجد ابن الحلال. أنا أبحث.. وأفتش. وأنا منشغلة بهذا الأمر. ورغم ذلك لم أجد ابن الحلال الذي يقبلني!! أما علي.. عليّ أو سامح.. فيقال: لم يتزوج حتى الآن. هو رفض أن يتزوج. ثوبي الذي اخترته لملاقاة علي بعد نوبة حنين ترشه زميلة قديمة بدولاب سيارتها التي تعادل راتبي منذ ولادتي. لو أخذت فرضاًراتباً إلى يوم وفاتي.

«أنا سحر. أتذكرين»

«سحر.. سحر من؟!»

أمعنت في التجاهل. إنها لا تستحق أن تحتفظ بها ذاكرتي. كانت نكرة وما تزال

«سَحَر المهاجر»

«آ.. تذكرتك.»

«ما هي أخبارك»

«أحوالي. ماشي الحال. كما ترين»

فتحت عينيها وهي ترمقني من أعلى إلى أسفل ثم قالت: «وأنت كيف حالك. ما هي أخبارك»

«حالي!! كما ترين. مرشوشة بالوحل من سيارتك. أما أخباري فإني أدرّس في الجامعة»

«آسفة جداً. يعني عملت دكتوراه؟!

«يعني..»

«قريباً سأكون زميلتك.»

«عظيم.. رائع. ولكن أعرف أنك تركت الدراسة مبكراً»

«صحيح ولكن بعد أن تزوجت من بهجت رفض إلا أن أتابع دراستي - رجال آخر زمن لا يرضون بزوجة كالسابق - لذلك تابعت دراستي. حصلت على إجازة في التاريخ. وهنا أنا أعدّ دراسة لنيل الدكتوراه. ولكن أنا أرى كل ذلك تعب على الفاضي»

«الحقيقة البلد تحتاج جداً لهذه الشهادات العليا. لم أكن أعرفك طموحة بهذا الشكل» كنت أشعر بالاشمئزاز وأنا أتكلم معها. أنا أحمل الدكتوراه وهذه تحمل الدكتوراه؟ تمنيت لو أن أمي قريبة مني... أو أني أعود إليها. تأمرني أن ألبيّ طلبات أخوتي الذكور. تسخين ماء. طبخ.. كوي الثياب بمكواة الفحم.. هكذا ككل أخت متفرغة في المنزل.

سحر هذه لم تكُن قادرة على حفظ جدول الضرب. ولم تقدر مرة أن تركّب جملة مفيدة في اللغة العربية. لم تودعني حين صعدت سيارتها وقالت.. هاي.. ذاهبة إلى جابالا.. أتريدين شيئاً؟!

«أنا أريد منها شيئاً؟!»

لا... لا أريد منك.. ولكن أريد من الزمن.

زحفت سيارتها. ثم راحت تعصف بحفر الماء. دارت في ساحة الشيخ ضاهر.. رشت رذاذها على الكثيرين. شعرت أني أتهاوى وأنا أرنو إلي ثيابي. مرت طالبة جامعية من طالباتي. سلّمت علي فلم أسمعها.. وقفت طويلاً قبل أن تأتي سيارة خاصة بالبلدة الصغيرة.

في المقعد الخلفي جلستُ. وضعت نظارة شمسية على عيني ورحت أهرب من أسئلتي. لأول مرة أزور المدينة بمفردي.. المرة السابقة كنت مع سامي. هذه المرة سأطلب من السائق أن يمرّ بي في أماكن لم أدخلها منذ سنوات الطفولة واليفاعة. سألمس جدراناً ووجوهاً.. سأقبض على أزمنة. انفرطت دمعة من عيني. وضع السائق أغنية ونظر إليّ من خلال مرآته.. هل تعجبك الأغنية؟!

«ماشي الحال. شكراً»

«حضرتك موظفة؟»

«نعم..» لم يكن بي رغبة للحوار مع السائق. ولكني أعذره أحياناً فهو يقطع الطريق كل يوم عشرات المرات وعليه أن يقتل الملل والروتين.. الطريق نفسها ولكن الوجوه تتغير. ومع كل وجه حكاية. وجهي غير مألوف ويريد أن يعرف ماذا أخفي وراء نظاراتي.

«أين تعملين. يعني في أي شركة»

«أعمل في الجامعة.. مدرسة في الجامعة»

«آ... دكتوره يعني»

«تماماً»

«ألا تملكين سيارة.؟! في أوروبا فئة أساتذة الجامعة محترمة جداً ولا تقف مثلك في الشارع تنتظر سيارة. أنا كنت أشتغل بالسفن حيث زرت دولاً كثيرة.

لماذا يستفزني هذا السائق؟! لا أريد أن أنساق وراء نظرياته. أنا أعرف أن العلم لم يعد قوة في الدول المتخلفة. أو بالأحرى في زمننا.. المال هو القوة. وأشياء أخرى. أشياء لا داعي لذكرها.

كانت السيارة تطوي الطريق العريض. وكانت أشجار الأكاسيا ترجع إلى الوراء. كنت أتمنى أن يطول الطريق أكثر كي تهدأ نفسي قبل ملاقاة علي. أظنه الآن استعاد نشاطه.. صوته على الهاتف كان يدل على ذلك. قال لي حبيبتي.. آه ما زال على هذه الأرض من يحتاجني. بعد قليل أصل. أعرف. سيعاتبني. الحق معه ولكن لي ظروفي. هذه الحياة لم تعد تتسع لمشاغلنا وأعذارنا. سأحاول أن أخفف من حزنه. علي شاعر مهم ورجل محترم. لكن مشكلته أن لا مكان له في هذا الزمن... السيارة تقترب من المدينة. أتذكر سعاد صديقتي. ليتني أراها عائدة من أوروبا. سأحاول السؤال عنها. فترة طويلة لم أرها. يلوح لها وجه سحر المتعالمة.. «ترى كم ستكلفها الدكتوراه من هدايا؟»

السيارة تلف ساحة صغيرة ثم تدخل المدينة من شارع أعرفه منذ طفولتي. ما يزال على حاله. كأن الزمن لايمر على هذه المدينة. ما زال بيت علي بعيد مع ذلك قلت للسائق «أريد أن أنزل هنا».

لا أعرف لماذا نزلت في أول المدينة. أحتاج لكثير من السير المتفرد مع نفسي كي أستعيد بعض هدوئي. يبدو أني غير قادرة على التواصل مجدداً مع الآخرين. وإلا لماذا كل هذه العصبية.. ليكن. سحر أو غيرها.. العالم مليء بالمتطفلين.

إنها لا تختلف عن «رندة» التي جاءت تحضر محاضراتي.

قال لي يومها مدير المركز الثقافي: «الحضور ممتاز يا آنسة. نوعية متميزة. أرجو أن تكون المحاضرة قيّمة وتبيّض الوجه. لم أرد. اكتفيت بابتسامة. تابع رئيس المركز. ستحضر شخصيات المدينة المعروفة. السيد رامز أخو وزير الدولة. والسيدة ابنة عم المحافظ.. والآن اتصلت بي السيدة رنده ألا تعرفينها؟!

«لا.. أبداً.»

«ولوه.. رنده زوجة منصور باشا»

كدت أقول له من منصور باشا. ولكن كنت لبقة جداً جداً وهادئة. قلت له: ربما فترة غيابي أثناء التحضير للدكتوراه في أوروبا حرمتني معرفة شخصيات هامة كثيرة ظهرت على الساحة.

«آ.. معك حق»

كدت أفقد لباقتي وأقول له «طز في رنده وأمثالها» ولكن أنا أستاذة جامعية وعليّ أن أكون مهذبة «يا أخي شيء بيجنن أحياناً لا تجد الكلمة المناسبة التي تعبر عن غيظك. فتجد أمامك الكوى التراثية المكتظة بكلمات من نوع طز ثم.. إلى الأسفل. يكون الأثقل..»

رنده؟!

رنده ما غيرها.. زوجة المقاول الكبير والتاجر الكبير. واللص المحترم الكبير. كيف لا أعرف رنده. إني أعرفها جيداً. ولكن ربما لا أعرف أشياء جديدة عنها. قد تكون أستاذة في السوربون ولا أدري.. رندة ابنة الزعيم الذي كان يأمر وينهي ويسرق. قدّمني لها رئيس المركز. «الأستاذة عليا. تدرّس في جامعات القطر. لها طلاب في دمشق. وحلب ثم انتقلت أخيراً إلى جامعة المدينة. ولكنها ما زالت تحاضر في جامعة حلب»

ثم انتقل إلى السيدة رندة فقال: السيدة رنده. راعية الأدب والأدباء في المدينة وراعية الثقافة والمثقفين. لها أكبر الفضل في دعم المركز ودعم الأنشطة الحضارية التقدمية»

«أهلاًوسهلاً. تشرفنا»

نظرت إليّ رندة. ونظرت إليها. سألني رئيس المركز «ألا تعرفينها؟!» هززت رأسي بأسف كبير «لا. أبداً مع كل الأسف»

ابتسمت رنده ابتسامة صفراء. سألت أليست مهنة التدريس في الجامعة متعبة؟!

«نعم. ولكن فيها خلق وإبداع. فيها بناء لوطن يسعى في طريق التقدم العلمي الذي هو أساس كل بناء»

«كنتِ في جامعة حلب؟»

«أجل. ومنذ فترة قريبة جداً جئت إلى هنا»

هزت رأسها وتركتني لتحتل مقعدها الأمامي.. ولكن قبل أن تصل انحنى لها العشرات احتراماً. الحمد لله صار رجالنا لطفاء جداً. كان سامح قربي. سامح الذي يقرأ ملامحي ويعرف بماذا أفكر. يضغط على يدي.. ينظر إليّ بحنوّ كبير.. أشعر بقهر يتجدد في داخلي.

«أنا أعرف لماذا جاءت هذه يا سامح.. جاءت تراهن على عليا القاضي. هي ابنة زعيم العقارات القديم والجديد.. يحق لها أن تراهن على ابنة الفلاح الذي طرده والدها من أرضه. وخلّصه ثروته وأبعده عن القرية كلها.

«لن تكسب الرهان يا عزيزتي. عليا. أرجوك كوني أكثر هدوءاً»

«سامح. آه منك.. ها أنا هادئة. انظر. لم تستطع نظراتنا أن تتلاقى»

في نهاية المحاضرة خرجت رنده كالمذعورة. ركضت إلى سيارتها يلفّ بها أزلامها لم تنتظر النقاش القيّم الذي دار. ضحك سامح وهي تركض خارجة من البهو الكبير. «ألم أقل لك.. خسرت الرهان.. سمعت الثناء عليك. والثناء لا يجوز لامرأة سواها.

في اليوم التالي قالت: هذه محاضرة؟! إنها صفّ كلام. لا.. والله يا ست رنده المحاضرة مذهلة.

يعني تريدون أن تعلموني من هي عليا القاضي.؟! البارحة كانت ترتدي جزمة بلاستيك. متى ذهبت إلىأوروبا وعملت الدكتوراه.؟!

«يا بنت الكلب.. ذهبت يوم كنت تغوصين في حرير أبيك الذي سرقه من عرق الفقراء»

«أبي لم يكن عنده قصرٌ للأسف. ضيّع أمواله على الراقصات. كان يذهب إلى بديعة مصابني وإلى تحية كاريوكا. يقضي شهوراً في بيروت والقاهرة. يسافر هنا وهناك»

«تشعل رنده سيجارتها وتقهقه.. كان يشعل الألوف من سيجارة الراقصة.. عاش حياته بالطول والعرض» تضع ساقاًفوق أخرى. تهزهما وتفاخر ببطولات والدها الجليل. بينما يتدحرج والدي على سلم السرايا.. هناك إلى الأمام. بعد أن اجتاز كومة من سنوات أهرقتها هنا.. المدينة رمادية.. هواء الصيف يلفحها.. كراجات القرى تغير محلها.. صارت في مجمع واحد مملوء بالقذارة والروائح الكريهة. كأن المدينة بلا بلدية.. أفٍ.. يجب أن يضع المرء يده على أنفه عندما يقترب من بعض الزوايا.. في أوروبا يغسلون الأرصفة كما نغسل الصحون بالصابون.. تجتازني البيوت. وأنا ما أزال أبحث عن بيت كنا نسكنه.. أدخل حارة

وأخرج من أخرى. تعبرني غيمة حزن. أشعر أني أتقهقر «أيتها المرأة عمّا تبحثين.؟! لا أعرف ولكن ها أنا أنتظره.. ذلك الذي لم أجده حتى الآن. إني أنتظره. هنا مشينا. ذكريات هي. مؤلمة. يزداد ثقل الزمن على صدري. أود لو أني وحيدة الآن في المدينة أنقّب عن كل خطوة كانت لي فيها.. سأجمع حتى العذابات الكثيرة وأجففها بين أوراقي لتبقى شاهدة على تعاقب الأزمنة وبقاء الألم صامداً في وجه كل تغيير.. هنا كنّا نسكن. في هذا الشارع. أمشي إلى الأمام بهدوء. بترصدٍ وترقب. أخاف أن ينبثق وجه أعرفه. مرتبكة كأني أقتحم غرفة سرّيه.. أو أفتح جراراً منع علي فتحها. ثقلٌ يثبتني في الأرض. تلوح لي نافذة منخفضة الحافة وبوابة أعرفها جيداً. هذه النافذة كانت لي.

وكان لي عليها نبتة حبق. أسقيها وأعبث بوريقاتها لترش عطرها. على أصابعي. هنا. من هذا الباب استلمت أول رسالة حب. لم أجرؤ أن أفتحها. قالت طفلة صغيرة هذه من أخي. مزقتها فوراً.. هذا هو الخوف نفسه يطاردني. أنا في الحارة أنبش طفولتي. أتفرّج عليها.. لا أريد لأحد أن يشاركني اشيائي الخاصة. في المرات السابقة جاء معي سامح وسامي.. أول مرة جئت لم أقدر أن أدخل المدينة وصلت إلى نقطة معينة ثم تراجعت. الآن أنا وحدي وعليّ اقتحام هذا المجهول مهما كان قاسياً. سعاد قالت لي مرة لم أدخل بيتنا القديم منذ غادرناه ولا أجرؤ على الدخول إليه كي لا أرى والدي ميتاً فيه. أمرّ بمحاذاته ولكن لا أدخله «ولكنّ أخاك يسكن فيه. نعم. ولم أدخل بيت أخي أبداً. لا. لن أفعل مثل سعاد. سأقتحم هذا الماضي المخيف.

«الإمام علي قال: إذا هبت أمراً فقع فيه»

سأقع اليوم على كل الأشياء التي ترعبني وتحزنني لأتحرر منها. «سامح أكد لي ذلك» عليّ الآن أن أسرع.. فأنا وحدي. أمتلك المدينة. البحر. الجيران. الحديقة. الجامع القديم. والقلعة. هنا مشينا نرفعُ العلم ونغني بالأعياد التي تحيي ذكرى التحرير. وذكرى ثورة آذار. وهنا راح شاب يلقي القصائد الثورية. لم أكن أعرف أنه علي. كنّا نسميه الشاعر. وكنا نهفو لمعرفته.. لم تتغير المدينة كثيراً. قلبي يخفق بسرعة. ـ هناك منزله. أجتازه بسرعة لاأريد أن تتفتح كل أشواك الذاكرة. أركض.. أمشي في اتجاه معاكس. فجأة تعترضني المدرسة.. المدرسة التي قضيت جزءاًمن

عمري فيها.. هنا كنت ألقي بنهر الحور وأنشر طفولتي القاسية. هنا كذبت على الآنسة ـ من كانت ثيابه غير نظيفة لا يجوز أن يصلي. مع ذلك صليت أول فتاة في درس الدين. لم أعترف بأنني سقطت في الوحل و لم أعترف بأن دخان الوجاق الذي نحرق فيه الجلّ و حطب التين جعل قميصي باهتاً. المهم كانت روحي نظيفة.شاخ سور المدرسة. المصطبة الأمامية غاصت قليلاً في الأرض. باعة العربات ما يزالون ينتشرون كما كانوا.. يبيعون السحلب وكعك «البريوش» سأشتري الكعك. تشهيت رائحة الكعك.

«ولكن هذا اليوم يوم علي..»

«سيكون لي أيضاً»

سنوات طويلة تفصلني عن كعك المدرسة. ابن الكلب البائع القصير سرق نقودي مرة. مدّ يده من كوة في الجدار. أعطيته النقود وقلت له أريد كعكة. لم يعطني. قال بأني لم أعطه. «والله العظيم أعطيتك.» ولكن لم يرد.. انسحب وراح يعطي غيري. بكيت. كنت جائعة ولم يكن معي نقودٌ غيرها.. قلت لصديقتي معك «ربع ليرة»

«لا والله. ما معي»

أكلت كعكتها أمامي والدمعة في عيني ولم تطعمني. في قريتنا لا يأكل أحد أمام الآخر دون أن يطعمه مهما كان صغيراً أو كبيراً.. أفكر بشراء سخّاب من الكعك والسمّاق. وسأشتري غزل البنات. سآخذ لعلي من هذه الأشياء التي أحبها. انتقاماً لشهواتي القديمة. سأنتقم لطفولتي. وسأشتري السحلب.. سأدخل المدرسة أوزع الكعك وسأبحث عن مقعديَ الذي حفرت عليه اسمي. لا أعرف لماذا أريد أن أبكي. لا يحق لي استرجاع أشياء هربت.. أشياء سرقت مني. «هكذا عند العرب نحبُ الحزن. وإذا لم نجد ما يحزننا نختلق قصصاً تبكينا»

لا.. ليس الأمر كذلك يا سعاد. أنت تبالغين في تحليل الحزن العربي هذا الحزن قضيةأخرى. إنه حزن وجداني. إنه موقف. أشعر بشوق إلى سعاد. أسمع جرس المدرسة يرنّ. أنا هناك أقف في الصف. تنادي المعلمة. تعالي يا عليا. أعقد شريطتي جيداً وأصعد المنصّة. تصعد سعاد وسميرة وأخريات. أهتف أمة عربية واحدة..

يرددن الشعار ثلاث مرات. نكمل باقي الشعار ثم نغني نشيد العلم «حماة الديار» مشتاقة إلى ذلك العلم الذي كان يرتفع شامخاً تشمخ الروح وتعلو النفس وتكبر الطموحات. يتوالى دخول التلميذات إلى صفوفهن نخرج نحن إلى درس الرياضة ونبدأ تدريب كرة السلة. وعندما يهطل المطر في الحصص الأخيرة تسأل المعلمة «من منكن بيتها في القرية» نتردد في رفع أصابعنا. «أنا يا آنسة» تصرفنا الآنسة. لأن التنين يصعد من البحر في الأيام العاصفة. السماء يضيئها برق يخطف البصر. يتوزع الضوء الخاطف في شوارع المدينة المقفرة. مطر قادم يسرع في ركضه. أبتعد عن القطيع. وحدي عليّ أن أجتاز الطريق إلى قريتي. وحدي عليّ أن أمشي ساعات لأصل إلى قرية مشلوحة قرب نهر الحور. أحياناً نستأجر بيتاً في المدينة. وأحياناً أخرى لا أطيق البقاء بعيداً عن أمي. «ستتعذبين يا ابنتي. لا سيارات. ولا صديقات. نامي في بيت خالتك»

ـ لا.لا أريد. لا أرتاح إلا في بيتنا. البرق يفزعني. والرعد يقصف خطواتي. أرتجف تحت المطر. من بعيد ألمح نقطة سوداء. الشمس غاصت في البحر لكن شعرها الأرجواني ما زال طافياً فوق الماء. النقطة السوداء تقترب.. أسمع نداءً بعيداً

«علياء»

إنه صوت أبي.

«أنا قادمة. يا أبي»

أشعر أن العالم انفتح حدائق وورود ونور.إنه صوت أبي. لم أعد أهتم للمطر والرعد. إنه أبي العجوز. يتكور في معطفه الأسود على حافة الطريق ويمسك في يده حبل «الحمارة» الرمادية إنها سيارته الخاصة.

«اركبي ورائي يا ابنتي»

ألتصق بظهر أبي كعصفور يرتعش من البرد. الطريق الموحل يوصلنا إلى حافة النهر. تقف الحمارة. تنظر إلى الماء بخوف. يلكزها أبي لكنها ترفض الخوض في الماء. يضربها بالعصا.. تظل الحمارة على عنادها.. إنها خائفة من هذا الماء العكر الهائل، المتدحرج من صخور عالية.. والقادم من جبال بعيدة. «الحمارة= الأتان» تتأمل الماء وتطلق نهيقاً حزيناً. الماء المحمرّ ينطلق بعجرفة ماراً بقرى كثيرة من الجبل

حتى البحر يوزّع طميه على الأطراف. يأكل من حافة ويضيف إلى حافة أخرى.. خائفة يا أبي «لا تخافي. أنت بطلة» ينادي أخوتي. الجيران. الظلام ينهمر. والنهر شريط مائي يظهر تحت البرق الذي يخطف الصوت وصداه. ينهمر المطر. أمسك بأبي جيداً. ينقشع القمر أحياناً بين غيمة وغيمة. رائحة الخبز المشوي على الصاج تملأ أنفي. «أمسكي بي يا عليا» يقول أبي وهو يلكز الحمارة بقوة لدرجة أنّ دماً سال من رقبتها. صوت رعد يتقصف وقناديل القرية الصغيرة الملقاة على تخوم قرية الحور تظهر ضعيفة نحيلة من نوافذ صغيرة. تدخل الحمارة في الماء. يدخل النهر في البحر.. تمتزج المياه الحلوة بالمياه المالحة. تتصل السماء بالأرض وعجوز ما يزال يعبر طوفاناً هو وابنته. «جائعة يا أبي»

النهر يجتاز أبواباً وأشجاراً وقطعاناً. قدمي تغوص في الماء. ماء النهر يرتفع.. «ارفعي ساقيك يا ابنتي حتى لا يذهب حذاؤك بماء النهر».. يحاول أبي أن يخرجني من دوائر الخوف.. يسألني بصوته الحنون: ماذا فعلتم اليوم في المدرسة؟! رياضة. حساب. غنيت النشيد الوطني ورددنا الشعار. «يحيا الشعار» يقول أبي: هذا الشعار أعادني إلى القرية بعد غياب.. هذا الشعار طوق الظالم. خنقه. لم أكن أفهم على أبي شيئاً لكني أتذكر الظالم الذي كان يتاخم بيتنا. لم أكن أعرف اسمه. كانوا يسمونه الظالم... وأتذكر خروجنا من بيتنا قسراً.. الخروج من البيت يساوي الخروج من الوطن. سكنا في المدينة ثم عدنا إلى الريف. أمي تحب الريف. وأبي لا يعرف أن يعيش إلا في الأرض. الحمارة تمشي ببطء. الحصى يتدحرج. تميل الحمارة. أكاد أقع. وقفت الحمارة وحرنت في منتصف النهر. أخذت أبكي. أمي تتفقد غياب أبي. نادت أخي من بيت الجيران.

«أبوك لم يعد حتى الآن يا هاشم»

«أين أبي»

«ذهب يجلب أختك الصغيرة»

«لماذا لم يقل لي؟ يظن نفسه بأنه شابّ»

في منتصف النهر كنا أنا وأبي والحمارة غائصة في الماء. دوامات المياه المحملة بالقش والأغصان المكسورة تحيط بنا. أنا أبكي بصمت وأبي العجوز يشجعني. أبي

لا يقوى على معاركة النهر والماء بارد في كانون. ينادي أخي نقطتين سوداوين في الماء.. يرد أبي بصوت داخَلَهُ الأمل فجأة. يتمتم «يا ويله الذي ما له أولاد» يخلع أخي حذاءه وثيابه الخارجية وينزل إلى قاع النهر. يسبح باتجاهنا لكن تيارات الماء تحمله بعيداً. يحاول أن يقف. يغمره الماء إلى صدره. الحمارة تنهق.. إنها تستجدي. لم تعد قادرة على الصمود. تميل مع تيار الماء. تقذف بنا إلى الماء البارد. أصرخ. يجرفني النهر. «لا تخافي يا عليا» أبي قريب مني يتكوم بمعطفه الأسود. يركض أخي إليّ يحضنني ويمسك بالحمارة. يضعني على ظهرها ويجرها باتجاه أبي.إمسك بي يا أبي. امسك بي الماء غدار.. النهر يهدر. جذع شجرة كبيرة يصطدم بنا. يتعلق به أبي إلى أن نصل إليه. يمسك أخي بأبي ثم يقذفه على ظهره. كطفل يعربش أبي العجوز على ظهر أخي هاشم. وأنا أعربش على ظهر حمارة ضعيفة يجرها أخي عبر الماء. مرة تعترضه صخرة ومرة حفرة. مرة يغوص إلى رقبته ومرة يرتفع فوق الماء. أخيراً يشلحنا الماء نحن الأربعة على الضفة.. البرد يحزّ كالسكين في أجسادنا. النار يا أمي. أرجوك النار. أشعلوا النار للحمارة وضعوا لها الكثير من العلف.. عندما أخذت النار تشع بالدفء نظر أخي إليّ وقال.. يا شقية.. كل يوم لنا قصة في عودتك من المدرسة. عندما تصيرين معلمة ستشترين لي بدلة جوخ ولأمي منديل حرير.

سأصير يا أخي «والله كان النهر سيأخذنا يا أمي»

للأسف. لم أشترِ لأخي بدلة جوخ. ولا منديل حرير لأمي لأن موضة الحرير بطلت ولأن منديل الحرير صار غالي الثمن جداً. يعادل راتب مدرس عربي. بعض النساء يرتدينه كرنده، وسحر.. وذلك نوع من الفلوكلور وتعبيراً عن الأصالة والجاه.

«يبدو أن الحاضر عندما يعجز عن السير إلى الأمام باتجاه المستقبل، يرتدّ إلى الوراء ليصير الماضي هو المستقبل»

- اتركني من هذا الحوار يا علي.. لكل شيء تبريره عندك.. دع الأمور تسير عفوية. يبدو أن علياً على حق.. أنا ما أزال أسير عبر طبقات أزمنة قبضت عليها قابعة في ذاكرتي. يجتازني رجل يذكرني بأبي. كل الرجال الذين يرتدون القنباز والعقال يذكرونني بأبي. أحياناً يخطر لي أن أناديهم كما ناديت والدي خضر.

عندما اشتريت لأبي قنبازاً هدية تخرجي.. وضعته عند أبي عبدو. «أرجوك يا عم عبدو اعتن بالقنباز إنه هدية مني لأبي»

«حاضر يا ابنتي. انشاء الله يراك أستاذة كبيرة في الجامعة»

لكن أبي لم يلبس القنباز.

ابو عبده قال: أريد والدك كي يقيس طول القنباز ثم يأخذه معه. أبي لم يأخذ القنباز. قلت لكم. كان أبي نعسان. قلت له: أبو عبده يريدك أن تمرّ عليه. لكن أبي لم يرد. كان يريد أن ينام. اقتربت منه.. أبي. أتسمعني؟ قال وهو يغمض عينيه نعم. ثم عاد إلى النوم. ظل نائماً.. اجتمعنا حوله أنا وأخوتي. ناديناه ولم يرد. لم تجرؤ أمي على الاقتراب.. شغلت نفسها بأقراص السلق التي تعجنها. لا تريد أن تصدق بأن أبي سينام طويلاً. صرخنا بصوتٍ عالٍ. أبي.. لقد مات أبي. لقد غافلنا ملك الموت وأخذ روح أبي. بكت أمي وناحت وقالت: هل آن الأوان لنفترق يا أبو هاشم؟! ناحت طيلة الليل وغنت له أغاني الحزن. اجتمعت القرية كلها.. أبي مسجىً في المنزل الكبير المفروشة أرضه بالطين الأبيض وفوق هذا الطين - لبّاد - صوف ملون.. الكل في حركة وضجة وبكاء. وأبي نائم هادىء. كان يكره الضجة. هذه المرة لم يصرخ في وجه أحد. قرأنا القرآن حتى الصباح.. ودّع القرية في الثاني من نيسان وغادرها إلى قبره الذي يجاور قبر عمي.

«هذا المنزل يطوقني بفراغ قاتل. لم أعد قادرة على فرش أحلامي به بعد أن مات أبي فيه.. أمي أقسمت بأنها لن تتركه.. نزلت أنا إلى المدينة لمتابعة الدبلوم. ومن ثم رحلت إلى أوروبا من أجل الدكتوراه..

ها هي المدينة «جابالا» ترتد إلى الوراء لتلاقيني. تغافلني دمعة لا أشعر بها. عندما يصل سامح إلى بيت علي لن يراني.. ربما انشغل. قال لي: انتظريني حتى أنهي العيادة ونذهب معاً.

لا.. لن أنتظر. غافلته وجئت وحدي. أريد أن أبعثر نفسي في مدينة الطفولة. هناك أشياء ما زلت أخفيها عن عيون ذاكرتي.. حبي الجميل الذي قتل في هذه المدينة.

هذه المدينة نقطة تلاقي بيني وبين علي.. كل منا تتعرج طريقه في غابات مليئة

بالذئاب والورد وفي مدنٍ طليقة ثم انتهينا إلى هنا لنبدأ من جديد.. كنت أتمنى ألا أعود إلى هذه المدينة على الرغم من حبي الشديد لها لأنها تعيدني مرة أخرى إلى ماضٍ أريده أن يمشي إلى الأمام كي أنساه.

جيران أنا وعلي.. في القرى والنهر والمدينة والذئاب والصفصاف والنعنع البري.

«السؤال الذي يراودني يا سامح.. لماذا علي بالذات الذي أحمل ذاكرته وليس ابن الجيران الذي أرسل إليّ أول رسالة حب؟! لو مرّ هذا الجار فلن أعرفه. الوجوه غير الأمكنة. الأمكنة لها ذاكرة والوجوه لها أقنعة.. أتخيل وجه خالد وأصمت. لا يمكن أن أنسى باحة المدرسة مثلاً.. ولا أول مقعد ولا أول معلمة. بائع الكعك ينادي على الكعك «التازه» البائع بعيداًيقف وهو يدير ظهره للمكان الذي أقف فيه. أخرجت قطعة نقدية واتجهت إلى بائع الكعك. سأشتري لعلي. ولسامح. سأقول له: هذه هديتك يا علي.. «كعكة» الأولاد يلعبون ويتجمعون حول البائعين. اقتربت من عربة الكعك. بائع الكعك مطرق الرأس ينظر إلى الكعك وأنا من ورائه جئت وسألت بكم الكعك؟! رفع الرجل وجهه نحوي. صعقتني ملامح البائع كان الفراغ الزمني بين أول مرة رأيت البائع وهذه المرة لم يتجاوز الدقائق.. إنه هو.. مددت يدي وقلت «أنت. أنت» وقف الرجل مندهشاً لا يعرف ماذا أقول. انتبهت إلى الضجة التي اثرتها كغبار مفاجىء. تأملته عن بعد. هو. وجهه الأسود الكالح. ثيابه القذرة. صوته القذر: عندما قال الكعكة بخمس ليرات. ابتعدت أكثر. بدت لي المدينة ضيقة والشوارع قذرة.. والأطفال الأبرياء ينسكب على رؤوسهم الكاز.. إنه «أبو بعقة» هكذا كنّا نسميه. لم أقدر أن أتقدم ولم أقدر أن أتراجع. صُلبت لحظات كان يمكن أن تهرب من امرأة غيري. صوت أبو بعقة يملأ ذاكرتي بالبوم والنسور المقتولة. «أتريدين الكعك؟!! أعاد عليّ السؤال أكثر من مرة. وفي كل مرة أبتعد أكثر. وقف تلاميذ صغار ينظرون إلي.. همسوا «هذه آنسة جديدة» كالبرد الذي يفاجىء مسافراً فاجأني الخوف. صوتها يأتي إليّ مبعوجاً.. صوتها.. هو.. صوت يملأ باحة ذاكرتي. صوت يقطع أوصاله رجل مقطوع اليدين.. الكعكة بين يدين كعصاتين محروقتين. الكعكة هي تلك الفتاة الخرساء التي تتشظى ولا تصرخ. يداه السوداوان المدهونتان بالأوساخ جلدهما مزموم مثل فوهة كيس مربوط.. السماء حزينة. الأولاد يشترون ويدخلون باحة المدرسة. الهواء يسوق الغيم الربيعي القادم من صوب البحر ـ لن

نلعب رياضة يا سعاد الآنسة هند معلمة الرياضة تأكل الترمس في غرفة الإدارة. يمتد الصوت.. يملأ الفراغ الذي يسده بناء قديم متهدّم، مهجور. بناء له دهاليز وأبواب منهارة. بعض غرفه كانت صالحة ولكن منذ فترة لم تستخدمه المدرسة.

«سعاد اسمع صوتاً»

«أنا أخاف يا عليا»

«ولماذا..؟!»

«الصوت غير مفهوم»

«هذا البناء المهجور يخبيء ساحرات وجنّيات. أتذكرين قصة «الساحرة الجميلة» تعالي يا سعاد. ربما هي في هذا المبنى»

«لا. لا. أخاف.»

الفتيات زميلاتنا يلعبن تحت أشجار السرو الكبيرة. يربطن الحبال ويصنعن «زنزوقة» كي يتمرجحن. الآنسة ما تزال تأكل الترمس وتحدث المديرة عن شاب يريد خطبتها. وربما كانت تحدثها عن ثوب جميل اشترته. وربما.. والصوت يئن.. يضيع في الفراغات المهجورة. وأحياناًيعلو.. أو يموت الصوت. سعاد ترفض أن تمشي معي. أمشي باتجاه البناء المهجور. أقترب من الصوت. صوت يستجدي بلا حروف. إنها هي. الساحرة. أقف بدهليز أحجاره متساقطة. أنظر إلى الأعلى أرى بومة سوداء متكورة في السقف. أتراجع. أصطدم بالجدار وأسقط على الأرض. الأنين يخفت. صوت بكاء. وحشرجة... «أبو بعقة يسألني: كم كعكة تريدين؟!» أستنفر كل طاقاتي وأصرخ «سعاد» يرتفع صوت الحشرجة يملأ البناء المهجور. «إنها الخرساء يا سعاد. الفتاة التي تبيع غزل البنات. إنها الخرساء. يأكلها الوحش. أحبو في الدهليز. أريد أن أخرج.. لا أقدر علىالنهوض أصرخ «سعاد». ولكن سعاد ابتعدت خائفة. والمعلمات منهمكات بشرح الدروس. أترك الرجل وأمشي إلى الأمام.. أستحضر.. اللوح. النوافذ. أشجار السرو الشامخة.. - البائع يتعارك مع طفل صغير - في ايامنا لم تكن المدارس مختلطة. هناك فتاة صغيرة تركض باتجاه الماء «لماذا تأخرت يا عليا؟!» كنت أشرب يا آنسة. هذا ملعب كرة السلة. وهناك سقطت تلك الفتاة وسال دمها. هنا طردوها من احتفال الثامن من آذار لأنها لم ترتدِ حذاءً جديداً. يا آنسة لا نقبل

أن ترقص معنا عليا.. بكيت.. قلت لأبي.. بنات الزعيم السابق منعنني من الاشتراك باحتفالات آذار.. قال أبي: قولي لها الثورة للفلاحين.. لا للذين يرتدون الثياب المستوردة الفاخرة. قولي لهم أنا ابنة الثورة وأريد أن أغني لها.. لا يقبلون يا أبي لا يقبلون. لقد احتفلوا بها وحدهم.. رنده وأخواتها وقريباتها.

مع ذلك ركضت وراء الآنسة وهي تسير في الغرفة إلى دار السينما لتقدّم عدة فقرات على مسرح السينما الوحيدة.. يا آنسة أنا تدربت.؟!

- «معليش يا عليا». في الحفل القادم في نيسان الجلاء. دخلت الآنسة والفتيات الراقيات: قال خالي: إنهن بنات الحرامية.. عدت أجرجر خيبتي. التي تحولت إلى حقد على الآنسة فقط. لكن فرحة الآنسة لم تكتمل. كان لا بد أن يحدث ذلك حتى لا أشعر بالندم على حفلة من حفلات الطفولة.

كأن السينما أمامي الآن بزحمتها وموسيقاها.

كأني أنا الآن هناك على الباب الحديدي المغلق أرجع عنه إلى الوراء... كانت الفرقة تدبك على مسرح السينما. الصالة غاصة بالشباب المراهقين والمراهقات طلاب إعدادي وثانوي.. ممنوع دخول طالبات الإبتدائي إلا اللواتي اشتركن بفقرة راقصة أو غنائية.

«اذهبي يا شاطرة. ممنوع دخول الابتدائي»

أنا لا أشارك ولذلك عليّ العودة.. رندة. وسامية. وريم. وميس على المسرح الآن. أما عليا وجميلة وتمنوم ممنوع مشاركتهن. في الصالة أيضاً مدرسون وغير مدرسين ممن يعملون في حرف صناعية أو تجارية أقرباء الطلاب. بدأت فقرات الغناء.. الميكروفونات توزع الأصوات إلى الساحة التي تتسع أمام السينما. لكن الصوت يغيب وتعمّ العتمة.. إنه التيار الكهربائي.. التيار انقطع..

فوضى.. صراخ. بكاء. عويل.. ضجة.. تكسير كراسي.. تكسير أسنان. رجال ينهشون فتيات صغيرات. رجال بأصابع متوحشة تفترس مراهقات. مشارط تلعب بالأحشاء. فتيات يختبئن تحت الكراسي. فتاة في حضن أخٍ يحميها وهو ينزف. صراخ يدوّي وأنين وراء الكواليس. والأبواب ما تزال موصدة. معلمة تستغيث بنخوة رجلٍ كي لا يعريها. شبّان كثيرون لا حول لهم ولا قوة. منذ لحظات كانت فتاة

تغني وتملأ الصالة بالفرح. ها هم الآن يعرّونها ويفقدونها أعز ما تملك بأصابع مفترسة.

ياه...

أحزان من صوب الطفولة تأتي. ينفتح الباب.. هذه تبحث عن ثيابها. وتلك عن حذائها. وثالثة تخرج على النقالة. و.. غامت الشمس باكراً وهبط الظلام على المدينة لمدة طويلة. عمّ صمت. صمت. عليكن أيتها الفتيات أن تصمتن إلى الأبد. لا داعي لذكر الأسماء ولا للبحث عن الجاني لا داعي لكل هذه الأشياء. سمعتكن تتطلب ذلك.

السمعة؟!.

وتنطلق الفتيات إلى المستقبل بسمعة طيبة ولكن كل واحدة تخفي جرحاً لا يندمل. من يجرؤ على الكلام.؟! من يقدر على إزاحة هذا القناع الضخم «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

«أتريدين الكعك يا سيدة»

على المراة أن تخفي حالات قهرها. واغتصابها. وذلها.. السمعة أولاً. أليس كذلك. ولكن هو الذي مزّق ثياب طفلة وافترسها. بائع الكعك هو الذي افترس الخرساء صرخت بأعلى صوتي «سعاد..؟!. لم يسمعني أحد. كان صوتي لا يتجاوز الدهليز الذي سقطت فيه والذي بدأت حجارته وسقفه وكل جدرانه تضغط على صدري عندما رأيت وحشاً أسود الشعر.. ضخم الجثة يجثو فوق فتاة خرساء تبيعنا غزل البنات. كانت تغرز أظافرها في جسده ووجهه. وتهمهم وتصرخ بطريقة تجعل الروح تنبجس من الجسد.

«سعاد..»

الصوت العميق. المجروح. الغامض. والوحش الذي يعيش في الظلمة الرطبة ينقض على فراخ الحمام الآمنة.

«لا.. هو يخنق الفتاة» يخنق خيرية، ولكن لماذا خيرية عارية.؟! ولماذا هو بلا ثياب. «وهل الوحوش ترتدي ثياباً؟! أحياناً. أحياناً يا علي «كان له يد واحدة. والأخرى مقطوعة. كان يضغط باليد المقطوعة على عنق الفتاة أما يده الأخرى

فكانت لها دورها. كان يتكوم كزبالة عفنة والفتاة تنتفض كطائر مذبوح أصيب برصاصة. خيرية لم تكن تتجاوز الرابعة عشرة. ربما كانت أكبر بقليل أو أصغر بقليل لا أدري. كانت صغيرة الحجم. «تفوه عليك.. يا كلب يا حقير» لم أقل غير هذه الكلمة. رفعت حجراً وضربته بها.. اصبته.. ولم يشعر بي. حملتُ أخرى وضربته على رأسه.. عوى كذئب. هربت وأنا أشير بيدي. ولكن لم يخرج صوتي. جئت إلى الآنسة.. أشرت لها وأنا أرتعش.. لم تفهم شيئاً.. أمسكت بيد الآنسة وأخذتها إلى البناء المهجور. تجمهرت الفتيات.. وعندما وصلت الآنسة كان الأوان قد فات. لم تفهم المعلمة شيئاً. الفتاة الخرساء لم تستطع أن تقول شيئاً. ضاع السرّ فترة طويلة. بعد ذلك لم يعد له قيمة. عاد الوحش يبيعنا الكعك ومكان إصابته بالحجر واضحاً.. لم يعرف من أين جاءته هذه الحجر الصغيرة وأنا لم أقدر أن أقول شيئاً.. كنت قد فقدت صوتي وتحولت إلى فتاة خرساء.

المعلمات في ساعة الرياضة.. أو في ساعات الفراغ يجتمعن.. يثرثرن ويطلبن من التلميذات أبريق ماء وشاي.. كنا نقترب منهن وكنت أسمعهن.

«خيرية حامل.؟!

«تصوروا الكلبة. الحقيرة!

«أهلها القذرون يتركونها تبيع وهي ليست أهل للثقة»

غابت الخرساء. لم أعد أراها. الوحش «أبو بقعة» يبيع الكعك. كل صباح أراه فأضطرب وأرتجف.. تمسك سعاد بي وتدخلني إلى الصف.

«ما الذي أصاب عليا؟! لماذا صارت خرساء.؟!

أخذتني أمي إلى المزارات. ذوبت لي البخور في الماء. رشت على رأسي تراب الأولياء ونذرت بعض المال للفقراء. ولكن لا فائدة.

ضاق منزلنا. أمي تبكي كلما نظرت إليّ. أبي العجوز تكوم فوق صخرة عند «جدار الحاكورة» يرقبني وأنا أحل وظائفي وأكتب مواضيع التعبير، تغرورق عيناه وهو يضمني إلى صدره بحنان.

مرت شهور. بعد ذلك شاع خبر في المدينة. البحر لفظ جنيناً إلى الشطّ.. مات الجنين.. أمه مجهولة.

بعد ذلك قيل.. أبو بقعة.. قطعت يده الأخرى وهو يضرب الديناميت ليصطاد السمك.. غاب هو الآخر عن بيع الكعك في المدرسة. معلمتي تربت على كتفي وتنظر إليّ بحزن. لأحد كان يعرف ما الذي بي.. ولا الذي رأيته. وحش. أجل وحش حقيقي. بقيت زمناً طويلاً وأنا موقنة أن أبو بقعة خنق الفتاة لذلك كنت أهذي في الليل وأخاف العتمة والدهاليز. وكنت أظن أن أبو بقعة هذا لم يفعل شيئاً إلا أنه يتحول إلى وحش في أوقات معينة ويخنق الفتيات.

انتهت المدرسة. نجحت. رحت أشارك أمي بقطاف التين صيفاً. وأساعدها في سطحه في المساطح. وعندما تشاجر أخي مع ابن الجيران. قال الأخير: «يا عيب أختو خرسا»

انقض عليه وضربه فنزل الدم من أنفه. حزنت أمي. وكنت أسمعها تغني غناءً حزيناً وهي عائدة من سطح التين. أخوتي كانوا يلتفون حولي والصمت يغمرهم. يدللونني. يقطفون لي عناقيد العنب. ويأخذونني معهم اينما يذهبون. كنت أرسمهم وأكتب لهم الأوراق الصغيرة. أوزعها عليهم. كل ورقة تحمل اسم واحد منهم. وكل ورقة أكتب في ذيلها «أحبك يا أخي أو يا أختي». كنت أدرك تماماً أني أسبب لهم الحزن.

أخي الكبير يقرأ الورقة يغالب دمعة. في كل يوم يسالونني ما بك. أكتب لهم رأيت وحشاً يخنق خرساء المدرسة.

«بلى. ماتت»

أمي لاحظت أني أخاف نوعاًمعيناً من الرجال. أشير بأنه ذئب. من يومها ضيعت الإنسان ووجدت الذئب.

قبل افتتاح المدرسة سمعت أمي تقول لشيخ أحضرته خصيصاً لرؤيتي.

يا شيخ.. لدي فتاة صغيرة. يبدو أنها فزعت في المدرسة. في الطريق. لا أعرف كيف.. مرضت ونحل جسدها.. بكت أمي وهي تقص على الشيخ حكايتي.

بعد ذلك فقدت صوتها.

- يا أم هاشم. لا تقنطي من رحمة الله. إغلي لها ورق الريحان.. اغسليها بمائه لمدة عشرة أيام.. وليقرأ أخوها القرآن على مسامعها كل يوم. ثم احفري حفرة

واسكبي ماء الريحان به. بعد ذلك ستشفى الفتاة بإذن الله إن لم تكن تشكو من شيء آخر. هذا إذا كانت روحها طاهرة. أما إذا كانت روح الفتاة خبيثة فإنها...

«ماذا تقول يا شيخ. أي روح هذه طفلة».

«لم أقل شيئاً يا أم هاشم. جربي ما أقول»

اخذت أمي كل يوم تنفذ وصايا الشيخ. شعرت أن ماء الريحان احتشد كله في دمي حتى كدت أصير ريحانة.

في أحد الصباحات أفقت باكراً.. قلت لأمي صباح الخير.. صرخت أمي بأعلى صوتها.. أبو هاشم... هاشم.. ثم أغمي على أمي. امتلأ بيتنا بالجيران. حملني أخي على ظهره وراح يركض.

«أخ.. الحمد لله. قال أبي»

«بدأت الأسئلة تنهمر علي.. ما الذي حدث. ماذا جرى.؟!

«لم أعد اذكر شيئاً. نسيت كل شيء. عدت إلى المدرسة. عدت نشيطة. استقبلوني بالغناء. سعاد همست: «اشتقت إليك» المعلمة قالت: عليا عرّيفة الصف. وعندما أردت تفقد البناء المهجور لم أره. كانت جرافات كبيرة قد نقلته خوفاً من انهياره على التلاميذ.

....

عليا ما تزال تجمع نتف الذاكرة. المكان يبث في خلاياها السنوات القديمة.. الدهشة أيقظت أحاسيسها.. ها هي تتوغل في الماضي وتتقدم باتجاه منصة المدرسة.. المنصة غاصت قليلاً. لم تعد مرتفعة كالسابق لتطل على السرايا القديمة.. صوت النشيد يملأ أذنيها.

رآها آذن المدرسة.

«ماذا تريدين يا آنسة؟»

....

أتعرف ماذا أريد يا علي.

أريد الإنسان الذي ضيعته هناك في ذاك البناء المهجور وأنا في الصف الرابع. بل

الإنسان الذي مات في تلك اللحظة. الإنسان الذي كان في قريتي يقتل الذئب ليعيش الحمل الصغير.

ـ ولكن هذا الحمل أخيراً يذبحونه ويعيدون عليه..

ـ.. آ.. أجل.

ـ إذن الحياة هكذا؟!! حمَل وذِئب؟! يا إلهي. وأكداس النظريات؟

ـ النظرية شيء والتطبيق شيء آخر! القول شيء والممارسة شيء آخر.

ـ هذا الفراغ.. أو هذا الوادي السحيق بين المقولة والممارسة هو سبب انعدام التوازن.. سبب هذه الحرب المضرمه في أعماقنا.. ألهذا أبحث عن الماضي كي أحكم على الحاضر؟!

أو ربما نحن لم نفقد الأمل بعد. نريد البحث عن شواهد تؤكد وجود الإنسان.

«ربما»

ـ أحياناً أجد الإنسان مظلوماً.. أقصد الإنسان الذي تحول ولبس ثياب الوحش. قد يضطر لذلك كي لا يكون الضحية.

عندما تسرق إنسانية الإنسان.. يلجأ إلى أنسنة المال والسلطة والحرامية والجشع.. يفعل ذلك ظاهرياً. ولكن في العمق يكون العكس.. إنه يتحول إلى وحش ويقول.. هل من مزيد؟!

هل من مزيد. مال.. أزلام. حراس. نساء. وغابة لترتع ضباعه فيها.

....

ـ يا أختي ماذا تريدين..؟

ـ حضرتك الآذن في المدرسة؟!

ـ نعم. ماذا تريدين.؟!

ـ أريد فتاة صغيرة.. أسأل عن طفلة في المدرسة..

ـ ما اسمها؟!

ـ عليا القاضي.

- في أي صف؟!

في الصف الرابع الشعبة الأولى.

يركض الآذن إلى الشعبة الأولى وأنا أركض في فجوات الهواء.. أدخل دائرة الضوء.

أختصر أزمنة. يعود الآذن.. هي غير موجودة. ربما كانت في الدوام الثاني.

هل أسأل المديرة؟!

لا. لا. شكراً.

«ما هي صفاتها؟! ربما أعرفها. فأنا أبيع في الدوام الثاني «أي بعد الظهر»

....

ماذا أقول له صفاتها.؟

أ أقول بانها ابنة موظف؟! لن يرد عليّ بالتأكيد. لو قلت له: هي ابنة فلاح.. أيضاً لن يرد. ربما يرد إذا قلت له إنها ابنة جنرال. ابنة مدير قطاع عام.. ابنة متعهد أبنية الدولة. مدارس وطرقات وجسور.؟! أم أقول هي ابنة مزارع كبير اشترى كل بساتين القرية بالترهيب والترغيب.

«هي خرساء.. لا تتكلم؟!

«خرساء.. وفي المدرسة هنا؟!!

«أجل.. نحيلة. كانت نحيلة. ركضت باتجاه المبنى القديم. فرأت به وحشاً يأكل اللحم البشري. الوحش هرب. واللحم البشري حكموا عليه بالنجاسة. الوحش الذي أكل خيرية ما يزال هنا.. ألم تره.؟!»

«أنت متأكدة أن الفتاة في هذه المدرسة؟!

«الحقيقة أنا غير متأكدة.»

تركني الآذن ومضى.. جدران المدرسة عتيقة. دهانها أجرد.. باهت.. الأشجار الكبيرة بدت هرمة وأغصانها مكسورة. والسور الذي كان يحيط بباحة كبيرة تقدم إلى الداخل.. ضاقت الباحة وامتلأت بالقاذورات. بينما ارتفعت في المكان الذي أكلته المدينة دكاكين الخضار والدخّان المهرّب. والأدوات الكهربائية.

عاد الآذن وإلى جانبه معلمة.. أشارَ إليّ. وقفت المعلمة تنظر إلى امرأة ترتدي ثوباً أبيض اللون.. هذه المرأة هي أنا التي جاءت إلى زيارة علي من أجل الاحتفال بعيد ميلاده. أردت أن أقول لها مرحباً. لم أقدر.. عدت خرساء. تقاربت أسوار الباحة. خنقتني. والسماء المكتظة بالغيوم المسافرة افترّت عن غيمة هطلت على رأسي. لا بد أن أقتل الوحش القابع على الباب. عند ذلك أستعيدُ صوتي.. لماذا عليَّ الهروب دائماً.. هذه الحالة بدأت تستشري.. أحياناً لا بد من المواجهة. سأقتله. دخل الطلاب إلى الصفوف.. أبو بقعة أمام المدرسة يبيع الكعك. يدي ترتجف. جربت الصراخ فلم أستطع.. كان البائع يجلس على كرسي صغير.. حملت غصن سرو مكسور.. وبكل هدوء.. بكل الخرس القديم والجديد هويت بالعصا على رأس الرجل.. سقط الوحش.. الوحش ينزف دماًمن رأسه. لم يصرخ. ولم يقُل شيئاً. لقد هوى ككرسي مخلوع «أيها الوغد» هؤلاء الأوغاد أعداء الإنسانية. لأنهم.. يخربونها. لقد سمعت صوتي. «وليه.. ماذا فعلت؟»

«لم أفعل شيئاً يا سيدي. صدقني»

«لماذ ضربت الحاج.؟!»

«أنا ضربت الحاج.؟! أبداًأنا ضربت وحشاً كان يبدو أليفاً. انتهز فرصة وجود الخرساء وحيدة.. دخلت الفتاة إلى الدهليز المهجور.. ربما كانت تبحث عن بيت خلاء.. دخل وراءها.. أكلها.. لا.. لا. لم يأكلها.. لقد قتلها.. كانت حديقة صغيرة تنمو وسط التلاميذ.. تنظر إلى المدينة على أنها مدينتها والتلاميذ أصدقاءَها.. وكانت تأخذ كتبنا وتنظر فيها.. ثم أخيراً جاء الوحش دعس ورودها. وقطع أعشابها.. ومزق التلاميذ في عينيها. هدم المدينة أمامها. ولم يكتف. لقد اغتصب المدينة.

«أنت ضربت الحاج أبو بقعه.. الرجل المعطوب الذي لا يد له.. إنه عاجز»

«لا يمكن يا سيدي.. أبداً. هو ليس عاجزاً.. كيف إذن استطاع أن يمسك سكيناًبيده.. يغرزها في اللحم البشري.. يأكل باليد الأخرى ويغرف الدم؟! لم تكن خيرية تؤذي أحداً.. كل ذنبها كان فقط لأن جسدها يمتد من تاء التأنيث إلى نون النسوة»

«وماذا تقولين يا امرأة.. من أنتِ؟!!

أنا؟!!

أنا التي جئت من صوب البحر.. لم يصدقني أحد. قلت لهم خرجت من الموج.. كنت أعيش على ملح البحار.. لقد سحرتني الآلهة إلى سمكة، تصور..؟! زوجة الإله ادعت أني عفريت زوجها.؟! كيف تغوي امرأة أرضية آلهة السماء..؟! أنا يا سيدي لا ذنب لي «هيرا» هي السبب.

«من يقترب سأقتله. أو أمسخه إلى كلب»

جابالا.. أيتها المدينة البحرية المستنفرة. جابالا تصوغ حكاية جديدة ـ امرأة من صوب البحر تسحر الرجال وتحولهم بعد ذلك إلى ذئاب. ثم تقتلهم»

«جابالا.. يا المدينة المسحورة.. رددي.. «أمة عربية واحدة..... ذات. حصون.. وآلهة.. وساحرات. ووحوش.. و..

«رددوا»

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«يا أم عارف.. ألم أقل لك أيقظيني باكراً..

«أيقظتك يا ابنتي لم تردي.. كنت تبكين. وتهذين. أمسكت بيدك.. ناديتك.. قلت كلاماً غريباً. ثم قلتِ: لقد قتلت الوحش..

«أنت منذ فترة يا ابنتي تهذين وتصرخين في المنام.

«أعدّي لي القهوة يا خالة.. سأذهب إلى جابالا.»

....

أم عارف. شاهدة يا علي.. على أني نويت أن أزورك وأن أسهر معك.. كنت مكتظة بوجهك.. بشعرك. حضورك كان طاغياً. وما يزال.

جئت.. لم أصل. أجل. لكن لي أيضاً ظروفي.. لست وحدك الذي يعاني من هذا الزمن اللولبي الذي نعيش فيه كثافة تغيير تعادل التغيير في قرون.

الرياح الغربية تلفح وجهي. تلفح المدينة. يختلط الحاضر بالماضي. يبقى المستقبل لغزاً. لا أحد يمتلك الحقيقة. وأنا أجيء من صوب البحر. أرش المدينة بالمطر فتحترق

الطرقات ويظهر من الرماد رجل مشوه القامة، مسكون بالرماد والخوف. لا يشبه الإنسان ولا يشبه الحيوان. قد يكون جنياً سلطته أبدية. قالت الساحرة العرّافة:المرأة ـ أقصد أنا ـ ستكون شاهدة على بناء ودمار. خراب واخضرار. ستكتظ الأرض بالحيوانات والبشر. لا يقدر البعض على تمييز شيء من شيء. سينبثق من جوف الآلهة السفلي ذهب أسود منصهر.. سيعمر الجبال والصحاري والوديان... يردم البحار والمحيطات ويرفع جسراً في السماء. وسيجوب أزلامها أقطاب الأرض باحثين عن حوريات وجنيّات.. سترتفع حصون حتى تعانق السحب، وستتشبه النساء بالرجال وتتشبه الرجال بالنساء. وسيغيب من الفؤاد وقر الايمان. وستصير ملامح الإنسان كملامح الحيوان ـ سيأكل المال الذي يصير الاله المعبود.. وستكون هناك جماعة النهي عن المنكر والأمر بالمعروف... ستأكل لحم الأطفال وتشرب النساء. وتحمل السياط باحثة عن ناقةٍ لتعقرها باسم الأمر بالمعروف.. الناقة تأكل العشب والعشب ملك لله ولا يحق لدابة أن ترعاه.. ستمور الأرض يا أخوتي. ولكن لن يطول الأمر كثيراً.. ستأتي امرأة من صوب البحر. امرأة مقهورة. تذرّي قهرها على التراب والرمل والبحار. ستعم الحروب ويقتل الأب ابنه والأخ يقتل أخاه.. والأم ترمي ولدها.. سيمتلىء الشاطىء بأطفالٍ لم يكتملوا في احشاء أمهاتهم وسيتخذ الرجل خليلات كثيرات بديلاً للجواري السابقات.. ستعود «غريب محظية الخلفاء» ساحرة من الجميع ستعود سيدة الجميع ستثورون في وجه الكتّاب..

«أيها البلهاء.. الشامتون.. يا من ترجمونني بكل النواقص والذنوب والشهوات، هل نظرتم حولكم؟!» ألفُ غريب يا غريب هنا.. آلاف.. بيع لحم أبيض وأسود وسوق نخاسة.. كل ذلك باسم الحضارة. كل ذلك يتم تحت ستار الأمر بالمعروف.. «استتروا»

«إذا ابتليتم».. «استتروا» الشقق الفاخرة ستارٌ محترم أكثر من الخيام يا غريب تضحك غريب.. صوتها يفجّ القصور ويدخل ليرى الخليفة الجديد وحوله جاريات الغرب والشرق. آراميات وعموريات. وآكاديات..و... والربة أوروبا.. تديرهن بعصا من ذهب وماس.. لم تكن الربة وهي تشرب الخمر منتبهة إلى راعي البقر الجديد.. «الكاوبوي» حين خلّصها العصا.. وساق القطيع.. آه يا غريب إبكي... ستبكي عليكم غريب»

تصمت الساحرة..

«لماذا تصمتين.؟»

«السحر مرفوض.. حرام.. ملعون»

«قولي يا جدة..؟!

تخلط العجوز عطرها. وقواريرها.. «الآن سأصمت.. جماعة الأمر بالمعروف ستمر قريباً ستكسر زجاجات السرّ.. دعوني اليوم يا ابناء الأرض الجديدة.. غداً أعود..

«هذا وعد يا جدتي؟»

«وعد.. أيتها المرأة من صوب البحر»

«يا ابنتي.. ما بك؟.»

«أم عارف.. هكذا رأيت في الحلم... دعيني أكمل....

كنا مجموعة نتحلّق حول الساحرة.. غضبت عندما قلنا لها أيتها الساحرة

«أنا لست ساحرة.. أنا عرّافة.. عرافة أسمعتم»

سياتي يوم تتمنى فيه الحرة دور الأمَة.. ستتداخل الأزمنة. وسيجري الدم في الساحات. في كل مكان. وسيظهر رجل أعورّ مقبور الأطراف وله أذن واحدة سيسمع هسيس العشب في الشرق والغرب. وسيطغى الرجل الأعور سيحرك جيشه للقضاء على الورد والحلم.. واخضرار الشجر. أمّا الإنسان القابض على الحقيقة كالقابض على الرمضاء.. سيجرونه أمام الملأ. وسيجلدونه.. وينادون عليه «باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. نجلدك أيها الكافر» وقد يذبحونه ذبح النعاج.. ويسلخون جلده.. وعندما ستغيم السماء ويهيج البحر. ستميل المدينة غرباً فتنبثق امرأة من صوب البحر. لا هي حورية ولا هي جنية. لا إنسية ولا وحشية... سيعمّ الذبح والتشريد. ستنهدم المنازل وتحترق الحقول.. ستغضب آلهة الأرض السفلى وستخرج البراكين من عقالها.. سيخرج إله النار.. يبدأ بالتهام كل ما بنوه وما سيجوه ويلمس إله البطش كل الأحجار الكريمة المخزونة فيحيلها إلى حجارة وكل المركبات الفارهة. براً وبحراً وجواً وتحيلها إلى هياكل جامدة. ستتدحرج الرؤوس في

الشوارع كحبات الكرز. وسيتشاجر الرجال على تلك المرأة الفاتنة. ولكن لا أحد يقدر أن يمسك بها.. هل يقدرون أن يمسكوا النور أو الماء أو الهواء بأصابعهم؟!

إنها ستنسرب كهذه الأشياء..

«آه.. يا جدتي.. نحن خائفون؟!

«العرافة لا تسكت.. تظلّ تتابع. ونحن نظلّ حولها مقرفصين متكورين على مستقبل نخاف أن يأتي أو لا يأتي.

«ستجفّ المياه.. ولن يبقى إلا عدة أنهار منها الفرات والنيل كي تغتسل الآلهة والقديسون والعرافات. وسيعود الإنسان ثانية على ضفافها ليبدأ من جديد بناء الأرض التي خرّبها ودمرها.

ستموت الأنعام. وسيعمّ الجراد. تتشقق الأرض وتصرخ من العطش القاهر.. يصير الشقّ كخندق يبتلع الرجل. يموت أبناؤكم. إلا القليل القليل. ويأتي الطير فينقر عيونهم. والمرأة تنشر نارها على المدينة إلى أن يأتي رجل من صوب القمم.. العالية.. «كاسيوس» صفّون.. أورانوس.. اوزيوس.. اوحرمون: أو.. رجل من الجبال العالية حيث مقر الآلهة. بعل.. مردوخ.. ينسكب نوره على الأرض. يتبعه الحيوان والطير والأشجار ويفرّ منه الإنسان.. وحيثما يمشي يخضرّ العشب اليابس ويزمزم النحل وينبت الماء. يهدي الناس إلى حبّ البشر والطير والشجر.. إلى الحبّ الإلهي المقدس. المنزّه عن كل غرض وغاية.. تحاول جماعة النهي أن تقتله.. «إنه دورنا يا سيد».. فينظر إليهم شذراً ويتابع.. عليكم أن تصدقوا مع أنفسكم أولاً ولكنهم كاذبون.. فيمسخهم إلى جرابيع كبيرة تعيش في شقوق الأرض. وتخرّب السدود الجديدة بعد عودتها إلى حالتها الأولى حيث خرّبت سدّ مأرب وعمّ الخراب..

الرجل القادم من الأعالي. يرى المرأة القادمة من صوب البحر.. يقع في هواها. تجتمع العتمة بالنور. الماء بالنار. يتبدد سرّ المرأة في أولاد كثر.. يحاربون أعور المدينة. يلقون في وجه أتباعه التعاويذ وينفخون في وجوههم النار.. فمن تلفحه نارهم يخرّ ميتاً. ها هم ينحتون الصخور ويصنعون أقنعة واقية لوجوههم.. يربّون الذقون الطويلة ويتجولون ليلاً. يمشون زحفاً في البلاد حتى لا يلفحهم الهواء المقدس فيذيبهم كما يذاب القصدير. يحفرون بيوتهم كأوكار. ويفرّون في

الأصقاع. تابعين الرجل الأعور الذي يسلخ من يعارضه والذي يتبع رجل المحبة الذي أرسلته آلهة الغيم والمطر والرعد والخصب. آلهة الشمس التي تذيب صقيع الحروب والبغضاء والفساد والنهب الذي عمّ كل شيء.

«يا أبنائي.. المؤمن هو المؤمن يظلّ ويظلّ قابضاً على الجمر ويظل يبثّ النور للإنسانية» المرأة القادمة من صوب البحر والرجل القادم من الأعالي. ينجبان الذرية الكثيرة. التي تقتل الأعور وأزلامه.. تتطهر الأرض. وتنتش نباتات المحبة. لكن كان هناك حفيداً للأعور.. كان يختبىء في جوف شجرة زيتون قديمة. اختبأ بالزيتون ليبدأ رحلة جديدة مشابهة للرحلة التي انطلق منها.

يصرخ.. جئت من الرماد. جئت لأهيىء لخراب جديد. هكذا تبدأ اللعنة.. تكبر. تكبر ويظلّ أحفادي يصارعون رمادهم.

....

«يا آنسة. سألتك.. أتريدين الكعك...

«تفوه عليك. يا كلب. يا سافل.. أنت ابن الأعور»

«ماذا تقولين أيتها المجنونة»

«أقلب صينية الكعك على الأرض وأمشي. يتبعني بائع آخر صارخاً في وجهي لا تشتم.. كم ثمن الكعك.. خذ.. أعطِ هذا الحيوان. أرمي له النقود وأفر هاربة.. أتذكر الكابوس الذي أراه باستمرار والذي توقظني أم عارف وأنا في أوجه.. تسمعني أصرخ وعندما استيقظ ألهث متعبة كأني كنت أصعد جبال همالايا. يغمرني العرق.. أنظر إلى أم عارف. بتساؤل وقلق.

«أنا أم عارف يا ابنتي»

«آ.. صحيح.. عذراً يا أم عارف الحقيقة. ضغط المحاضرات والجامعة كان قاسياً الليلة لذلك أرى كوابيس مفزعة..

أحياناً أعود لأتابع نومي. وأحياناً أخرى لا أقدر.. فأشرب الزوفا وأقرأ كتاباً ما..

«سامح.. هذه الحالة تتكرر معي باستمرار.. لم تكن قبل أن أزور جابالا بعد غياب طويل»

أمرّ بباب السينما.. أراه مقفلاً.. أرى النقالات تخرج من جدرانها.. فتيات صغيرات.. مدبوغات بالهزيمة..

«لا تقلن لأحد» وإلاّ العار.. العار

أشعر بحاجة إلى الذي رحل.. أهمس له أن يأتي.. «أنتم السبب يا أمي».. المدينة ضيقة. ضيقة. الذاكرة أكثر اتساعاً. الحزن. الألم. الانتظار. كل هذه الأشياء أكثر اتساعاً. اسفلت الشارع يبدو كرماد يعلّق على حذائي. أنظر إلى ساعتي.. لا أصدق بأن كل هذه الساعات مرّت وأنا أتسكع وحدي في المدينة أحاور فتاة أعرفها.. أو امرأة مرت من هنا. وسنوات بعيدة. «إن هبت أمراً فقع فيه» كم تهيبت هذه اللحظات.. تهيبتها وتهيبت مواجهة المدينة التي أخذت أشيائي الحميمة.. هذا الخوف لازمني طويلاً لدرجة أني تخاذلت يوم طلب إليّ علي أن أسهر معه لوداع السنة.. لم أجرؤ دخول المدينة بعد أن وصلت إلى الساحة التي تطلّ على دار السينما والمدرسة وتتوزع إلى الحارات التي عشقتها.. رآني السائق أترجل فأسقط على الأرض.

«ما بك يا أختي»

«يا إلهي ما تزال الدنيا بخير»

هناك بشر في المدينة وهناك ذئاب..

يا أختي أنا مثل أخوك.. أمسك بيدي.. نهضت. شعرت أن نقالة تجول باحثة عن امرأة منكوبة..

«أرجوك.. هل تعود بي إلى الجامعة ثانية؟»

«حاضر..»

عدت.. لم أجرؤ على اختراق عالم بعيد.. كنت جبانة جداً. لا.. كنت وفية جداً لدرجة أن علياً زعل،افترقنا لفترة.. خسرنا فيها الثقة وأشياء كثيرة.

«سامح.. هذا الكابوس الفظيع يتكرر كلما فكرت بزيارة علي في جابالا. إنه حلم مخيف»

أنسيت؟! الكابوس الذي رأيته أول مرة أزور فيها المدينة لأحتفل مع علي بعيد

رأس السنة. لم أستطع أن أكمل. عدت. لم أقدر على اقتحام عالم سحيق سبق وأن مروت به.

«على كل حال لا تخافي.. لا أهمية لمكان الحدث في تحليل الحلم»

عليا.. اسمعيني جيداً.

أنا وأنت وحدنا. أريد منك الحقيقة. آسف لتطفلي. ولكن أنا أتحدث الآن كصديق وكطبيب. أريدك أن تكوني صريحة. هذا الهروب الميتافيزيقي. ما تفسيره؟! ـ أتحبين علي؟!.

ـ تسألني أنا؟!!

ـ طبعاً؟!

ـ لا أعرف.. لم أعد قادرة على تحديد الجهة التي أتوجه إليها. أحياناً أكفر بكل المشاعر الإنسانية. نحن مسحوقون.. لا يحق لنا الحبّ ولا الاستقرار. إننا ورقة تحركنا الرياح القوية.

ـ لماذا تلتقين معه؟!

ـ أحياناً أشعر بشوق لأسهر معه. لأراه وأتحاور معه.. إنه شاعر كبير كما تعرف. يملأ روحي بورد قصائده. ولكن هل تكفي القصيدة طعاماً للمحبين؟! فجأة أجدُني أتراجع. المستقبل يشكّل بؤرة خوف بالنسبة لي. ممنوع عليّ الفرح. أحياناً أفكر ألا أراه أبداً هكذا نمسح عذابنا.

ـ هذا هو الهروب. وهذا هو الكابوس الحقيقي.

ـ لم أعد قادرة يا سامح أن أحب بعواطفي. لا وقت لدينا لنحبّ. لنحترق.. أنا أحبّ الآن بعقلي. وعقلي يرفض أشياء كثيرة. لذلك أعدّ للعشرة قبل أن أقدم على أية خطوة.

العقل يملي شروطه فلا تستطيع أن تخالفه. أحياناً أشجّع الزواج المبكّر.. أراه الأفضل لجيل يكثر الأسئلة والحيرة.. زواج أمهاتنا وآبائنا قبل أن يملي العقل شروطه..

ـ أترى يا سامح أن للزواج ميزات كالسابق؟!

ـ لا أعرف ماذا تقصدين. أهو تجارة؟!

ـ لا.. هو ربح وخسارة بالنسبة لامرأة مثلي. لا أستطيع أن أغلق علي قفص الزوجية. أطفال ومطبخ. وبلاط نظيف» وبالمقابل.. وأنا امرأة موظفة. عاملة. أساوي زوجي مرتبة وراتباً. لا أستطيع أن أفرض عليه غسل الصحون ومساعدتي في الأمور المنزلية. إذاً ماذا يجني عليّ الزواج غير العذاب والانشطار النفسي.

هذه ليست حجة.. قد تأتي بمربية.. وقد يكون الزوج واعياً لهذه المشكلة.. أو هناك دور حضانة.

ـ الزوج الواعي يسبق القوانين.. أعترف بذلك.. هو الآن يتخلى عن الكثير من حقوقه للمرأة العاملة الواعية. ولكن إذا أراد ان يقول: لا فلا أقدر أن أجبره بالقانون. ثم أين المربية يا دكتور؟ أين دور الحضانة التي تستأمنها على أعزّ ما تملك. المربية تحتاج راتبي كي تقبل مساعدتي.. و... كأنك يا سامح ما تزال تظن نفسك في أوروبا.

ـ يضحك سامح «اطلبي مربية سيرلانكية؟!»

ـ.. آ.. كهؤلاء الذين يحتاجون إلى سيرلانكية للطبخ ولخنق الأطفال. وانكليزية للغة. ويا بانية لـ.. و

ـ خلاصة ذلك كله؟!

ـ لا أعرف يا سامح. أنت ما رأيك؟! هل أنا أحبّ «علي» أم أخاف أن يصدم؟! لأعترف. أنا بحاجة إليه. بحاجة إلى رجل يسند مخاوفي وأنوثتي. لكن أخاف أن يعجز عن هذه المهمة. أخاف على ماضينا الجميل أن يضيع في أرجل المستقبل. لذلك تجدني مترددة. تصور. لم يقدر أن يعذرني يوم خلفت بموعدي. الحق عليّ أعترف. لكنني جئت يا سامح ولم أستطع الاستمرار، أشياء كثيرة منعتني. أنت تعرفها. بالاضافة إلى أني لم أرغب في تحدي المجتمع «امرأة وحيدة تدخل بيت عليّ عصراً وتخرج منه آخر الليل. أو في الصباح. لا أستطيع تحدي مشاعر المجتمع وحدي.. لا تقل لي هذه ترهات لأن علياً ذو أخلاق عالية. وأنا أثق به. ولكن كيف تغير تفسيرات كثيرة

«ما اجتمع اثنان إلا وكان الشيطان ثالثهما» معقول؟ يد واحدة لا تقدر أن تخيط رداء مشقوقاً.

ـ أعرف أنك تحبين التحدي. قال سامح بصوت يفيض ألماً وحناناً. ارتبكت عليا.. لم تعرف تفسير هذه الأسئلة المتلاحقة.

عدت أيها الراوي؟!!

أخاف أن يخطفوك مني. أريد أن أكمل عنك.. مللت من الاستماع. ألا تحبين الاعتراف؟!

ولكن لم أتعب بعد.. ما زال لدي الكثير لأقوله ولتسمعني أنت.

عليا تملك رغبة التحدي. ولكن لن تتبعها المرأة. ستظل عليا نشازاً لأن المرأة ضعيفة. مترددة. تلبس الثياب الحديثة وفي أعماقها تختبيء الأمَة.

اسكت أيها الراوي. دعني أكمل.. لا أقبل أن تكون الناطق الرسمي باسمي.

أنا أيضاًمثل هذه النساء. هذه مسألة بيئة. مسألة تراكم.. مسألة محيط يفرز عناصره الموائمة له. أنا أرى أن هذا يجافي الواقع.. وأعرف أين يمكنني أن أقف وذلك بحكم ثقافتي واغترابي.. أعرف ما لدي وما عليّ. ولكن مثل كل مواطن أنا.. هل يقدر العامل أن يدخل على مديره ويقول له أنت حرامي؟! لا.. لا. لا يقدر. هو يساعده في تحميل السرقات ولا يجرؤ أن يلفظ ذاك. ثم إن أحداً لن يصدقه.

هل يصدقون بأني سهرت مع علي حتى الصباح لنشرب القهوة والشمبانيا فقط؟! غبش المدينة بدأيهبط.. شرفات صغيرة تخرج من أبنية قديمة.. فتيات يسترقن النظر إلى الشارع. إنهن لا يعرفن كيف ينظرن بوضوح للأشياء. أراهن أنهنّ الآن وراء الأبواب ينصتن لحديث الرجال.. وأرى الأمهات يعقن «ادخلي جوّه وليه».. المدينة تتطاول أمامي.. تسرّح شوارعها إلى الغرب. أجدني ألتف على حارة لي فيها وردة قديمة.. وردة قصفت بسنوات بعيدة ولكنها لم تمت. آه.. أريد أن أبكي. بحاجة إليك يا خالد الآن.

«أنا أستبدلك؟!»

«لا.. لا أقدر. أنا أبحث عن شبيه لك.»

لا تحملني قدماي لأمشي باتجاه الأماكن التي عرفناها معاً.. دائماً أهرب من هذه التتف الصغيرة المختبئة في زوايا الذاكرة.. سأهرب.. هكذا لأعترف ـ كما يقول

سامح.. صوت خالد في كل مكان.. تمر بقربي سيارة تاكسي.. أشير لها.. أصعد إلى داخلها المعتم. أرجوك خذني إلى حارة الـ... كانت السيارة تمشي ببطء. أردته أن يسرع.. قال لي إنه يسير بسرعة. كنت أشعر أن السيارة لا تمشي، أن المدينة تتفرج على امرأة تسرّح ذكرياتها وقهرها على النوافذ والشرفات. كل الذين أحببتهم في هذه المدينة مرّوا أمامي خلال لحظات.. من أشجار حديقة البلدية. إلى المصابيح المكسورة إلى المعلمات والطالبات. والجيران. كلهم وقفوا.. نظروا إلي ومشوا. لم ينتظروا أن أسألهم عن أحوالهم.

«هنا إذا سمحت»

مرت أيام و أنا في هذه السيارة. عندما نزلت.. شعرت أني أخرج من سجنٍ قديم.. رأيت النور يلفّ الشارع.. منزل علي.. هنا. أرى سيارة سامح أمام الباب. يبدو أنه سبقني.

....

.. رجلان يجلسان في البهو..

الأول يستلقي على الأريكة وهو في كامل أناقته. يتصفح مجلة.

الثاني يقول: لقد اتصلت بالمنزل.. قيل بأنها خرجت.

الأول.. ربما غيرت رأيها كعادتها.

- لا.. معقول..؟! اتفقنا أن نلتقي هنا. ثم ننطلق إلى الجهة التي نريد.

- الأول. الطقس جميل هذا اليوم.

الثاني.. سأتصل بها ثانية.

هي. تقرع الباب.

- الأول. انظر من العين السحرية. لا أريد شخصاً غير مرغوب فيه.

- الثاني.. وردٌ على العين السحرية يغطي الوجه. أتكون إحداهن.؟!

الأول.. لا تمزح. تعرف أني أنتظرها..

الأول كان يستلقي نهض وأصلح شعره. إنه علي الذي خرج من أزمة حادة.

الثاني. كان سامح الذي يعاني قلقاً على تأخر عليا.

أنت؟!!

لماذا كل هذا الوقت.؟ أين كنت؟ لقد انشغلنا جداً.

يبتسم علي.. يأخذ يدي عليا بين يديه.. يقبلهما.. ينظر إلى عينيها.. تتغرغر الدموع يخفي كل منهما غصة. تسحب عليا أصابعها بهدوء من يدي عل ثم تعانقه بشوق.

«الحمد لله على السلامة»

حبيبتي لماذا تأخرت؟

تناوله الورد. يقطف وردة من عنقها يشكل بها شعرها ويتأمل وجهها بحنو..

«مشتاق إليك جداً»

يسعل سامح. «إحم» نحن هنا. تبتعد عليا بهدوء. ظل علي واقفاً. تمدّ يدها لتسلم على سامح.. كان سامح مطرقاً لم يرَ يدها الممدودة إليه. ابتسم وهو يعتذر ثم يقول: أتشربان قهوة؟!

عليا.. أنا أصنع القهوة.

سامح: لا.. وحياتك أنا سأصنعها لك وللشاعر الكبير. يدخل سامح إلى المطبخ. عليا ما تزال واقفة. وعلي ما زال مكانه.. كل منهما يتأمل الآخر صامتاً. سألت عليا نفسها «أ أحبه؟!! بالتأكيد.. أجابت على أسئلتها. لكنها عادت وكررت السؤال..» علي ما يزال واقفاً.

«عليا.. تعالي ارتاحي»

«آ.. صحيح.. مشت باتجاه الكرسي..

علي: لا. لا. هنا.. أرجوك. أظن أني أراك للمرة الأولى.. في كل مرة تدهشينني..

«علي...!!»

«يطوقها بذراعيه. شعرت أنها تذوب بين أنامله.. أخفضت رأسها على صدره»

«سلامتك يا علي»

ظلت مطرقة الرأس.. رفع شعرها عن عينيها.. ظلت تسند رأسها إلى صدره جاء سامح. وضع القهوة. لم يشعرا به. الصمت يسود المكان.. دموع علي توقظ عليا من غيابها.. دمعته تسقط على جبينها. ترفع عليا رأسها. تنظر حولها.. ترى سامح واقفاً في الزاوية الأخرى يغالب صمته. تنظر إليه. «آسفة يا سامح» تنهض آخذة مكاناًقريباً من القهوة. عليّ يطرق رأسه.. تتبعثر شهقته في الغرفة. يقترب سامح منه.

«اليوم عيدك.. ما بك يا علي...؟! جئنا نحتفل يا أخي.. هذه عليا أمامك.. الأيام القادمة ستكون أفضل.» يربت سامح على ظهر صديقه علي.. تقدم عليا القهوة إلى علي.. تبتسم.

«علي.. ابتسم أرجوك.. أريد أن أستعيد الفرح معك.»

سامح يقول لعليا.. اسمعت؟!

- ماذا؟!

- علي مسافر إلى مهرجان شعري عالمي.. لقد جاءته بطاقة دعوة إلى باريس.

تصرخ عليا فرحة. «صحيح؟» سنسافر معاً.. آه.. سنمشي ونمشي.. ونتسكع في شوارع لا تعرفنا.. سنطير.. ونحلق في كل مكان جميل.

«ولكن لن أذهب أنا يا عليا!»

«لماذا؟»

«لأن الترشيح جاء من جهة غير مشرّفة. تصوري عدنان ذاهبٌ ايضاً»

«ماذا يضيرك؟!»

«سامح.. أنا لا أبيع نفسي برحلة إلى أوروبا.. لا أقبل أن يشتريني أحد. عدنان جاء إليّ وطلب مني أن أكتب بعض القصائد التي تمتدح النظام العالمي الجديد وزعماء المال والذهب الأسود الذين سيحضرون المؤتمر كونهم هم أيضاً شعراء أليس كذلك يا سامح. زعماء المال لا يقبلون بأقل من شاعر كبير»

قلت لعدنان لماذا؟!!

«يا علي هؤلاء يمنحون الجوائز والألقاب والحياة المرفهة» ثم طلب مني متوسلاً أن

أصوغ له قصيدة عصماء على النمط الخليلي كي يمتدح بها تاجر لؤلؤ مشهور. وقال: بأن المكاسب التي سينالها سيعطيني نصفها.

ينتفض سامح «ابن الكلب» أيظنك مدّاحاً؟!

عليا تندهش.. تقترب من علي.. تفرك شعر رأسه بأصابعها.. «أنت رائع دائماً يا علي»

«ما قيمة المرء بلا قناعات؟!»

ينهض علي متثاقلاً.. هل عرفتم كيف يشترون صوت المرء؟!.. هكذا.. أنا أكتب وهم يأخذون صوتي. اسمي. لكن ارجوكما لا تخبرا أحداً بالموضوع.. إذا علموا أني أتحدث به قد يلفقون لي تهمة جديدة. الكتابة هي الحرية الوحيدة التي أمارسها.

عليا تبتسم «والحب؟!»

علي يرد بتوسل «أتسمحين أن أحبك يا حبيبتي؟»

تنظر إلى بلاط الغرفة. يقترب منها علي.. يحضن رأسها ويقبله.. ينظر إلى سامح ويقول.. اعذرني يا سامح أشعر أني التقيتها بعد ضياع. كأني لا أصدق نفسي.

أكان من الضروري أن يقرع الباب الآن؟.. من سيكون القادم في هذا اليوم؟

يفتح سامح الباب «إنها المفاجأة» تدخل امرأة فارعة الطول.. بيضاء البشرة.. يستغرب علي من هذه المرأة. تركض عليا تطوق المرأة. تقبلها..

«غير معقول.. سعاد.. يا إلهي. سعاد.. متى جئت؟ آه منك يا سامح.. إني أحبك من أجل هذه المفاجأة الهائلة..

«فقط؟! أيتها العاقّة»

عليا ما تزال مندهشة. وما تزال تنظر بامتنان إلى سامح.. قل لي كيف وجدتها هذه «الأرخميدسية»

«وجدتها. وجدتها»

هذه سعاد يا علي.. صديقتي ورفيقة طفولتي. وهذا علي. الشاعر الكبير صديقي ورفيقي. و... «قوليها» وحبيبي.

سلامات.. أشواق. كيف حال أوروبا؟ متى جئت.. أوه. من كثرة الأسئلة «سكوت» يقول سامح.. آمركم جميعاً بالسكوت.. هس.. ثم آمركم بفتح الشمبانيا. أما أنا فعليَّ أن أفتح كيس الهدايا التي حملتها لصديقي الغالي في عيد ميلاده.. انظر.. فتح علي الكيس. أخرج مجموعة من الكرات رماها في الأرض. أخذت تنط في الصالون.. هذه الطابة الجنيّة.. ضحكوا وقطرات الشمبانيا تنسكب على الطاولة. زبد أبيض يصعد إلى الأعلى.. زبد أبيض يغسل اللحظة ويتدفق كشوق عاصف.. يشربون الشمبانيا ويستمعون إلى أغنيات هادئة.

أخذ يلقي قصيدة مهداة إلى عليا.. بينما راحت هي تخرج سلسالاً ذهبياً فيه حرف اسمها وحرف اسمه حرفا ع متعانقان. وضعت السلسال في رقبة علي.. كان ما يزال يقرأ القصيدة. هبطت دمعة من عينها. أدارت وجهها. ايعقل أن يحبها علي كل هذا الحب وهي ما تزال تسأل نفسها «أ أحبه؟» شعرت بالذنب «إني امرأة فظيعة» على كل حال.. خالد. قال لها مرة هكذا.. خالد.. كادت تردد اسمه «يبدو أننا في الأوقات الحرجة نتذكر أحبتنا الذين غابوا» يطفح وجه علي بالبشر والسعادة. إنه ليس علي الذي كان يهذي. والذي كان شاحباً. ناحل الصوت. قال: يا أصدقائي. أظن أن ميلادي لا يستحق كل هذا..؟ أنا أحتفل بعليا. بكم جميعاً. بعودة امرأة بحرية إلى رجل مكث على الشطّ سنوات طويلة ينتظر عودتها. فرّع القصب البري في وجهه. واخضر الرمل على قدميه. عادت كل السنونوات المهاجرة. مرّ طائر «الحوم» آلاف المرات. ولم تعد تلك المرأة. أخيراً أخرجتها أنا من عينيّ.

قهقهت سعاد كعادتها.. أيها الشاعر الكبير. هنيئاًلك بهذه الجنيّة.. لقد حدثني سامح عنك قبل أن أجيء إلى هنا كثيراً. وأنا قرأت لك طبعاً.. أنت غني عن التعريف. ولكن لم أظن أن جنية تسحرك بهذا الشكل.. هه.. من هذه الـ.. عليا؟! اتركها ترقص مع سامح. وتعال ارقص معي. يضحكون.. عليا تقترب من علي. تأخذ يده وتنظر إلى سعاد «لا أسمح لك يا صديقتي» تبدأ الموسيقى الراقصة، الحالمة. «علي. أتسمح لي أن أرقص معك؟» يبتسم «أنا لا أعرف أن أرقص» لكني أعرف الدبكة.. لن يقشرها الرقص الأوروبي عن ساقي..» عليا تقول له: طبعاً. ولكن أريد أن أرقص معك بهدوء. سأعلمك..

«أمرك. يا روحي»

سامح يرقص مع سعاد.

عليا تغمر رأسها المتعب في صدر علي. تجتاحها موجة ذكريات طويلة.. المدرسة.. الوحش. دار السينما. خالد.. تشهق.. «اتبكين؟» أبدأيا علي.. أنا سعيدة. كانت تكذب مع ذلك استمرت في حركاتها البطيئة. همس علي «أحبك يا عليا.. أتحبينني؟»

تظل عليا صامتة.

«عليا.. إني أسألك. أتحبينني؟!» الموسيقا تصدح. يتنهد علي. سعاد تضحك وتحكي بعض «القفشات» لسامح.. يبعد علي رأس عليا عن صدره.. ينساب كضوء من بين ذراعيها.. يأخذ مكانه ويظلّ محافظاً على هدوئه

«ما بك يا علي.. لقد تعبت يا سامح..»

سامح يغرق في الرقص مع سعاد. ربما كان يقصد ذلك تاركاً الفرصة أكبر أمام علي ليحاور عليا. أو ربما شعر بميل نحو سعاد. أو تجمعهما عاطفة ما منذ أن كانا معاً في أوروبا حيث كل منهما كان يدرس في المدينة نفسها. يلاحظ أن عليا جلست بعيداً عن علي. الكآبة تمسح وجهها.. لكن سامح لن يترك المناسبة تمر تحت حرير الكآبة الخادع. «في صحتك يا علي» يبدأ سامح بتناول كأس ثانية. ثم يأخذ بالغناء.

ينتشي. يمسك بيد عليا ويأخذ الدبكة. هيا يا علي. هيا.. تعالوا إلى الدبكة. «لا أقدر يا سامح» هكذا أجاب علي.

تعال يا رجل.. أريد أن أدبك مع سعاد. تعال كرمى لسعاد.. ألا تراها معجبة بي؟ وكرمى لسعاد سأدعوكم إلى العشاء.

«العمى.. ونحن ألا نستحق أن يكون لنا إكرام عندك»

«سأرى.. وسأعيد حساباتي. لأني اراكم تخططون لحرماني من الانفراد بسعاد.»

تضحك سعاد.. «ستخسر يا سامح» عشاء واحد لا يكفي..

«سأدفع وحياتك. المهم نتخلص من هذه العبسة»

يأخذ علي يد سعاد ويبدأ بالدبكة.

«يا أخي. خذ يد عليا لماذا تريد أن تأخذها مني أتريد الاعتداء على حرية الآخرين.»

«تضحك عليا وتقول. الأيام قادمة لن تغادر سعاد بعد الآن. لقد كرهت الغربة»

«الحقيقة لم يعد مريحاً وضع الأجانب في أوروبا وخاصة العرب. لقد طردوا الكثيرين من فرنسا بلد الحرية. والحصول على إقامة أو فرصة عمل صار من المستحيلات تقريباً»

«أفضل.. كي نراك. إني بشوق إليك. جداً جداً. جداً.. الخ. تقول عليا»

لم تقطع كعكة عيد الميلاد بعد.

سعاد تغني بصوتها الجميل «ليه يا بنفسج»

سامح يهمس في أذن عليا بعض الكلمات.. يرجوها أن تمسح كآبتها هذه الليلة.

«عيد ميلاد سعيد يا علي.. كما صار عمر شاعرنا الكبير؟»

«عمري كبير جداً. لا أعرف. اسألي الأستاذه عليا. هي التي تعرف»

«كيف لي أن أعرف. أتظنني عرّافة؟!

«لو كنت تحبينني لعرفت»

«أعتقد أن هذا هو سبب مجيئي إلى هنا.»

«لكن أظن أن هناك من ينتظرك الآن بسيارته. إنه يوفر لك أماكن أكثر راحة»

تنهض عليا. تحمل حقيبة يدها «أعتقد لا داعي للتجريح. سأذهب»

تتدخل سعاد بلباقة. أظن أن هذا الحوار ليس مناسباً الآن. تعالي يا عليا لنقطع الكاتوه.

«لا.. معلش.. سأذهب.. وجودي غير مريح. ثم أن سامي ينتظرني»

«عليا.. ماذا تقولين؟ علي يحبّك ويغار عليك من نسيم المساء.. كيف تتصورين أن وجودك لا يريحه؟!»

«سامح.. إنه يشكك بخياراتي وقناعاتي. لا أحد يجبرني على المجيء إذا كنت لا أرغب.. لقد تجاوزت مرحلة التردد. ومرحلة المراهقة. وتجاوزت ضرورة المجاملات. أنا لا أجامل.» تمشي عليا باتجاه الباب. تحاول أن تقنع نفسها بأن عليّ مريض ولكنها لا تقدر أمام كلماته اللاذعة. لا تقدر أن تغفر له.

«يمسك سامح بعليا.. «معقول..؟! والعشاء؟! لقد حجزت طاولة لنا جميعاً. يهمس لعليا أن تصبرَ. إن علياً مايزال متعباً. تقول له، لماذا علي أن أتحمل وزر مرضه. إلى متى أصبر على أخطائه. لا أقدر. لأنه مريض عليّ أن أغفر كل شيء؟! طيب.. غفرت قصّة الجارة وقصص أخرى. لا أستطيع يا سامح.»

«أرجوك يا عليا. أرجوك. أنا أيضاً سأذهب إن ذهبت. لنحتفل بحضور سعاد»

«طيب..»

«سعاد تصر أيضاً على أن عليا هي المخطئة.»

«يعني المطلوب..؟!»

«اعتذري لعلي.. لأنك كدت أن تنزعي عيده.، إننا سنتعشى على حساب سامح. بعد ذلك نعود إلى منزلنا. أمي تنتظر رؤيتك منذ زمن.»

«علي.. أنا آسفة» يظلّ علي صامتاً.. تنده عليا هامسة.. أقول لك أنا آسفة. تطوقه بذراعيها.. تمسح وجهه.. يهمس «أحبك. ألا تعلمين كم أحبك..؟»

«ولكنك تعذبني»

«طيب أعتذر. أعتذر. أنا لا أطيق الحياة دونك. أتفهمين؟»

لحظة صمت سادت.. لحظة شوق. عتاب.. ثم تبادل الضحك والقفشات. تقطيع الحلوى. عيد ميلاد سعيد. تبتسم سعاد.. هل نخرج يا عليا حتى يقبلك علي..؟!

«لا.. لا. لن أمنحك هذه الحجة لتختلي بسامح»

«هه.. أنا أقبلها؟!»

«يا سلام.. ومن قال بأني سأسمح لك. المرأة الشرقية يجب أن تدوس على مشاعرها.. وصدق أحاسيسها.. يجب أن تكون متبلدة المشاعر.. لا تحس.. ولا

ترغب.. ولا.. هكذا تكون هي الأنقى والأطهر.» أليس كذلك؟! هكذا تفضلونها. أمامجرد تهاونها في قبلة فهي عاهرة.

يقطع الحوار الساخر ـ الجاد ـ دقٌّ خفيف على الباب.

«اتنتظر أحداً يا علي؟»

«لا. أبداً.»

تفتح سعاد الباب فتدخل امرأة سمراء جميلة الملامح.. تدخل دون الوقوف والاستئذان. اتجهت صوب علي. «الحمد لله على السلامة. كيف حالك؟» انحنت أمامه وأخذت.. تمسح دمعة.. قيل لي بأنك مريض. منعوني من زيارتك» لم يحرك علي ساكناً. ظلّ جالساً في مكانه. هادئاً. ينظر إليها مندهشاً، مذعوراً. التفت إلى عليا.. «أقسم أني لا أفهم شيئاً» ظلت عليا صامتة. راودها الشك «علي يخونني؟» انكمشت في مقعدها. لاحظت الجارة أن أحداً لا يعيرها انتباهاً. بلّغت رسالة شوقها

«كنت مسافرة. اليوم فقط علمت بخروجك»

لم يرد أحد. نظرت في الوجوه الصامتة المندهشة. أدركت أن المكان لا يتسع لها. والظرف ليس مناسباً لتتمادى أكثر «أتريد شيئاً يا أستاذ؟» سألته بمودة. كأنه كل يوم يطلب منها مساعدة. لم يرد الأستاذ. بدا الجو مسكوناً بالشك. خرجت المرأة بهدوء نادر.

«أقسم أني لا أعرف هذه المرأة.»

«أليست جارتك؟!»

«جارتي..؟! لا.. أنا لا أعرفها. ولم أرها أبداً.

«ربما.. ربما»

عليا ما تزال صامتة. لم توجه سؤالاً. ولم تقل شيئاً. سعاد التي تخلق البسمة أينما كانت صمتت. إنها مندهشة لهذا الإشكال.. أيكون عدنان هو الذي أرسلها.؟!

«علي ينهض يقترب من عليا.. يقرفص أمامها كطفل مذنب صدقيني أنا لا

يمكن أن أخونك.. هل يعقل أن أسمح لامرأة أن تأتي إليّ بكل هذه الجرأة أمام الأصدقاء؟!

أيضاً عليا لم ترد..

«قولي شيئاً. أرجوك..»

«أنا أصدقك يا علي.. لم أتهمك.. هل قلت شيئاً؟»

«لا. ولكن نظرتك تعذبني»

«اسمع يا علي.. أنا لا أستجدي حبّ رجل.. المرأة الضعيفة. الجارية هي التي تفعل ذلك.. الرجل حرّ يختار التي يشاؤها.. أنا لا أتشاجر مع رجل من أجل أخرى. إن كنت لا تريدني فإني أنسحب فوراً. القضية لا تحتمل العراك. لسنا في حرب والانتصار ليس هنا.. الضعفاء وحدهم هم الذين يخونون حبيباتهم سراً ويقسمون علىالإخلاص. جبناء لا يتجرأون على إظهار مكنوناتهم.

بالنسبة لي الأمر ببساطة. أريد أو لا أريد.

«يعني؟»

«يعني أريدك يا علي. ألا تعرف ذلك؟»

عاد الجو ثانية إلى الموسيقا والمزاح. سامح الهادىء. الجميل.. راح يزرع الفرح والبهجة. رقص وغنّى «عيد سعيد للمرة العاشرة.. ثم قال: هيا.. لننطلق أيها السادة.. السيدات أولاً. هيا إلى السيارة الفاخرة. سأكون أنا السائق. هيا. صعد الجميع سيارة لا نتر عادية يستخدمها مدير الجوارب في المدينة عادة لتخديم المنزل. أما سامح فهي سيارته الفاخرة فعلاً. زيّنها بدبٍ صغير وبصورة لأمّه.

المطعم البحري يستلقي بلطف على الصخر.. يمد شرفته فوق الماء. موسيقا صاخبة تتوزع في أرجاء المطعم ذي الجدران البيضاء وكراسيه وطاولاته الزهرية اللون. في الواقع الموسيقا الهابطة كسرت حنان الجوّ الرومانسي الحالم.

«ماذا تأكلون؟!»

«هه.. يعني ماذا يا دكتور..؟!

«يعني سمك؟! سمك السلطان ابراهيم.»

«حاضر يا أحبتي.. أتعرفون؟! أنتم جميعاً أعزاء على قلبي»

«شكراً يا سامح.. تقول عليا»

بدا علي مرتاحاً. عليا بقربه يوشوشها.. سعاد توزع ملاحظاتها الطريفة على الطاولة.. سامح الرائع.. يستوعب الجميع.. إنه أخو الجميع. وحبيب الجميع. وصديقهم.

يرفع علي كأسه.. «في صحة الجميع»

يشربون أنخابهم.. يضع يده على ظهر عليا.. كأنه يريد حمايتها من لسعات البحر.. يده لا تفارق مسند كرسيها وهي تجبره على تناول أكبر كمية من السمك كي يستعيد وزنه.. «أمرك»

بدأت نسمات الليل تبرد.. قالت عليا: أنا بردانة.. سعاد أكدت أن الذي يحبّ لا يشعر بالبرد.

«اسمعوا» قال علي: قبل أن نغادر علينا الاتفاق على يوم أدعوكم به إلى تناول السمك.. متى تريدون؟!

«الأسبوع القادم.. مثل هذا اليوم. اتفقنا؟!» -

«اتفقنا.. افترق الجميع.. سامح وعلي.. سعاد وعليا.. كل اثنين يشربان الشاي آخر الليل ويثرثران بأحاديث مختلفة، إلى أن يأخذهم النعاس جميعاً. قبل أن تغفو عليا.. يتصل علي. يرجو سعاد أن يتحدث إلى عليا..

«تصبحين على خير يا حبيبتي»

«تصبح على خير. إلى اللقاء».

في جابالا المدينة الممتدة في جذورها إلى أرواد.. سوقٌ مسقوفٌ.. يمتد من الساحة حتى الأحياء القديمة جنوباً. في هذا السوق الذي تفرع منه زقاق يصل إلى البحر، فتاتان تسيران بهدوء عند الصباح.. دكاكين الذهب مغلقة. والنساء بقمصان النوم يخرجن بعد أن يغطين رؤوسهن لشراء الخضار. رائحة اليود البحري النفاذ يضفي جواً خاصاً على المدينة.

«أتذكرين الصيف على شواطىء أوروبا؟!» -

«هي فترة وانتهت.»

«ولكن آثارها مستمرة بحيث تجعلك تحزنين عندما ترين جابالا.. مرفأ مملكة سيانو العظيمة منذ آلاف السنين لا تعرف النظافة. ولا الساحات المشجرة. لماذا ونحن أصل الحضارة»

«هنا يشعر المرء أن الأيام تمر متسلسلة. انزعي ورقة يمضي يوم.. الورقة المخلوعة من الرزنامة هي التي تدل على هروب الزمن.. نحن لا نعرف كيف نجعل اللحظات فاعلة»

«نحن مهزومون»

«أجل.. هذه التغيرات. وهذا السقوط لا يتحمله عقل خلال فترة زمنية بسيطة ولكن يجب الا نستسلم.، عند ذلك تشيخ الروح وتشيخ أوطاننا»

المرأتان تصلان إلى البحر فجأة يعتريهما الصمت. للبحر هيبته. وقاره.للبحر لغته الخاصة.

القوارب في الميناء تكتظ بالشباك. قوارب صغيرة لصيد السمك.

«زمن طويل لم أرَ هذا الميناء»

نسمات بحرية رطبة تلفح الوجوه.. النساء على الشرفات المطلّة يدخنّ«الأركيلة»

المقهى الملقى على الشطّ بمقاعده الخشبية المهترئة وسقفه القصبي خالٍ تقريباً إلا من فتاة وشاب يتهامسان، خوفاً من البحر.

«لنشرب قهوة»

«ولكن.. كان عليَّ الذهاب»

«اعتذري اليوم عن الدوام»

المرأتان تصمتان.. كان زبد البحر يذوب في الزرقة الغامقة. موجة تلتف حول صخرة محفّرة. رذاذ مالح يلفح الوجوه

«هل نغير المكان؟»

«لا.. دعي الملح يغمرنا.. نحن بحاجة للملح لنحفظ به أشياء جميلة تخصنا أشياء يجب ألا تضيع. نريد الكثير من الملح لهذا الزمن»

بالتأكيد أنت لست التي أعرفها. ما بك؟ كانت أوروبة لا تتسع لك.. وكانت المدينة وردة في جيبك.. ما الذي جرى.. «عليا» كل هذا بسبب هذا الشاعر، عليا لا ترد.

وسعاد لا تكثر من الأسئلة.

يعلو الصمت.. نسمات الصباح تعبث بالقصب المرصوص فوق الطاولات. النادل يحمل الماء البارد.

«آه يا سعاد.. إنه الربيع. يرحل. عمرنا. ساحات أوروبا تهرب من أرجلنا. الآن لم أعد تلميذة. أنا أستاذة وعليّ العيش بطريقة أخرى»

«.....»

«هيا. يجب أن أعود»

تسير المرأتان سعاد وعليا باتجاه الكراج.. وقع خطواتهما وحده يملأ فجوات الصمت. عند تقاطع الشارع مع مفرق الكراج وقفت سيارة سامي.

«ما الذي أتى بك إلى هنا؟»

«أنتَ من الذي حملك إلى هنا»

«سيارتي»

«هذا سامي يا سعاد. صديق. وطالب مجتهد»

«تبتسم سعاد. جحا أكبر من أبيه»

سامي ضاحكاً.. هذا ماأريد أن أقوله باستمرار للأستاذة عليا.

أين كنتما؟

«على البحر.»

تفضلا أوصلكما.

«لا.. أنا سأذهب إلى منزلي. أما عليا فهي مسافرة»

لم تكن عليا تعرف. أترفض الذهاب مع سامي. أم تذهب معه؟!!

«أنا ذاهب بطبيعة الحال إلى الجامعة»

سارت السيارة.. تلفّ الساحات. عليا صامتة. وسامي لا ينبس بحرف. يدير مفتاح الراديو. الأخبار المزعجة تملأ السيارة. عند الخروج من المدينة شاهدت عليا رفّ جراد يحلّق عالياً. غطى أشعة الشمس.. شعرت أن الظلام يحيط بكل شيء. لم تقل شيئاً. غطت وجهها. لأول مرة سامي يتجرأ ويمد يده بهدوء إلى يديها.. سحب كفيها عن وجهها. نظر في عينيها. لم يقل شيئاً. وهي لم تقل أي حرف. أسندت ظهرها إلى الوراء وأخذت تفكر بحفلة الأمس.. بعليّ صارخاً في وجهها.

«انزلي من سيارته.. هيا. سأقتله.»

كم هي مقيدة.. حبّ عليّ يقيدها.. تلتفت إلى سامي. لا تعرف ما الذي تريده من سامي؟!

«أستاذة عليا»

لم ترد.. السيارة تطوي المسافة. جابالا تبتعد والبحر يظل مطارداً للطريق. الجامعة وبيت عليا.. أم عارف.. كل هؤلاء يقتربون.. وهي تظلّ بعيدة.

«كيف كانت السهرة؟»

«سامي يقول بصوت خفيض. فيه انكسار.

من قال لك؟!

أم عارف أخبرتني.

«السهرة حلوة.»

أتذهبين إلى الجامعة أم إلى المنزل. أم تقبلين دعوتي إلى بحر لاوديسيا.

لا.. شكراً يا سامي.. يكفي أنك خلّصتني من زحمة الكراج والانتظار. أشكرك جداً أريد أن أذهب إلى المنزل.

يقف سامي مخذولاً.. يتساءل فقط لأنه خلصها من زحمة الكراج؟!! هذا كل شيء. لن يتصل بهذه المرأة المتعجرفة مرة أخرى.

تنزل عليا تودعه.. يظل قابعاً وراء مقود السيارة. تلوح له بيدها وهو ينظر إليها.. يمشي ببطء مجتازاً عمارة كبيرة حولها سور وحديقة وأشجار سرو عالية.

....

عندما نزلت عليا إلى البحر بعد محاضرة طويلة ومتعبة. اتصلت بصديقتها سعاد. ولكن لم تجدها.. لذلك فضلت أن تمشي وحدها. عند رأس الشاطىء الجنوبي رأت رجلاً يسير وحيداً ويلبس قبعة. حين وصل الرجل إلى محاذاتها. رفع قبعته محيياً وقال:

أنصحك ألا تذهبي بعيداً. هناك أشياء مخيفة. مذهلة. لم ترد عليا.. أخذت تتابع سيرها إلى أن وصلت إلى مقعد حجري. جلست عليه. عاد الرجل واعتذر. ثم طلب الجلوس. قالت له.. تفضل. راح يدقّ بقدمه الأرض. أشار بيده إلى البحر. ثم أخذ يصفّر. أرادت عليا أن تنهض أمسك الرجل بيدها «انتظري» لم تسمع كلامه.. نهضت. عاد الرجل وجذبها من ثوبها «قلت انتظري» شعرت بالخوف. كانت كلماته متوعدة.

«انظري إلى البحر»

«كل هذا البحر ملك لي.. الآن سأشير للسمك أن يخرج»

السمك على أقدام عليا.. شعرت بالخوف. السمك على سيقانها.. تنهض تدعس سمكات صغيرة. يقهقه الرجل. لا تخافي قام وراح يدهس الأسماك الصغيرة. أما الكبيرة فأشار لها أن تلتهم هذه الأسماك الميتة.

«نحن أسماك صغيرة.. وهم يأكلوننا»

(أتعرفين من هم؟!)

هم الذين هناك.. الذين يملكون البحر والبرّ.. ويملكون حتى ثياب زوجاتنا.

ولكن من أنت؟!

«لا أعرف..»

ضحك الرجل.. الآن سأجلب لك حوتاً.. سأعطيك ألف دولار إن استطعت الهروب من أسنانه.

«ارجوك.. دعني وشأني.»

«هيا. انهضي»

ساقها إلى الشط.. السمك الميت يغطي المكان. حوت كبير يتقدم باتجاه الرجل

«أمرك يا مولاي»

«خذ هذه المرأة»

«يبتلع الحوت المرأة.. المرأة تصرخ. تصرخ. يخفت الصوت. الرجل يقهقه.

لقد خسرت الرهان.. هاتي كل ما تملكين.؟»

أنا لا أملك شيئاً.. لا صخرة ولا حقلاً. ولا كرسياً.. أنا أستاجر بيتاً مفروشاً ولا شيء آخر.

ها.. تملكين أنوثتك..؟!

أتراهنني عليها؟!

أولاً نسيت أن أسألك عن اسمك؟!

اسمي؟! سمّني ما شئت. عشتار. مريم.. خديجة. فاطمة. عليا. ماري أي اسم تريد.؟!

لا أحدَ يردّ.. تلتفت عليا حولها.. تنظر إلى البحر. إلى الوراء. لا يوجد أحد. السمك الميت ما يزال يفرش الشطّ.

أيكون الرجل قد سقط في البحر..؟! هي تعرف أن البحر غدار. فجأة يخرج من جوفه الحوت. أو السمك الصغير. أو يبتلع كل شيء.. وأحياناً يلقي باللآلىء للعابرين. غدّار أيها البحر. لكنها سمعت صوتاً يناديها:

«ما الذي تريدينه يا عليا.. عودي»

هذا أفضل.. تعود من حيث أتت.. تتصل بسامح.. أين أنت؟ نحن نبحث عنك..؟

«من.. نحن.. أنت أكثر من سامح؟»

«أجل.. أنا وعلي.. خذي كلّميه»

«عليا.. مشتاق إليك.. أريد أن أكلمك في أشياء كثيرة.»

«أنا قادمة.. ابق عند سامح حتى أجيء إليك.»

«أتذهب يا سامح معنا؟!»

«لا.. لا أريد أن أكون عزولاً.)

في مكان صغير، يجلس اثنان امرأة ورجل.. كل منهما يستمع إلى الآخر إلى أن يتعب.. هما بحاجة إلى من يستمع إليهما.. ما زال عندهما الكثير من الكلام.

«وإذا انتهى الكلام؟!»

ـ لا أعرف...

أتعود إلى سيرة شهرزاد أخرى؟!

كلمة تؤجل النهايات. كلمة. تلغي كل شيء. ويبدأ من لا شيء. فتصير الكلمة. الحضور. الحياة.

عندما افترقا. اتفقا على تثبيت الموعد.

«لا تنسي موعدنا على العشاء. اتصلي بسعاد. إنها لطيفة»

«لن أنسى.»

....

وحين استدارت الشمس نحو الجنوب الغربي وأرخت ضفائرها الطويلة. كان هناك مجموعة من الأصدقاء كل يتجه من طرف من أطراف المدينة باتجاه البحر.

زمجرت الرياح قليلاً. رفعت أكياس النايلون من القمامة الباقية منذ الصباح. طارت بعض الأوراق. ثم هدأت الريح..

المرأة ترتدي ثوبها الواسع جداً تربطه على الخصر «بزنّار عريض» يظهر خصرها النحيل ورقة الجسد الأنثوي. هذه المرأة تضع يديها على تنورة الفستان كي لا تطير التنورة.

هذه المدينة تسحر المرأة ذات الفستان الواسع. تشتتها.. هي تريد الهروب من وجوه تلاحقها. ولكن لا تقدر.

«يا عليا.. عليك أن توثقي علاقتك بعلي أكثر لتطردي كل الوجوه القديمة وليبقى وجه علي وحده.. أو عليك ان تغيبي من حياته أبداً»

سعاد لا يبدو عليها الحماس تجاه حب علي لصديقتها.

المرأة ذات الفستان الواسع هي عليا. يسير بقربها سامح بعد أن نزلا من السيارة واتجها إلى بيت سعاد.

«هل أنت جاهزة»

«أجل.. ولكن لنشرب القهوة أولاً»

«لا.. علي ينتظرنا في المقهى»

سار الثلاثة. باحثين عن ثلاثة هم. هم.. كان الكلام المصطنع هوالذي يسيطر على الطريق. أمام المقهى. وقفت سيارة زرقاء. نزل منها سامح.. وعليا. وسعاد. علي.. عند الباب. «لقد تأخرتم»

سعاد تقول. الذي ينتظر حبيبته هكذا يشعر.. أما نحن فلا شيء يرغمنا على المجيء باكراً.

تظلين لاذعة يا سعاد.. مع ذلك إنني أرتاح لكلماتك.

«شكراً يا أستاذ»

«أستاذ.؟!! هه.. شكراً يا أستاذة.»

أضاء وجه علي. وابتسمت عيناه وهو يضع يده وراء ظهر عليا ليقودها إلى الطاولة.

بدأت الكؤوس تتوزع مع المقبلات. «في صحتك يا علي»

رفعوا الكؤوس وشربوا إلا سامح. وقفت الكأس في يده المرفوعة «هذا حسن... انظر يا علي.

يستدرك سامح فوراً. لا يجب أن يراه علي.. هو في الجهة المقابلة لظهر علي بحيث يقابل سامح. تابع سامح «انظر إلى البحر.. جزء من الليل في السماء. هادر. قاس هادىء.

ـ اوه.. شاعر آخر بيننا. تقول عليا.

ـ لا.. لا أحد يجرؤ وعلي موجود.

بدا واضحاً أنهم سعداء. لكن وجه سامح كان منقبضاً.. راحت الأسئلة تتشابك في نظرته المشتته. حسن؟! مالذي أتى به إلى هنا.. إلى هذا المكان ومع

من؟! مع... لا. لا يقدر أن يلفظ الاسم لأنه لا يقدر على اتهام حسن.. شاعر الريف المعروف.. صديق علي وصديقه. لا. هذا ليس حسن. إنه واحد آخر يشبه حسن. لو كان فيصل زميل علي. لما استغرب الأمر. فيصل الذي يتاجر بمحاضرات حول الموقف. الانتماء واللاإنتماء. وتراه بعد المحاضره في أماكن عامة مع أناس مشبوهين.

ولكن هذا صوت حسن.

علي يشعل سيجارة لسعاد. وأخرى لعليا. يقرأ هامساً:

«لك كل هذا الفضاء الرهيف»

لك حور قريتنا.

وموسم الأفراح

ونيسان

وهذه الورود التي تنمو على طيفي.

لك قصائدي المزهرة.

لك.....

يرفع سامح كأسه ويقول: في صحة أعظم الشعراء.. سنموت نحن. وستبقى أنت يا علي. إنها الكلمة ستبقى وحدها.

مالت عليا برأسها على كتف علي وهمست.. أريدك أن تبدأ من جديد. أن تحلّق عالياً.. أن تعود إلى النشر مجدداً وتأخذ موقعك المناسب. أريد من حبيبي أن يكون أهم الشعراء في العالم كله. ألا تعرف رغبتي هذه؟.

سامح يعلق فرحاً محاولاً السيطرة على شكوكه.. «يا ستي هو يعرف ذلك ولكنه يتدلل أليس كذلك يا أستاذ؟»

«في صحتك يا سامح» تقول سعاد. تبتسم عليا وتقول: إنه للأسف لا ينتبه لوجود أجمل سمكة بحرية هنا.»

لم ينتبه سامح لهذه الكلمات. كان مشغولاً بمراقبة الطاولة المقابلة. حسن يجلس إلى جوار..

لا.. لا يا أخي غير معقول.

«وحياة القرآن هذا مارأيته»

حسن يجلس إلى جوار سلوى.. يقشّر لها البندق ويطعمُها.. وإلى الطرف الآخر منه عدنان متصدراً مجموعة لم أعرفها.. عدنان يلقي ترهاته على الكل وهم يضحكون. بينما حسن منهمك بحوار جانبي مع سلوى.

«عدنان ما غيره زميل علي... الانتهازي الأول.»

وهناك حرامي أول. وحرامي آخر. يبدو أنهم يتراهنون على أهم كذبة. سمعهم يضجون.. علي منسجم في حوار مع سعاد وعليا. لكن الضجة والصخب والضحك الذي ملأ قاعة المطعم.. جعل علي يلتفت إلى الوراء «العمى ما هذا.. اسطبل..؟!

فوجىء علي بالوجوه التي يراها.. هل يصدق. «سامح.. انظر.. الثنائي صار ثالوثاً» لم يرد سامح. لكن عليّ عاد والتفت ثانية.. معقول..؟! إنه حسن.. حسن الذي تربى على أفكار العم صالح. ما الذي جمعه بعدنان؟.

عليا قالت له: لا علاقة لنا بالآخرين. هذه الأيام تتغير القناعات كما تتغير الموضه بل أسرع.

ـ قولي كما نغير الأحذية.

ـ تركت قداسة لبعض القناعات التي يجب ألا تتغير.

يفرك علي جبينه. ثم يضغط على صدغيه بيديه. سامح يقول له: ما بك يا علي.. دعنا في حالنا.. ولكن علي لم يقدر أن يستوعب أربعين سنة تفرّ فجأة. حسن الذي عذّب. وطرد. وأهين. حسن.. الحمل يجلسُ مع الذئب على مائدة واحدة. انظري يا عليا. إنه الذئب. الوحش.

ـ أرجوك يا علي. أما زالت هذه الأشياء تدهشك؟!.

ـ كان يجب أن تموت الدهشة منذ أول معاهدات السلام.. منذ كامب ديفد.. إلى وادي عربة.. يجب أن تموت الدهشة. يبدو أن الشعراء لا تموت دهشتهم وإلاّ توقفوا عن الكتابة. أليس كذلك؟

وقف علي والتفت إلى الطاولة التي وراءه. قال بهدوء.. ماذا تفعل هنا يا حسن؟ أتجلس مع هؤلاء؟

ابتسم حسن ولم يقل شيئاً. رفع كأسه عالياً وراح يرشفه بسخرية. غام وجه علي. يبست نظرته. ارتعش صوته وصرخ. أتجلس مع الكلاب التي تعضّ؟! انهض يا حسن مكانك ليس هنا. إنهم لصوص. سيسرقونك الآن. انتبه إلى اسمك. أو يدك. أو.. مشى علي باتجاه حسن. هزه من كتفه عدة مرات. فلم يتحرك حسن. قهقهت سلوى بصوت عالٍ.. ظل عدنان محتفظاً بابتسامة صفراء هادئة قال: سامحوه.. البارحة فقط خرج من المصح النفسي. رفع علي الكرسي وهوى بها على رأس عدنان.

حسن ينهض من مكانه وقد بدا العرق يتصبب منه «ابتعد أيها المجنون» جمدت يد علي في الهواء. كان يريد أن يهوي بها على حسن. نظر إليه مندهشاً. سقطت سنوات الطفولة والشباب. والصداقة والشعر.. سقطت كبرج تهدم فجأة. برج ظلّ يعمر به أربعين عاماً. انسحبَ علي دون أن يقول شيئاً.

أمسك سامح بعلي الذي بدا منهاراً. مسحت عليا وجهها عدة مرات كأنها تمسح غضباً ساحقاً انسحب الجميع منكسرين قبل أن يكملوا العشاء وقبل أن تنتهي الكؤوس. سعاد تبدو متأثرة جداً «يد واحدة لا تصفق.. على المرء أن يغمض عينيه عن كل شيء ويعيش وحيداً.. ليتصور نفسه وحيداً على الكرة. ما يفعله الآخر لا يعنيه.»

سامح يصمت حزيناً. أما عليا فتقول: كيف هذا..؟! «الأرض إذا خَلت خربت» يجب أن يكون هناك من يقل كلمته. من يشير إلى الخطأ.. «من رأى منكم منكراً فليغيره... أليس هذا حديث الرسول«ص»؟

ينظر علي إلى حبيبته بأسىً.. لم يقل لها شكراً. ولكن كان يعبر عن ذلك بانكساره. في منزل علي.. ساد صمت موجع. سعاد صنعت قهوة. أخذ علي يرشف القهوة أجبره سامح على أخذ بعض الحبوب المهدئة.. مسح على رأسه.. قال له: حاول أن تهدأ يا علي. الأمر لا يحتاج كل هذه الثورة. إنه ليس أول السقوط. هذه هي البداية. «سامح. أتذكر حسن؟! تذكر طفولته. حاول أن تذكر مواقفه.

قصيدته التي رثى بها العم صالح. وأخرى كان قد رثى بها فارس وفاطر وآخرين. لا أستطيع أن أتقبل فكرة البيع هذه. حسن باع نفسه بثمن بخس.

الآن فهمت.. هو كتب لعدنان القصائد الجديدة. وعدنان ينشرها باسمه الشخصي. أي يفرّغون حسن من محتواه الإنساني والوجداني والعاطفي ويسكبون في جسده روح عدنان الانتهازية. كيف أسكت يا سامح؟!. لقد رأيتم بأعينكم. أليس كذلك يا عليا؟! كنتم ستكذبونني كما حدث من قبل.. تصور حسن رثى العم صالح. بكاه بحرقة. والآن يجلس مع الذين قتلوا العم صالح. كيف للعقل أن يحل هذه المعادلة «الحدود ملغاة هذه الأيام يا علي»

العم صالح واجه قرية بكاملها.. لم ينحن أبداً. تلميذه النجيب يتمرغ. ثم يقول عني مجنون؟! يحاول سامح أن يهدىء صديقه علي. ـ هذه حساسية المبدع يا أخي. لولا حساسية خاصة يتميز بها المبدع.. لما أبدع.. إني أقدّر هذه الرهافة وأحترمها.. الأدباء الكبار مثلك ثروة قومية. المتنبي ثروة قومية. وكل المبدعين. حاول أن تنام يا صديقي. سأوصل عليا وسعاد. تكور علي على نفسه. ظلّ مطرقاً اقتربت عليا. قالت له. سأتصل بك. خرج الجميع وبقي رجل منكسر الأحلام على كنبة كأنه كومة مجلات مهملة.

....

هو...

هل انتهينا هنا.؟

هي.. لماذا تعترض على سير أحداث لم تكتمل بعد. أيها الراوي... لو أنك تتنحى قليلاً.

هو.. لا أقدر.. إني أتنبأ بأحداث تلوح من بعيد.. ها أنا أستعد لحزن قادم أو فرح قادم.

لن أسمح لك.. على الإنسان أن يخرج من جلده ألف مرة ليؤكد حضوره ـ لن يقبل علي أن يكون رقماً. وأنا لن أقبل أن أكمل مجرد رقم. الحياة تحتاج إلى كفاح.

هو.. إذن يجب أن يكون هناك ظالم. ومظلوم. لعبة يعني!!! هذه اللعبة الأبدية التي يعرفها الجميع والجميع يتورطون بها. يسمّون التوريط نضالاً. أليس كذلك؟!

هي: والقدر.. ما هو دور القدر..؟!

قيل للفارس الذي مرّ على حصانه.. سيقتلك رجل صفاته. كذا. وكذا عندما اجتمع الفارس بقاتله.. قال له: أنت قاتلي. اندهش الرجل. معاذ الله يا سيدي.

بل ستقتلني يا هذا.

هو: ثم..؟

هي.. ثم قتله.. حمّلوه على ظهر حصانه وأطلقوه في الأرض الرحبة. الفارس ما يزال على ظهر حصانه. والحصان ما يزال يدور. يدور. ولم يتوقف أبداً.

هو.. لو تتركين بعض الأمل.؟

هي: وهل هذا ضروري.؟!

هو.. هكذا هي أهداف الكتابة.

هي: أنا لا أكتب. أنا لست كاتبة.. أنا أستاذة في الجامعة. علي. هو الكاتب. احمل أوراقك واذهب إليه. سيطردك. لأنك ستفرض عليه أن يكذب.

هو: أنا؟ كيف؟!

هي: ستقول له اكتب عن الفرح. والفرح غير موجود في حياة الكثيرين. وستقول له.. عليك بث الأمل في كتاباتك. سيقول لك كيف؟! من أين. ستقول له: «حاول أن تجسده.. مثّله.» سيقول لك.. أخرج أخرج.. لا تأتي إلي.

هو «وأنتِ»

أنا أيضاً سأقول لك اخرج من هنا.. لا أريد أن أراك لم أعد بحاجة لمن يستمع إليّ.. لقد اكتفيت بما سيرويه عليّ الزمن القادم. أخرج.. هيا.

.. يخرج.. رجلٌ غير معروف. الباب يفتح. ثم يغلق. ثم تدوّي خطوات تهبط درجاً عالياً. ثم تنكمش الجدران. رجل في آخر الحزن يقبع صامتاً. وامرأة في أول الانتظار تتأمل أقنعة مكومة في دهليز مظلم.. وسعاد.. تغلي القهوة وتحاول أن تجد مخرجاً لليلة هادئة. تتصل علياً.. كيف حالك يا علي.. يرد بصوته الرهيف.. ها أنا أفضل. آسف لأني أزعجتكم. إلى اللقاء.

«ملاحظة»

هناك في المدينة.. شجرة جميز كبيرة. ثمارها تتساقط على الرصيف. مرّ عليّ فرأى على كل غصن طائراً كبيراً. وعندما يقف علي. تحوم الطيور فوق رأسه. تغرّد بصوت جميل. يمشي علي. تتبعه الطيور إلى الشارع المعاكس للشجرة.

تحلق الطيور عالياً وتختفي.

الرجل العجوز الذي رآه مرة.. قال له: هذا يدل على الرحيل يا ولدي.

أي رحيل تقصد يا عم؟!

يدير العجوز ظهره ويختفي بسرعة..

....

«يا بني، الحقيقة جمرة.»

....

ينكبّ علي على أوراقه.. يهجم عليه الشعر. أولى القصائد مهداة إلى مدينة كانت في ذاكرة علي. والثانية لقريته التي ضمّت طفولته والثالثة للعم صالح.

«الرابعة كانت لك يا علياء»

علياء! ثقي بي. أنا هادئ جداً. لم أعد أهتم لما يجري.. اقتنعت بالصمت.. لذلك رحت أكتب وأكتب ربما يكون الحرف بديلاً لصراخي. ثم شعرت بالتعب الشديد. شعرت أني أفرّغ ذاكرتي على الورق. وأني أنظر إلى بعض تعاريجها. أحاول أن أمحوها لأنها مكتظة بأحداث كثيرة. أنا لم أكتب لأي امرأة بعدك يا علياء. ماذا يعني ألا تثقي بي؟ القصيدة لك يا علياء. عندما انتهيت منها.. أخذت حبة منوّم لأني كنت متوتراً وقلقاً. ثم لا أدري متى غفوت. لا.. أخذت حبتين لا حبة واحدة. فكيف أخرج من المنزل وأقرع باب الجارة. ثم كيف ضربتها ولماذا؟!

هي تقول بأني ناديتها يا سلوى... قرعت عليها الباب. فتحت بلهفة لأني حملت إليها القصيدة. وتقول بأني مارست الحب معها؟!!

قالت: عند العتبة احتضنني. حملني بين ذراعيه وطار بي إلى الداخل. أردت أن أصرخ ولكن خفت من الفضيحة. كما أني أحبه. وهو كذلك يحبني. لم ينتظر لأخلع قميصي الشفاف. لقد مزقه وأخذ يقبلني بشراهة وشوق. كنت مع كل قبلة

أسمعه ينادي «ليلى» بعد ذلك عندما رآني عارية ناداني سلوى وأخذ يضربني.. قلت له أنا لست سلوى.. قال: بل أنت سلوى.. وأخذ يرفسني فصرخت عند ذلك فرّ هارباً. كان دمي يسيل.. وكنت عارية لا أقوى على الحركة.

هي تقول أشياء أخرى يا عليا.. تعرفين أني أكره العنف وأني لا أجرؤ على دهس نملة مع أنه ضروري في حالات كثيرة.

قولي.. كيف سمحت لها أن تدخل منزلك؟! ومن الذي دلّها عليك؟! عليا صامتة. وسامح يقول اهدأ يا علي.. لقد عرفنا أنها ورطة. لقد طردت عليا المرأة وكذبتها. وعندما لم تسكت.. قالت لها: انتبهي.. أنا الرجل الذي أحبه سينال نساء المدينة واحدة واحدة. إنه كالآلهة. فتباركن منه.

ابتسمت عليا.. أجل قلت لها ذلك.

«عليا.. أتتزوجينني؟!!» أنا لم أعد قادراً على الحياة دونك.. الجريدة وتركتها كما تعلمون.. لقد وضعوا بديلاً لي صديقنا الرائع حسن»

ما رأيك يا سامح؟ أفكر بالعودة إلى القرية؟! أزرع الكوسا. والخيار وأصير سيد زماني. هكذا قالت لي أمي:

«الذي يعمل في أرضه لا يحتاج أحداً يكون سيد زمانه» يضحك علي وهو يرشف قهوة عليا. بينما أم عارف تنصت في المطبخ لكلام تظنه سحراً. أريد أن أصبح سيد زماني مرة واحدة. يتنهد علي.. أعود مع عليا إلى الأرض.. نعيد سيرة الإنسان الأولى. نبدأ بالزراعة. بالتراب وننتهي بالتراب. لقد خنقتني المدينة. لا. لا. الحضارة الناقصة. التقدم المزيف.

أتوافقين يا عليا؟!

....

«أعتقد يا سامح بأن عليا لا تحبني.

«من أين لك هذا الاعتقاد؟!»

«لا.. أعرف. الحياة اثنان.. أنا وهي. رجل وامرأة. تربة وشجرة. غيمة ونهر».

«لا.. يا علي.. ولكن ضغوط الحياة قتلت في أعماقنا القدرة على البوح.. هذا

البوح الداخلي لم يأخذ حيزاًمن حياتنا.. تكاد الحياة العاطفية والروحية أن تكون معدومة. كما أن تأخر سن الزواج غيّر مفاهيم كثيرة»

«ما رأيك بفكرة العودة إلى الأرض»

«فكرة مدهشة.. ستبتعد فترة عن عليا وعن الضغوط النفسية. فتش عن مكان آخر لك. ربما تقدر أن تقرر ما تريد. حاكم نفسك وانتهِ إلى القصيدة. حرام.. أنت شاعر كبير. كيف تصمت وأنت في الأوج.. ابدأ قصيدة كأنك تزرع شجرة.. ابدأ وسترى أمامك وحولك بساتين من اللوز المزهر.. هيا يا علي.. اخرج من دوامة هذه المدينة بما فيها من الضجّة. المزلزلة.

ـ دعيه يذهب يا عليا.

ـ سعاد تقول لصديقتها.

ـ لا أعرف لماذا أجد سعاد غير متحمسة لعلاقتي بعلي. لم أقل علاقة حب وكفى. لا. هناك أشياء تجمعني به. أشياء كثيرة تساوي الحب. ربما هو كان يحبني. وربما يجدني بديلاً لحب قديم يريد أن يجدده. لكن أنا بصراحة لم أجد فيه حبّي القديم يا سعاد.. إنه يشغلني الآن.. يشغلني عن أشياء تحيط بي وعن كوابيس تعترضني. ولأعترف لك يا سعاد:

أنا غير قادرة على الحبّ بالطريقة السابقة. الطريقة التي كنافيها طلاباً. كان على أمهاتنا أن يجبرننا على الزواج المبكر.

عندما يتدخل العقل في الحب يقتله.

أخي قال: يجب أن تتزوجي يا عليا. جاء بعريس غني جداً. قال له: أختي أستاذه جامعية. ولكنها تجاوزت الثلاثين.. يعني أنا صرت شجرة هرمة.. قال لي يجب أن تتزوجيه.

كيف يا سعاد؟! نظرت إليه. وجدت فيه نسخة لذئب سابق. «تزوجيه لقد كبرتِ»

كان يشبه أخي. لا يتقن إلا لغة المال. «المال يحلّ المشكلات.. يفتح الطرقات. يلغي القوانين ويضع قوانين جديدة»

ضحكت.. ضحكت بألم.. قال «المال يجعلك سيدة راقية.. إنه يملك معامل كثيرة.. تزوج عدة مرات ولم يرزق بأطفال»

«يعني أنا سأكون المفرّخة. فقط؟!

تصوري يا سعاد.. الرقي الآن له مفاهيم مختلفة. كل شهاداتنا التي حولتنا إلى أشجار هرمة لم تجعل منّا سيدات راقيات.. أخي يعرف كيف تكون المرأة راقية.

- تسلخ خروفاً وتوزعه على الكلاب - تسلخ أفعى وترتديها.. تسلخ طفلاً وتجبره أن يكون خادمها.. وكل هذه الشهادات حتى الآن لم تقدر أن تمنحنا لحظة اختيار. لحظة حرية. أتتذكرين رنده؟! ابنة الزعيم السابق للمدينة. لقد افتتحت مجلة، وترأست تحريرها.. راحت توزع الجوائز على شعراء المدينة. هي الآن راعية الأدب والأدباء. تعطي رأيها في كل قصيدة وفي كل قصة. يجب أن تكون المادة الأدبية تخدم أهداف راعية الأدب. يعني.. يعني هاتي القهوة يا سعاد وإلا أيقظت أمك لتؤدبك.

- طفلة أنا برأيك؟

- ليتنا كذلك يا سعاد ولكن بتوجيه جديد ورؤية جديدة.

كانت سعاد تعدّ القهوة. وكنت أراني معها نركض تحت المطر. وجوهنا مزرقة ووالدي ينادي بقعة سوداء في عتمة الطريق. تقترب وتقترب وتكون أنا.

غداً تتخرج سحر زوجة الجنرال من الجامعة بشهادة الدكتوراه.. ولكنها لن تحمل ذاكرة محملة بالمقاعد المكسورة. والأقلام المكسورة. وغداً الدكتوره سحر سترعى العلماء وتشكل الجمعيات الخيرية. تنفق ما يفيض عنها على الفقراء وتوزع أحذيتها التي بطل موديلها على طالبات الجامعة.

تأتي سعاد محملة بالقهوة والفستق.

- لماذا الفستق يا سعاد؟! إنه يؤدي إلى السمنة.

- ليكن.. ضروري أن نقضي العمر نتّبع نظاماًقاسياً في الغذاء لنحافظ على وزن ثابتٍ؟! ولماذا؟! من أجل رجل لا يقصّ أظافره إلا بالمناسبات؟

وكان حقل الفستق أمام المنزل وكان عبد الله يجبرني على أن أعزق في أوج

الهجير.. كنت أبكي وأنا أنطوي على معول مكسور وبطني مملوء بطفلة ستأتي إلى الحياة باسم هدى. وعندما تسألني أمي ما بك يا ماري؟ أقول لها لا شيء يا أمي.. كرهت قرية عبد الله.؟

ـ سعاد.. أتعرفين أن لي أسماء كثيرة غير عليا.. كان اسمي ماري. تضحك سعاد.. فأنزعج منها لأنها لا تؤمن بالروحانيات والماورائيات.

ـ أنت واقعية زيادة عن اللزوم... الغرب نفسه لم يستطع نفي تقمص الأرواح. أحنّ إلى البحر يا سعاد. أشعر أني قادمة من عمق موجة. أو من بطن المحيط. هذا العالم الممتد بين ليل ونهار.. كأني أعرفه. بعض الشوارع في بلدان آسيوية تحضنني على الحزن.. أشعر أني أعرفها منذ زمن بعيد.. أحن إليها كما أحن لمقهى جلست على طاولاته عشرات المرات.

البحر عالم واسع يا سعاد. أمي قالت بأنها رأتني في نومها أجيء من صوب البحر. هذا البحر بدا مفزعاً بعد حوادث غرق كثيرة. أسمعت بحادثة الغرق الجماعية لأطفال «كلماخو»؟

ـ أجل.. قرأت عن ذلك في الصحف.

ـ البحر الآن مخيف.. أسمع فيه أصوات الأطفال الأبرياء وهم يتدافعون. البحر طغى وغدر جيرانه. عندما ركب الأطفال زورقاً.. غنّوا للبحر وراحوا يلتقطون السمك بخيالاتهم. صفقوا له «يا بحرنا.. هيلا» لكن البحر غدر بهم.. ابتلع الزورق. طفا الأطفال مثل أسماك مقتولة بالديناميت.. طفت الأرواح على الزرقة المالحة.. العالم كله يطفو على ملح يذوب الأطفال يبكون. أسمعهم كلما نزلت إلى البحر. ينادون أمهات منهمكات بقطاف الكوسا والسلق في حقول «كلماخو».

«ولك يا عزيز. أين الأولاد..؟!»

«الأولاد الثلاثة في البحر. غرقوا.. ألم تعرفي ذلك»

«لا والله.. يا عزيز.. ما كنت بعرف..»

تفتح الأم باب المنزل «وتغرّب» عند الفجر إلى البحر. ترجمه بالأحجار الصغيره تنادي الأطفال وتعود.

«والله لم أسمع أحد يا عزيز. أنت تكذب علي»

يبكي الزوج على أم فقدت ذاكرتها في دوامات البحر»

عندما عاد الباص الذي كان يحملهم إلى البحر.. كان محملاً بمرايل الأطفال وزجاجات المياه الحلوة. عاد الباص فارغاً إلا من ضحكاتهم وصراخهم. رفعت المدرسة علماً أسود. رفرف الأطفال بأرواحهم كعصافير صغيرة.. صفقوا بأجنحة من نور. ثم غرّبوا بعد أن اطمأنوا إلى قبورهم الصغيرة المتناثرة في سهول «كلماخو»

حزنت سعاد.. «دموع الأطفال في بطن السمك؟! لن أستطيع أكل السمك بعد الآن. البحر غدار دائماً.. أمي قالت: بأن جنية كانت في القديم تخرج من صخور البحر.. تطارد الرجال الجميلين وتقتل النساء الجميلات في المدينة.

«هذه تسكنها روح هيرا.. التي تغار من كل امرأة. وتحيط زوجها بالحراس»

«بصراحة نحن نبتعد عن همومنا الأساسية إلى هموم الآخرين» تشرب سعاد القهوة وقد بدأت بشكل جدّي حديثها. وعندما سألتها ماذا. قالت أجد سامي رجلاً مناسباً لك.

«ولكن أنا أكبر منه بسنة»

«وماذا في الأمر.. إنك تفكرين بعقلية المرأة القديمة التي كانت لا همّ لها سوى الإنجاب.. المرأة الآن كيان إنساني مستقل مشارك وفعال في الحياة. همها الأول ليس الإنجاب لذلك إذا تأخرت بالزواج فليس الأمر مشكلة... المرأة الآن شابة في الخمسين. ألا تلاحظين ذلك؟!

ـ ألاحظ يا سعاد. ولكن هذه ليست مشكلتنا.. إنها مشكلة الرجل الشرقي.

ـ أتعرفين بأني تزوجت رجلاًعربياً في باريس أكبر مني بعشرين سنة؟!

ـ آه أيتها الشقية. لماذا لم تخبريني؟! إني مندهشة.. معقول.؟!

ـ أجل معقول.. وقد استطاع التفاهم معي واستطاع أن يلتقي معي فكرياً وهو أكبر مني بعشرين عاماً. فلماذا لا تستطيعين التفاهم مع رجل تكبرينه بسنة؟!! هذه الأفكار يجب أن تلغى.. أو ترفض المرأة الزواج من رجل يكبرها باكثر من خمس سنوات.

الرجل لا يخجل أن يتابط ذراع امراة يكبرها بثلاثين سنة.

ـ هه.. إنه يفاخر بذلك.. إنه مرغوب.. إنه روميو زمانه دائماً.

ـ بصراحة.. أرى سامي مناسباً لك أكثر من علي.. سامي سيريحك أكثر.

عليك أن ترتاحي مع رجل يؤمن لك الخروج إلى الحياة. أنا لن أتزوج إلا رجلاً غنياً. لم أعد قادرة على أن أبني من جديد «حجراً حجراً» العمر ضيق. الآن أجد بعض الفوائد للزواج المبكر.

«كنا دخلنا الحرملك الأبدي»

«أحياناً أشتاق لأن أعيش بالطريقة الأوروبية فلا أقدر. حبال تشدّني إلى الماضي. كما أني لا أقدر أن أعيش بطريقة أمي. نحن جيل الضياع. ألا ترين ذلك يا عليا؟ لا نقدر أن نحبّ كما نرغب ولا نقدر أن نقبل بطريقة الآباء. لذلك ينمو في أعماق كل رجل ذئب تجاه كل امرأة في داخلها أمة ووراءها جنية تخطف الرجال.

....

الستائر الزرقاء مربوطة بعقدة في الوسط بحيث يتسرب إلى المكان حزمة ضوء. ترتاح على وجه سامي وسعاد وعليا وهم يتناولون الغداء في بيت عليا.. أم عارف تحمل صحن المخلل وتقول: إنه لذيذ مع المجدرة. كانوا يضحكون ويتبارون بأفضل كذبة تقال.

سعاد.. الحقيقة أن ابن خالتي لم يحب امرأة غير زوجته مع أنه وسيم ويملك سيارة فارهة ويعمل بالاستيراد والتصدير.. ولديه عدة شقق في كل مدينة شقة وفي كل عاصمة غربية.... ولكنه وفيّ لزوجته، يضحك سامي.. الحقيقة إنها كذبة جميلة. دور الاستاذة عليا الآن.

«عمي كان مدير أملاك الملك.. مزارع. مصانع. جيوش... ومع ذلك لم يكن عنده إلا سيارة واحدة لزوجته. وأخرى لحبيبته. وهو لم يأخذ ابداً إلاّ راتبه المقرر.

«الحقيقة كذبتك مثل كذبتي يا عليا»

الوجوه فرحة. مضيئة وضحكات تتناثر على الستائر الزرقاء عندما قرع الباب.

«افتحي يا أم عارف» تركض أم عارف إلى باب الشقة تفتحه وتقف بالباب.

«إنه الاستاذ يا ابنتي»

الأستاذ يعني الشاعر علي.. جاء يحمل النعنع البري إلى عليا.

استقبلته عليا باضطراب. أرادت أن تقول فوراً: أنا فوجئت بسعاد وسامي هنا في انتظاري. لكنها شعرت أنه لايريد ان يسمع شيئاً. نظر إليها بأسى رمى باقة النعنع البري على الأرض واستدار عائداً باتجاه الباب. وقفت عليا تتأمله.. لم يلتفت. حملت النعنع البري وأخذت تنتف وريقاته كطائر مذبوح يجردونه من ريشه.

«ما به صديقك؟»

لم تستطع عليا أن ترد. كانت رائحة النعنع البري عابقة في المنزل.. أم عارف ظهر على وجهها الحزن.. دخلت المطبخ ولم تخرج منه وعندما سألت عنها سعاد وجدتها تضرب الجدار بيدها..

ماذا تفعلين يا أم عارف؟ تظلّ أم عارف على حالها. كأنها لا تسمع.. «يا كلب.. يا حقير. أتضربني وأنا أم أولادك؟! صرت جدة. جدة يا كلب... والله سأذبحك»

تغلق سعاد الباب على أم عارف وتعود إلى سامي وعليا.

رائحة النعنع البرّي تملأ المنزل. تشعر عليا بالاختناق. صار النعنع البري يزعجها. لم تعد ترغب فيه.

حزنت عليا.. ولكنها لا تقدر ان توافق علياً بكل شيء.. يريدها أن تعود معه إلى القرية.. إنها لا تقدر. لا تقدر أن تنفصل عن شخصيتها الحالية. قالت له كثيراً: لنترك الماضي ياعلي. لنبدأ من الحاضر. لا علاقة لنا بجذورنا الممتدة بين الحروب والسلام. لنرخ ستارة على الأقل على كل الحفر القديمة ولنبدأ. قال لها: أنت تقولين ذلك؟! وهل نحن أبناء اللحظة؟ حملت عليا النعنع البري الذي ملأ برائحته المنزل. تكاد تقع على الأرض. ملامحها بدأت تجمد.. شعرت أن أزهاره البنفسجية تتطاول وتلتف حول رقبتها.. هي بنت الماضي فعلاً ولكنها تعيش في الحاضر تنظر للمستقبل.

«أبعدي النعنع يا أم عارف» أم عارف لم ترد. نادت عليا مرة أخرى.

أبعد هذاالنعنع عني يا عليّ.. نظر سامي حوله.. اعتذر وخرج «سأترك عليا ترتاح»

«افتحي النافذة يا سعاد أرجوك. سأرمي النعنع البري إلى الشارع.» ولكن عندما حاولت عليا النوم خيّل إليها أن النعنع يحلق في الغرفة كطائر. يشبه الخفاش. يدور في سماء الغرفة. يخرج. يدخل. عندما حدثت سامح بذلك صفعتها الحقيقة.

«أنت لا تحبين علي»

لم تقل شيئاً ولم تدافع عن نفسها.. هي لا تدري فعلاً بماذا تدافع.. لذلك غيرت موضوع الحوار وسألته عن سعاد. فوجئت بسامح يقول: إني أحبّ سعاد وأحترمها ولكن لا أستطيع الارتباط بها.. كانت متزوجة سابقاً.

قالت عليا بانفعال: ولكنها لم تكن زيجة متكافئة. ولم تستمر طويلاً. إن الميزات التي تحملها سعاد تغطّي عيباً صغيراً كهذا. أدهشها موقف سامح.. يعني لو أنها تزوجت من قبل. كان موقف عليّ هكذا.. وربما نظرته ستكون أسوأ.. إذن ما معنى الوعي يا سامح؟! ها أنت تخرج للمرة الألف من قنباز آبائنا.

سامح يقول: نحن جزء من المجتمع ولا نستطيع الخروج من دائرة هذا المجتمع.

«نستطيع أن نحدث بعض الثقوب. الثقوب على مرّ الزمن سيتسرب منها الماء الذي سيكون بداية الطوفان» هكذا خُرّب سد مأرب.

«ولماذا عليك أن تتحملي أنت اللعنة. لعنة الطوفان»

«من أجل هدى.. من أجل سعاد. من أجلي. ومن أجل حفيداتي القادمات.. عبد الله كان يرشقني بالماء ويكسر عصاه على رأسي. كنت أحصد القمح وكان يجلس في الظل يتفرج علي.. لم تختلط عليّ الصور يا سامح.. أي واحدة هي الصحيحة؟! ومع ذلك أنا الآن أرى بوضوح.

عندما تركني سامح رأيت أمامي الخرساء.. رأيتها تتخبط والوحش يأكلها.. هي المسؤولة عن إغواء وحش.. رأيت السينما تتخبط بالدماء والثياب الممزقة والكراسي.. رأيت الدموع مختلطةً بالدم.. علي يقول لي.. «هذا أبوك.. أبوك مات.. قتِله» إني بلا سند.. بلا أصدقاء.. وأهلي الذين كانوا أهلي يوم كنت صغيرة لم يعودوا أهلي كل الذين يكبرون يفقدون أهاليهم إلى الأبد.. اتصلت بعليّ لم أجده. شعرت بالحاجة الماسّة إليه. قيل لي ذهب إلى القرية ومن هناك سيذهب إلى «نهر الشحادة» من أجل الصيد.

«لا. هو لم يذهب للصيد.. علي لا يجرؤ على قتل عصفور بريء.. لا بد أنه ذهب لأمرٍ آخر!

ـ أنا ذاهب يا عليا من أجل خالتي.. قيل لي بأنهم شاهدوها، تظهر ثمّ تذوب في ماء النهر. وعندما يطول غيابها يقولون جرفها النهر.. لكنها لا تلبث أن تظهر من جديد.»

صحيح يا علي.؟!

ـ أجل يا عليا صحيح.

اختلطت عليّ الأمور بين الواقع والخيال. خاصة بعد أن قرأ عليّ آخر أعماله بعنوان نهر الشحادة»

ـ من أين جاء اسم نهر الشحادة يا علّوش؟ الأماكن لا تسمى بأسماء الفقراء. هي تسمى بأسماء الملوك. القادة. الشعراء. الزعماء.. وربات الجمال.

ـ الفقراء هم القاعدة التي ترتفع عليها الرموز حاملة كأس الانتصار. في المظاهرات الطلابية كنا نحمل حسن على أكتافنا.. كنا نلهث تحته نكاد نقع.. هو يعلو ويصرخ ونحن نلقّنه ما يجب أن يقول.. عندما تنتهي المظاهرة.. نغيب نحن وتبقى صورته في أذهان الناس وصوته في آذانهم وفي جلساتهم وهم يتسامرون يقولون «أما سمعت ماذا قال ذاك الشاب الأسمر.. الخ..»

الفرد يأخذ دور الجماعة. يطفو على تعبها.

لم أجد طريقة أخرى للخلاص من وحدتي غير الاتصال بسامي..

«خذني إلى أمي يا سامي أرجوك»

أدور في منزلنا القديم.. أتفقد الأوتاد المغروسة في الجدران.. أتفقد صورة أبي القديمة. وتنشلح نظراتي على الزجاج القديم والخشب المدهون بالأخضر المتشقق.

«يجب أن تتركي هذا المنزل يا أمي»

«من يترك منزله تقلّ هيبته يا ابنتي.

لولا المكوث في المنازل طويلاً ما خلقت الألفة بين الإنسان وجدران منزله. ووسادته. هذا اليوم شعرت بأني قريبة من سامي.. خفت أن أتعود عليه كما أتعود

على المكان. أو أني أنتهز خدماته.... أ أنا كذلك؟! أحاول أن أبعد هذه الأسئلة المتعبة في يوم صيفي رائق أريد أن أتمتع به لأحضر نفسي غداً للدوام الطويل حيث تبدأ امتحانات الجامعة.

سامي في هذا اليوم لم يكن مجرد صديق يوصلني بسيارته. ولا تلميذاً لي عنده احترام خاص.

شعرت أني مع رجل حقيقي. لكني أنفر منه مجرد مقارنته بوالده، الذي خلع جذوره وتحول من رجل دين إلى رجل سلطوي. انتهازي. لا تعينه مشاعر الناس أبداً.

سامي «غير شكل» مؤدب. لا يتجاوز حدوده.. إنه يخصني بمودة خاصة مع أنه لم يقل شيئاً. يكتفي بأن يقدم لي زهرة.. أو أن يحمل لي قطفة حبق. وأحياناً يدعوني إلى البحر.

حدثته عن أبي فأصرّ على زيارة قبره.. آخر مرة ذهبت سعاد معنا. هربنا من ضجيج المدينة. هربنا من الهواء الرمادي المشبع بالبترول. ومن زئير العجلات السوداء في الشارع. لم تتفاجأ سعاد بردّ سامح.. هزت رأسها ضاحكة.

«الذنب ذنبك.. أنا لم أعرض نفسي عليه. وهذا لن يقلل من صداقتي له. لأنني أعرفه. معظم رجالنا هكذا يا عليا. لهم أكثر من وجه. وأكثر من عقيدة. يظهرون الوجه المناسب في الوقت المناسب.

عندما يريدون امرأة يتحولون إلى مدافعين عن حرية المرأة وحرية الجسد. وحرية الفكر وحق المرأة في تقرير مصيرها بينما يكون المفتاح الذي يقفلون به على أخواتهم أو زوجاتهم معهم في جيوبهم السرّية. إنهم يخرجون من العصر الجاهلي بعباءة ولحية عندما يريدون.

«وحياتك يا عليا أنا لا أرغب به.. قلت لك لن أتزوج. إلا رجلاً غنياً»

«وأنا يا سعاد لا أريد أن تشعري بالحرج.. كنت أمزح مع سامح.. لم أعرضك عليه.. أنت لست سلعة. أتظنين بأنك هينة عليّ؟!»

«المبادىء لم تحقق لي شيئاً. لم تشترِ لي منزلاً ولا سيارة. ولا.. عن أي شيء أدافع؟!

«حتى أنت يا سعاد؟!»

«أتعرفين.. يخطر في بالي أن أضحك على هؤلاء الرجال.. أترين كيف.. سارمم المرأة العذراء بي.. فأنا لم انجب ولم أبق مع زوجي سوى شهور.. هكذا يصدقون بأني طاهرة. مارأيك

هاهي الأمكنة تتخلخل بين يدي وتنهار. نهر قريتنا يفيض وتخرج من ضفافه طحالب كثيرة تنمو وتغطي أشجار الصفصاف والحور. الطحلب يمتد إلى منزلنا. يمد أوراقاً إبرية تشبه المخالب.. تمتص دم الحقيقة كلها.. من يحمي الحقيقة؟! أحتمي بأمي.. أمي ترفض المجيء معي.. «من يترك بيته تقل قيمته.» ناديت أبي. أبي.. أبعدتني أمي عنها غاضبة. ناديت أبي ألف مرة.. أخيراً خرج إليّ من جذع شجرة.. نظر إليّ وبكى.

«أبي.. أنا بحاجة إلى أب.. أريد أباً.. بحاجة إليك.»

يمسح دمعته.. ويشير إليّ أن أنظر إليه. نظرت.. فوجدت قدميه مشلولتين. إنه لا يقوى على المسير. «ظل رجل ولا ظلّ جدار» أنادي علي.. علي.. علي منهمك بالبحث عن خالته. يقول بأنه وجد قبرها.. نبش القبر وحملها إلى القرية.. كانت فتاة جميلة.. عذراء.. رفع يدها في الهواء ملوحاً لأهل القرية المتجمهرين.. كانوا يبكون. وكان يضحك ويقول: انظروا.

....

أريد ان أمشي وحدي.. أريد الذهاب إلى قرية علي.. عليّ أن أسأل عنه. لن أخبر أحداً. عندما ودّعني آخر مرة كان حزيناً، مقهوراً. وأنا لا طاقة لي على رؤية القهر في عيني الآخرين خصوصاً إذا راودني الشك بأني السبب. أي ازدواجية هذه؟! نكافح من أجل الإنسان ونقهر أقرب الناس لنا؟!

هناك أشياء لا أفهمها. أقترب من علي. وأبتعد عنه.. كأني مسيّرة ولست مخيّرة عندما يبتعد عني أتمنى أن يقترب أكثر. لكنّي حين أقابله أشعر بعجزي عن معايشة أي رجل.

خذلاني أيام الجامعة لا أريد أن أكرره. أنا لست كاملة لا أخطاء لي. ولا أعرف ماذا يوجد في أعماقي. كم امرأة. كم روح.. كم جسد لبستُ وسألبس. كم أب كان لي وكم بقي؟.

أشعر بدوار.. دوار شديد. الأرض كلها تدور حولي.. في كل يوم أحاول أن أدخل الغرفة السرية للرجل ذي اللحية الزرقاء. دخول الغرفة هذه أصابني بلعنة لا تزول.. أمي تنذر عني النذور.. وتأخذ قطعاً من ثيابي إلى الأولياء. ولكن اللعنة باقية.

«لو أنك لم تذهبي إلى بلاد الغرب يا ابنتي»

أمي تقول بأن بلاد الفرنج تنزع أفكار المرأة.

أنا وسعاد نزع الغرب افكارنا. علي لم يسافر إلى الغرب إلا مرات قليلة.. من نزع أفكاره؟ «الكتب. الكتب يا ابنتي»

أين سأجد هذا الـ «علي». أتوقع أن يكون في الأرض. يزرع البقول أو الخضار.. هو قال يجب أن نعود إلى الأرض.. إلى النقاء. وربما أجده يكتب. يجب أن أكون أكثر رقة معه.. إنه شاعر.. أحاول أن آخذ ميثاقاً عليّ.. أبناء القرى ينتشرون في الحقول.. هذا يعزق. وذاك يعشّب.. وآخر يروي بمياه نبع السن. نبع يسفح دمه على السهل الممتد. من سوكاس إلى سيانو.. إلى جبل كاسيوس حيث بعل ينتظر إلهة أخرى غير عشتار تنبجس من دماء النهر المذبوح والموزع أشلاء.

لأول مرة أزور قرية علي.. إنها مشابهة لقريتي. أود أن أفاجئه بقدومي.

«أريد بيت الشاعر علي يا سيد»

«هناك في نهاية الطريق شيجرة زيزفون. بعد ذلك تجدين حاكورة تبغ. المنزل المحاذي لها هو منزل عليّ.

دخلت بيتاً واسعاً. ما تزال أرضه تراباً. كأنه يشير إلى التناقض القائم بينه وبين قصر حسن.. الأبيض اللّماع. «رأيت امرأة عجوزاً جميلة الوجه، أردت أن أقبّل يدها احتراماً لأنها ذكرتني بأمي. رفضت. سألت عن عليّ. فقالت بحزن علي غير موجود يا ابنتي هل أنت رفيقته في الجريدة؟!»

«أنا رفيقته؟!! الجريدة؟!، لالالا رفاقيه. ولا جريدة. هناك أشياء أخرى» أين أجده؟ إنه على نهر الشحادة.. يظن أنه سيجد خالته هدبا. وخالته ماتت يا ويلي عليها. لا نعرف كيف؟ قد تكون الوحوش البرّية أكلتها. وقد يكون جرفها النهر.

بعض الجيران يقولون بأنها تحولت إلى طائر يسبح فوق الماء.. يخبط جناحيه في

الماء ثم يرتفع عالياً في السماء.. ليعيد الكرّة مرة أخرى. نحن كل يوم يا ابنتي نرى طيوراً فوق الماء.. آأنت زميلته؟!

«أجل يا خالتي..»

بالتأكيد أنت جائعة. ألست من المدينة؟! عندي مجدرة برغل، أم تحبين «الشنكليش!».

«لا. لست جائعة صدقيني.»

«ما بيصير يا بنتي. يجب أن تأكلي من خبزنا وملحنا.. هذه عاداتنا. مع أنها تغيرت كثيراً هذه العادات.»

كدت أن أقول لها: أجل. أعرف كل هذه التغيرات. لكنني تركت للعجوز أن تتحدث بما في صدرها.

«حسن شاعر.. بس مش متل علي.. مع ذلك حسن عمّر بيتاً جميلاً. واسعاً.. كأنه قصر. وعلي. ابني ما يزال كما تعلمين.»

«المال ليس كل شيء يا خالة»

«صدقتِ.. كأن العم صالح أستاذك والله..»

«أنت تعملين مع علي في الجريدة»

«تقريباً..»

«أترين كرم التين ذاك؟! وراءه تقع مقبرة القرية. كانت حديقة أرواح.. الآن صارت حديقة زرع في وسطها ابن زعيم القرية السابق صنماً لأبيه.

ابن زعيم القرية السابق. كان ولداً عاقاً.. يتسكع من بلد إلى بلد. عاد هذه السنة.. عاد زعيماً على تقاليد أبيه.

يقولون بأن القائمقام كلفه بذلك.. ايه.. لم أسألك يا ابنتي. كيف حال شغل علي.؟! منذ مدة لم ينزل إلى المدينة. هل هو زعلان؟! قلت له يجب أن تتزوج يا بني. كل أخوته تزوجوا ورحلوا. وظلّ هو وحيداً. ولكن تزوج ليلى.. ماتت ليلى.. «الحي أبقى من الميت أليس كذلك؟!

قلت له: الشعر لن يعمر لك غير صنم يا علوش. ضحك وقال هذا تمثال يا أمي.

قلت له: وماذا يختلف التمثال عن الصنم.. والله مثل بعضهما.

«ما اسمك يا ابنتي؟! لا بد أنك جوعانه»

«اسمي عليا.. لست جائعة. صدقيني.»

«عليا..؟!»

«أو زينب. أو فاطمة.. كل هذه الأسماء متشابهة»

«لا يهم الاسم يا عليا.. الأهم منها الروح.. الأرواح الطيبة تعمر الأرض.. يجب أن تشربي كأس لبن»

تنهض العجوز مستندة إلى عصا قديمة.. ألوانهاباهتة. مشت بهدوء.. باتجاه مطبخ خارجيْ. ثم عادت بكأس لبن نظيف. قدمت كأس اللبن وقالت:

«قال زعيم الضيعة.. روحه طاهرة. ابنه هكذا يقول.. لذلك يريد أن يصنع لوالده صنماً.. من أين جاءته الروح الطيبة؟! والله يا بنتي، «دافنينه سوى»

رشت أم علي الماء على التراب بشكل رذاذ. فتصاعدت رائحة التراب. الساموك ما يزال يتوسط المنزل.. عليه مسامير. صور أجداد.. صور أولاد. وقنديل كاز معلق يبدو أنها ما تزال تستخدمه.

«متى يعود علي؟»

«والله يا عليا. ليس له وقت محدد.. قد يعود مساءً. وقد لا يعود.. «أين كنت يا بني» أسأله بلهفة الأم. يقول: كنت في الصيد.. ماذا يصيد في الليالي ضفادع؟ أخاف أن يمشي في طريق خالية. ينتعل البراري. وتلبسه الأرواح الخفية. جدته ماتت وهي تقول لي: إبنك أهبل يا فطوم.. بكيت.. كلما نزلت إلى النهر وكما جلست تحت شجرة وحدي. كنت أبكي. غيرت له اسمه. سميته اسماعيل. مازلت أناديه اسماعيل أحياناً. الشيخ قال: الاسم يكون أحياناً لعنة. لذلك يجب اختيار الاسم الموافق. الاسم يسجن صاحبه وأحياناً يكون رحمة.

الشيخ قال لي: يا فطوم.. الطفل الذي لا يتوافق اسمه مع مولده يجب تغييره قلت له: يا عم.. اقرأ لي طالع علّوش.. إنه يمرض كثيراً. قرأ الشيخ الفاتحة.. صمت. صلى على الرسول.. جمع وطرح. قرأ آيات أخرى. قال ابنك لا يناسبه اسم عليّ.

سميّه اسماعيل يافطوم.لكن والده رفض.. صرخ في وجهي وقال أتكسرين كلمتي يا امرأة؟! إنهم ينادونني «بأبي علوش» قبل أن أعرفك. أتريدين أن تسوقيني؟!!

«معاذ الله». حزنت كثيراً.. ولكن«لا رأي لمن لا يطاع» يا عليا. هكذا العم صالح كان يردد عبارة الإمام علي.. عندما علم الشيخ حزن ولم يقل شيئاً. وعندما همّ بمغادرة المنزل همس في أذني «بخّريه بالبخور والنعنع البري.. هذه الروائح تبعد الأرواح الشريرة التي تسكن الأجساد. حامد.. لا تعرفينه.. ألم يكلمك عنه علّوش؟!

«لا أبداً»

حامد صار يعوي قبل أن يموت. سكنته روح ضبع.. الكافر تسكنه الأرواح الشريرة وتسيّره. أخ يا ابنتي..

بكت العجوز وهي تحمل كأس اللبن الفارغة.. تعبنا كثيراً.. زرعنا. وسقينا.. وحفرنا الأرض. أكل التراب أعمارنا.. «لأ. وشو؟!» قال بدّو - يعمر - لأبوه صنم قدام عيوننا»

«ولك.. أنا وقفت ضد أبي.. لماذا لا يعترف المرء بالخطا.؟! كذلك الآباء يخطئون.

«أبي لا يخطيء.. هكذا قال ابن الزعيم»

- من الذي لا يخطيء.. إنه الله وحده. يا عليا.. حالة علي لم تعجبني.. يقول بأنه سيبقى في القرية.. لم أعرف لماذا؟!!

- وأنا لا أعرف يا خالة.. عليّ أن أذهب. قولي.. من فضلك.. للأستاذ علي: عليا جاءت تزورك»

حاولت العجوز أن أبقى عندها.. لكني رفضت ففي الصباح سأقوم بمراقبة المادة التي أدرّسها في الجامعة. مالت الشمس إلى الغروب بدأ الهواء الرطب يموّج حقول الحنطة اليابسة. شممت رائحة التراب المحروق بالوهج والندى. لاحت لي أمي في وجه أم علي.. شعرت بشوق جارف إلى رؤيتها.. تماوجت نباتات الذرة الصفراء التي تشكل سياجاً لحقول كثيرة مزروعة بالفول السوداني. مرّ بي رجل عجوز يحمل أفعى في حضنه ممسكاً برقبتها. شعرت بالخوف. ابتعدت عنه فاقترب مني.

«اسمعي يا ابنتي في منزلك أفعى»

«.....»

«قلت لك في منزلك أفعى قديمة تعود إلى أزمنة سحيقة.

«لا يمكن.. منزلي في المدينة وهو بناء طابقي»

«ثقي بكلامي يا آنسه» أنا ـ جنيداتي ـ أشمّ رائحة الأفعى في ثياب البشر.. أنا آمرها فتخرج إليَّ.

«لا تقولي لي العنوان. أعرف بيتك. سأمرّ عليك في يوم ما.. لكن تذكري كلامي بيتك يحوي افعى عاشت في قصور كثيرة قديمة، وهي تنتقل من قصر إلى قصر.

ظل الرجل يحدق بي. شعره طويل. وله لحية بيضاء. نحيل الجسد. في ظهره حدبة. تجاوز الستين من عمره.

«من أنت؟»

لم يرد.. ظل يحدق بي فتركته ومشيت. «إنه الدرويش الذي حدثتني عنه جدتي أجل.. إنه هو.. يمر في كل زمان.. يطارد الثعابين ولا يعيش دونها لذلك لا يقتل أفعياه. يظل محتفظاً بواحدة على الأقل.

حين وصلت إلى المنزل شعرت بالخوف.. رفعت غطاء السرير. نظرت تحت الوسائد ووراء الخزانه.. وراء أشياء كثيرة. لم أجد شيئاً. أين ستختبيء الأفعى في منزل حديث..؟! سابقاً كانت تختبيء في الجدران الطينيّة للمنازل. أو في خشب السقف أو في الجدران الحجرية التي تسيّج الحواكير. في الأشجار.

«لا.. الأفعى تعيش في كل مكان»

ولكن يا سيدي لم أجد شيئاً في المنزل.. منذ أسابيع وأنا أبحث. دخل الدرويش من غرفة إلى غرفة بهدوء. قال «المرأة غير النظيفة عليها الخروج من المنزل.»

«هل أنت نظيفة يا أم عارف. طبعاً. اليوم استجممت»

«لا.. يقصد هل أنت في أيام الحيض.»

ابتسمت أم عارف وقالت «من زمان يا ابنتي.. انتهيت من زمان»

الدرويش يدور بهدوء. يرفع أصص الورد. يقرأ التعاويذ والآيات القرآنية. وأشياء أخرى لم أفهمها. ها هي.. يصرخ الدرويش «جنيداتي».. ها هي المباركة.. تعالي يا مباركة يقف شعر رأسي. أرتجف من الخوف.. أم عارف تتلعثم وتقول اشياء غير واضحة. الأفعى قصيرة، ضخمة ذات رأس عريض. وجلد أغبر مصفرّ.

«كم عمرك يا مباركة؟!! يقول الدرويش متحدثاً مع الأفعى يصمت قليلاً والأفعى ترفع رأسها كأنها تجلس على بطنها..

«عمرها أكثر من ألف عام. هكذا «تقول..»

الأفعى تدير رأسها يميناً يساراً. تنظر إلى الذين حولها يطمئنها الدرويش أن أحداً لا يحمل سلاحاً. تكومت بشكل مطمئنة على البلاط البارد. لم أعد أقوى على الحركة. شعرت أني أتهاوى.. قال الدرويش لا تخافي.. إنها ترافقك منذ ألف عام.. هي ترمي ثوبها وأنتِ ترمين أجيالك.

«أتعرفين هذه المرأة يا مباركة؟»

«تحرك الأفعى رأسها.. تنفخ. أسقط على الأرض.»

يصرخ الدرويش.. «الله أكبر. الله أكبر» يرغي ويزبد. يرتمي أمام الأفعى.. تمدّ رأسها نحوه. أم عارف تسقط على الأرض. الجيران يراقبون عن بعد بذهول. تتقدم إحدى الجارات. يصرخ الدرويش «لا تدخلي. لا تدخلي. أنت لست نظيفة. ابتعدي وإلا لسعتني هذه المباركة.» هرولت المرأة خائفة. مسح الدرويش على ظهر الأفعى.. فتح لها صندوقاً زجاجياً.. انسابت على البلاط بهدوء ودخلت الصندوق. أغلق عليها الصندوق بمفتاح صغير. حمل الدرويش صندوقه ومضى. لم يقل شيئاً. لم يلتفت. صار يهمهم فقط. هبط الدرج وسط ذهول الناس وعندما صار عند الباب. رفع يديه مكبراً. يا الله. يا أبناء آدم أنتم مذنبون.

«سيأتي رجل يا احفاد آدم من أقصي التعب وأقصى الجوع. سيتبعه القانتون. وسيأتي رجل أعور، يحرق الأخضر واليابس. ويصير القابض على الحق كالقابض على جمرة. يقتلكم واحداً واحداً إلا من عصمته رحمة الله. سيسبي النساء وينهب الأرزاق. يا الله. يا الله»

احترت.. هذا كلام الدرويش أم كلام شخص آخر.. لقد سمعت هذا الكلام

ولكن لا أعرف أين. تتشابه الأسماء. ولا تتشابه الأرواح. رددت كلمات أم علي.. الاسم قد لايتوافق مع المسمى. الاسم يكون لعنة. أو يكون رحمة. رفضوني لأن اسمي عليا.. ورفضوه لأن اسمه خالد. ايه يا خالدْ. قد يكون لون البشرة أيضاً لعنة. واللغة لعنة. ولكن نحن لم نختر أسماءنا. ولا لوننا. ولا بيوتنا التي تختبيء فيها الأفاعي.. قال الدرويش: كانت الأفعى تحرسني. لكنها الآن صارت خطرة. خاف عليّ.. ما الذي تخبئه الأيام القادمة يا عليا؟!

لو أنني الآن أقشّر اسمي عن جسدي. كما يُقشّر الجسد عن الروح. ثم أسير في أرض الله الواسعة. وعندما يسألني أحدهم عن اسمي. أقول: التراب.

إنه الاسم الأكمل. الاسم الحق. التعيين. الاسم الذي يحقق المساواة والعدالة.

«مسكين يا علي» انتظرتني طويلاً اليوم ولم تجدني. أم عارف قالت: لقد ترك لك غصن «ميس». تأخرتِ يا ابنتي.

«امتحانات يا أم عارف»

شعرت بالحزن. المنزل تكور على باقة أحزان لا تفارقني. المنزل الذي خبأ الأفعى يضيق الآن. أسمع صوت امرأة تنوح في أعماقي. امرأة لا أعرفها. ولم أسمع صوتها يوماً.

«اسمعي ياعليا.. أنا جدّتك الأولى»

- يا إلهي جدتي.. آه..«متعبة أنا يا جدتي»

- ستظلين يا ابنتي تبحثين عنه، وسيظلّ يبحث عنك إلى أبد الآبدين. وكلما التقيتما. افترقتما. هكذا كما كتب عليّ. الركض وراء رجلي من «سرنديب» إلى عرفات. ومن السماء إلى الأرض. هكذا كما كُتب عليّ السعي... يهرب صوت المرأة. ألتفت حولي لا أجد أحداً... يا جدتي»

«ملعونة أنت يا امرأة. الحيّة هي خصمك» يا جدتي فكّي عني لعنة البدايات. فأنا تراب. تراب.

نظرت حولي فإذا أم عارف قربي. ماذا يا أم عارف؟

سامح يا آنسة على الهاتف. يريد أن يتحدث إليك.

انصت لوقع خطوات غريبة. أم عارف تستعجلني إلى الهاتف.

«ألو.. سامح. مرحباً»

«أين أنت؟!

«أنا في المنزل..»

«لا.. اتصلت أكثر من مرة. ومنذ مدة لم أسمع صوتك»

«كنت أزور نهر الشحادة»

«ماذا تقولين؟!»

«صدقني. كما ذكرت لك. ذهبت لزيارة علي. لم أجده. قيل بأنه ذهب إلى نهر الشحادة.. يا للخلود.. المجد لك.. نهر خصب. باسم الفقراء؟»

«طبعاً. سأحدثك عنه عندما نلتقي أتصل بك لأني أردت أن أخبرك بأنني سأخطب.»

«صحيح..؟ من؟.

«سلمى النهري»

سلمى النهري. سلمى النهري؟! رددت الاسم عدة مرات. كدت أقول: سلمى مثل ابنتك. ولكن احتراماً لمشاعره سكتّ. استدركت الموقف. آ.. سلمى ما غيرها؟!

إنها جميلة. مبروك.

أتراني تغيرت كما يقول علي وصرت أجامل.. أي صرت أكذب. هذا هو الكذب الحضاري.

ـ أنتظر حضورك يا أستاذة لتناول الغداء.

ـ طبعاً يا سامح.. وهل هناك أغلى منك؟! هل دعوت علي؟!!

ـ أجل.. جاء لكني لم أنفرد به.. كنت مشغولاً جداً. ربما نلتقي غداً متى ينتهي دوامك؟.

ـ الواحدة ظهراً.

ـ طيب. نتناول الغداء معاً.

ـ أحضر سلمى معك.

ـ سأحاول.

ـ إلى اللقاء..

ستظلين يا إبنتي في بحثٍ دائم عنه.. هو يأتي.. أنت تغادرين. والعكس هو اليقين.. وستدور الأرض. تدور ولا ينتهي البحث.

....

الأفعى في السرير. الأفعى على الكنبة. أصرخ. ولا شيء أراه. الأفعى تحت البرّاد مكورة ولكن أمدّ يدي أريد أن ألمسها.. أكتشف سمّها وأرتاح.

لا يوجد شيء.

هذه هواجس يا ابنتي. أشعر بحاجة إلى علي.. لن أكون السبب في عذابه. عندما أراه سأقول له سنتزوج يا علي. أنا التي سأقرر. ولن أسمح له بالمناقشة. بعضهم يحتاج إلى قرار دكتاتوري.

ستخسرين يا عليا.. أبداً يا سعاد. علي إنسان رقيق. على الأقل هو يعترف بوجود كائن إنساني اسمه المرأة. سعاد تقول: إن الأمور نسبية. لذلك ستتزوج من جنرال قريباً. أضحك وأقول لها: جنرال دفعة واحدة؟ مبروك إذاً. سعاد تقول: إذا مررت بمدينة العميان ضع يدك على عينيك. أليس كذلك يا عليا؟! انظري حولك. أي تاجر يسوق سيارة فاخرة ويضع عطراً فاخراً ويرتدي سنسالاً ذهبياً في رقبته يساوي الف شهادة عالية ترتدي الثياب المرقعة.

ـ ولكن هذا ليس مبرراً يا سعاد. أنتحول إلى تجار؟ ونحول المدينة إلى سوق؟ من يبني؟! من يصنع السلع.. من؟! الأمم العظيمة تبنى بطريقة أخرى.

ـ أجل ولكن لماذا عليّ تحمل تبعات مجتمع يستهلك أكثر مما ينتج. لماذا أتحمل أنا وأنت. وعلي. وسامح. وآخرون هذا العبء؟

أنا؟! بالنسبة لي هذا ليس عبئاً. بالنسبة لي المسألة مسألة قناعات. مبادىء. رؤيا إلى الأمام. بعيداً في طريق زرقاء اليمامة.

وجه علي لا يتركني. لو أن علياً لم يتأثر بالعم صالح ربما ما كان حساساً هكذا.. إنه لايقدر أن يتخلى عن أحلامه. وأنا كذلك. لكن المشكلة هزمت أحلامنا وعلينا ألا ننهزم.

- ناضلي وحدك يا عليا. ولكن لماذا وكيف؟!

....

شجرة الأكاسيا تتدلى في الساحة المقابلة لمكتبي في الجامعة. شابات وشبان ينتشرون هنا وهناك.

«اسكتي يا سعاد..»

عليها أن تسكت أمام حشد الشباب هذا. أشعر بالتفاؤل. صحيح أن الفارق بيني وبين هؤلاء الطلاب لم يكبر بعد لكنني شعرت بحزن على مقعدي الجامعي. لا. ليس على المقعد بالضبط.. على جزء من العمر لم نكن نحسب له حساباً إلى أن قتل أستاذنا.. لم يكن استاذاً عادياً. كان رجلاً عالماً، باحثاً في ميادين كثيرة. قتلوه على باب الجامعة. كان دمه يسيل بشكل دوائر لصور مفزعة. دمه كان بداية الوجع. بداية الفزع وكنا نحن طلابه في أول الحزن الممتد إلى ما لا نهاية. صرنا نخفي هوياتنا. المرء يعتزّ بهويته. نحن صرنا نخاف من هوياتنا. عندما تطلب منا. تحملها أيدينا وهي ترتعش. هذه الهوية لم نكن مسؤولين عنها أبداً. أسماؤنا مخيفة. الأسماء فعلاً هي اللعنة صدقت أم علي.

في اليوم التالي قتل أستاذ آخر في جامعة حلب. جلسنا تحت شجرة الأكاسيا.

أخرجنا هوياتنا وأخذنا نتحسسها وننظر إليها. هويات عادية مشابهة لكل الهويات الأخرى.

اسم الأب.

اسم الأم.

تاريخ الولادة

المكان.

يا للمكان المفزع. الطلاب أمامي يتهادون.. أشعر أني كبرت فجأة عشرات الأعوام. كأني ما كنت طالبة.. صرت أستاذة فجأة.

كأني لم أملأ المقاعد خربشة. والقاعة ضجة. مسحتُ وجهي.. كأني أمسح سنوات متراكمة كغبار. شجرة الأكاسيا تنحني أكثر. إنه الزمن الثقيل.

الوقت ما يزال مبكراً. الامتحان لم يبدأ بعد. هناك طالبان يجلسان تحت شجرة الأكاسيا مختبئين عن العيون مكتفين بالصمت. تذكرت خالد.. أضغط على رأسي. لا أريد أن تقرع هذه الذكرى أيامي. إني أهرب باستمرار من حلم بعيد حزين. أتنهد. أهمس «خالد».

محفظتي المدرسية مراقبة. ثيابي مراقبة. بشرة وجهي مراقبه.. أوراقي، خطّي. كل أشيائي تحت مجهر العائلة.

خالد.. تهزّ شجرة القهر أغصانها. الاسم هو المشكلة. أستاذ يطعن على باب الجامعة. وحلم يطعن. الاسم هو اللعنة.

عليا وخالد. ولعنة الزمن القديم.. هل نحن مسؤولون عن دماء هابيل وقابيل؟!

....

عندما كنا نكتب أسماءنا على جذوع التين كان دمه الأبيض يلتصق بأصابعنا، فتحمر وتلتهب.

«خالد.. + عليا =...

لم يساوِ شيئاً إلا ذاكرة مثقّبة بالحنين والرفض.

كان يكفي ان يمرّ أمامي وأنا خارجة من المدرسة حيث الشارات على كتفي والقبّعة «سيداره» على رأسي. لم نفكر بنهاية لهذا الحب العاصف الذي يجمعنا. كنا أصغر من التفكير بالزواج. يكفي إرسال وردة في كتاب. ويكفيني أن ينظر إليّ من بعيد وأنا أعبر طوابير طلاب الثانوية. أول مرة رأيته وقف على طريقي. المؤدى إلى المنزل. وقف يتأملني. لم يقل شيئاً. وحين اقتربت ابتعد إلى الجهة المعاكسة. ظلّ هكذا شهراً كاملاً. كل يوم عليه أن يتقصّد رؤيتي. وعليه أن يتركني على قارعة السؤال.

كدت أسأله أنا. ماذا تريد؟! لكن حياء الأنثى غلبني. غاب فترة ثم عاد إلى أسلوب آخر. أخذ يقرأ صباحاً على الطريق المؤدي إلى منزلي حيث كان عليّ أن أجتاز طريقاً ترابياً يمتد بين أشجار الزيتون والتين. والشوك. عندما يغيب انزعج. صرت أنتظر رؤيته صباحاً كي يقول لي صباح الخير ويمشي. في البداية لم أرد عليه. في اليوم الذي لا يقول صباح الخير.. كنت أصل إلى المدرسة عصبية المزاج. متوترة. «مابكِ؟! اسكتي يا سعاد» سعاد تعرف أني لم أرَ خالداً.. لم أكن أعرف اسمه في البداية. رحتُ أخمّن ماذا يكون اسمه. لم تعجبني الأسماء. اخترت له أجمل الأسماء التي أحبها. كان طويل القامة. أسمر الوجه. نحيل قليلاً.

وقف أمامي فجأة. اعترض طريقي وقال: أريد أن أقول لك شيئاً لم أستمع. تابعت السير. كان المطر يزخ. وكنت أرتجف من الارتباك. ارتعش صوته وهو يهمس بصوت حزين. في اليوم الثاني جاء صباحاً وقال: صباح الخير. أريد... أن... تلعثم..

لا أعرف ما الذي حدث. وجدتني بطيئة. مترددة. لم أستطع تجاوزه. دبّ في جسدي الحريق.

نظر إليّ تجاهلته. اقترب مني ولم يستطع أن يقول لي حرفاً واحداً.

«المهم هكذا» ضحكت سعاد وهي تسخر من عواطفه. اعطاني وردة ومضى كانت يده ترتعش وهو يقدم قربان العذاب الذي جاء بعد تلك الوردة.

في اليوم الثاني لم أره. ولا في اليوم الثالث. شعرت أني أنتظره. أنتظر شيئاً أجهله. غاب طويلاً.. افتقدته وأخذت الوساوس تأكلني. ربما غيّر رايه. ربما غيّر نظرته لي؟! ايرفضني.؟! بدأ الجرح يغور عميقاً في داخلي. صرت أشرد وأضيع في بحيرة الذهول. أفيق من ذهول فأجدني حزينة. لا أعرف لماذا أنا حزينة ولكن سرعان ما أنتبه إلى فقداني ذلك الشاب الطويل الحنطي ذا الشعر المجعد والنظرة الحادة.. لم يكن شكله رومانسياً أبداً. كان يبدو أكبر من عمره. لم أكن أعرف غير اسمه «خالد» وأنه في الثانوية»

حين رأيته بعد غياب طويل وهو يقف على طريقي تحت شجرة زيتون هرمة. رجفت.. شعرت بجفاف في حلقي. وانتابتني سخونة مفاجئة. أخذ العرق يتصبب مني كأني في قاعة الامتحان. ابتسم. مشى باتجاهي. تجاهلته. تفجّر الغضب في

داخلي. مشيت ولم أتوقف حين تجاوزته. تبعني. «عليا».. صوته مضطرب.. صوته الذي لا أنساه أبداً يركض ورائي وأنا أخذت أستعيد أنفاسي وعنفواني. إنه المهزوم وأنا المنتصرة

«قفي قليلاً أرجوك»

«لماذا.. ماذا تريد؟»

«ألا تحبين الورد. جلبت لك وردة»

«انظر حولك الطريق مليء بالورود فأنا لست بحاجة إلى ورودك»

«لماذا أنت غاضبة.؟ لقد كنت مريضاً.»

«لا يهمني الأمر.»

«صحيح؟! يعني أعود ولا أقف ثانية في طريقك؟»

«كما تشاء»

«إذن لن أعود.»

«.....»

اسمعي.. أنا... أنا معجب بك. وجهك لا يفارقني. مدّ يده برسالة أخذتُ الرسالة وهربت. لم أودعه. ولم نتواعد. فتحت الرسالة. كانت قصيدة حب وعذاب.»

....

ها هو الصيف.

طلاب الجامعة يتمشون في الممرات الخضراء.. نباتات العفص تشكل حواجز صغيرة، جميلة. نسمات رطبة تلفح وجهي. يقودني النسيم إلى القرية. أرى أمي عائدة من مسطح التين. أقف قربها. أحاول امتلاك الشجاعة لأسألها عن أسرة خالد ولأحدثها عنه.

«ماذا يعملون يا ابنتي؟!»

«يعملون في التجارة»

«أتعرفين أحداً منهم. ابنتهم صديقتك؟

«لا. أبداً. أستاذنا منهم»

فترة من الصمت اجتاحتني. أمي لم تعلّق على شيء لكن صمتها لم يعجبني. رأيتها تهز رأسها.

قالت وهي تنهض حاملة التين المجفف: «اسمعي يا عليا النعجة التي تخرج عن قطيعها تموت ولا يدري بها أحد»

أمي امرأة ذكية. تلمّح ولا تصرّح. وأنا لم يغب ذكاؤها عني. لقد فهمت قصدها تماماً. حاولت فعلاً أن أنسى خالداً ولكني لم أقدر. وبدأت الحجج الواهية تتراكم. مرة أقول: هو أخو زميلتي. ومرة لا أعرفه. وأخرى: اشتريت كتبه وعندما رأته أمي يقرأ على تخوم القرية أمسكت بيدي وقالت وهي تهزها.. من هذا الشاب؟

«لا أعرف يا أمي!»

«ألا تعرفينه؟! أخاف أن يطرده أخوك إذا رآه. لماذا يأتي إلى هنا كل المدينة لم تشبعه؟!».

«.....»

«عليا.. هذا الولد ليس من ثوبنا.. أنت تسيرين في طريق الخطأ وهذا يكلفك حياتك»

عليّ إذن أن أختار القطيع أو يذبحونني. اسمعه الآن يقول العبارات نفسها لي.. خالد.. اسمع يا بني.. تكرر أمه الأقاويل والوصايا والأفعال ذاتها..

هذه المرة قررت أن أخرج عن الطاعة. خلعت قميص السنين القديم الآن.. أريد خالداً. والآن أيضاً أمامي الذبح أو الطاعة. فهل أظلّ على طاعتي.؟ الموت كان الحاسم لقضايا كثيرة. «الزمن كفيل بحلّ كل شيء» هذا الزمن نفسه هو الذي عرقل كل شيء.

لم نعرف كيف نحل مشكلتنا أنا وخالد. بكى أمامي. مسحت دموعه.. وأنا بكيت في حضنه تحت شجرة التين.. عندما رفعت رأسي شعرت أن العالم كله يرانا. وأن أوراق التين تدلّ علينا. «ماالحل يا حبيبتي؟.

الحل أن ندرس.. نطمر الجمر تحت الرماد. ننهي دراستنا. نسافر. نتزوج. أهله يعارضون ارتباطه بفتاة ريفية وأهلي يعارضون تزويجي لرجلٍ ليس من ثوبي.. أجل. نتزوج بعيداً عن قيود الأسماء، والآباء، والأمكنة... و.. ولم نكمل. خذلني خالد. خذلني ووجدت له العذر. لقد راح يبحث عن حلٍ فجاءه الحل سريعاً. كان في الجامعة. وكنت في الإعدادية. كبرنا فجأة.. وجاء الصيف.

...

كان صيفاً خارقاً..

وضع الحلول للحرائق الجاهلية التي نتوارثها.

«أنت تحبين خالداً؟!»

«أنتَ تحب ريفية تدعى عليا محروم من الميراث.. من. من الاسم»

الاسماء لعنة أحياناً يا ابنتي.. تؤطرك الأسماء. تحددك.. الاسم خط يدور حولك.. يمركزك في دائرة عليك ألا تخرج منها.

ومان الصيف.

تطفر دمعة من عيني عليا.. كهذا الصيف كان الصيف.

ـ هل أكمل عنك يا سيدتي؟!!

ـ من أنت؟!

ـ أنا الراوي. أنا ظلك.. أنا ظلالك الأخرى.. أعرف أنك متعبة. الذاكرة تفيض الآن.. تطفو سنوات.. دعيني أختزِ وأساعدك.

لم تقل عليا شيئاً. ظلت تراقب الطلبة المنشغلين بالامتحان.

في ذلك الصيف. سافرتِ يا عليا إلى بيت أخيك في العاصمة.. كان عليك أن تذهبي محملة بالجبنة واللبنة والبيض لأن زوجته حامل.. وكان عليك أن تظلّي هناك فترة لا بأس بها.. غريبة ولا تعرفين أحداً. أرسلت رسالة إلى خالد تخبرينه أنك في العاصمة. لم تحددي عنواناً. ولم تنتظري رسالة. أليس كذلك؟!

ظلت دموع عليا تنساب بهدوء وهي ترنو إلى الطلاب. ذاك الطالب يشبهه.. كان له قامة جميلة. وإطلالة جذابة.

عندما عادت عليا إلى القرية رأت المنازل تغوص تحت رايات الأسى. لم تستطع تحمل ما يروونه لها.. كانت الفترة في بداية السبعينات.. شعرت أن خطراً آخر ينتظرها.. «اسمعي يا عليا.. العدو الاسرائيلي ضرب منطقة «الرميلة» حيث تلتقي الأنهار القادمة من الأعالي مع الماء المالح وحيث توجد فصيلة فدائية فلسطينية تتدرب. جاءت الطائرات عند العصر.. قصفت الشطّ والمنازل القريبة. استشهد عدد من الفدائيين وعدد من الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا يسبحون في الشطّ. وبعد أن انتهت الغارة. وراح الدخان الأسود يتلاشى.. خرج الناس إلى مكان الحادث الأليم لتفقد المنطقة.

وجاء الحل..

القنابل الموقوتة..

الصدور المكتظة بالغضب والقهر.. الشباب الذي راح يئن ويزأر من وطأة الغدر.. القنابل الموقوتة تملأ الحفر. الغاضبون يقتربون من مكان الحادث.. شباب من الريف ومن المدينة أخوة. وأولاد عمّ.. جيران وما أكثرهم الجيران الذين طمروا تحت انفجارات القنابل الموقوتة.. شظايا تطير.. تقتل البشر دون تمييز بين الأسماء.

جناح الفاجعة الأسود يخيم على القرية كلها.. أكثر البيوت منكوبة بولد.. أو بولدين.. بشاب أو أكثر.. أو بشبان لأسر متجاورة.. زرعت القرية كلها بالتعازي. ذكر اسم خالد.. أصدرت عليا صرخة مباغتة.. في المدينة كثير من الجرحى والقتلى أيضاً.. أيام علي وصول عليا وهي ما تزال حائرة، من تسأل، وكيف؟ وماهي الطريقة؟ عليها أن تذهب إلى المدينة. ستذهب إلى حارة خالد.. تنظر أوراق النعي إذا كان ميتاً. أو.. كيف تجد الحجة للنزول إلى المدينة في مهرجان الحزن هذا وقد كان لها أقرباء فيه؟.

«سأذهب إلى المدينة يا أمي»

«العمى.. ماذا تقولين مجنونة، أنت؟ ابن خالتك مقتول وابن عمك والعزاء لم ينته بعد.. ماذا ستفعلين!

«أجل.. ماذا ستفعلين يا عليا..؟! فوراً استدركت.. قالت لأمها.. والد زميلتي سعاد أصيب ويجب أن أطمئن عليها.

«طيب.. روحي ولاتتأخري»

الطريق هو الذي كان يركض وليست عليا.. الأشجار. العشب.. قلبها ينتفض «يارب أرجوك أن يكون خالد بخير» دقت باب سعاد.. خرجت زميلتها تفتح الباب.. عندما تلاقت نظراتهما جمدت سعاد مكانها. قالت عليا بصوتٍ مفزوع

«سعاد.. أين خالد؟»

«...» سعاد لاترد..

«قولي.. يا سعاد.. ما به خالد..»

«خالد.. خالد كان في الرميلة.. كان آخرهم أنقذ الكثيرين.. سحبهم من الحفر.. حملهم إلى سيارات الإسعاف. آخر جولة له كان يحمل رجلاً من قريتك.. «قولي غير ذلك يا سعاد.. مستحيل.. لا أصدق، قولي إنه في المشفى.. أو أنه سيأتي بعد قليل ليسألك عني.. قولي.. قولي.. هزت كتفي صديقتها ثم سقطت على العتبة.

ـ أنت كاذبة يا سعاد. شجرة التين ما تزال. وشجرة الزيتون أيضاً.. قصائده.. المكان الذي كنا نجلس فيه.. لا.. لا أصدق:

«هذه هي الحقيقة يا عليا».

تفتح عليا عينيها.. ترنو إلى السقف ـ ثم تغمضهما على جمر.. كيف تطفيء هذا الحريق.. كيف تعود إلى القرية؟

كيف تنتقم له. الحقد يملأ مفاصلها.. الحسرة.. تعود إلى القرية منكسرة.. تخبيء حزناً موجعاً.. لاتقدر أن تبوح لأحدٍ به.. تخبئ ناراً في صدرها.. من يساعدها على إطفاء النار»؟ أمها تراها حزينة.. تنظر إليها بألم ولاتقول شيئاً. وهي لاتستطيع أن تبوح لأمها بشيء. ومرة سألتها أمها عن ذلك الشاب.. فقالت عليا «مات يا أمي بالحادثة» صمتت الأم وترقرقت دمعة في عينيها الذابلتين ثم قالت:

«يا ضيعان شبابه»

لم تقل عليا شيئاً.. أطرقت نظرها إلى الأرض. شعرت أن قضباناً تنغرز في أصابعها.. حملت مواجعها وراحت تزور مقبرة القرية التي امتلأت بالشهداء. كانت

تبكي خالد فيهم.. تبكيه بحرقة. ضاقت القرية بها. وترمدت أحلامها. أصابها الذبول.. لم تعد ترغب بتناول الطعام. بدأت تتأخر في دراستها. وفي كل فرصة مناسبة تقول لسعاد: احكي لي كيف مات خالد..

وتبدأ سعاد بالكلام المتقطع. تختلط الأصوات. والأسماء. والده يقول: إلى هناك تذهب لملاقاة تلك الفتاة الملعونة؟!

«لا.. أبداً يا أبي أنا ذاهبٌ إلى السباحة».

كان خالد قد تشاجر مع والده صباحاً من أجل عليا. لقد قبض على رسالتها بين أوراقه.. ضاق صدر خالد.. بكى بحرقة.. مرّ على سعاد.. قال لها متى تأتي عليا.. رأته سعاد حزيناً يائساً.. وحين سألته عن أحواله قال أضيع وقتي في الماء المالح إلى أن تعود عليا، عندما خرج قال والده له: اذهب.. لعنة الله عليك نظر إلى والده مقهوراً وهمس يائساً أرجو ألا أعود يا أبي. لقد ضاقت بي ظلمة الحياة».

ركب خالد دراجة عادية ومضى. ظلّ يمضي.. وهو إلى الآن يمضي. إنه لم يعد بعد. قيل: إنه أصيب في رأسه. امتلأت عيناه الجميلتان بالرمل.. أخذوه إلى المشفى القريب.

«تأخر خالد» هكذا قلب الأم دليلها.. صرخ بها والده.. ليعد متى يشاء.. راحة منه.. ـ جارتهم قالت: الناس تذهب إلى المستشفي لتتعرف على القتلى. هرولت والدة خالد حافية. لم تضع على رأسها المنديل الأسود. دخلت تصرخ.. أريد أن أرى غرفة الجرحى.. نظرت إلى الوجوه المحزومة.. وإلى الأيدي المبتورة.. لم تجد خالداً.. انهارت على الأرض أين خالد؟»

«خالد.. من؟»

«خالد ابني.. ابني الذي يدرس اللغة»

«اذهبي يا خالة..»

«لا.. سأرى القتلى.. قلبي يؤلمني.»

رأته أمه؟!

أجل رأته مفجوج الرأس.. مغمض العينين.. نادته ولكن لم يرد.

تبكي عليا. «لم أقدر أن أرمي عليه وردة إلا في السرّ.. قال لي: عندما أموت يا عليا أريدك أن تزرعي عليّ حبقة لأنك تحبينه. إنه رائحتك.

«ما أغلظك يا خالد. ما هذا الكلام؟»

كان يشرد وفي عينيه نظرة حزن.

لم تنتبه عليا لشرودها الطويل. وحوارها الحزين مع الراوي إلا عندما اقتربت منها إحدى الطالبات. وقالت: صباح الخير يا أنسة.. أنا قريبة الدكتور سامح «أهلاً بك»

«هل الأسئلة صعبة؟»

«لا.. أبداً»

كأنها اقتلعتني من جذوري. لقد حملتني بسرعة.. أخرجتني من الماضي الحميم إلى اللحظة. صوتها الجدار الذي ارتفع بيني الآن وبيني ألـ.. قبل.

«لا..لا أقدر أن أنساه يا سعاد؟»

لا. لست متعبة. أزعجتني بعوضة لئيمة دخلت عيني. بسرعةِ أخرجت نظارتي وأخفيت بعض ملامحي. نظرت إلى الساعة وأنا أكاد أتشظى.. أرغب هذه اللحظة ألا أدخل الإمتحان. بل أن أجلس على عشب الحديقة وأطمر رأسي بمرفقي وأبكي. إنه الماضي. أو نافذة تنفتح على زمن سحيق.. نجول الطرق.. لاشيء نستطيعه إلا الصمت إزاء أشياء تبتعد وتقترب. تتلاشى. وتظهر وتلازمنا أبداً.

الجرس يرن.. الطلاب يدخلون قاعة الإمتحان. أحاط بي الطلاب «هل الأسئلة صعبة؟» أنا لا أعرف إذا كانت الأسئلة صعبة. الحياة هي الصعبة. الجواب هو الأصعب.

«أتحبينني يا عليا؟».

«ياله من سؤال صعب يا عليا.. كيف أجيب لا أعرف؟».

هل نخون أنفسنا أم نخون الذين أحببناهم عندما نحب مرة أخرى؟ أم نخون الحاضر حين نقف عاجزين عن نزع الوجوه القديمة من وجوهنا!.

لا أعرف.. لا أعرف.. لا أحد يسألني.. أرجو أن تطمروا وجوهكم في أوراقكم.. الطلاب يتسمون وأعصابهم مشدودة.. أنا ألتزم الممر الجنوبي للقاعة،

وزميلي الدكتور رياض في الممر الشمالي. وعند الباب وفي الخلف يقف بعض المعيدين والمعيدات. هذا يلصق الأسماء. وذاك يطبع الأوراق بختم الجامعة. وأنا عيني على فتاة لا تريح النفس. تضع الكثير من الألوان على وجهها تلتفت إليّ وتخفض رأسها بسرعة. مشيت نحوها بهدوء كانت مرتبكة. قالت: آنسة. الأسئلة صعبة. لم أرد. ابتعدت عنها. عادت وقالت: آنسة الأسئلة صعبة جداً.

قلت لها أرجو أن تظلي بورقتك. لا تشوّشي على زملائك. سكتت الفتاة.. ابتعدت أنا إلى آخر القاعة «أنت صعبة يا عليا.. حتى أنت يا علي تقول ذلك!» أحاول أن أتجاهل الطالبة. لكن حركاتها المريبة تجعلني أركّز عليها مع أنّ موجة حنين تنتابني وتحلّق فوقي.

مشيت بهدوء باتجاه الفتاة. نويت أن أساعدها قليلاً.. أجعلها تهدأ ربما هي الأخرى تعاني حزناً مثلي.. نحن النساء نختزن حزن أمنا الأولى والأخيرة. اقتربت بهدوء من الفتاة. فوجئت بجرأتها. كانت تنظر إلي فخذيها المرسومين بالحبر الأزرق.. لايمكن ظلّت تنورتها مرفوعة. لم ترتعش. ولم يهتز لها جفن. قلت لها: ألا تخجلين؟!

«كلهم هكذا يا آنسة. فلماذا تجرحينني بالكلام؟».

«عليك بنفسك.. أنت فتاة جامعية»؟

«ألم تجدي غيري..».

«فعلاً أنا لم أجد غيرك».

«لا.. أنت لا تريدين رؤية غيري.. بعضهم حصل على الأسئلة والآخر تأتيه محلولة بعض لحظات. أنت تريدين الإنتقام مني.

«من أنت يا فتاة. هل بيننا ثارات ولا أعرف؟! هيا تفضلي بالخروج من القاعة! رفضت بشدة. ظلتِ متمسكة بالمقعد. لكن الدكتور رياض جذبها خارجاً. سادت حالة من الفوضى لدقائق. بعد ذلك تابعت القاعة امتحانها بهدوء. بينما كانت أعصابي مستنفرة جداً خاصة بعد سماع رأي زميلي رياض الذي تمنى أن أسكت وأن أجامل قليلاً بعض التلاميذ الذين هم أبناء رجال مهمين في المدينة. لم أجادله. تركته في زاويته وانسحبت.

شعرت أن التردي لم يصب الطلاب.. بل امتد إلينا نحن الذين نبني.. فيكف يصمد بنيان نبنيه؟: للأسف لم أستطع تحمل رياض الذي عاد وكرر الحديث ذاته «أنت آنسة. وأي كلمة تجرحك. فأرجو أن تفهمي موقفي يا عليا.

«يعني عليّ أن أتخلى عن أخلاقي لأني امرأة. أنا أقوم بعملي.»

«تقومين بعملك؟! نظر إليّ ثم هزّ رأسه وغادرني.

عند عودتي إلى المنزل كان الدكتور سامح وخطيبته في انتظاري. رفضت أن نخرج إلى المقاهي العامة. أولاً لغلاء الأسعار، وثانياً لأني مرهقة.. أريد أن أصرخ بحرّية. لم أخبر سامح أي شيء. لا أريد أن أزعجه بتفاصيل يومية بعد أن صار لحياته تفاصيله الخاصة. أم عارف تعدّ الغداء. قمحية مع الدجاج البلدي «قمح مقشور» أنا أعدّ التبوّلة ومقبلات أخرى.

هالني الحوار الذي يدور بين سامح وخطيبته. شعرت بالحزن معقول: سامح يعايش امرأة بهذه البساطة؟! إنها مجرد امرأة. مجرد جسد. سامح الذي عاش في أوروبة فترة طويلة. وخبرَ المرأة يختار امرأة لا تمت لوعيه بصلة؟!

«يلتقيان في السرير معاً؟».

هكذا أظن. سيتزوجها. ثم يروضها. طبعاً الترويض غير الفكري. يعلمها أن تطبخ مجدرة العدس التي يحبها. ومحشي الكوسا باللبن. وسيعلمها كيف ترتدي ثيابها لأنه يحب المرأة الأنيقة. ستنجب له الأولاد. بعد ذلك يترهل جسدها. وبعد سنوات سيكره الحوار معها في أي شيء.. سيندم، ويقول: لقد أخطأت، مبرراً لنفسه الوقوع في علاقة جديدة. هكذا هم.. الرجال هم الرجال.. يصادقون المفتحة. ويتزوجون العمياء.. ويطلقونها عندما تنتهي مهمتها. قد لا يطلقها الرجل فعلاً ولكن يطلقها عاطفياً وجسدياً. تتحول إلى مجرد كيان في المنزل تقوم ببعض الأعمال أو بكل الأعمال، سيهرب من المنزل وسيعود إليه لمجرد الراحة فقط.. أما الحبّ فلا يمارسانه إلا في الأوقات النادرة. ستبدأ هي باليقظة الأخيرة. وسيبدأ الهرم العاطفي. وسينتهيان إلى الصمت.. صمت الأسرة المتعلمة الراضخة لضوابط الأسرة ظاهرياً للحفاظ على نمو الأطفال فقط.

«لا يجمعني بها إلاّ الأولاد. كأني أسمع زميلي الدكتور رياض».

«من الذي أجبرك على ذلك؟».

لا أعرف كيف سألت سامح هذا السؤال وأنا شاردة. لم يكن الحوار معه يستدعي ذلك. التفت إليّ مستفسراً. كنا ننظف باقات البقدونس من الحشائش الغريبة. استدركت فوراً وقلت: من أجبرك على تنقية البقدونس أمام «سلمى» غداً ستطالبك بذلك.

أليس كذلك يا سلمى.؟

ابتسم سامح. ابتسمت سلمى ثم أردفت. لا. أنا لن أطالبه بشيء.. لا أريده أن يساعدني. لا أحب الرجل الذي يدخل المطبخ. سأخدمه أنا.

«هاهي إذن تطالب بدور الخادمة.. وتصرّ عليه.. بالتأكيد علمتها أمها الدرس جيداً»

بعد أن غادرا المنزل. رحت أفكر.. أمثال سلمى هذه لها الحظّ الأوفر في الزواج لأنها تطبق التعاليم المقدسة.. فتتحول هي إلى أمها. ويتحول سامح إلى والدها.. نسخة كربون. ستغسل له قدميه. وتحمل له منشفة الحمام على كتفها.. طاعة الزوج من طاعة الرحمن يا ابنتي.

«والرجل الذي يضرب يا أمي. ويخون..؟»

إنه الصمت مرة أخرى. هذا هو الفرق بين امرأة تعمل لتحقيق إنسانيتها، وامرأة جاهلة غايتها الكبرى تنحصر.. بانضمامها إلى اسطبل الحريم. شعرت بالأسى لحال سلمى. وشعرت بخواء سامح.. لم أعرف الدافع وراء ارتباطه بسلمى.. إنه يدّمر نفسه ولكن لماذا!؟

وانتقاماً لمن؟

«أشعر بحاجة إلى فنجان قهوة كبير يا أم عارف».

أخذت قهوتي وحاولت القراءة، غير أني غفوت ونسيت الاتصال بسعاد.

......

في الصباح وأنا أهمّ بدخول قاعة الامتحان للمراقبة. جاء بواب العميد وطلب إليّ الحضور إلى مكتب العميد. لم يخطر في بالي أنّ هذا اليوم هو الأخير في

الجامعة. ولم أظن أبداً أن المرء غير قادر إلى إثبات حقه إذا كان صاحب حق: ماذا يريد العميد مني؟ ربما يريد الإطلاع على سلم العلامات. سلم التصحيح. أو أشياء أخرى. دخلت المكتب والابتسامة تعلو وجهي. لم يبادلني العميد ابتسامة.. ظهر لي متجهماً. مددت يدي أحييه.

«تفضلي»

لم يطلب القهوة فوراً كعادته. يبدو أن استدعائي جاء لأمر مهم.. بالتأكيد ليس من أجل الفتاة التي طردتها من قاعة الامتحان. هذا يحصل كل يوم تحت الظروف الموضوعية هي فتاة تزّور وتريد الحصول على مقعد في السنة القادمة. هذا المقعد من حق طالب أكثر اجتهاداً.

نظر إليّ العميد وقد انتهى من ترتيب بعض الأوراق.

«ما الذي جرى يوم أمس؟».

إذن. خسرت الرهان. كذبت ظنوني عليّ. لقد استدعاني من أجل الفتاة التي لم أعرف من هي بالضبط.

«لاشي. سيادة العميد سوى الذي تعرفه. الطالبة كانت تزور وتغش وبكل جرأة.. يعني كانت تنقل؟.

فقط؟!!

«ماذا تقصد بفقط.. أتريد جريمة أخرى مثلاً؟!

«طبعاً. لقد شتمت والد الفتاة. وأسرتها الكريمة. أنت هنا مدرسة. أستاذة جامعية مسؤولة عن كل كلمة»

لا تقعي على الأرض يا عليا.. لا تنزعي آخر أسمائك.. الروح ضعيفة والجسد واسع.. احبسي هذه الروح..»

«بهدوء قلت.. أنا لم أشتم. ولا أشتم.. ولا أعرف من والد الفتاة حتى أشتمه.. ولو كان من أسرة كريمة كما تقول لما تصرفت بهذا الشكل.. الأسر الكريمة لا تربي أولادها على الغش والكذب.

«هي لاتغش يا آنسة.. هذا امتحان. والطلاب عادة، وعبر كل العصور يفعلون

هذه الأخطاء الصغيرة. هذا غير مبرر. ولكن حاصل. مما لا يدفع بك لشتم أسرة زعرور باشا. أظنك تعرفينها..»

«هي ابنة زعرور باشا؟!

«لا. هي حفيدته.. تسمعين بزعرور باشا»

طبعاً كيف لا أسمع بزعرور باشا.. قائمقام المدينة في إحدى فتراتها المأساوية.. كان صديقاً للفرنسيين. يعني عميلاً بلغة أكثر إيضاحاً. يعني خائناً. لهذا كرموه. وسجلوا له الأفلام الوثائقية التي تدل على خدماته الجليلة.. كيف لا أعرفه نظرت إلى العميد وقلت: وزعرور باشا يعني الأسرة الكريمة يا سيادة العميد؟! كان من الحريّ أن يحرم هؤلاء العملاء من كل الحقوق المدنية.. من أين جاءتهم العراقة؟» من الكفاح الوطني ضد المستعمر..؟! من الكرم الحاتمي العظيم».. من القداسة والطهارة التي تتسربل بها نساء قبيلته.؟! أم من مساعدته للفقراء والضعفاء؟!

ـ أعتقد أن الزمن هذا لا يتسع لاستعادة ماضٍ بائس يجب ألا تخرجه من التقييم المرحلي. الجميع تعارفوا على أن بيت الزعرور باشا «بيت كريم» الرجل يستطيع أن يفك المجرمين من حبل المشنقة. وهو الآن قادر على دخول أشدّ الأبواب انغلاقاً. وقادر أن يرسل ابنته إلى أمريكا نحن نسعى لاستقطاب أبنائنا وبث الثقة بجامعاتنا.

ـ أجل هو قادر يا دكتور.

ـ إذن لماذا لا نكسبه صديقاً.؟!

ـ أقول هذا بيني وبينك. أنت عزيزة عليّ.. العين بصيرة واليد قصيرة.

ـ والمطلوب.

ـ أن تتنازلي عن قرار الفصل،تنجح الفتاة في مادتك.

ـ لتنجح أيضاً؟! وإذا رفضت.

ـ ليس لصالحك يا عليا.. أفهميني أرجوك كي لا تحالي إلى المحكمة بتهمة القدح والذم.

لم أقدر مواصلة النهار. تركت قاعة الامتحان ومضيت إلى المنزل. شعرت برغبة جامحة لمشاهدة علي.. أين هو.. المرأة تريد الرجل الذي تحبه في الأوقات

العصبية. كرهته ليذهب إلى الجحيم أو إلى نهره المقدس.. آه.. الأرض ضيقة عليّ.. البحر. المدينة زعرور باشا = أسرة كريمة. زعرور باشا الذي كان يغتصب النساء = رجل كريم. ولأنه كريم وصل إلى البرلمان.. انتخبته الطبقة الفقيرة، المضطهدة وقالت له: دافع عن اضطهادنا نحن المقهورين. هؤلاء أيضاً خائنون. أشعر باختناق. تلوح لي ابتسامة خالد الحزينة.. أريد أن أصرخ باسمه لأملأ المدينة. أحتاجه الآن.. أحتاج من أسند رأسي على كتفيه.. أتذكر أخوتي.. كل واحد في بلد.. وكل واحد منهمك ومشغول بأولاده. بثروته التي يتشهى نموها،أخي الكبير سيعدد مواعيده واستثماراته ويقول لي نحن لم نفهم المرحلة. العالم عالم التجارة. لا عالم العلم والزراعة. هه.. زراعة ننتظر أقدارها عاماً بكاملِه. التجارة ربح سريع دون أن تعرق - ازرع يا علي إذن البصل والبقدونس وبذور الخيار. تجذر بالأرض أسمعه الآن يقول لي: كل الشعوب تتجذر الآن بالأرض.

شعوب الإتحاد السوفيتي. شعوب البوسنة والهرسك. إفريقيا.. أهزّ رأسي وأتنهد بقهر «ووادي عربة.. والملك.. وقبعة القزم. أين العمامة؟! من أحرقها؟!» أجل.. علي معه حق.. يجب أن نبدأ من الأرض.. لكن لماذا أرفض العودة مع علي إلى الأرض. هل أكره حرية التراب والحقول والشجر وأفضل عليها قيد الجدران؟! يبدو أننا نتعلم القيود ونحبها.

يا لهذه الخيالات المتعبة.. قد نكون في أرضنا غير أحرار أيضاً؟! أتذكر حوار عميد الجامعة. «عائلة الزعرور الكريمة».

أضحك بصوت عالٍ.. أعجبتني هذه الصفة المرفقة. العائلات الكريمة يا صديقي الراوي.

أتسمعني؟!

العائلات الكريمة:

- ليست التي قدمت الشهداء أو حاربت.. أو قدمت الطعام للجوعى والمحرومين.. أو قدمت الشعراء والعلماء.. وليست التي ترملت نساؤها في الحروب الأخيرة.

العائلات الكريمة هي التي اضطهدت أكبر عدد ممكن من البشر أو التي حظيت بأكبر نصيب من الزكاة التي يقدمها الفقراء.

«الشيخ الفقير يعطونه زكاة أقل من الغني يا أمي؟!

«ما علاقتك أنت يا عليا.. اهتمي بدروسك»

«لا أستطيع يا أمي. أنا بحاجة إلى هذا المال الذي تعطينه للشيخ ونوّس الذي يعلم أولاده في أوروبا..»

«أخرسي وليه»

حاضر.. أخرس فعلاً.. والآن مطلوب منك أن تخرس للأبد يا حضرة الراوي. يا علي.. أنت لست من عائلة كريمة. ألم يكن والدك فلاحاً؟! ألم يطارد جدك المستغير..؟ ألست فقيراً لا تملك سيارة ولا شقة فاخرة؟!! كل إجاباتك بنعم.. إذن أنت لست من أسرة كريمة.

حين وصلت إلى قرية علي رأيت تجمعاً كبيراً على تخوم القرية.. قصدت منزل علي فوراً.. رأيته مفترشاً الأرض في زاوية عاتمة. أمه تطحن البرغل. حين لمحني صرخ «عليا» عانقني أمام والدته. دهشت العجوز. لكنها ابتسمت وأشاحت بوجهها.

«كيف حالك يا علي؟»

«كيف حالك يا خالتي أم علي؟»

كلنا بخير..

علي ينظر إليّ.. كأنه يتفقدني.. هل سرقوا شيئاً مني؟!

«عليا..» ناداني بصوته العذب.. حين يحضر علي تغيب الأشياء كلها.. وتغيب الوجوه.. يبقى وحده معي. يظلّ نظره معلقاً عليّ.. يشدني من يدي. تعالي انظري. إني أزرع الأرض.. عمل الأرض مرهق وشاق جداً والحياة في الريف ما زالت قاسية. لكن أحاول أن أنسى القسوة بالكتابة.

«صحيح يا علي؟»

«صحيح يا حبيبتي.» الكلمة الأخيرة قالها بصوت خافت. يبدو أنه خجل من أمه. أنا مشتاق إليك؟

«سعيدة يا علي لأنك تكتب» يقدم لي كرسياً. أمه تعود إلى طحنها.. أسأل علي عن سرّ التجمع الكبير في القرية؟

التفتت العجوز إلى ابنها وقالت: لا بدّ أن عليا متعبة يا بني.

«أجل.. متعبة جداً» تذكرت الجامعة لكني خبأت حزني لا أريد أن أرمي بين يدي علي أحزاناً أخرى.

أخذني علي من يدي إلى النافذة. وضع الكرسي قبالة نافذة صغيرة. ارتاحي.. سأجلب لك القهوة.. أخذنا نرشف القهوة وننظر إلى الناس.. قال علي بحزن: لقد مات العم صالح.

-كيف؟! ألم تقل بأنه مات منذ زمن؟!

- أجل.. وكل يوم يخرجونه من قبره. يطلقون عليه الرصاص من جديد ثم يعيدونه مرة أخرى. إنه القتل اليومي. إنهم يتأكدون كل يوم من موته كي ينام زعيم القرية الجديد بهدوء، ويستيقظ بهدوء. إنهم يخافون أن يعود إلى الحياة مرة أخرى. يقولون بأن فارس قد عاد إلى الحياة.

«حقاً؟!»

«أجل. نبشوا قبره. لم يجدوا جثة. ولكن وجدوا في الليالي الممطرة رجلاً ملثماً يطوف القرية. ويدعى جابر. لا يظهر إلا في المطر والرعد. «اشربي القهوة يا عليا»

«إني أسمعك.»

الزعيم صعد إلى قبر العم صالح. جاعلاً منه منصة ليقرأ خطاباً طويلاً يدعو فيه إلى تحسين القرية والتسليم بالفوارق بين بيت فلان و بيت فلان. وأن الله خلق في الأرض غنياً وفقيراً. لذلك يجب ترك الأحقاد وليعمّ السلام. وتابع في خطابه الكبير بأن ترحم على والده الزعيم السابق لكثرة تضحياته من أجل القرية. ثم أخذ يعدد خصاله الحميدة. «إنه رجل كريم. خاض غمار الصعوبات حتى استحق عن جدارة لقب زعيم القرية. حتى أن الملك الذي يوقع الآن معاهدات الصلح في الوادي الكريم. كان يراسله.. وكان له علاقة بكل الممالك المجاورة»

«وما هذه المعاهدة يا أستاذ؟»

«أرجو أن لا يقاطعني أحد. دعوني أعود إلى مسألة الرموز التي نشأنا عليها.وكبرنا على احترامها.. الشيخ شهاب حضّ عليها واحترمها. وهو خلال سفره وتجواله في العالم خلال الحقبة السوداء التي اجتاحت القرية أيام التناحر. لاحظ أن الشعوب المتحضرة كلها تحترم رموزها وتقدسها. لهذا السبب طلب إليه قائمقام المدينة الجديد أن يحتفل اليوم بوضع حجر الأساس لبناء ساحتين ونصبين لأعظم رجلين في القرية. الشيخ شهاب الزعيم الروحي للقرية. والزعيم المادي «أي والدي الكريم».

«أرجو أن تصفقوا»

طلب رجال الحاشية الموقرة من أهل القرية أن يصفقوا. أحد الشبان رفض أن يصفق. «صفق للزعيم ولاك». نظر إليهم بسخرية واشمئزاز: قيدوه ووضعوه في سيارة مغلقة. جماعة الأمر بالمعروف لم تفعل شيئاً كانت منهمكة بالتصفيق. بعض الرجال ذبح الخراف.. وآخر فجّ الناس ليكون قريباً من الزعيم.

«علي أريد أن أشرب زوفا.. هل عندكم زوفا؟» أردت أن أخرج علي من دوامة القلق. يدٌ واحدة لا تصفق. أنا مقتنعة بأن الدماء فرّت من أصابعنا نحن الجيل الذي ماعاد يفرّق بين طعم العصا. وطعم التصفيق. خرجنا إلى الحياة باتجاه حلم كبير. آباؤنا دفعوا ثمن الحلم. والآن علينا أن نكرر دفع الثمن ثانية. لماذا؟

مات آباؤنا فلم تعد القرية تحوي تعويذاتهم وتمائمهم لذلك لا تشدنا هذه القرى وفي المدينة نحن منذ زمن بعيد لكن لم نجد أباءً لنا. سقط جدار برلين من يصدق ذلك.. انهار على كومة هائلة من الجثث والبيوت المهدومة.. وصلت حجارته متقطعة إلى هنا عبر البحر الذي يخبئ في داخله تنيناً كبيراً مخيفاً.علي يبتسم بهدوء وهو يضع الزوفا.

«عليا.. اشربي الزوفا.. أريد أن آخذك إلى نهر الشحادة»

«آه منك.. إنه الأوقيانوس. أليس كذلك.. خذني يا سيدي»

«لن أحدثك عنه إلا بعد أن تنظرين إليّ وتعترفي.»

«بماذا أعترف. هل أنا مذنبة؟!»

«أجل.. تحبين غيري»

«من؟!.. لو كان الأمر كذلك ما جئت إلى هنا»

«ألا تستلطفين سامي؟!»

«ربما. ولكن لا أحبه»

«ألم تحبيّ مرة بعنف؟!»

«لماذا؟»

«لتدركي عذابي. ومدى حبّي لك»

هل أقول له أنا التي أحببت حتى لم أعد قادرة على الحبّ. هل أقصّ عليه حبي لخالد؟ الذي لم يكن ينتمي لبيئتي. خالد الذي قالوا عنه «غريب» أتحبين غريباً؟!

وقال أهله له وهم يصرخون.. أتحب غريبة؟!

خالد الغريب مات مع الغرباء في أرض واحدة. أرض حيادية. خالد الذي أحببته أصابته لعنة الأسماء. غضب والده عليه لأنه أحب غريبة. أي أحب شيطانة ستذله وتسيْئ إلى كرامة العرق المقدس. خالد الذي ضاقت به المدينة.

واتسعت له طلقة.. هكذا.. تضيق بنا رحمة السماء والأرض وتتسع لنا غباوة جاهل عن أي شيء بدافع ويحقُّ لايعرف.

أأقول لعلي.. خالد كان مشروع شاعر كبير؟ قد يظن أني أحب فيه خالد الذي مضى. ولكن هذه حقيقة.. وعلينا الآن إخفاء الحقائق..

هل أعترف له بأن خالد يحضر كثيراً ويصطحبني في مشاوير بعيدة.. وأنه هو الذي أخذني من يوم سهرة رأس السنة؟!

هل أعترف له..؟!

جهزت نفسي. وضعت العطر.. وارتديت أجمل ثوب اشتريته. حملت حقيبة يدي وأردت الخروج إلى علي.. لكنّ يداً دفعتني برفق إلى الوراء. لم آبه لذلك. فتحت الباب. فوجدته أمامي. «خالد» ناديت بشوق.. يا إلهي. نظر إليّ بحزن. مسح على شعري. قال: كيف حالك يا عليا..؟!

أنا بخير.. بخير يا خالد. أريد أن أخرج.

يا إلهي.. بكى.. قال: «أتتركينني وقد حضرت لأجلك؟»

«ولكن أنا وعدت عليّ.. هو ينتظرني الآن.. خرجت فتبعني. ركبت السيارة وجئت جابا لا.. المدينة الساهرة، المسحورة. المكتظة بالبيوت الرمادية والشرفات المزدحمة بثياب الغسيل وبراميل الكاز.. لكن مدينة عليّ كانت هي مدينة خالد.. رأيته يمشي إلى جواري دون أن يكلمني. ناديته لم يرد.. فرّت الفرحة من عيني. وطار عطري بعيداً. كان غاضباً. مشيت على غير هدى.. لم أستطع تجاوز خالد.. مشينا معاً باتجاه الرميلة.. البحر يلتقي الأنهار القادمة من الأعالي. خالد يتأوه. أخ. رأسي. خالد مابك. ألتفت حولي فلا أراه. لقد غاب فجأة وغابت المدينة. وجدتني ملقاة على سجادة الأرض «ومنقل التمز» يشتعل.. البرد شديد ورأس السنة يودعنا بالثلج الذي ينقر على النافذة».

تنهمر دمعة على خدّي أحاول أن أخفيها عن علي الذي راح يرنو إليّ بشغف مستغرباً شرودي.

«في أعماقك جروح لا أعرفها.. أليس كذلك يا عليا؟»

«لا.. أبداً يا علي..»

«لماذا لا تخبريني كل شيء. ها أنا قد صرت ملكك بماضي وحاضري.. يحب الإنسان مرة أخرى.. عندما يلتقي الشخص الذي يزيح ماضيه ويأخذ مكانه.. يبدو أني لم أنجح بعد بإزاحة ماضيك.»

«أرجوك يا علي دعنا من الماضي. نحن أولاد اللحظة. تعال نذهب إلى أوقيانوسك العظيم»

«أتحبينني؟!»

«لا أعرف. لكني أحب صوتك، وقهوتك، وأشتاق إليك، ألا يكفي ذلك؟»

«ها أنت تحبين قهوة سامح. وتشتاقين إليه.»

«أجل.. لأنه صديق عزيز.»

«يعني. أنا أيضاً صديق عزيز؟»

«أنت أكثر. أكثر.. لاتعذبني أرجوك»

«ها أنت تعيدنني إلى زمن الحب الشغاف. كأنك لا تقدرين أن تعبري بوضوح»

«الحب كالأدب.. كالقصيدة. عندما تتضح تفقد دهشتها.»

«أجل.. الحب. مثل الأدب.. يقتله الوضوح»

......

إلى الشرق والشمال قليلاً من الرملية. يوجد نهر.. على ضفته المنحدرة باتجاه الحصى البيضاء والصخور يمشي اثنان أيديهما متشابكة. يمشيان قليلاً ويقفان قليلاً. يبتعدان. ثم يقتربان.. المرأة تقطف اليغنص. والرجل يقف مشيراً بيده إلى أشياء بعيدة.. يضحكان.. أو يصمتان فجأة. رائحة النباتات المائية الغريبة تملأ الضفة. طيّون، يغنص. عيصلان.. قصب بري.. زيتون برّي.. الرجل يقول: كل هذه النباتات انحدرت إلى القاع بعد أن بدأ النهر يجف.. ألم تقرئي بأن الأنهار ستجفّ.. والناس تصاب بالذعر والعطش.. تموت الأنهار كالإنسان الفتي ويبقى الدجلة والفرات والسنّ والنيل؟!

هذه النباتات راحت تقترب من الماء. الرجل يضع يده على خصر المرأة بحنو.. يمشيان ببطء.. الشمس تنحدر قليلاً نحو الغرب.. النسمات ترقّ وتصير منعشة أكثر. يسأل الرجل:

«عليا.. كيف هو دوامك الآن. ألم تنتهي بعد؟!

«صمتت عليا قليلاً. كادت تقول له تشاجرت في الجامعة.. كادت أن تضعف وتقصّ عليه أحزانها ولكنها آثرت الصمت.»

«قريباً سأنتهي من الجامعة»

«إذاً جهزي نفسك للصيد والمشي الطويل.. والبقاء.. البقاء معي»

نظرت عليا إلى الأفق.. رأت طائراً كبيراً يبتعد.. ظلت يد علي على كتفيها.. وظلت هي تنظر إلى البعيد الغامض.

قالت: هذا هو نهر الشحادة؟!

أجل.. ألا يعجبك؟!

«جداً»

«هنا في هذه النهر تسكن عشرات الأرواح. اسمعي كنا نجيء إلى النهر لنجمع

الفطر الأبيض النابت بعد غضب الرعد والمطر.. نخرج حفاة إلى المروج التي لا تطالها المحاريث حيث يخرج الفطر فجأة. يا له من غذاء لذيذ.. الآن لم يعد على نهر الشحاده فطر.

«ولكن لماذا سمّي بنهر الشحادة يا علي..؟»

يقال.. في أيام السفر برلك، جرف هذا النهر امرأة تشحذ قمحاً لأولادها تركت أولادها في كوخ.. قالت لهم سيرجع أبوكم الآن.. كان زوجها في اليمن. وعليها أن تبحث عن الطعام لأولادها. هذا النهر يغضب فيصير كالمجنون.. ولكنه يهدأ بسرعة فيعود هادئاً، رفيقاً. تترك المرأة الأولاد وتجتاز النهر إلى الضفة المقابلة.. خفق قلبها بسرعة.. رأت غمامة سوداء تطير فوقها أينما مشت.. عادت إلى أطفالها بعد أن تجاوزتهم بمسافة.. شعرت بحنين موجع لأطفالها.. لكن الجوع الكافر لا يعترف بالحنين.. عليها أن تجتاز نهر الشحادة باتجاه «بني علي» تذرف دموعها في الطرق متذكرة زوجها.. «متى يعود ويريحني من هذا الذل؟» تشمّر عن ساقين مرمريتين لتجتاز الدوّار. تغوص في الماء. تسمع هديراً يتدفق من بعيد. تسرع.. تغوص في الدوّار.. تنهض. تتعثر بصخرة.. يقتحم الهدير المسافة المتبقية. إن الفيضان.. يجرف المساحات الواسعة.. تغوص المرأة في الماء. ترفع رأسها كفرس وتحاول السير مع التيار علها تجد شجيرة.. أو صخرة تمسك بها. تعاند الماء.. تجتاز النهر وتسير باتجاه القرى. تقرع أول الأبواب. تمدّ يدها طالبة الطعام لأولادها.

من يفتح بابه أيام السفر برلك؟ السماء والأرض ملتحمتان.. عادتا إلى سيرتهما الأولى.. الناس تغلق أبوابها في وجه الطارق. يخبئون الطعام.. أو يختبئون خوفاً من درك العثمانية التي تفاجئهم «أنا غريبة أبحث عن طعام، وما هو ذلك الطعام؟!

إنه خبز ذرة ـ خبز شعير وكر سنة. عدس. جرجير.. أو خبيزة. أو ماء وحصى وانتظار الخليفة أن يمرّ. لكن الخلفاء لا يمرون في الطرقات الموحلة.

قبل أن تغيب الشمس على المرأة أن تعود إلى أطفالها. وحده نهر الشحادة يخيفها.. ها هي تحمل الخبز وبقايا التين.. بعض أقراص خبز بالخبيزة. تنظر إلى الشمس وهي تحاول أن تسبقها. قدماها تغوصان في الوحل والماء. الغمامة تغطي الشمس. لكن الشمس تهرب من جهة أخرى.. تلوح مروج العيصلان واليغنص..

والديس الذي يرتفع كتلال صغيرة خضراء تخبئ الوحوش المفترسة. ها هو النهر. هاهي المرأة. إنهما يتصارعان على الحياة. تحمل المرأة عصا طويلة وتنهمر باتجاه الماء كأنها تقود قطيعاً من الموج تخرج كمهرة من النهر. من الطوفان. تركض باتجاه الكوخ.. العتمة طاغية - يبدو أني ضيعت الجهات.. لا دليل أمامي إلا السماء والماء.. تجول بصرها بكل الجهات - «هناك كوخ أولادي» تسير باتجاه الهناك. تقترب من الهامات السوداء التي تظهر بعيداً. تقترب فإذا بها تلة ديس.. تسمع عواء ذئاب.. حشرجة ضباع. تهرب نحو قبة سوداء أخرى. أين ستهرب. لقد رحل الكوخ.. تصرخ بكل شراسة القهر. تنحرف إلى جهة أخرى حيث فروع الماء المنبثقة عن النهر الأم «ها هو الكوخ» لا.. إنهُ بقايا كوخ. تنحني على الأغصان والأعمدة الخشبية تتفقد أطفالها.. لا أحد.. ياإلهي.. الماء يغمر كل شيء. إنه العماد الأول.. اتحاد الأجزاء بالكل.. يا إلهي. تصرخ المرأة - قلت لهم انتظروني.. سأجلب الخبز.. سيأتي أبوكم.. لم يأت أبوهم.. يلعن أبو تركيا.. يلعن أبو الجوع.. جرف الماء كل شيء والمرأة جرفها الحزن. كانت تصرخ بين النهدة والأخرى. ولكن لا صدى إلا هدير الماء الجبار وعواء الذئاب.. مزقت المرأة ثيابها ورمتها في النهر.. قال النهر: تأخرت يا امرأة السفر برلك. طغى الجوع بأولادك.. فأخذتهم. أنا أرحم بهم من - العصملية - الذين سيذبحونهم.. أو سيطلقون الرصاص على نحورهم الصغيرة يا امرأة سفر برلك القادم. اسمعيني: أولادك خرجوا من الكوخ. نادوا «أمي» مشوا وراءك. يريدون السير في طريقك.. الطريق نفسه يفرقنا.. خفت عليهم من الجوع الكافر.. وصلوا النهر كما وصلت أنت.. وصلوا وغاصوا في جسدي.. لا تحزني.. سيتجذرون في أطرافي وستغمر أرواحهم يديك كلما شممت رائحة أعشابي.

ظلت المرأة طيلة حياتها تشحذ.. وكل ما تجمعه نهاراً ترميه مساءً في النهر.. «خذ يا نهر. خذ هذا الطعام لأولادي» ابيض شعرها.. لم يعد زوجها ولم يعد الأولاد.. باحثة عن أطفالها.. هذه الصفصافة لا ترخي أغصانها إلا فوق الماء.. قال درويش القرية.. هذه الشجرة. هي الأم التي مات أولادها.

تذرف عليا دمعة حارقة وهي تتأمل النهر الجبار.. قالت لعلي: ظننت أن النهر سمّي لأسباب أكثر إنسانية..

شدّ علي على يديها وقال وهو يتابع السير: «ولكن هناك قصة أخرى لهذا النهر الأخرق.»

يقال ..نهر الشحادة. نهر امرأة مقهورة. نهر الأنثى الربة.. الصخرة. نهر «البقرة هيرا» نهر المرأة التي أحرقت عواطفها وجسدها.

يقال: هو نهر امرأة عشقت حتى ذابت في النهر في زمن كان القتل فيه أكثر براءة من العشق. «اسرق ولا تعشق».

«عليا تعارض علي.. والآن كذلك.. الأمر لم يتغير كثيراً على الرغم من مرور قرن تقريباً»

المرأة عشقته.. عشقت رجلاً من أعالي الجبال سراً. كان يغزو الأغنياء ليحمل الحبوب والخبز إلى قريته.. رآها.. صار يأتي لمشاهدتها.. لم يعد يهتم للجوع.

يختبئ في عيصلان نهر الشحادة.. يتوسل للمساء أن يأتي. يهبط المساء بكل غربته ووحشته على نهر يغوص تارة وينبسط تارة أخرى.. تأتي المرأة.. تلتقي الرجل الذي تحبه تحت غطاء المساء على فراش الحصى. يهرّبان جوعهما القديم.

إرثهما القديم. هو يرحل. وهي تحبو باتجاه القرية المجاورة، ذات صباح هطل المطر غزيراً في كانون.. رفعت نباتات السّعد راسها عالياً شاكرة المولى زمجر جوبيتر.. انفجرت الأرض وخرج الفطر الرائع من العالم السفلي إلى العالم العلوي. انتشت الأرض بثمارها. انتشر الأطفال يبحثون عن الفطر.. اقترب المساء.. عاد الأطفال إلى أوكارهم حفاة، عراة، محملين بالفطر.. أشعلت قناديل الكاز. دخلت الحيوانات القليلة، الهزيلة إلى الزرائب، أقفل عليها خوفاً من قطّاع الطرق.. بعض القرويين ينام مع بقرته في بيت واحد. فضاء واحد. اشتعلت قرامي الحطب في حفرة وسط «سيباط المنزل» علا الدخان إلى الأسطحة الترابية المحمولة على خشب الزرنزخت.. مرّ الجنود الأتراك من هنا.. اغتصبوا زوجة المختار.. لم يجرؤ أن يرفع صوته.مرّ الفرنسيون واغتصبوا ابنة الزعيم. كوفئ الزعيم بالسلطة المطلقة. مرّوا جميعاً والنهر هو النهر. والمطر هو المطر. الذي يجعل النهر يثور. والمرأة هي المرأة. امرأة ما تلاقي رجلاً ما في بطن النهر هرباً من القناديل والعسكر. تعانقا.. مدت المرأة جسدها فراشاً. ومدّ الرجل جسده غطاءً.. هطل المطر. نبت الفطر ارتفع فوق الأرض..

شهق الماء. شهق الحصى. ضجت الضفاف بطميها. غضب الرعد من امرأة عنيدة. ثار النهر. جرف الحصى. وجرف المرأة.. تشبثت بالرجل.

امرأة ما.. تتشبث برجل ما لأن حبهما أقوى من نباتات العيصلان.. جرهما النهر.. ساقهما إلى البحر. البحر يأخذ دائماً. والنهر يعطي دائماً.. الرجل تخلّص من المرأة. قذفهاعنه بعيداً «ليس ضرورياً أن نموت معاً» لملم نشوته ومضى.. كان السيل يعوي. وكانت المرأة تطفو فوق الماء العكر.. أما ثوبها.. ثوب الشحادة الذي كانت تتنكر به لتخرج إلى حبيبها.. مزقته عيدان اليغنَص وأغصان الأشجار المتهاوية في الماء. تمزق ثوب الهوى وتعلّق في جذع شجرة زيتون تميل قريباً من سطح الماء. بقي الثوب.. ذابت المرأة؟ وعند مصبّ النهر.. نبتت شجيرة شائكة. عليقة.. أوراقها تشبه مزق الثوب.. وألوانها مزركشة بألوان الثوب - كل عام يجرف النهر هذه العليقة الغريبة. وكل عام تنبت في المكان نفسه.. يركض الأطفال حولها باحثين عن الفطر. يضحكون ويقولون.. هذا أوان الفطر.. لقد نبتت «الشحادة» وقد تكون هذه «الشحادة» جدتنا، خالتنا.. وقد لا تكون.

«وقد لا تكون.. ياعلي.. هذه نوافذ تنفتح في صدر الزمان لنرى وجوهنا الأخرى أليس كذلك؟»

«أجل يا عليا..انظري، الشمس تميل.. ضفادع النهر تنق.. علينا الرجوع.. هل أوصلك أم تبقين الليلة في القرية لأكمل لك قصة النهر.»

«لا.. أبداً. يجب أن توصلني.. لا أستطيع البقاء.. تعرف أني موظفة.. في الطريق ستكمل لي الحكاية.. أوصلني إلى مفرق الطريق. آخذ سيارة وحدي. لا تتعب روحك.»

«حاضر.. كما تشائين - هيا إذن.. لا تقولي: آخ تعبت.»

«سمعاً وطاعة.»

«أتعرفين..؟!».

«ماذا؟!»

«أنا؟!»

«أنت ماذا - قل»

«أنا.. أنا مشتاق إليك»

«أعرف..»

يضحكان.. ويتابع علي سرده

«ويقال: سمي نهر الشحادة لأن امرأة شحادة في الأربعين من عمرها.. الرجل من قريتنا. والمرأة غريبة» هذه المرأة كانت جميلة.. وكان زوجها عاجزاً وكبيراً في السنّ. دفنت المرأة أولادها في مرض الطاعون أيام الجوع وبقي لديها ولد وحيد، حملته بين كتفيها وهربت به عندما هاجم الأتراك ورجالهم القرية لتطهيرها من سكانها.. اختفت المرأة في غابات الجبال قاطعة الوديان والجبال - مجتازة آلاف القتلى باتجاه الجنوب.. إلى السهل البحري.. هدّها الجوع واليأس - لم تقدر على حمل نفسها.. لجأت إلى قناة رومانية في عمق الجبال مليئة بالديس. والأشواك الأخرى.. قبعت في هذه القناة خائرة القوى. لم يعد في ثديها حليب لتطعم طفلها.. مرت أفعى أمامها.. انتفضت من شدة الجوع.. إنها فرصتها الأخيرة للبقاء على قيد الحياة.. نهضت وأمسكت بعنق الأفعى.. خنقتها.. حتى الموت.. نزعت رأسها وجعلت سمّها ينقّط على الأرض.. عند اطمأنت لذلك.. راحت تقضم الأفعى.. نظرت إلى طفلها الذي يغالب الموت.. سمعت صهيل خيل.. لابد أنهم.. الكلاب. وأزلامهم.. زحفت على بطنها.. خرجت من القناة بالإتجاه الآخر.. وتركت ابنها يموت على بوابة القناة وفرت بين الغابات.. وبعد عذاب طويل.. لجأت هذه المرأة إلى قريتنا.. ولكي تحتمي برجل. تزوجت رجلاً هرماً سرعان ما أصبح عاجزاً ويحتاج إلى الذي يعينه على الحياة.

المرأة كما ذكرت كانت جميلة. فارعة الطول.. تلبس الصبر. وتدور على نساء القرية. تخبز مع أم سليم - وتطبخ مع أم حامد.. وتسنبل مع أم صالح.. كي تعود آخر النهار.. بالطعام لزوجها.

كان الرجل يغضب لغيابها الطويل.. «تعودين متأخرة يا امرأة»

«الشغل كثير.. والعطاء قليل. أحياناً أذهب إلى القرية الأخرى»

«ألا تخافين من التأخير ليلاً..؟!»

«لا تخف عليّ يا عثمان.. أنا أكلت رأس الأفعى»

«لقد هرمت يا امرأة ولا أملك إلا الخوف عليك.»

«على ماذا تخاف.. إني بقايا امرأة.. نم. ولا تزعج نفسك - إيه.. يا عثمان.. اللقمة هي شاغلي الوحيد.. تتنهد المرأة بحرقة وتذرف دموعاً مقهورة.»

· يتكور عثمان قرب الوجاق. وتتكور المرأة على جلد خروف مهترئ.. وذات رعد.. وذات مطر ووكف. برد.. وطوفان.. وضعت زوجة عثمان على رأسها كيس قنب.. صنعت منه معطفاً واتجهت إلي قرية بيت العروس.. ترصدها النهر واستقبلها بالحيوانات المرمية على جسد الطوفان.. نظرت إلى الماء المتدفق بحزن.. لقد وعدت امرأة في قرية بيت العروس بأن تأتيها باكراً لتساعدها في العجين والخبز على التنور لتنال قوت يومها. نظرت حولها ربما تجد بعض الخبيزة أو الهندباء. ولكن لا شيء سوى المطر وحفر الماء. والنهر.. البرودة تقصّ أصابعها. طال تأملها للماء. شعرت أنها بحاجة إلى البكاء. أخذت تبكي. لكنها انتفضت حين شعرت بيد تطوقها من الخلف. قفزت فزعة فإذا بها أمام «رجل الفطر» إنه هو.. اقترب منها.. ركلته.. رماها على الأرض. وقفت مزمجرة مثل لبوة «سأصرخ». ابتسم: اصرخي.. نظرت حولها.. لاشيء.. لا أحد. إلا الماء. رجل الفطر هذا الذي يخلّص الأطفال فطرهم الذي يجمعونه. يضربهم ويختفي. كلهم تحدثوا عنه ولكن لا أحد يجرؤ على ذكر اسمه. قالت له: أيها الوغد ماذا تريد؟!

قهقه وقال: ألا تعرفين؟! معك حق.. يبدو أنك نسيت فزوجك عجوز مهترئ.

قبضت على بعض الحصى.. إذا اقتربت سأشق رأسك.. أنا لايقال لي ذلك.. زوجي بالرجال كلهم.. وظفره بشواربك.

«لا.. لا.. طولي بالك.. قبض على يديها.. جذبها إليه. فركلته بساقها»

ركض وراءها.. سقطت في الوحل.. قهقه النهر.. النهر أيضاً مع الأقوى.. نادى الرجل بأعلى صوته: ماذا يا سيدي

ألم تستطع أن تفك حزام المرأة؟!

لم يقدر الرجل أن يفك حزام هذه المرأة الشرسة.. راحت تركض. تركض. تقع وتركض.. لم تجد أمامها إلا النهر. دخلت جوف الماء. السماء تمطر.. النهر يمشي ساخراً. توقعت أن يرأف بها الماء. لكنه جرفها.. تتمسك بالعيصلان، يتشلّع

العيصلان.. يتبعها الرجل.. يغوص في الماء. النهر يمشي باتجاه البحر.. النهر لا يقف. ولا يعود. يلقي حمولته في جوف الأوقيانوس الأعظم.. الحمولة يأكلها السمك. والسمك يوزع على الزعماء.

في المساء لم تعد الشحادة.. وفي الصباح لم تعد.. عثمان يتكور عند الوجاق والعسكر العصملي يصل القرية ويبدأ حملة النهب والتفتيش والقتل عثمان يبكي زوجته ويأمل عودتها ذات مساء.. إنها شرسة.. إنها أكلت رأس الأفعى.. إنها. إنها لم تعد.

حزنت عليا.. غمغمت بصوت خفيض «لقد تذكرت حقبتي القديمة أيام السفر برلك»

«عليا.. أكاد لا أصدق أنك عشت كل هذه الأجيال؟!

«لماذا لا تصدق؟! عجائب الحياة كثيرة. هل اكتشفنا عجائبها كلها لتلغي عجائب جديدة؟!

«النهر يحمل تاريخ حقبة من العذاب الذي عشناه قديماً»

كنت امرأة أخرى. عشت حياة غير هذه. أنا متأكدة من ذلك؟ هذا النهر يخصني. قد أكون واحدة من هاتيك النسوة. أو قد أكون طفلة من الأطفال الذين كانوا يجمعون الفطر.. كل شيء ممكن.. من يقدر على تكذيب قدرة الله..؟!

«الجسد لعنة يا خالتي. الجسد لعنة كالاسم. أليس كذلك. يا أم علي؟!

أتريدين أن أقول لك يا أم اسماعيل؟!

«علي ابنك كنت ستسمينه اسماعيل.. سأناديه بهذا الإسم. ربما تزول عنه كآبته. يجب أن تزول.. ها أنا بدأت أكتمل.. نصف مؤنث ونصف مذكر.. منزل مشترك اثنان = واحد = فرد كامل.. لقد تجاوزت الثلاثين وعليّ أن أجمع انكساراتي لأصنع هرماً واحداً.

......

يجب أن أخرج إلى عالم جديد. جسد جديد.

كانت عليا راغبة في ذلك. أخذت تعدّ الخطط لتنفيذ مشاريعها. ستحاول أن تعيد

«علياً» إلى المدينة ليبدأ كتابة جديدة. إنها مقتنعة بأنه شاعر كبير. وجوائزه التي نالها لم تكن مجرد لعبة أو تسلية. يبنيان بيتاً صغيراً له حديقة. له أشجار مثمرة ومساكب نعنع وبقدونس. ستأتي «بالجنيداتي» لتخرج من المنزل الأفاعي التي تطاردهما.. ستربي الحمام وتزرع الورد. ويشتريان سيارة يزوران القرية باستمرار لزراعة الخضار.. «سيارة ومنزل معاً؟!» أخذت تضرب وتجمع وتطرح فلم تصل إلى حل..

لابدّ من مئة سنة عمل كي يتمكنا من شراء سيارة ومنزل معاً. تتذكر سامي. الذي ورث منزلاً وسيارة وبساتين مزهرة إنه ما يزال في بداية الثلاثين. ولم يعرف كيف تحكم الناس بهذه الأشياء ولا كيف تتعب للحصول عليها.

«إنها إرادة الله يا ابنتي» تتنهد بحسرة.. علي يراسل بعض الصحف فقط إنه عالة على أمه العجوز «أم علي تقول.. آخر زمن والله.. نربي ونتعب حتى نرتاح ويريحونا.. ولكن نموت ونحن حاملين تعبهم» أهل القرية يتهامسون ويسخرون منه «هيه.. ماذا تزرع يا أستاذ؟! والله لو أنك ما عذبت حالك بالدراسة كنت جنيت ثروة من الأرض».

«تصوري يا عليا.. الآن.. هذا الآن.. يتعب المرء ـ يدرس.. طبيب.. مهندس.. ليتحول إلى فلاح يزرع ويشقى كي يعيل نفسه.. طيب من الأول يا علي»

«هذا ليس حلاً أبداً.

أحياناً يشعر علي بشراسة الفلاحين وسخريتهم اللاذعة على الرغم من طيبتهم وعفويتهم. لكن سرعان ما يغفر لهم.. إنها الطبيعة القاسية.. والشقاء.. كل هذه الأشياء تجعلهم أجلافاً قساة أحياناً. الجوع يحوّل الإنسان إلى ذئب وهم عاشوا قروناً من الجوع.

الهاتف يرن.. لا بد أنه سامي. صوته المجروح يحشرج عبر الأسلاك «مابك يا سامي» تقول عليا ملهوفة.

يتلعثم.. لابد أنه يخفي شيئاً. كنت أود رؤيتك..

«غداً نلتقي.. غداً.. تصبح على خير»

بدأت نسمات البحر تبرد.. إن هجير الصيف بدأ. الليل يلقي بحمولة الضوء في البحر.. تتذكر سعاد ـ لسعاد آراء حادة أحياناً لكنها صحيحة.. أتراها مخطئة؟!

لا تعرف عليا.. لا تجزم بشيء.. ولكنها تحب سماع آرائها.. كل رأي صحيح يخرج من تجربة.

عندما استيقظت عليا صباحاً.. فوجئت انها استيقظت بلا منبه وبلا وخزات أم عارف مع انها سهرت طويلاً. لاحت لها وجوه كثيرة.. وجوه تريد الهروب منها.. لكنها لم تقدر.. صورة نساء نهر الشحادة عالقة في رأسها.. صورة الفتاة الخرساء.. العم صالح. الذي صارت تعرفه جداً.. جدتها نعامة.. زعيم قريتها برهان الأدهم.. أخوتها الغرباء.

الساموك الذي ما يزال صامداً يحمل منزل أسرتها القديم وتسند أمها ظهرها عليه متوسطة المنزل. تحاول إبعاد هذه الصور.. تتعارك معها.. لا تقدر الإنتصار.. سألت نفسها.. لماذا تشغلني الآن هذه الأفكار. أتكون أمي مريضة؟! هي تسكن وحدها. ماذا لو عدت إلى القرية.. أسكن مع أمي. ولكن لا.. لا. لا أقدر.. الوحل والعتمة.

ومياه الآبار.. وانتظار السيارات.. والوقت المهدور على الطرقات.. لا. لا أستطيع العودة إلى الوراء.. الريف لم يتقدم إلا قليلاً لذلك السكنى فيه عودة إلى الوراء.

آه.. لو يصير الريف كالمدينة مثلاً. على الأقل يرشونه من البرغش.. على الأقل لا تغيب عنه الكهرباء أياماً.. على الأقل.. لابد أن أمي متعبة.

رتبت عليا أوراقها بعد أن تناولت قهوتها كي تخرج إلى الجامعة. الشمس حارة هذا الصباح. أيقظت أم عارف. قرأت عليها خطة اليوم.. المطبخ.. التنظيف. سعاد التي تأتي فجأة. لا تتركيها تذهب حتى أحضر. أسمعت يا أم عارف؟!

«حاضر يا آنسة»

شعرت بالإمتعاض لأن أم عارف قالت حاضر. لماذا تشعر أم عارف هذه بأن عليها تنفيذ الأمر.. أرادت أن تعود مرة وأم عارف لم تنفذ الأمر. أن ترفض مثلاً لانها لا ترغب اليوم بالعمل. النساء لا يأخذن إجازة إلّا إلى إجازة القبر. المرأة العاملة = عدة نساء. تذكرت صديقاتها المتزوجات. يعملن أربعاً وعشرين ساعة. لا يملكن الوقت للإلتفات إلى أناقتهن ووجوهن. ولا الوقت للقراءة. لذلك ينغلقن على الكتب التي درسنها للأسف.

أسطورة نهر الشحادة تظلّ ماثلة في عيني وذاكرة عليا. تشعر بالشوق لسماع صوت علي. بدأت تتفتح الورود على خطواتهما. تهبط الدرج المؤدي إلى باب الجامعة. دخلت قاعة الإمتحان. كانت أنيقة ومشرقة. ترتدي ثوباً أصفر وتترك شعرها الأسود يتموج على ظهرها.. عطرها الناعم ينفذ عبر طبقات الأثير.. ردهات القاعة طويلة، مشجرة بصوت علي. بالأوقيانوس العظيم..

معجبة جداً بأسلوب علي الشيق.. عند خروجها من الجامعة ربما تزوره.

مشت إلى آخر القاعة وفي الوقت الذي أرادت أن تسند جسدها إلى الجدار دخل بواب العميد.. أين الآنسة عليا؟»

تقدمت بخطواتها الرشيقة.. سلّمها البواب كتاباً يدعوها إلى غرفة عميد الكلية. اتجهت مباشرة.. كانت خطواتها سريعة.. متوترة. وجهها اربد بألوان غاضبة. قرعت الباب ودخلت. «خير يا دكتور؟!»

«تفضلي. تفضلي.» قال الدكتور بهدوء محاولاً إسباغ الجو بالطمأنينة. دخلت إلى الكنبة التي تواجه العميد والتي تقبع فوقها ساعة حائط كبيرة تدق كل نصف ساعة. طاولة العميد مرتبة.. عليها بعض التماثيل الصينية الصغيرة والهندية ورأس كليوباترة.. وقفت أمام الكنبة. قال لها العميد. تفضلي. لكنها ظلت واقفة.

نظرَ إليها العميد ثم أطرق في أوراقٍ أمامه وسأل «ماذا قررت في سوزان الزعرور؟»

«من سوزان الزعرور؟»

«الفتاة التي طردت من الإمتحان؟»

«لم أقرر شيئاً»

«يعني.. ستنجح في مادتك.. أنا هكذا رأيي خصماً للخلافات والمشاحنات لن نقدر أن نصلح الكون عن طريق إصلاح الفرد»

«ولكن هذا ليس رأيي.. الإصلاح يبدأ من الفرد. وأنا لا أقول بأن مهمتي أصلاحية.. أتريدني أن أخون نفسي؟»

«نجاح طالبة خيانة؟»

«نعم. الفقراء يعيدون السنة. أو يرسبون لأنهم لا يملكون المال الكافي لاستئجار غرفة وبالتالي ينقطعون عن الدوام.. أما هؤلاء أمثال سوزان الزعرور والتي لا تعنيها شهادة الجامعة إلا للمفاخرة تكون خارج القانون. ومن الذي يتواطأ معها.. أنا؟! ضع أنت العلامة يا سيادة العميد.. قادر أنت على أن تفعل ما تشاء بالجامعة.

«سيقيمون عليك دعوى قدح وذم..»

«أنا..؟! المفروض يا دكتور أنك تعرفني. وأنك لا تقبل ضمن حرم الجامعة المقدس إلا ذوي الأخلاق الرفيعة.. عليك أن تدافع عني. لأنك بذلك تدافع عن مدرسيك وهيبة جامعتك. أتريدني أن أتراجع عن قراري أمام طلاب الجامعة؟! ستهتز صوري وصورتك أمامهم وستفقد الجامعة احترامها وحصانتها.

«أعرف. أعرف. ولكن والدها «يده طايلة» ولا يقبل أن تهان ابنته.»

لا.. هو يقبل أن تهين ابنته الآخرين. يرتعش صوت عليا من وطأة الظلم، نفخت. كادت تتهاوى على المقعد.. جلست وهي تردد.. ما هذا الزمن.. يا إلهي. أنحن في غابة؟! ابنته حريتها مطلقة. تغش. تسرق. تشتم.. تدعي ما تشاء وعلينا الإحتفاظ بابتساماتنا الوقورة،لم تكمل عليا كلامها حتى فتح الباب دون استئذان. دخلت الفتاة ومع رجل لا بدّ أنه والدها. وعند الباب وقف عدة رجال بحالة استعداد.

أهلاً. أهلاً. نهض العميد.. أخلى كرسيه للسيد «الزعرور» طلب القهوة بسرعة وعرّف بالإستاذة عليا. ابتسم وراح يروي بعض «الفكاهات التي ترطب الجو المشحون..» طلب الأب الكلام. فقال العميد تفضل: تفضل يا باشا.. عندما سمعت عليا هذه الكلمات المتملقة امتقع لونها وصارت يدها ترتجف وهي تحمل فنجان القهوة. وضعته على الطاولة وراحت تتأمل الجو المليئ بالذئاب.. خيّل إليها أنها المرأة التي هربت حاملة ابنها باتجاه نهر الشحادة.. الخيول تطاردها.. والغابة مليئة بالذئاب والوحوش البرية.. الافعى التي أخذها الدرويش عادت إلى المنزل.. أخذ تنفسها يتسارع. نظرت إلى العميد. رأته يقصر كثوب مغسول نظر الزعرور إلى عليا من رأسها حتى أخمص قدميها.. «زانها.. وراز ملامحها»

«إيه يا آنسة.. أنا لم أدخل أبداً حرم الجامعة الوقور.. لا مشاكل لنا أبداً. ولا نقبل أبداً بإثارة المشاكل.. فالجامعة مكان للعلم، وليس للشتيمة.»

«طبعاً..»

عنقت عليا بسخرية..

«وإذا كان الأمر كذلك.. فلماذا شتمت أسرتي. وأصلي.. وطردت ابنتي» نظر إلى عليا.. لم ترد.. كان العرق يتفصد من أصابعها.. ماذا يقول هذا الرجل.. إنها لا تقوى على الرد.. بماذا تقنعه وقد جعل المشكلة ترتدي ثوباً آخر. من يقتنع أنها لم تشتم؟ كان الحوار استفزازياً. ومقرفاً.

وقفت. نظرت إليه وقالت: إذا كان الحوار سيكون بهذا الشكل فيجب أن ينتهي وأعتقد بأنك تعرف بأني لا أسمح لنفسي بشتم طالبة أمام زملائها. أنا في الجامعة ولست في حقل قطن أستعبد الناس وأفلح عليهم؟!

احمر وجه الأب. بدأ العرق يتصبب منه. نظر إلى ابنته. ماءت الفتاة كقطة.

«أجل ـ يابابي ـ لقد هزأتني وأنا أمام زملائي. وشتمتني»

نظرت عليا إلى العميد متوجهة بالكلام إليه. بإمكانك استدعاء الدكتور رياض.

قال الأب: لا نريد أن نستدعي أحداً. نريد أن نسوّي الخلاف. تصححين ورقة الطالبة ونتنازل عن حقنا؟!

«آ.. يعني لكم حقوق عليّ..؟ آسفة يا سيد.

«آسفة؟» قال الزعرور بهدوء. آسفة بعد أن شتمت ابنتي ووالدها. وأهنتها؟! كان من المفترض أن أجرجرك إلى النيابة.

كانت السماء سوداء قاتمة في عيني عليا. لم تقو على الكلام. نظرت إلى الساعة التي ترن برتابة خانقة. شعرت أن هذا الطنين كله يأتي من رأسها.. تظل محافظة على وضعها الهادئ من الخارج.. الجامعة لا تقدر أن تحميها؟! تمنت لو أنها الآن تستند إلى ساموك منزل أهلها القديم. وتبكي.. تريد أن تبكي. أن تصرخ.. لا.. بها رغبة الآن لأن تكسر هذا الساموك.. يجب أن ينهار السقف. يجب أن تبحث عن جدار تستند إليه.

العميد يطلب من البواب أن يأتيه بالدكتور رياض.

سلّم رياض بانحناءة خفيفة وعندما بدأ استجوابه.. صمت برهة وبعد أن نظر إلي عيني عليا الغاضبتين.. قال: ياباشا.. يبدو أن الأستاذة كانت متعبة. لذلك لا ضرورة لكل هذا التشنج.

ابنتي تقول بأن الأستاذة شتمتها، وشتمت عائلتها.. وأنا أعرف ابنتي هي لا تكذب. لقد ربيتها على الصراحة والإحترام.. ألم تسمع شتيمتي يا دكتور؟!

قالت عليا ـ لماذا وكيف يكون الحوار حول الشتيمة ولايكون حول غش ابنتك التي ربيتها على الصراحة.. لنقل ابنتك ماذا كانت تفعل؟!

تنحنح الدكتور رياض وظلّ صامتاً.

قل يا رياض. قل ما سمعت.. سأله العميد

قال رياض.. أنا كنت بعيداً. لم أسمع شيئاً. ولا أعرف لماذا رأيت الآنسة سوزان خارجة؟

نظرت عليا إلى رياض.. كادت أن تصرخ في وجهه:«ألم تسمع شيئاً؟!»

قال العميد: أين كنت إذن يا رياض. ألست مع الأستاذة عليا في القاعة؟! هاتوا المعيدة رجاء..

قولي يا رجاء. ماذا سمعت؟!

«لم أسمع شيئاً»

«هل سبّت الآنسة عليا الآنسة سوزان؟»

«لا أعرف.. ولكن سمعت الطلاب يقولون بأن عليا شتمت سوزان ورفعت يدها تريد أن تضربها»

قال الأب للدكتور رياض.. يا دكتور.. تذكر.. ألم تسمع شيئاً في القاعة.. ألم تلاحظ أن فتاة بريئة تخرج من الإمتحان؟!

قال رياض.. نعم رأيت سوزان تخرج.

ـ معقول.. ألم تسأل لماذا تخرج هذه الطالبة؟! أليست سوزان طالبة مهذبة؟!

ـ نعم.. بالله.. إنها طالبة مهذبة. مجتهدة. ولكن كما ذكرت عليا كانت متعبة ثم مال على السيد الباشا وهمس له بكلمات غير مفهومة.

يرفع الباشا صوته. يعني أنك لا تتذكر شيئاً؟!

ـ لا أعرف يا باشا.. ربما شتمت.. فعليا زميلتنا محترمة ولكنها عصبية قليلاً نظرت عليا إلى الوجوه.. لم تستطع عينا رجاء أن تلتقيا بعيني عليا.. انشغلت المعيدة بمراقبة اللوحات والستائر الجميلة وشهادات العميد المعلقة.. قال العميد بعد صمت : حلاً لهذا الخلاف. أجد أن الصلح أفضل. كل واحد يعتذر للآخر وتنتهي المشكلة. لا تهتم يا سيد زعرور.. الأستاذة قلبها طيب؟ لا بد أن تصحح ورقة ابنتك، يا أخي الواحد يتشاجر مع نفسه» لم ترد عليا.. ظلت ساهمة.. كأنها غير موجودة. وحين كرر الدكتور رجاءه.. قالت عليا: آسفة.

«أمي الفلاحة قالت لي لا تنحني أمام العصا؟!

«ماذا تقصدين؟! ألا يكفي شاهدان.. أتكذبينهما؟!

«أبداً. يا دكتور. أنا لا أستطيع. وأنتم وأنا لانقبل ـ أن يتكذّب الشاهدان.. أنا فعلاً شتمت السيد.. وشتمت ابنته. الدكتور رياض يعرف ذلك. لكن لا أقدر أن أعتذر»

قالت عليا عباراتها بمنتهى الهدوء.. كانت منكسرة. وصوتها يكاد لا يخرج من شفتيها نظرت إلى رياض فرأت فيه الرجل الذئب الذي افترس الخرساء. رأته يتجه إليها يريد أن ينهش كتفيها.. خرجت من غرفة العميد متجهة إلى خارج الجامعة.. كان حر الصيف يحرق الإسفلت. الواجهات تشعّ بالألوان. أمام هذه الواجهات امرأة مكفهرة تسير دون أن تلتفت إلى شيء. خائفة كأن البيوت تطاردها. وكأن الأشجار تتقصف على رأسها.. الخواء الكبير يلفها. لا يمكن أن يفارقها وجه رياض وهو يتلعثم.. «أحياناً الإغتصاب لا يكون جسدياً» من المنعطف يخرج رياض.

رياض زميلها ولكن يديه مقطوعتان.. يركض وراءها.. تقع في الأرض لاهثة؟

يمسك بها رجل «مابك يا أختي؟» نظرت إليه. قالت له: الوحش الوحش.. لم يفهم الرجل شيئاً.. تركها ومشى.. نظرت حولها وتابعت السير بلا هدف «الرجل

المقطوع اليدين يتبعني.. إنه رياض.. لا.. إنه بائع الكعك على باب المدرسة.. عتمة.. ما هذه العتمة»

لا عتمة.. لا ظلام.. إنه النهار المضيء، البحري الجميل.. النهار في بدايته يا عليا.

لا.. أبداً. النهار في نهايته.. وعندما يتلاشى هذا النهار سيخرج وحش جديد قادم من وراء البحار يصطاد الرجال والنساء كما يصيدون السمك. يشير بيده - فقط يشير.. وكلنا ننفذ. تضحك عليا بصوت عالٍ.. تضحك على خيالاتها كأنها في غرفتها الخاصة. ينظر إليها رجل عجوز يعبرها «لاحول ولا قوة إلا بالله.. جيل آخر زمن»

- ماذا تقول يا عم؟!

- لا أقول شيئاً يا ابنتي.

تقف أمام واجهة زجاجية. تظهر لها امرأة ترتدي ثوباً أصفر. ترفع المرأة يدها.. ترفع المرأة في الواجهة يدها.. تتأمل ما يجري وراء الواجهة. تستيقظ من غفلتها.

«هذه أنا»

أجل.. هذه أنا.. أنا مسجونة هنا.. وراء هذا الزجاج الذي لايحتاج إلا لطمة من يدي لتخرج المرأة. تذرف دموعها تحت نظارتها الشمسية.. تشير لأول تاكسي عابره.. تقذف المرأة التي كانت وراء الزجاج في جوف السيارة

«افتحي يا أم عارف» تدق عليا الباب ولكن أم عارف لم تفتح مع أن صوتها مسموع «ما بها؟!» أخرجت عليا المفتاح. فتحت المنزل. وجدت أم عارف متكورة أمام أفعى كبيرة.. تمشي أم عارف. تتبعها الأفعى. تقف. تقف الأفعى.. صرخت عليا بأعلى صوتها.. التفتت وراءها فوجدت الرجل العجوز الذي كان في الشارع.. ما بك يا ابنتي.؟ لم تقدر عليا أن تتكلم.. صارت تتلعثم وترتعش.. كانت حروفها مبتورة، مرتجفة. قال الرجل: لا تخافي.. لقد أخذت الأفعى إلى مكان بعيد في المرة السابقة فما الذي أعادها.؟

«أنت الجنيداتي الذي أخذها المرة الماضية؟!»

«أجل.. أنا هو.. لا أريد أن تدخل امرأة غير نظيفة»

اجتمع الجيران. أوقفتهم عليا بعيداً. أم عارف تصير قطعة ثلج.. تظن عليا بأنها ماتت جمدت كصخرة. انقطعت أنفاسها وفقدت لونها.. الدرويش يقول لها لا تخافي. يتقدم إلى الأفعى يدق لها بعض الألحان الموسيقية ويغني بصوت غريب الأفعي تسحب جسدها وتزحف باتجاه الموسيقا.. يشير لها أن تطوق خصره.. تعمل حزاماً حوله.

..«لا أحد يقترب.. هناك امرأة غير نظيفة» الأفعى ترفع رأسها.. تمد لسانها.. الدرويش يصرخ «المرأة غير النظيفة تخرج. من تخرج؟ من تقول ها أنا؟» يسخر بعضهم منه.. وماذا في ذلك يا شيخ؟ الأفعى تلقي سمّها في جسدي.. تؤذيني إذا اقتربت امرأة غير نظيفة.

يضحك رجل وزوجته.. يتهامسان.. هي مجرد لعبة. لنجرّب. عليا تنظر إلى أم عارف التي لم تنهض بعد. ولم تقل شيئاً. ما تزال جامدة.. المرأة والرجل يتهامسان الدرويش يحاول أن يسيطر على الأفعى.. إنه لا يقدر.. - هي لعبة - تتقدم امرأة صوب الدرويش. يصرخ.. يتوسل. المرأة تريد أن ترى الأفعى.. عندما تجاوزت المرأة العتبة كان الدرويش قد سقط على الأرض. لقد لدغته الأفعى.. صرخ لقد قتلت.. قتلت. أم عارف استيقظت.. «ماذا يوجد؟! أم عارف تنهض مفزوعة.. الأفعى تدخل المنزل وتختفي فيه.. يبحثون عنها.. لا يمكن إيجادها الرجل على الأرض. السمّ القاتل يسري في جسده.. «يحاولون إسعافه»
«لا تحاولوا»

لا فائدة أبداً. الرجل مرمي على الأرض وأم عارف واقفة. والأفعى اختبأت في منزل عليا التي تقف بعيداً عن الجميع. تسند ظهرها كأنها ترنو إلى فيلم كرتون يختفي الجيران داخل دهاليزهم الرطبة. تظل عليا واقفة.. وعندما يأتي سامي تقول له وهو يصعد الدرج. أنا شتمت؟. شتمت والد التلميذة المهذبة؟! تذكرت قول العجوز التي رأتها «أنا جدتك الأولى.. سيأتي زمن يسود فيه الأعور الدجال.. وأصحاب الحق سيقتلون.. الأعور مختبىء الآن تحت تلال من الرماد.. غداً تهب الرياح الغبية.. يطير الرماد ويظهر أعور الدجال سيعم الجوع. تسفك الدماء تجف الأنهار. وسيهرب الزعيم إلى بلاد «الواق - واق» حيث النساء الجميلات وحيث الماء يباع في زجاجاتِ الويسكي.

يمسك سامي بعليا. يدخلها سريرها. ويطلب سيارة الإسعاف. تصرخ. لا.. لا أجرؤ أن أنام في السرير. ـ الأفعى ـ.تغادر المنزل وتهبط باتجاه الشطّ. تجلس على حافة البحر.. كم هي وحيدة الآن.. سامي يقف بعيداً بحيث لا تقع عينها عليه وعندما يقترب منها صياد محاولاً مغازلتها يظهر سامي وراءها. يبتعد الصياد.. ويرجع سامي إلى موقعه البعيد. حزيناً من أجل عليا. كيف يخفف عنها؟!

«عودي إلى المنزل يا حبيبتي.

«اتركني هنا. أكاد أختنق. ما الذي يجري حولي!»

«استسلمت؟!

«لا أعرف. لا أعرف ولكن من أنت؟»

«من أنا؟! ألم تعرفي صوتي..؟! ارفعي رأسك عالياً. انظري إلى الأفق. راقبي الموج والنوارس، يبدو أنك الأستاذة فقط.. أين عليا التي أعرفها؟!»

«تصرخ.. خالد.. خالد. أين أنت.؟ آه. بحاجة إليك»

نهضت واقفة. تأملت الشطّ. كان ملح البحر كله يتجمع في حلقها. العطش فظيع.. تريد أن تشرب.. الموج الصاخب يقرع طبلتي أذنيها.. «تهمس.. خالد». تلتفت إلى الوراء ترى سامي واقفاً يتأملها. لا تعرف كيف اقترب.. وألقت برأسها على كفيه وأخذت تبكي.

«هيا يا آنسة عليا.. تعالي معي»

انسحبت بهدوء. ابتعدت عنه. مسحت دموعها. مشت بمحاذاة سامي صامتة. حاول أن يجد فرصة للحوار معها ولكنها لم تكن راغبة في الحديث أبداً. وحين وصلت إلى المنزل قالت لها أم عارف: لقد خرجت الأفعى. أنا رأيتها تخرج من الباب. تهبط الدرج. وتخرج إلى حديقة الجيران.. وعندما رآها ابنهم الشاب أطلق عليها الرصاص.

«هل مات الدرويش؟! لا..لا. لم يمت. قال سامي. لقد أسعفوه»

لم تتحدث مع سامي بعد ذلك.. طلبت شاياً ساخناً. شربت الشاي وهي هادئة

قالت أم عارف «سعاد انتظرتك طويلاً ثم ذهبت.. كذلك اتصل الدكتور سامح ورجل آخر قال اسمه رياض. إنه يعتذر ولكن لم أعرف لماذا.. قلت له الدكتورة غائبة. قال قولي لها: كنت مجبراً. وهي ستفهم.» تهز عليا رأسها وتردد.. مجبراً.. وجارتي كانت مجيره للدخول على الدوريش.. نظرت إلى سامي.. «أرجوك يا سامي، إني متعبة.»

نهض سامي واقفاً. ودعها وانسحب. حاولت عليا الإستلقاء.. لم تقدر.. تذكرت صوت خالد.

«خالد غريب. من يحدد الهوية. هوية الغرباء.. وكيف؟!»

تدخل أم عارف وهي تعتذر.. آسفة يا ابنتي.. لقد جاء رجل وسلّمني هذا المغلف فتحت عليا المغلف.

«إلى الأستاذة عليا.. سيكون قرار فصلك من الجامعة جاهزاً خلال أيام. أرجو الإلتزام بالقرار وعدم زيارة الجامعة. عمادة الكلية. شكراً»

......

وجدوا لي مكاناً في دائرة حكومية، رئيسها يدعى عبد العظيم.

عبد العظيم هذا رجل طويل، يميل إلى البدانة وقد تجاوز العقد الخامس من عمره.

عندما وصلت الدائرة شعرت بغربة قاتلة. دخلت ممراً طويلاً، مظلماً كنفق. مليء بالأقذار والأوساخ. في آخر هذا النفق جهزوا لي غرفة فيها عدة طاولات. لدرجة أن الموظف يخشى على نفسه من أي حركة. وراء كل طاولة كرسي مربوط برجل الطاولة. سحبت كرسياً لأجلس عليه ولكن الكرسي ظل صامداً، معانداً يرفض الإنقياد لي.. نظر إليّ زميل عرفت فيما بعد أنّ اسمه خليل. ابتسم.قلت له: الكرسي مثبت بالبلاط؟!

(لا.. الكرسي مربوط برجل الطاولة» جئت أنا إلى عند الكرسي. جلست عليه ورحت أتأمل خزائن الحديد الصدئة. والطاولات المشبعة بالقهوة والشاي.. كل الوجوه تتطلع إليّ، بفضول. السؤال في عيونهم «من هذه؟» عازبة. مطلقة؟! شهادتها.. من المدينة أم من الريف؟!

كم عمرها..؟! أين كانت موظفة»

وربما يتهامسون.. إنها ليست أنيقة. أو هي أنيقة متعجرفة. لطيفة. كل هذه الأسئلة تدور على شفاه الموظفين عندما تدخل موظفة جديدة.. تسمرت وراء مكتبي. جدران أربعة قذرة. جدران تسمع كل يوم عشرات الحكايات.. هنا في هذه الغرفة المنزوية، المترهلة، يفتح كل موظف ملف همومه.. أسرته. أولاده. عجرفته. هنا تظهر شخصية المرء الحقيقية. لم أرغب في الحديث مع أحد. ولا أحب أن أعرف أحداً. عالمي ليس هنا في هذه المكاتب الذابلة..؟! علمي أبعد من ذلك.. كانوا يتبادلون فناجين القهوة.. اثنان تشاجرا من أجل فنجان قهوة.. هذه هي المشكلة ظاهرياً لكن في الحقيقة غير ذلك.. الحقيقة هو أن موظفاً يستغل زميله كل يوم فيشرب فنجان قهوة ولا يكلف نفسه جلب البنّ معه مرة واحدة في الشهر. لماذا عليّ أن أصنع لزميلي الرجل القهوة. تقول موظفة قديمة: معها حق.. هي امرأة في منزلها.. ولكنها هنا عاملة. مثلها مثل الرجل.. كنت واجمة طيلة الوقت أفكر بسعاد.. ذكرتني بها إحدى الموظفات التي تدعى سعاد. «لماذا فعلت هكذا يا عزيزتي؟! هل كان من الضروري يا عليا أن تطردي ابنة الزعرور باشا؟! أنت لست مسؤولة عن كل هذا الخراب»

وحدي الآن أحاكم نفسي.. هل أخطأت؟! فأنا لا أقدر وحدي أن أصحح كل شيء ثم إن الأمور الصحيحة نسبية.. الصح عندي خطأ عند غيري.. لا. لا. أنا لم أخطئ.. الرسول الكريم يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره..» المجتمع لا يبنى إلا بقول الحقيقة. ولكن لا أرى أحداً متحمساً في هذه المرحلة لشيء.. كان الملك وقزم العمامة وسيد النجمة السداسية يحتفلون.. وكانت صور الإحتفال توزع على الناس. على أسر القتلى. والشهداء. والمساجين.. والأرامل.. لم يصرخ أحد. لم تبعق امرأة.

لم يبك صبي؟؟ أوه. يا إلهي.. ما هذا؟! هذه التراكمات عبر أجيال.. وأجيال. تحتاج إلى زمن طويل كي تتزحزح. كان بإمكاني مسامحة سوزان. وبالتالي أنال مكافأة وحظوة. وعند ذلك سيقولون إنها أستاذة ناجحة.. وقد يرصد والدها سيارة لخدمتي.. سيقولون عني عاقلة..

سامح قال.. القوة تنبع من محو المسافة بينك وبين الكرسي.. أي كرسي؟! وربما صرت صديقة الأسر العريقة. ولكن لا.. لا.. عبد الكريم ابن خالتي تزوج من ابنة

أخ زعيم القرية.. مع ذلك ورغم زواجه منها منذ سنوات طويلة. يشعرونه بأنه دخيل على الأسرة ولا يعبرونه.. تملق كثيراً لهذه الأسرة.. حاول مجاراتها في المأكل والملبس.. نال أعلى الشهادات.. ولكن.. لا شي.. إنه الفقير الذي تزوج ابنة عريقة لا يستحقها.. «جزاته.. والله..»

«هكذا قال علي عندما رآه»

كانت الكرسي «المخفوس» تهبط وكنت أغور إلى باطن الأرض. أو قل إلى أنفاق ساحقة مظلمة.. أواجه مملكتي القديمة. أسمائي.. تحولاتي. أسلم على الذين أعرفهم، لا يرد عليّ أحد. «أنا أبنتكم» يتركونني.. أقسم بآلهتنا المقدسة.. بأوغاريت العظيمة أسمع أمي تسترحم أبي. يقول لها: اتركيني يا امرأة.. ابنتك لم تترك ساعة للفرح. اتركيني. المراكب تنتظرني.. سفن الفرعون واقفة.. سأرحل «إلى طيبة»

لماذا يغضب علي أبي يا أماه؟ تشيح الأم بوجهها.. أسمع طبولاً تدق. العبيد يهزجون.

«عاش الملك نقمد العظيم» أسقط على قدمي أمي هلعاً. الملك يبحث عن العذراوات فقط.

· «أنا عذراء يا أمي»

كيف أهرب من قضائي و قدري؟ أمي لا ترد. أختبئ في جرّة كبيرة كانت للزيت أيام الخصب.. الآن يعم القحط.. و الجرار فارغة. يدخل الجنود.. يفتشون المنزل.

يبحثون عن النساء. لا يجدون غير أمي المرأة العجوز.. يا امرأة.. نحن نعرف أن لديك فتاة جميلة. إنها البتولة «عنت» يضربون أمي فتدعو إله العواصف «تشوب» وإله البحار «يم» أن يجرفهم و يخفس الأرض بهم.

قولي أين ابنتك؟!

«خرجت مع الرعاة»

«كاذبة. كاذبة. زوجك لم يقل هكذا.»

أكثر من مرة كدت أصرخ و أقول: ها أنا ذي كي أخلصَ أمي.. لكن الآلهة

كبست على فمي و قالت:أقسمي ببعل ألا تقولي شيئاً.. حملت أمي صينية قش و غطت بها فم الجرّة. شعرت أني في ظلمة أبدية.. و شعرت أني إلهة الظلمة الخالدة. لا أفنى. و أني سأغور إلى قاع «يم» حيث الأمواج تلطمني إلى أن أذوب في ذرات الملح و أتحول إلى ضوء.. أخرج من الجرة عبر ثقوب صينية القش.. ينتبه العبيد و الجنود إلى حزمة ضوء.. خارجة من الجرّة باتجاه كوّة في أعلى الجدار. يركلون أمي «ابتعدي يا امرأة» تسقط أمي على الأرض كي تمنعهم من الوصول إلى الجرّة.. لكنهم يسرعون في ركل الجرّة بأقدامهم.. فيسيل منها الزيت ويملأ باحة المنزل.. تندهش أمي. الجرة كانت فارغة.. وعنت = أنا كنت في الجرّة؟

قال كبير الجنود: هذا الضوء لا يخرج إلا من جسد انثى بتول.. لها جسد الربة عشتار. لم تستطع أمي الحراك. ولم تقدر على الكلام. رفرف الضوء بعيداً وغاب.. حزنت أمي. سمعت «يم» يقول: لا تخرجي من ملوحتي وشطآني.. ليكن ترحالك من شطٍ إلى شطٍ. من فقرٍ إلى غنىً ومن غنىً إلى فقرٍ.. تذوقين أبد الدهر عظمة البناء ولوعة الهدم. من قرطاج إلى أوغاريت.. مروراً بالرؤوس والخلجان. سيظلّ الحارس الأكبر يطاردك إلى الأبد. ولكن لن يقدروا الإمساك بك.. ستظلين عصية على الزمن. لكن عندما تخرجين إلى البراري راغبة في العيش كامرأة فإنك ستذوقين مرارة عيش البشر وحفرهم التراب ليأكلوا خبزهم.

«لكني اشتقت لأمي.. لأختي. لبيتنا. لسهول المملكة. إلى غناء الرعاة والصلاة أمام الآلهة..»

«قولي لأمك أن تأتي..»

ناديتها يا سيدي ولم تسمعني. هذا زمن الضجيج.. لقد أفسد تجمع الآلهة. وصلوات الآلهة.. أفسد كل شيء.

«إذن.. ستظلين يا عنت في بحث دائم..»

: جدتي قالت: ستظلين في شقاء أبدي لأن الملك لم يفضّ عذريتك.. فضّه الموج. والموج عقيم»

مرت شعوب وأقوام كثيرة في هذا البحر.. سفن تجاوزت الشطآن. غاصت مع القراصنة. مرة أكون أميرة. ومرة اخلق بثوب غانية.. وأحياناً بثوب ساقية ألحان

سيدوري.. والرجال هم الرجال. لا يعرفون الفرق بين أميرة وساقية ـ بين عشتار وبين امرأة عبدة.. كلهن متساويات عندما يخلعن أثوابهن. مرة أحبني أحد القراصنة. أخرجني إلى الشطّ فتحولت إلى امرأة عادية.. خرجت من دار البقاء إلى دار الشقاء، أنهل منها، وأمرّ على أزمنتها بصور شتى. تزوجت مرات. وأنجبت آلاف الأبناء. لكن لم أستطع محو لعنة «يم» كل أبنائي جرّبوا أن يأكلوني لكن مازلت أقاوم. وها أنا يا بعل العظيم. أقاوم.. أعدني إلى رحمتك لأصير الربة من جديد.. الأم والأخت والزوجة والعشيقة. أتوسل إليك.. أعدني لقد عاد أبي من طيبة. حاملاً معه الماء المقدس الذي تقدم له الضحايا والقرابين.. أبي يريدني أن أغتسل بالماء المقدس كي أتطهر من لعنة «يم» الأوقيانوس المالح لأعود كما كنت.. خالتي الجليلة في مملكة سيانو.. وأبنها صار رجلاً تعاهدنا على الحبّ.. جمع لي خمور الكروم.. وزيت أوغاريت.. وربى القطعان والخيول ليصنع من صوفها ووبرها الأغطية. يا بعل.. يا سيدي.. كلما أحببت رجلاً أخذوه مني. ماذا عن علي الذي أحبه. أيكون هداد آخر. هل روحك. تحوم فوقه.؟ هل أتزوجه.؟ ينقطع الصوت.. تغيم الدنيا.. يهطل المطر.. الرعد يزمجر.. وعنت خرجت من ثوبها.. غابت..»

«المدير يطلبك يا آنسة»

«..........»

«المدير يا آنسة يطلبك.. ألا تسمعين؟»

تنهدت بعمق.. يا إلهي.. ما هذه الأساطير التي تلفني. ولكن ماذا يريد المدير.. مازلت جديدة.. لا مشاكل لي ولا طلبات. أمسح عيني كأني أمسح ممالك أوغاريت وسيانو. أسحب الكرسي المربوط إلى العداد. أهرع إلى غرفة المدير. إنها غرفة أنيقة. مليئة بأصص الورد. أقدم تقريراً عن حياتي ومواليدي. وتخصصي.

«خذي قسم الحسابات يا آنسة.»

ينظر إلي من الأعلى إلى الأسفل. ثم من الأسفل إلى الأعلى مروراً بصدري. ونحري. ثم يقذف نظرة إلى كعب الحذاء ليقيس طولي.

«ولكن تخصصي لا يسمح لي بالعمل في هذا القسم.»

«لا يوجد لدينا شاغر في أقسام أخرى.. كل هذا الشغل تشلية بتسلية»

«ماشي الحال ـ ولكن أريد كرسياً وطاولة»

«الحقيقة لا يوجد عندنا احتياطي.. لكن في القريب العاجل سنؤمن لك كرسياً وطاولة. هل أطلب منه كرسياً من كراسيه الكثيرة التي تملأ قاعته الفاخرة؟! ماذا لو نقص مكتبه كرسياً.. وبدل عشرين ضيفاً.. ليكونوا تسعة عشر.. لكن سرعان ما لجمت صوتي.. تذكرت الجامعة. سأحاول تعلم الصمت.

«لماذا يا عليا.. ألا يعرف الحق غير القاضي؟»

«علي.. أرجوك. أنا لا أقدر أن أواجه العالم. الحق لا يعرفه غير القاضي. حتى القاضي بصراحة لا يعرفه»

«أيتها الجبانة»

«قل ما تشاء.. نزلت دموعي.. تذكرت سعاد.. إني لست قديسة أخرى أدفع حياتي ثمناً لتطهير المدينة. عندما هدأت شعرت بأنامل علي تعبث بشعري وتمسح على جبيني. كنا نجلس تحت شجرة الصفصاف الكبيرة التي تتاخم نهر الشحادة.

لا أدري لماذا تمنيته أن يقبلني. لكنه لم يفعل.. نظرت إلى عينيه. كانتا صامتتين وصافيتين كليل صيفي. نظر إليّ بحنو وحنان يشبه حنان الآلهة عندما لاتكون غاضبة من عبادها.. قال: لا أستطيع أن أراك مثل أي امرأة عادية. لا أقدر. أظنك حزمة نور مقدسة. أخاف أن ألمسك فأكتشف هذه الحقيقة. لا أريد أن أحولك إلى جسد. اعذريني. أتفهمين علي؟! أستطيع هذا مع نساء غيرك ـ لكن أنت؟! لا. لا. اغرورقت عيناه بالدموع. «أشتهيك يا عليا. أتعذب. أحترق كل يوم وأصير رماداً.. أنشر رماد روحي على أوراقي وأتفرج عليه. ولكن.. يجب أن نتزوج.. يجب «أيكون حدسي صحيحاً؟» تذكرت أسطورة أوغاريت.. ما المانع ان أكون عنت = البتول ـ ويكون علي = بعل.. ما المانع.. الكون لغز. والإنسان لغز. والتقمصات موجودة. لا أعرف.. هذه إسئلة متعبة. قد أكون النور الذي لا يمتد إلا مع نفسه لذلك لا أعرف الإكتمال أبداً. وقد أكون ابنة امرأة من أوغاريت. جئت إلى الحياة ليكون لي زوج وأولاد. أي أملأ الأرض بثمار الخلود ابتعدت قليلاً عن علي قلت: أفهمك. أفهمك. لكن رغبات الجسد الفاني تطفو أحياناً.

اطمئن أعرف كيف أسيطر عليها. عدني بألا تخونني.

«أعدك يا حبيبتي»

«روحانا تتحدان.. وهذا يكفي..»

«يا للرومانسية الشفيفة.»

«أوه.. لقد حيرتني»

كان علي حزيناً لأني تركت الجامعة بهذه الطريقة المزعجة. بل كان مقهوراً. إنه يحاول أن يخفف عني. سامح قال له: عليا تعاني كوابيس شديدة الوطأة. كن إلى جانبها.

لست حزينة يا علي. صدقني. أنا خائبة فقط. ضيّعت عمري في أشياء اكتشفت أنها ليست ذات قيمة في المجتمع. كان عليّ أن أكون أكثر قدرة على التلاؤم مع المتغيرات الحالية. أعرف كم أسبب لك وللأصدقاء من تعب وضيق. بصراحة أنا مشتاقة لأسهر مع الشلّة. تعال نسهر معهم.

«حاضر يا عزيزتي.. لنذهب»

«اسماعيل» أناديه بفرح.

يكفهر وجه علي ويسألني. من قال لك بأن اسمي اسماعيل.؟

«أمك.. قالت بأنها أرادت أن تسميك اسماعيل ولكن والدك رفض.. لذلك روحك مقسمة إلى أرواح. واسمك إلى أسماء.. وزمنك إلى أزمنة.

«أنت روحانية زيادة عن اللزوم.. غيبية.»

«يا سيدي.. أفضل من الواقعية. أكثر راحة؟.»

......

في السهرة بدت سعاد حزينة لم تنشر ابتسامتها العذبة على المكان كعادتها.

الكؤوس حزينة. وغطاء الطاولة. كل شيء يبدو حزيناً. ابتسم سامح وقال: في صحة حبيبة المليونير. رفعنا الكؤوس.

لم تضحك سعاد. ظلت واجمة. قلت لها: «مابك يا سنسن»

«لاشيء يا عليا. إني متعبة. لولا الشوق إليك ما جئت. أكاد أختنق. لا أطيق البقاء أكثر من ذلك في هذه الأجواء المقنعة».

«والحل؟ ما هو الحل يا عزيزتي؟!»

«السفر. سأسافر يا عليا.. هذه المدينة لا تحتمل امرأة مثلي. وأنا لا أحتمل اللف والدوران مثلها. أزقتها مظلمة. بيوتها مظلمة. عاداتها مظلمة. لم أعد قادرة أن أكون أكثر من سعاد. في بيتي سعاد رقم واحد. وفي الشارع سعاد رقم اثنين. وفي العمل سعاد رقم ثلاثة. كم سعاد يجب عليّ أن أكون حتى أتلاءم مع الحياة؟ لن أجرح نفسي كي يشفى الآخرون.

«ابتسمت.. قلت لها: كيف الرحيل وأنت ستتزوجين رجل أعمال جديد من رجال الإستثمارات الجدد؟!

أنا لا أجد البديل للشرق في الغرب. كلنا يعرف ذلك.. وكلنا يدرك معاناة الغربة والبحث عن وطن جديد. باريس ليست بديلة البحر المترع بالحضارات والأزمنة.

«أعرف ذلك يا عليا. لكن هنا أعيش حالة حصار فكري وجسدي. كل من يراك تبتسمين يتوقع أن تشربي معه القهوة. أو تذهبين معه فوراً إلى الفراش»

«ليتوقع ما يشاء. أنت تعرفين نفسك» يقول علي؟

تردد سعاد بانفعال: لا. هناك أمر آخر. أمر المرأة التي تصل إلى الثلاثين بلا زواج.

ينظرون إليها على أنها «ستوك» لم تعد صالحة للزواج. ولا لبناء منزل أو أسرة.

لذلك يشفقون عليها ويهيلون عليها عروض الزنى. عروض أن تكون خليلة سرّية للرجل الزعيم.. فهي لا تستحق الحبّ ولا الطهارة. إنها في نظرهم تسعى لإشباع رغبات الجسد.. يعني يريدونها جارية.. أتصدق أني لم أقابل رجلاً تقريباً إلا وعرض عليّ نفسه.. بعد ذلك يتوضأ ويذهب إلى الجامع وعندما يذكر اسمي.. يهز رأسه.. إنه الأطهر.. وفي منزله يبث تعاليمة الأبوية المقدسة. لقد تعبت. لم أعد أطيق هذه الحالة - يا حرام لم تتزوجي حتى الآن؟»

كأن المرأة التي لا تتزوج ليست إنسانة.. مهما كانت مثقفة، يسخرون منها أو يرسمون حولها الدوائر عندما تدير ظهرها.

«وصديقك رجل الأعمال الموعود..؟»

«يا سيدي.. السيد متزوج. وهو غير متفاهم مع زوجته. ويريد الزواج بي شرط أن لا أقول لأحد. سيشتري لي منزلاً وسيارة. وسأكون الزوجة السريّة. قد أكون الثانية أو الثالثة أو الرابعة. وربما طلق واحدة ليحافظ على الرقم المقدس.. أربعة. وإذا لم يعجبني هذا الوضع فإنه يرضى بالصداقة. هه. الصداقة هنا في جابالا؟!. يا للسخرية. ما رأيكم؟.»

«ماذا قلت له يا سعاد؟»

يسأل سامح بمودة.

«أنت تسأل يا سامح؟ أردت أن أصفعه. يظن أنه يقدر أن يشتري نساء المدينة. نظر إليّ بعد أن رفضته ثم هزّ رجله وقال: أنا لم ترفضني امرأة أبداً. قلت له أنا أرفضك. إنه جاهل.. أحدهم قال لي: تزوجيه وأنجبي طفلاً لهذه الحياة.. هكذا.. المرأة رحم. مجرد رحم. يحضن بذرة الخلود.. لتغني هي. أنا أكره هذه النظريات.

«أرجوك يا سعاد.. كوني عاقلة.. لاتهربي.. أنت واقعية. أليس كذلك؟!

أنا لا أهرب يا عليا.. ولكن بما أنني لا أقدر أن أؤسس فإني أبحث عن البديل.

يرفع سامح كأسه ويقول: في صحة أروع امرأتين في العالم.

ثم يتابع: الحق عليكن. الأمر متعلق بالمرأة، لماذا ترضى أن تكون على هامش الرجل؟. لماذا ترضى أن تكون المرأة المخبوءة بالعتمة؟.

نعم.. أوافقك.. المرأة تتحمل جزءاً كبيراً من هذا الوزر ولكن ليس كله. لماذا تقبل المرأة برجل لديه ثلاث زوجات أحياناً؟!

ـ لماذا؟!. لأن مجتمعنا، مجتمع ذكوري. لا يقبل المرأة كفرد. إنها لا تشغل نصف المجتمع إلا عندما ترتبط برجل. المرأة الجاهلة لاتشعر بهذه المعاناة. ولكن الفصام والتشيؤ. والانكسار يصيب المرأة المثقفة فقط. أي المرأة الواعية لما يدور حولها. هذا الوعي يجبرها أن ترفض الواقع.

«وتصير غيبية»

«ربما.. هذا هروب آخر. أو حقيقة أخرى. هذا الماوراء صعبٌ البتّ به»

يقول علي آمراً: اسمعوا.. انتهينا من هذه الأحاديث. دعونا نقرأ قصيدة حسن التي قالها أمام زعيم القرية. إنها تثير الضحك.

أخذ علي ورقة من محفظته وراح يقرأ قصيدة طويلة مادحاً، متملقاً، يثني على الزعيم هنا ويتوسل هناك.

ينفخ سامح من الغيظ. يلتفت إلى عليا: «تصوري هذا الزعيم وأسرته قتلوا جدّ حسن في الحقل لأنه رفض أن يضع ابنته كخادمة في منزل هذه العائلة.»

بعد ذلك انحازت القصيدة للقرية واصفة الريف وجمال الطبيعة، الخير، النقاء. ثم تنعطف القصيدة في نهايتها حول وجوب الانضمام إلى الزعيم.. احمر وجه علي وأخذ يسعل. حشرج صوته وهو يقول: أعطاني القصيدة رجل من القرية البارحة. كانت تباع «النسخة بعشرين ليرة..» بعد ذلك جلس علي صامتاً، كئيباً. كأنه فقد نقوده في مدينة غريبة ولايعرف أين يمضي.

لم يضحك.. أين الضحكة يا علي؟! لكنه ظل قابعاً في صمته يسمع ضجيج الصحون والملاعق والكؤوس.

«العقل لا يصدّق سرعة الانقلاب من زمن إلى زمن. هذه السرعة. صنعت شرخاً في الذاكرة. وشرخاً في الجسد.. هناك هوّة كبيرة بين طفلين على مقعد واحد. الأول والداه وأخوته يسكنان في غرفة والثاني مخصص له قصر قبل ولادته.»

«أجل يا سعاد.. هناك هوّة بين أشجار الصفصاف المتدلية تحت وطأة الأرواح الحزينة المقهورة وبين شجرة عيد الميلاد الرابضة في زاوية القصر ومزادنة بشتى أنواع البهارج والفنون..»

«المطر يا أعزائي غير الوكف.. في الصين أيام الحكم الامبراطوري كانت الأسرة الامبراطورية تصنع بيوتاً مسقوفة بالصفيح، مشابهة تماماً لبيوت الفلاحين الصينيين، هذه البيوت كانت في أطراف القصر. الغاية منها سماع صوت المطر. كان هذا الصوت عند الفقراء يعني البرد والجوع، والوحل.. وكان عند الأسرة الامبراطورية نوعاً من الفلوكلور الذي يجب الحفاظ عليه والذي يجب أن لا ينقرض.»

«المطر غير رذاذ النافورة. قالت سعاد.»

وثلج جبل كاسيوس الذي ينشر اليباس في أصابعنا غير ثلج التزلج الذي لا يكون الإنسان محترماً إلا إذا كان من فئة المتزلجين.

«يتنهد علي.. إنه الوحل.. الوحل بدأ يدخل قلوبنا.»

سامح يرفع كأسه.. ما هذا؟ ما بكم؟ لماذا تأنون كعجائز، جئن من ممالك منقرضة؟ الحياة ما تزال جميلة. أحياناً أتمنى أن أتحول إلى طائر.. أطير فوق كل حاجز. لا تحدني سياسة ولا طائفة ولا بلاد.. وأحياناً أقول.. لا. لماذا نهرب.. الحياة تحتاج المواجهة.. إن ذلك يحتاج فقط إلى إرادة القبّرة التي رآها الفلاح في حقله. تستلقي على الأرض وترفع أرجلها في الهواء.

ناداها الفلاح.. مابك ياقبرة؟»

قالت: ألم تسمع؟!

ماذا؟!

قالت: السماء ستقع.

قال لها: السماء ستقع.. وأنت لماذا تنامين هكذا؟!

قالت: أنا لا أنام من الخوف.. أنا أرفع ساقي لأسند السماء حين تقع.. ابتسمت سعاد.. ضحك الكل.. هيا: إلى نزهة في ليل المدينة.. ليقولوا ما يشاؤون. امرأتان ورجلان وفضاء شاسع كالليل، يحتويهم الهواء الرطب، ويتسكعون على الثرثرة..

ـ ليقولوا ما يشاؤون.. نحن لا نؤذي أحداً..

ـ أحياناً مجرد النظر إلى الآخر يظن أنك تؤذيه.. لذلك يقول لك: «ما عَجَبَكْ ولاء»؟

كانت المدينة غافية. تلعب الريح الليلية بنوافذها. البحر يئن تحت وطأة الموج المتشظي على الصخور الأبدية. صيادون في آخر المدى البحري المظلم. يشعلون فوانيسهم الغازية.. رذاذ البحر المالح.. ورائحة اليود تعبق بالشاطئ وتغوص في أزقة المدينة.. السوق المسقوف. وجامع السلطان.. والحارات.. كلها هاجعة. ساكتة. قهوة الرصيف ما تزال بعض أراكيلها سهرانة في فم زبائن ينامون النهار ويسهرون الليل.. كأنهم يهربون من الكائنات النهارية.. أشعر بالتعب. أقول لهم لايستجيبون لرغبتي.

«ولكن عندي دوام صباحي»

«اعتذري»

«المدير لا يقبل عذر أحد.. أنا مسؤولة حسابات»

«يا ستي.. هو أفضل من التدريس وبحة الصوت، تشربين قهوة متى تشائين.»

«هيا.. تَغُذ.. أمي تنتظرنا.. تقول سعاد وهي تمسك بيد عليا. ولكن علي يقول: أريد أن أشرب قهوة آخر الليل معكم هنا على الشط.»

«لايمكن يا علي.. معنا نساء.. يقول سامح»

«ليكن.. ما المشكلة؟»

«المشكلة في الآخرين.. مع ذلك هيا..»

خضعنا جميعاً لرغبة علي. ولكن ليتنا لم نخضع. لم نكن نعرف أن ذلك سيحدث.. وأن أربعة رجال سيتحرشون بنا.. سامح يحاول التجاهل.. وعلي يندفع لضربهم. قالوا كلاماً بذيئاً. وراحوا يتصايحون: «إيه. ولاه.. أيهما لك؟»

«الطويلة؟! هي ممتعة أكثر.آ..»

«غلطان يا صديقي.. القصيرة..»

راحت الكلمات تجرح آذاننا وحياءنا.. حملنا قهوتنا وابتعدنا عن القهوة لكنهم تبعونا فانبرى علي متجهاً صوبهم. دلق القهوة في وجوههم.. التفوا حوله. صرنا نولول. فجأة تذكرنا أحذيتنا.. أحذية النساء لها دور آخر. مع ذلك لم نتجرأ أن نرفعها في وجوههم، كانوا مسلحين بالسكاكين. بعض الرجال القاعدين في القهوة التفت إلينا لكنهم لم يحركوا ساكناً. سال الدم من أصابع علي.. وسامح نزف من أنفه.. لململنا أنفسنا وغادرنا.. وعندما قدّم سامح بلاغاً ضدّهم.. قالوا «يا سيدي: لقد شتموا النبي. وحياتك شتموه.. ونحن لا نقبل..» قال المحقق: «وأنتم من نصّبكم حراساً ومدافعين عن النبي؟! سيعاقبهم الله يوم الحساب.»

- ولكن يا سيدي لم يكتفوا بذلك.. الله الكريم مسامح.. ولكن سمعناهم يقولون الزعيم أصم.. زعيمنا أصم يا أستاذ.. ولا يسمع إذا ناديناه؟!

ينظر المحقق إلى علي.. معقول يا أستاذ.. يا حضرة الشاعر.. أنت تقول هكذا كلام؟..

ظلّوا يتكلمون «معقول».. «مو معقول» وظلّ علي صامتاً.. ولكن لا يعرف علي كيف دخل حسن.. الشاعر.. ظهر أمامه فجأة.. قال وهو يبتسم. ما به شاعرنا الكبير يا حضرة المحقق؟.

قال المحقق: تصور يا أستاذ.. شاعرنا يشتم زعيم المدينة!.

نظر حسن إلى علي الذي يعرف أنه يحتقره.. ثم ابتسم وقال:

يا حضرة المحقق.. علي صديقي. وأرجو أن تسامحه.. ثم وشوش في أذن المحقق بحيث تقصّد أن يسمعه علي: «إنه مخبول»

فتح المحقق عينيه مذهولاً: «ولكنه شاعر كبير؟!.» مع ذلك هو كما ذكرت لك، نصف الشعراء مجانين.. يضحك المحقق ويقول لحسن: وأنت من أي نصف؟!

التفت المحقق إلى علي وقال: سنسامح شاعرنا هذه المرة كرمى لصديقي الشاعر الكبير حسن. نهض المحقق.. مدّ يده لعلي وسامح.. ظلّ واقفاً ماداً يده.. لم يستجب علي ليد المحقق.. خرج وتبعه سامح.. يقول حسن: أما قلت لك يا سيادة المحقق؟!

عند الباب التفت علي إلى حسن وقال له: «ضيعان حليب أمك». ثم خرج..

ليلتان لم أنم فيهما.. حاولت ولم أستطع.. لذلك ظهر عليّ الاجهاد والتوتر في العمل.. لم أقل صباح الخير.. بحثت عن كرسي أجلس عليه فلم أجد.. كان الزملاء حاضرين كلهم.. لم يكن هناك شاغر.. وقفت أتأمل الباب، نهض خليل وقدم لي كرسيه. شكرته ورفضت. ابتسمت إحدى الموظفات وغمزت بعينيها. كان خليل طويل القامة.. أبيض البشرة.. يميل إلى الصمت والهدوء.. لا يأخذ قهوته من البواب. بل يصنع قهوته بنفسه. شعرت بأني أعرفه منذ زمن. وشعرت أني قادرة على الحوار معه أكثر من الزميل الآخر الذي يقابله ويدعى كنعان.. مع ذلك لم يحاول خليل أن يدير أي حوار.. ولا أن يلقي أي سؤال.. قال: سأستعير كرسياً من المكتب المجاور.

أخذت الكرسي وجلست عليه.. مكثت طيلة الدوام. لم يُقَدَّم لي ورقة.. ولا

قلم.. وظللت على هذه الحال عدة شهور.. بلا كرسي. بلا طاولة. لدرجة أني صرت أسمعهم يقولون: لاتهتم لشيء ولاتسعى لأخذ مكانها المناسب.

«هل أنا لا أهتم لشيء؟»

من قال ذلك؟.

«هم يقولون.»

ولكن ما تعريف «لا أهتم لشيء» يعني مصدوم؟! انهيار؟! ربما.. الإنسان الذي لايبدع ينهار لأنه لاشيء. على الإنسان أن يقدم شيئاً لهذه الكرة الأرضية الملوثة.. أن يزرع شجرة.. أن يعد كيس نايلون.. أن ينجب طفلاً. قصيدة.. الأم تبدع في حب أطفالها.. فهي شيء.. العامل يبدع في تنظيف آلة ما.. فهو يبدع.. أنا لاشيء. لا أنتج أي شيء.. أذهب صباحاً إلى العمل. أجلس على كرسي خليل. أحياناً يجلس على الطربيزة.. أشرب قهوة ثم أصمت إلى آخر الدوام.. أعود إلى المنزل. أم عارف تحضّر الغداء وأنا أرنو إلى البحر من النافذة المرتفعة. أعود صباحاً فأكرر العمل نفسه. والبؤس نفسه. والحزن نفسه. أكرر السؤال نفسه.. لاشيء جديد لأعطي جديداً ربما لهذا السبب يكرر علي نفسه في بعض قصائده!..

فكرت أن أغيب أحياناً كي أساعد أم عارف في تنظيف المنزل. أو كي أذهب إلى أمي العجوز. أو أن أبقى لمطالعة بعض الكتب، ولكن المدير استدعاني. قال: العمل. عمل يا آنسة. ألا تعرفين ذلك؟!

ـ أجل يا أستاذ ولكن أنا من شهور لم يطلب مني القيام بأي عمل. الوظيفة ليست مكاتب وكراسي فقط.. الوظيفة إنتاج. عطاء. ثم أخذ. أنا لا أعطي شيئاً.. أني أستمع إلى وقع الأحذية في «الكوريدور» من الصباح حتى الثانية بعد الظهر.. أشعل ضوء المكتب.. آتي بسيارة الإدارة. أكلّف الدولة بعض الماء الذي أصرفه.. هذا الوقت المهدور يقتلني.. لم أتكلم عن اللاشيء» دائماً أنا في صراع مع الزمن. الإنسان يصارع الزمن بالعمل.. الكاتب يبدع عدة كتب.. يوقف الزمن والعامل.. و.. وأنا كيف أوقف الزمن؟

«جيد.. الحقيقة لم أكن أعرف مستوى تفكيرك يا آنسة.. أنا مسرور بهذه

الأفكار.. ولكن اسمعي ـ الدوام. دوام.. أتقدرين أن تقولي للوزير لا أداوم لأني لا أعمل شيئاً؟!

«أنا أقول.. ولكن هل تقول أنت بأنك لا تنجز شيئاً في الإدارة.. وأن هذه الإدارة لم تنتج تقدماً بسبب كثرة العمال..؟! هذه بطالة مقنعة يا أستاذ. ثم أنت تعرفها.

«ولكن ماذا وراءك.؟ هنا تتسلين. أعرف أنك عازبة»

«.. تسلية؟! المشكلة هنا تكمن.. أعتقد أنه من الأفضل زراعة وردة على هذه التسلية.. لنكن أكثر صراحة مع أنفسنا. زميلتنا «أم إيهاب» لو أنها تذهب إلى أطفالها أليس هذا أفضل من تململها على الكرسي ساعات طويلة دون أن تعمل شيئاً؟!

«والله يا آنسة هذه هي القوانين.. أنا لا أستطيع تغييرها.. هاتي استثناء بعدم الدوام.. وأنا سأنفذ رغباتك»

أخرج.. كأني لم أقل شيئاً.. لماذا نضطر للكلام ونحن نعرف أنّ كلمتنا لن تغير شيئاً؟!

القوانين هي القوانين يا آنسة؟ هذه القوانين الخانقة.. القاتلة متى تنزع عنها القداسة ونراها بعين العصر الجديد؟ متى نراها بعيون الحقيقة قل يا علي.. قل..

«لي أنا تقولين ذلك؟! لمن أقول إذن.. لمن؟! غيرك من يسمعني والمشكلة كل واحد يقول أنا الصح.. كل واحد منا»

هو الذي على صواب وغيره مخطئ.. أين تكمن جمرة الحقيقة. أين؟!

يقول المدير: هاتي استثناء.

استثناء مرة واحدة؟! كم يكلف الاستثناء يا علي؟ أفكر بالانتقال إلى القرية.. هناك أمي. سأحاول أن أستعيد الأستاذة في داخلي.

وأستعيد التلميذة التي لا وقت لديها تضيعه بغير حفظ الدروس..

«ها أنت تعودين إلى فكرتي.. الريف يجب العودة إليه. إنه الرحم الأولى. يجب العودة إلى الأرض نطمر فيها همومنا فتنبت وروداً وأشجاراً وبرتقالاً. وهكذا ننتهي

من الإيجارات المكلفة. ومن تحكم الآخر.. عند ذلك نكون نداً لأعظم الرجال.. لأننا لن نمد أيدينا لأحد. ولا نضطر لمجاملة أحد على حساب قناعاتنا.»

«ألهذا ينظرون إلى الفلاح على أنه جلف؟!

«ربما.. ولكن لا تنسي النظرة المادية»

أتذكر صاحب منزلي. كل فترة عليه أن يتفقد النوافذ والأبواب. ويرى دهان الجدران.. ويلقي نظرة على البلاط.

ضحك علي.. وقال: أنا كذلك.. أخذ يدي بين يديه ونحن نمشي.

«كل ما يسعدك يسعدني، ربما قريباً يكون لنا قرارنا الآخر.. أنا بحاجة إليك. بحاجة لأن تكون قربي. إني أجهز ديواناً جديداً. سأهديه لك.. ماذا أسمّيه.»

«لا أعرف..»

«أسميه النعنع البري؟! إنه يذكرني بك. بأشياء كثيرة. ولكن.. لا.. لن أسميه هكذا.. سيعيدني إلى لحظات حرجة محزنة حيث حملت لك النعنع البري لا.. لا أريد أن أستعيد تلك الفترة. أريد أن أظل في الحاضر.. الآن.

ها أنا بدأت أنسى.. وبدأت أرمم الجلد المحروق في جسد حروفي. ها أنا بدأت أكتب يا حبيبتي.. مجلات كثيرة أرسلت إليّ كي أكتب فيها.

ولكن المشكلة تكمن في خلفية هذه المجلات.

«ماذا بها؟»

أخاف أن تكون مشبوهة التمويل.. المال لم يعد يعني شيئاً.. لقد ضاع العمر في النضال أنهدر كل شيء كرمال حفنة دولارات أو ريالات أو دنانير؟» بعض المجلات تشترط نوعية الكتابة. الموضوع.. الأسلوب. تصوري.

- يعني الترويج المبطّن لفكرة ما. لهدف ما..

- نعم.. لكني سأروج للمرأة.. لاحترام المرأة. أتعرفين لماذا؟! – تهز عليا رأسها بنعم.. يضحك علي: لأني أحبك.

«حقاً أنا حبيبتك؟!» أجل.. حبيبتي وروحي. بل أنت كل شيء في هذه الحياة.»

تريحني كلمات علي.. إنه يعوضني أشياء كثيرة لم أحققها.. لم أعد أحزن

كثيراً على تلك الأستاذة الجامعية التي تبدد جزء من عمرها في مطارات الغربة. ولا على الكرسي المربوط في رجل طاولة حديدية صدئة. هكذا قلت له وهو يعانقني بشغف.

لا أدري إذا كانت هذه الكلمات تخرج من دائرة الوعي.. لكني وأنا أسير في المدينة رأيت سوبر ماركت كبير جداً. يحتوي كل ما تشتهيه النفس سيارات. ثياب. أدوات كهربائية. أطعمة. مفروشات.

كان المحل مضاء بمصابيح ملونة. وقد كتب بالألوان الفوسفورية. محلات الرفعة التجارية.. لا أعرف لماذا تخيلت هذا: «السوبر ماركت» لرافع الذي حدثني عنه علي.. شعرت أني أغرق في شبر ماء.. قلت لنفسي.. ما بك يا عليا. ألم نتفق على الصمت؟! لماذا وجع الدماغ؟! ربما كان هذا شخص آخر. لكني أريد أن أؤكد أن هذه المحلات هي لرافع نفسه.. رافع الذي تحول من مقاتل. من مناضل إلى تاجر.. لم أخبر علي بالأمر.

بل انهمكت لمدة أسبوع بنقل كتبي وبعض المفروشات الخاصة بي إلى القرية.. استقبلتني أمي العجوز بفرح.. شعرت أني عدت إليها.. ولكن كانت تخفي غصة ماذا تقول للجيران..؟! كانت تفاخر وتقول: أرسلت الجامعة ابنتي إلى باريز.. ابنتي أستاذة في الجامعة..

«ماذا يعني أستاذة جامعة»

«يعني تعلّم الكبار يا أم كامل.. الكبار مثل ابنك..» كان ابن أم كامل فوق الثلاثين من عمره.

أجل.. عدت يا أمي. ولكن لم تعد تلك الفتاة التي تشدّ أصابع أمها المتعبة. وتطبخ لها الشوربا التي تحب. ولم تعد عليا التي كانت تنزل إلى الأرض تعزق نباتات البندورة. لم أستطع التواصل مع القرية. الجيران الذي يتجمعون أمام بيوتهم.. يتحدثون بالأسعار والخضار والحيوانات. ويتطرقون إلى المدارس والجامعات.. لقد اختلفوا كثيراً، هؤلاء الجيران أحبهم ولكن أميل إلى العزلة: أمي تحدثني كثيراً عن الماضي. تقصّ عليّ سيرة أخوالي وأبي وأنا لا أرد. وتحدثني عن أمها التي جاءت تودعها قبل أن تموت.

نامت جدتي في بيتنا تلك الليلة.. في الصباح قالت لها: سأرحل يا ابنتي.

ودعت أخوتي. ونظرت إلى منزلنا. سألتها عن مؤونة الزيت والبرغل.. عن حاجاتها. أمي استغربت أسئلة جدتي. سارت بهدوء بمحاذاة الماء.. وقفت أمي ترنو إليها وهي تمشي ببطء.. جدتي تلتفت إلى الوراء كل عدة خطوات.. وأمي تقف مودعة.. تبتعد جدتي فتعود أمي أدراجها ولكن قبل أن تصل إلى المنزل تلتفت أمي فإذا بجدتي تناديها: تعالي يا ابنتي.

أسرعت أمي خائفة. وعندما وصلت طوقتها جدتي بذراعيها والدموع على خديها.. «ما بك يا أمي؟!» ردت جدتي بصوتها الحنون، الهادئ. يا ابنتي أنا لن أراك بعد الآن:

«ماذا تقولين يا أمي؟!»

لم تكن جدتي كبيرة في السن.. كانت امرأة شقراء الشعر طويلة القامة.. بيضاء كالثلج. حزنت أمي. لا تقولي هذا الكلام.. الأعمار بيد الله.. هل أنت مريضة؟!

لا أبداً.. لم تكن جدتي مريضة. ولكن في اليوم الثاني جاء خالي ظهراً وهو يبكي.. قال لأمي: جهزي نفسك للذهاب يا أختي لقد ماتت أمنا.. أمي تقول لم أكن قد ولدت بعد.. فأنا لم أتذوق حنان الجدة ولم أشمّ رائحة عطرها الخفي. مع ذلك بكيت يوم حدثتني أمي. الإنصات لأمي كان تجاوباً مريحاً معها..

إنها تبحث عن آخر ينصت لها.. إذا لم أستمع إليها فإنها تتحدث مع نفسها. أحياناً تقول لماذا لا تحدثيني يا علياً؟:

عن أي شيء أحدث أمي؟! مدنٌ كثيرة بيننا ـ زعماء كثر.. محطات. جامعات. وبطاقات مترو.. نلتقي معاً في الجذر.. في الانحدار من الجدة الأولى. من الفجيعة الأولى.. منذ أن رحل ذلك الفارس المقتول بفرس واتجه في جهات غائبة.. بعضهم يقول طار.. وبعضهم. انشقت الأرض وابتلعته. والآخر يقول: صعد إلى السماء.. تفرقت نساؤه.. قتل أحفاده.. وانزرعوا في الأمصار.. تطاردهم الذئاب والأفاعي والغربة.

ماذا أحدثك يا أمي..؟! أتعرفين باريس.. «أتعرفين..؟! آه.. تجمعنا سرنديب الأولى يوم سقطت أمنا الكبرى على الأرض وراحت تبحث عن أبي.. تخطو

الخطوة الواحدة فتجتاز بلاداً.. وتستمر الرحلة.. ومن زمن إلى زمن.. إلى أن تصل إلى بيتنا الترابي المحدد بساموك. ونافذة وبايين ومطبخ بلا نوافذ.

صوت الدجاج المبكر في القرية يزعجني. وصياح الديكة في الليل يقلقني. لا أعرف لماذا لا تنام القرية حتى تشرق الشمس.. الجميع يستيقظ قبل أن يظهر الخيط الأبيض من الخيط الأسود. ثم يأخذون بمناداة بعضهم لتناول المتة.. أو الزوفا. أو القهوة.. فمن لم يستيقظ وحده. لابد أن توقظه جلبتهم.. إنهم لا يتوقعون أن يسهر المرء بعد صلاة العشاء.

لماذا أتحدث عن القرية؟! كأنها ليست مكاني الأول. والأمكنة الأولى لها رسوخها في الذاكرة.. هذه الأمكنة قد لا نعيش فيها إلا سنوات الطفولة القليلة. خمس سنوات. عشر سنوات.. لكن يظل الحنين إليها حتى سن الشيخوخة. رأيت كاتباً عربياً يعيش في باريس منذ خمسين عاماً ولكن لم يكتب صفحة عن باريس، بل كتبه الكثيرة كلها مازال يغرفها من قريته، وبلدته. من أصدقائه الأوائل.

هذه عادات القرية يا عليا.. تقول أمي بعتب.

هي تعرف بأني أفهم هذه العادات.. وأفهم أن يأتي الريفي إلى عند جاره دون موعد.

. يسهر معه. أو يتعشى معه.. شيء عادي.. أنا لم أعد قادرة أن أوفق بين هذه العادات وبين الحياة العصرية الجديدة. «عليّ أن أسهر وحدي لأقرأ»..

«تغيرت كثيراً يا عليا..»

أجل تغيرت من عليا تلك.. إلى عليا هذه.. بين تلك وهذه لم تتغير الظروف المعيشية كثيراً.. ولا تغيرت الظروف الحياتية.. التفكير يسبق هذه الظروف.. أنا لم أقدر أن أغير شيئاً في بيتنا.. الواقع هزم الجامعة. هزم النظرية. أن تكون في الريف يجب أن ترتدي جزمة بلاستيكية وأن يكون كعباك مشققين من التراب.. وأن تكون ملفوحاً بالشمس هل أعود إلى المدينة؟!

لن أعود يا أمي. هي الأخرى تسجنني في قفص الغربة.. في الآونة الأخيرة لم تفارقني الكوابيس.

كنت أرى نفسي مجزأة الجسد «رأسي مفصول عن جسدي وعندما كنت

أستيقظ كنت أخاف.. في الآونة الأخيرة قلت لأم عارف تعالي نامي في غرفتي.. أردت أن تفزع الكوابيس من أم عارف. ولكنها هي الكابوس.. إذ تبدأ اسطوانة الشخير عندها من أول الليل إلى الصباح.

«يا أم عارف نامي على الجنب الآخر، يا أم عارف.. ارفعي رأسك..» أهلكتني أم عارف.

هنا في القرية. لم أستطع إقامة صداقة مع النساء. هن يشاهدن المسلسل مساء وينمن باكراً كالدجاجات.. يبكين مع المسلسل.. ويغضبن مع البطل. وقد يستغربن أن يحصل ذلك.. أشعر بالملل أحياناً. أصدقائي بعيدون. لم يعودوا في متناول اليد.

لا أعرف أخبار سامح بعد أن تزوج فتاته. شهور مرّت ولم نلتقِ. يبدو أن الإنسان العازب له عالمه المختلف.. سامح صار اثنين.. وعليّ أن أرتاح لهذين الشخصين معاً. ولكن لا أقدر. فزوجة سامح مجرد امرأة ولكن لا أقدر أن أجرح سامح.. يجب الاهتمام بهما معاً. والترحيب بهما معاً. سأحاول الاتصال غداً.

يجب أن أزورهما.. سأخبر سعاد وعلي بذلك في الصباح عندما أصل إلى الدائرة التي أعمل بها.

حين دخلت صباحاً وجدت خليل بانتظاري. كان وحيداً في المكتب.

قلت له «صباح الخير يا أستاذ خليل، آه.. الموظفون غائبون لذلك سأختار طاولة مريحة.

«لن يأتوا اليوم. إنهم في زيارة المدير العام. قلت وما هي المناسبة لهذه الزيارة الجماعية ولتعطيل العمل الهائل الذي يقومون به.. ابتسم خليل وقال: زوجته كانت حاملاً.. فذهبوا لشراء الهدايا.

لم أعلّق.. يا سلام يا عليا.. ها أنت هادئة. تشربين ألف كأس ماء.. ألا تستطيعين شرب كلمة؟!

الماء غير الزور يا ست؟! ضحكت عليّ.. خليل يصنع القهوة كعادته.

قدم لي فنجان قهوة. شكرته وقلت: كل يوم تعذب نفسك يا أستاذ.

«أبداً. أنا سعيد بهذا العذاب. تلعثم. ثم راح يشرب قهوته بصمت.

بعد قليل قام وأغلق الباب. وعند عودته قال هل أستطيع أن أسألك شيئاً يا آنسة؟»

«طبعاً»

«لماذا لم تتزوجي حتى الآن؟»

«أنت ترى أني كبيرة جداً؟!

«لا. أبداً. ولكن الفتاة في مجتمعنا تتزوج وهي مراهقة»

«هذا كان أيام زمان. الآن لا يمكن التوفيق بين هذه العادات وبين دراسة الفتاة وحصولها على الشهادات العالية.»

«لكن المرأة الجميلة مهما كانت متفوقة تتزوج مبكراً وتكمل أحياناً دراستها. وأنت جميلة ورائعة. أنا أعرف أنك كنت أستاذة في الجامعة. متأسف على هذا التدخل.. بصراحة أنا.. هل تسمحين أن أقول بأني معجب بك؟»

«شكراً لك»

«أريد زيارتك.. هل أستطيع؟»

«لا.. إني آسفة!!»

صمت خليل.. تكور في كرسيه إلى أن انتهى الدوام. حاولت إيجاد كلمة أقولها له فلم أستطع. حاولت مجاملته أيضاً لم أستطع.. حزنت لأجله. إني أدرك تماماً ما يدور في خاطره. ولكن ما الفائدة؟!

قبل نهاية الدوام اتصلت بعلي. لم أجده. اتصلت بسعاد فردت عليّ بلهفة.

«تعالي فوراً يا عليا.. أين أنت؟»

انقبض قلبي للهفة سعاد.. لابد أن عندها كلام كثير ستقوله لي.. كلام خاص بي. أعرفها عندما تريد أن تقول شيئاً تتلهف هكذا.

«افتحي يا سنسن.. أنا عليا»

أخذتني فوراً إلى المطبخ.. لست جائعة. بل جائعة يا عليا.. أمي جهزت كبة مشوية تعالي نأكل ونثرثر. تحدثنا عن الأصدقاء. الوظيفة. وبعض الأخبار التي تشيع في المدينة. مجازر في غزة.. زلازل.. حرامية.. وعندما جلسنا نتناول الشاي على

الشرفة لاحظت أن وجه سعاد قد غام وهربت منه إشراقته. تدحرجت دمعة من زاوية عينيها. قالت بصوت منخفض: عليا سأغادر قريباً.

صرخت. ماذا؟! ماذا تقولين؟ لقد صعقتني بكلماتها.

«كما أقول لك.. أخذت تأشيرة الخروج.»

«سعاد.. ماذا تقولين؟! لا أصدق. أين حماسك؟ سعاد الواقعية أين ذهبت؟!»

«لا أعرف. لأعترف بأني هزمت. على الأقل هذه الفترة. شيء فظيع أن تضيق المدينة. تضيق لدرجة أنك لا تملك فيها مكان كرسي تجلس عليه إلا إذا دفعت.. وماذا تدفع أكثر من عمرك؟ ضاقت بي المدينة. وأنا ضقت بها.. تعرفين أن الدكتوراه التي أحملها هي في الرياضيات والجامعة ليست مسؤولة عني لأني لم أوفد على ملاكها.»

فماذا أفعل بالرياضيات هنا..؟! أعيش على هامش الساعات؟!

أجهشت سعاد بالبكاء. لأول مرة منذ الطفولة أرى سعاد تبكي. هزني بكاؤها. وزاد من شعوري بالوحدة. كانت أمها صامتة. حائرة أمام دموع ابنتها.

هذه هي المدينة الفاضلة التي بحثنا عنها يا عليا؟! لم أرد. لا أقدر أن أقول شيئاً. سامح انفصل عن الشلة بزواجه.. وأنا عدت إلى القرية. علي ترك الجريدة. وسعاد تسافر؟! كل الأغصان المورقة في قلبي تتكسر. حين عدت إلى القرية رأيت أمي نائمة في الفراش. عاتبتني لأني تأخرت. لم أقدر يا أمي كنت عند سعاد.

أشعر أن أمي متعبة جداً. عيناها غائرتان.. يداها ترتجفان. ووجهها الجميل شاحب «سأخذك إلى الطبيب يا أمي» لكنها رفضت «لم يعد لي طبيب إلا الله» بكيت.

ماذا أفعل؟ لا أعرف. اجتمع أخوتي حولها. نادتنا بأسمائنا وراحت ترنو إلينا. لم أقو على نظرات الوداع في عينيها. قالت:أريد أن أجلس على المصطبة.. كانت الشمس محمرة. وكان الخريف يحبو باتجاه شجرة التوت الكبيرة. شعرت أن أمي تنساب كضوء من بين الجموع. صرخت: أمي.. ناديتها.. اجتمع أخوتي حولها.. فتحت عينيها ولم تغمضهما. حاولت رفع يدها فلم تقدر. حملنا يديها «أمي.. لم ترد.. أبعدني أخي الكبير. أغمضوا عينيها على وجوهنا. ضاق صدري وارتعشت

أصابعي. شفتاي ترتعشان.. دوار.. لم أعد أرى.. فجأة أمي تنام تحت التراب. يهطل المطر عليها.. يهطل البرد.. تجري مياه العالم السفلي.. تزلزل الأرض. تقوم الحروب وأمي راقدة تحت التراب. مرت أيام لم أستطع أن أتكلم. كنت أواجه الصمت الذي حولي بالصمت.

«أجل.. ماتت أمي.»

......

في الصباح. أحمل الماء لأسقي الورود التي اخضرت فوق القبر. أجلس قربها. أشعر بتفاهة الحياة.

لا تستحق الحياة كل هذا الشجار العنيف. لا تستحق كل هذا الركض المجنون. أقبض على حبيبات التراب.. أعجنها بأصابعي وأرميها. أسمع صوت أمي حزيناً لأنها ماتت قبل أن تراني في بيتي كما تقول.

المرأة لا بيت لها إلا بيت زوجها.

وبيتنا الذي نشأت به.. وزرعت عمري على ترابه.. هذا ليس بيتك. أحس بروحها تدخل المنزل. تحرك الستارة. تزيح الكرسي. تغطيني وترحل. أنا لا أستطيع أن أنام. أراها كل يوم تأتي. تملأ جرة الماء. أناديها.. لا ترد.. يضيق المنزل بي مع أن الجيران كل يوم يأتون لمواساتي. السؤال الذي بدأ يحيرني. أين علي؟!

لم يأتِ لزيارتي. سعاد رحلت. وسامح طلّق زوجته. هكذا أخبرني عندما جاء يعزّيني. وحده خليل يزورني كل فترة.

خليل قال لي يجب أن تذهبي إلى العمل.. اشغلي نفسك بالدوام يا أستاذة.. بماذا أشغل نفسي؟! في الدوام نتأمل وجوهنا.. ونحكي مذكراتنا اليومية. ماذا نطبخ. ماذا نشرب. متى نمنا البارحة؟

في داخلي سرب حمام مقتول.. بركان كان ثائراً وخمد.. خمدت الحياة حولي. الزمن ينوس أمامي.. ضوء خافت يتسرب خائفاً.. أين الضوء المبهر؟! الزمن خذلني يا أستاذ خليل. يقدم خليل الورود إليّ ويمضي. زعلانة من علي.. معقول ألا يسأل عني؟!

هل رأيت عليّ يا سامح؟! أبداً.. لم أره. أين هو؟ بدأت أشعر بالقلق. خليل أصرّ

أن أذهب إلى دوامي «المدير يسأل عنك» أجل.. يجب أن أملأ فراغات دفتر الدوام بتوقيعي. هذا وحده إنجاز عظيم. التوقيع الذي يؤكد بأني مازلت على قيد الحياة.

بعد شهور فقط من وفاة أمي، قال أخوتي.. وقّعي هنا.. لماذا أوقّع.. وقّعي يا عليا.. يجب أن تتركي المنزل. إنه مسجل باسم أخيك الصغير. صمتّ.. أبقى معه.. لم أستطع التعايش معه ومع زوجته. زوجة أخي.. من حقها أن تعيش في منزلها هي وزوجها.

فقط.. فقط لا غير.. أين أذهب أنا؟! كيف أترك ذاكرتي وأمضي. لم أعترض على رغبة زوجة أخي. حقها طبعاً. لم يعترض أخوتي على مغادرة المنزل. كان لابد أن أترك هذا المنزل فأنا أنثى. ويكفي أني ورثت الاسم عن أسرتي.. لقد أعطوني اسماً. أجل.

ويكون الاسم لعنة.

رأيت خالد في نومي يسألني: أتأتين معي..؟ أين؟! هذه الأمنية كيف تتحقق. قبل أن أغادر القرية سقيت حبق قبر أمي. مشيت بهدوء على الطريق الصاعد من المقبرة إلى المنزل. الطريق مرصوف بالحجارة النهرية البيضاء. أشجار الزنزرخت على جانبي الطريق. زوجة أخي بدأت تغير معالم المنزل.. هذا الساموك ليس له لزوم: أخي لم يعترض.. الساموك يحمل صورة أبي. أزاحتها.. نفضت الغبار. علّقت مكان الصورة أصيص ورد يتدلى. الساموك هكذا أجمل يا عليا. أليس كذلك؟!

لا أعرف.. سمعت أمي تشهق عندما سقطت صورة أبي من يد زوجة أخي. تحطم زجاجها.. غطيت وجهي.. لا أريد لأحد أن يرى دموعي.. نظرت زوجة أخي من بعيد.. قالت: ما رأيك يا زوجي الغالي أن نزيح هذا الساموك؟!

يصير المنزل أكثر اتساعاً. ـ ولكن هذا الساموك يحمل المنزل الكبير..» ندعمه ندعمه بأعمدة عند الزوايا.. أسمع صوت سيارة سامي ـ لقد جاء. هذا الرجل دائماً أراه في الملمات.. يحملني بسيارته ويمضي.. شعرت أني منبوذة مثل كلب جربان.. لا مكان لي.. سامي قال بأنه استأجر لي شقة صغيرة.. شكراً يا سامي. لكن رائحة حبق أمي ما تزال تشدني إلى صدر التراب المرشوش بالماء. أنا الأنثى التي ترث اسم الأهل فقط لا غير.. ثم تتخلى عن اسمها نهائياً من أب إلى أب آخر.

أنا الأنثى التي لم تكن أبداً كما تمنت. ولا كما يريدون. حين أتذكر علياً. أشعر بالأسى والأسف كيف لا أجده عند منعطف حزني الكبير. إنه خسارة من خسارات الزمن. بكيت. كأني أودع راحلاً آخر. لا أدري لماذا تنتابني الوساوس والشكوك. علي تخلّى عني.. لا أبداً وحبه الجارف.. كل شيء ينتهي بسرعة. لم لا؟! الإنسان الجبار: القوي - الطاغي - الرحيم.. ينتهي بلمح البصر. ما الفرق؟! رحلت أمي.. يبست وصايا.. ودب الخلاف بين أخوتي.. أمي كانت المنزل الذي يضمنا.

«لم يعد لنا أخوة يا سامح.. يكون لنا أخوة فقط عندما نكون صغاراً نمرح تحت معطف الأبوين. يبدو أن كل المفاهيم تبدلت مع تبدل العلاقات الاقتصادية. والعلاقات العقائدية.. حتى الروابط الدموية والعشائرية تبدلت. ألا ترى ذلك يا دكتور؟ ولكن من الذي أخطأ. نحن؟! أم أننا نساق في أخطاء الآخرين. لم يعد لنا هنا قوام خاص بنا.. إننا كالماء في الأواني المستطرقة. الغربي لا يتخلى عن شوكته وسكينه في بلادنا..

نحن نتخلى له عن كل شي. نجاريه ونقلده وهو على موائدنا. لماذا؟! الغربي الذي كان متوحشاً نخجل أمامه من قوامنا الأصلي القديم. لماذا؟!

«ولكن هناك فئة تخالفك الرأي.. فئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. الفئة التي نالت الثروة التي بشر بها الرسول أمته.. ثروة ليست من الذهب والفضة» إنه الذهب الأسود. أليس كذلك؟!

«هذه الفئة تعيش الواقع الغربي بكل معطياته.. لباس. حكام. أدوات منزلية. ولكن تفكر بعقلية الجاهلين المتخلفين. أي هناك فصام.. انشطار..»

«كلنا نعيش هذا الانشطار.. وهذا سبب زواجي من امرأة أميّة.»

«.... لا أريد أن أعلق على هذا الموضوع كي لا ينساق سامح بالتبرير لما فعل.

«أهلنا خذلونا.. يقول سامح..» يصمت حزيناً ثم يتابع.. لم يقولوا لنا أن الزمن يخذل المتفوق أيضاً.. الزمن لا يخذل المال.. ولكنه يخذل العلم.. دفعونا إلى الأمام.. العلم.. التفوق.. العلم.. الجامعة.. ماذا بعد ذلك وأنت أستاذة في الجامعة.. ماذا يريدون أكثر؟ ومع ذلك علينا أن نتحول إلى فلاحين مثقفين، نزرع.. ونفلح

حتى تكفينا رواتبنا.. لو كنا نعلم.. كنا تحولنا فوراً إلى فلاحين.. وكنا ما أضعنا العمر في مطارات العالم»

أشعر يا سامح بالشوق إلى علي.

«حقاً؟!»

أجل. أنا بحاجة إليه. ليس ليكون أسرتي. صدقني، ولا لكي يكون بديل الماضي الذي فقدته. بل ليكون هو الأمام. الأمام الذي أسير إليه وأصنعه كما أرغب «أين هذا الأمام» لا أعرف. لكن يجب البحث عنه. يجب إيجاده أتظن بأن صديقتنا سعاد أخطأت بالرحيل؟!

قد يكون جزّ الجذور أحياناً أكثر شفاء للأشجار المريضة.. رأيت والدي مرة يعالج شجرة مريضة. رش لها الأدوية. ووضع لها الأسمدة ولكن دون جدوى.. قلّمها.. أيضاً ظلت الشجرة تعاني الإصفرار. عند ذلك سمعت والدي يقول. لابدّ من القطع.. سأقطع الشجرة وأطعّم جذعها بنوع آخر أو سلالة أخرى.. ولكن الجذور كانت متعفنة، وكان النسغ ضعيفاً.. إذن لابد من القلع التام.. المرض في الجذور يا دكتور.. زميلي خليل يقدم لي وردة كل يوم. ثم يصمت.. أنا لا أرفض وردته.. آخذ الوردة إلى المنزل الذي استأجرته لكني لا أجد الوردة في الصباح.

البارحة مررت بالشارع المطلّ على البحر.. رأيت «سوبر ماركت» باسم «الرافع» ها أنا أرى للمرة الثانية هذا الإسم. أيكون هذا لأبطال الحروب؟!

«لماذا تقولين ذلك؟!»

«لأن علي أخبرني قصة مناضل يدعى رافع، لذلك أتخيل كل واحد بهذا الإسم هو مناضل حرب.. مناضل = تاجر في الوقت الحاضر.

«كل شيء ممكن.. لكن ما يزال هناك مناضلون.. وما يزال لدينا أشياء يجب أن نناضل لأجلها..»

«بالتأكيد.. مثل منع المناضلين أن يتحولوا إلى تجار»

«انظر المدينة.. طوابقها الأرضية تحولت كلها إلى سوبر ماركت.. إلى كراجات. إلى بيع المرطبات.. مع ذلك لم أفقد الأمل بعد»

«هذه يا سامح مرحلة انتقالية بين النضال والتجارة. الكل يريد أن يتحول إلى تاجر. من يزرع الأرض؟! من يعمل في مراكز البحث العلمي..؟! لا بديل للعلم.. إنها مرحلة انقلاب الموازين المخيف»

......

عندما بدأت الرياح الخريفية تعبث بالستائر، عرفت أن الأوراق التي كانت في الربيع خضراء ستسقط الآن على الأرض.. وستلفعني تلك النسمة الباردة التي تشعل في أعماقي أحطاب الذكريات والكآبة اللذيذة.

هذا المطر الخريفي ينشر رائحة التراب المبلول بالماء والتعب.. إنها رائحة بداية مجهولة.. ونهاية صيف وذكريات كثيرة.. هذا الخريف الذي يضعنا على حافة بداية ونهاية.. آه.. انظر الآن من نافذة تشرين إلى الغرب وإلى الشرق.. أجد أني على جبل عالٍ تحيط به الوديان السحيقة. كل حركة محسوبة عليّ.. كل خطوة يجب أن أدرسها وإلا سقطت في القاع.. المهم أن أحافظ على بقائي في هذه القمة لاتزلزلني الرياح ولا الصبر الطويل.. لابدّ أن أسمو مرة أخرى.

من زمن إلى زمن. أنا أتبخر. وأصعد مع هذه السماوات إلى الأعلى.. أتعلق في خيوط غيمة.. أهبط.. أسقط مطراً ثم أنبت في زهرة، في شجرة، في ثمرة.. تأكلني امرأة صالحة. أصير جنيناً.. أعود إلى سيرتي الأولى.. أبدأ ولا أنتهي. أنتهي ولا أصل إلى أمي الأولى.. يا.. سرنديب البداية.. بعل البداية..؟ جرة الماء. وجرة العسل.. جرة الزيت وحبوب الحنطة.. الجب.. الرحم. الظلام.. الموت = حرية.. حرية = الموت.. وأنا أساوي ألف طيف وطيف يحزمني. كل زمن ويخلق بي اسماً جديداً.. أكون شاهدة على زخارف العصور.. وعلى زيف الملوك.. أكون شاهدة على التراب الذي يملأ الفم.. ولاشيء غيره.

من الذي يدق بابي في هذا الليل الخريفي؟ المطر يهطل.. المطر يذيب الأرواح الصاعدة إلى السماء. المطر يعيد حيوات أرواح ذابت في التراب: هذا المطر الخريفي الجميلُ أنتظره كل عام.

من الذي يدق باب بيتي؟ لا أخوة.. لا أهل. عندما يكبر المرء يصير وحيداً بلا أهل بلا أسرة. إنه لايكون إلا نفسه. الباب يدق.. أشعر بالخوف.. لا. شيء آخر غير

الخوف.. هذا النقر على الباب أيقظني على حقيقة هي أني وحيدة. «افتحي. أنا سامح».

أعرف.. ليس غيرك يا سامح يأتيني الآن.. إنك تعاني كآبة مثلي.. لقد أدركت خطأك متأخراً. إنك يا سامح تحتاج امرأة تدفعك إلى الأمام لا إلى امرأة تتعلق برقبتك وتعيقك عن الحركة.

المطر يهطل. وسامح مايزال على الباب. أفتح الباب. أندهش لمنظر سامح. وجهه مغضن.. وعيناه غائرتان. ظهر شعره الأبيض لأول مرة. «عفواً» قال بصوتٍ منكسرٍ واتجه إلى الكرسي القريب من الطاولة. مرت دقائق صمتٍ، شعرت بها طويلة جداً. تساءلت بيني وبين نفسي «من الذي دفعنا إلى هذا الاخفاق..» لماذا لم تعد الحياة مدهشة؟ هل علينا أن نزور أضرحة الزعماء الذين ماتوا منذ زمنٍ بعيد؟ هل علينا أن نجدد الولاء لزعيم آخر، لمبادئ أخرى، لنرى الحياة مدهشة وتستحق منا كل هذا الإخفاق؟ هل رفضنا للوكف يعني إخفاقاً؟ لا أعرف يبدو أننا مانزال في طور النقاهة لمرض لا نعرف كيف نشفى منه.

انظر إلى سامح.. أشعر بالاشفاق على هذا الرجل الشفيف الذي أعرفه منذ سنوات بعيدة. إنه القادر على إعادة ثقتي بالناس باستمرار. سامح يسند رأسه بكفه وينظر إلى بلاط الغرفة. لن أخرجه من صمته.. لابد أنه بحاجة إلى هذا الصمت. سأتركه إلى أن يرغب في الكلام. لن أجرّه إلى حالة لايريدها. دخلت المطبخ أصنع له القهوة بنفسي. وعندما عدت إلى الصالون وجدته مايزال مطرقاً. سكبت القهوة في فنجانين. قدمت له فنجانه بصمت. رفع رأسه بتثاقل. كنت لم أره منذ أسبوع. وجهه يوحي بأنه لم ينم منذ أسبوع. لا أحب أن أرى سامح يتهاوى أمامي.. ما الذي بعثره هكذا.. لم أكن أعرف أنه يخبئ كل هذا الصخب في داخله.

لن أسأل سامح عن أي شيء... قال لي مرة: الإنسان عندما يفيض ما بداخله.. لا يقدر أن يتحمله.. عند ذلك سيتحدث تلقائياً. سأترك سامح يتحدث وحده. نحن الذين كنا نشكو إليه.. وهو الذي كان يستوعبنا. ويحلل كلماتنا.. خطر لي موت علي.. أكبر كارثة يمكن أن تهزني هي موت علي.. ارتجفت خوفاً وأنا أرنو إلى سامح.. لا أقوى على قبول هذا الأمر.. استعدت كلمات غائرة في الزمن السحيق. «ستظلين تبحثين.. لن تكتملي.. لن تلتقي ظلك أبداً».

هل أصرخ وأقول: «مات علي؟»

رشف سامح من فنجانه رشفة. وضع الفنجان ولم ينظر إلي.. أيكون سامي الذي مات... يا إلهي. سامي الرقيق الذي أجده دائماً بانتظاري عندما أكون في زقاق ضيق من زقاقات الحياة المفاجئة. يقترب مني بهدوء. مرة يؤكد لي بأنه تلميذي المخلص.. ومرة يشعرني بأنه صديقي الطيب المحب.. ومرة لا أعرف كيف أفسّر كل هذا الهدوء الذي يحمله. علي يكرهه.. يقول: صديقك سامي امتداد لأبيه الحرامي. وسامي هذا يذكّره دائماً بزميل له كان معه أيام المدرسة. وعندما يراه علي يدير له ظهره، أو يتجاهل حديثه.. قلت له مرة: أكره احتقار الناس مهما كانوا. ضحك علي عند ذلك وقال: هذا النوع يحتاج إلى احتقار دائماً ليفتح عينيه جيداً ويرى نفسه.. وإلا ظنّ نفسه نصف إله. لو تسمعين حديثه الذي يروج فيه لعطاءاته للوطن. ولبنائه لهذا الوطن لصرخت بأعلى صوتك «هذا الوطن لا ينتمي إلا للفقراء، هذا الوطن ينتمي للذي يعمل بصمت، ويبني بصمت مثل عمال أوغاريت الذين رفعوا الأعمدة. وبنوا القناطر.. مثل العبيد الذين بنوا أفاميا.. كل صخرة تحتاج مئات الرجال لدحرجتها.. مع ذلك بقي الاسم للامبراطور. ولزوجته أفاميا.. بقي اسم القائد وذابت أيدي وظهور وعيون الذين ماتوا تعباً. هل نعرف اسم عامل من عمال «سيانو؟» هل تعرفين اسم عامل من عمال تدمر العظيمة؟

«يعني الوطن ليس لهم» الوطن لهم.. ثقي تماماً.. عند نشرك مقولات هذه الطبقة الطفيلية في حواراتنا وهمومنا.. يعني نحن نعترف بأنهم فاعلون في مسيرة الوطن. وهذا غير صحيح «كفى أرجوك يا علي» عندما طلبت إلى علي أن يسكت غضب وقال: أ أنت تحبينه؟! اعترفي.

بماذا أعترف.. سامح سألني السؤال نفسه. وخليل سألني مرة «أتحبين رجلاً ما» بماذا أعترف؟ المطر يهدأ قليلاً. برق متقطع ينفلش في الغرفة. ينهي سامح قهوته. يلتفت إليّ ويهمس بصوته الحزين. أعتذر يا عليا. أكاد أختنق. لم أجد غيرك ألقي بحزني بين يديه.

«ماذا تقول يا سامح؟! أنت تأتي في أي وقت وتقول ما شئت..! أنت.. أنت سامح وهذا يكفي»

«هل لي أن أطلب إليك شيئاً؟! أكاد أختنق يا عزيزتي.. أريد أن أخرج إلى الشارع.. أن أمشي تحت المطر. أترافقينني؟» تعالي نغتسل بماء السماء.. نتطهر..

نشم رائحة المدينة المغسولة والشجر المغسول بعد غبار كثيف متراكم. كنت أنصت وسامح يرش كلامه.. سررت أنه بدأ أخيراً يتكلم «عليا أود أن أمشي في العتمة كي أفتح صدري وأخرج ما فيه من مدنٍ متهدمة. وأحلام يا بسة.. لا أريد أن يرى الضوء أشيائي كي لا يبتهج بأحزاني. أرجوك لا تقولي لا.. أعرف الإحراج الذي قد أسببه لك.

لم أعترض. ولن أعترض.. كنت مستعدة لأي شيء مقابلٍ أن أرى سامح يعود إلى حالته. لقد جاء دوري لأقف إلى جانبه بعد أن وقف طويلاً معي. قد يرجمونني غداًفي ساحة المدينة. ويقولون هذه امراة فاسدة.. تتحدى قيمنا ومشاعرنا. وتسير مع رجل في الليل الممطر.. إنها تمارس الفضيحة علناً. وهي يا سيدي القاضي تشكل خطراً على نسائنا وبناتنا.. ولكن يا سيدي القاضي ـ هكذا سأقول ـ أرى عدداً كبيراً منهن يتعرين أمام الضوء في الفنادق الفخمة. وفي المنازل المفروشة.. هناك لا أحد يراهن إلا الجدران. لكن ثق يا سيدي بأن هذه الجدران ستتكلم ذات يوم. سيصير لها شفاه وستقول كل شيء..

سيغضب القاضي وسيقول:«إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا» وأنا لم أستتر. تذكرت مدير دائرتي عندما حضرت إليه فجأة لأن السكرتيرة لم تكن موجودة. رأيته يقضم تفاحة. لم يلفت انتباهي أيّ شيء. كان الوقت أحد صباحات رمضان.. عندما رآني المدير. نزع التفاحة بسرعة. وقام بحركة مسرحية «لا حول ولا قوة إلا بالله.. تصوري يا آنسة. نسيت أني صائم.. أستغفر الله» ابتسمت وقلت:«يا أستاذ معليش.. لن يؤاخذك الله على النسيان.» أعتقد أنه فهم عليّ تماماً. وأنا فهمت عليه. «لا بد أنه يصلي مع جماعة النهي عن...» ثم....

لكن لماذا كل هذه الأقنعة المكدسة منذ العصور الأولى.؟! أيخافون بعضهم أكثر مما يخافون الله.؟! قناع مناسب لكل زمنٍ يا أستاذ.. قناع محترم لكل جماعة يا امرأة.. قناع وأقنعة. و.. الحرية = حرق الأقنعة. الحرية = وجه بلا قناع = حيوان لطيف بلا مخالب. أعرف أن الخروج مع سامح لا يهدف لشيء إلا للسير في فضاء المطر. هكذا كنا نفعل في باريس.. لم نكن نخاف العيون. ولا نخاف الفضيحة. كنا بلا أقنعة إلا أمام الزملاء العرب. عندما كنا معاً. كان علينا أن يحمل كلٌ منا قناعه المحترم. ولأني حاولت مراراً تجنب هذه الأقنعة. أو خلعها حين أضيق بها..

وقعت في أخطاء جسيمة. قناع التستر هذا لم أكن أومن به.. السر = العلن عندي. حتى الآن هذه هي نظريتي الموقرة. هيا يا دكتور. لبست معطفاً مطرياً ووضعت على رأسي شال صوف، وخرجت مع سامح باتجاه حديقة البحر.. اجتزنا الساحة المحاطة بالأشجار المتهدلة تحت ثقل حبات المطر.. رذاذ ناعم يلفح وجهينا. نسير بصمتٍ كأننا لا نريد أن نخرّب صوت الطبيعة. سيارات قليلة تمسح الاسفلت بضوئها، وامرأة عجوز نحيلة، تربط رأسها، ترتدي جزمة بلاستيكية وقفازات بلاستيكية. تدير ظهرها للضوء وهي تنبش أكياس القمامة. تذروها على الرصيف مختارة منها الأحذية البلاستيكية. وكراتين البيض وأشياء هي تقدر قيمتها. تنهدت بحسرة.. «المفروض أن تكون هذه المرأة جدة.. لها أحفاد يعتنون بها..» تذكرت أمي. انسابت دمعة حذرة على خدي. سامح ما يزال في صمته. نظرت إليه «سعاد أرسلت لي رسالة.. إنها تسلّم عليك. وتسأل عن أخبارك. لم يرد سامح. ظل على خطواته. مخبئاً يديه في جيوب سترته. كنا نتجه إلى البحر. مستعذبين هطول المطر. وتساقط أوراق الشجر الخريفي.. كنت أحترم صمته. وسرّه. ولكن يجب أن أسمعه. تابعتُ «سعاد تقول في رسالتها بأنها حزينة جداً.. هذه المرة تشعر بالغربة أكثر من السابق. وهي عندما كانت تدرس كانت دائماً تؤمل نفسها بالعودة إلى الوطن.. وبأنها ستعود منتصرة بنيلها شهادة عالية وتستلم بذلك وظيفة محترمة تليق باغترابها وتخصصها.. كانت تقول بأنّ مرحلة الشوق والانتظار هذه ليست دائمة. ستنتهي قريباً. ولكن بعد أن خبرت الوطن مجدداً.. ورأت بأم عينها هبوط قيمة الشهادات العالية. شعرت أنها لا شيء تنتظره سوى الغربة. هذه المرة قطعت جذورها.. حمّلوها جواز سفرها وقالوا لها: لا ترجعي. غطّي عينيك. انسي اشجار المدينة ومطر المدينة ورائحتها... إنها تحاول استحضار البحر. والأصدقاء والأهل.. لا شيء أمامها إلا ذلك. تسير كل يوم في باريس على غير هدى. باحثة عن وجوه تشبه وجوهنا.. وعن أم تشبه أمها.

.. وعن شجر توت يشبه شجرة المصطبة. مرة رأت عجوزاً تجلس في الحديقة ـ إنها تشبه أمي ـ جاءت وجلست قربها على مقعد الحديقة.. قدّمت لها الفستق.. وعندما نهضت العجوز نهضت سعاد معها.. مشت وراءها إلى أن دخلت المرأة بيتاً وأغلقت الباب وراءها.. انتبهت سعاد إلى أنها وحدها في مدينة غريبة. وأن هذه

المرأة ليست أمها.. لم تصدق.. أرادت أن تتأكد.. وقفت على الباب وصرخت «أمي».. أمي» لم يرد عليها أحد. تركت الباب وتابعت سيرها باحثة عن أم أخرى..

يبدو أني تحدثت كثيراً عن سعاد. لذلك وقف سامح وقال لماذا لم تسأليني عن حالي يا عليا؟!

ارتبكت. وشعرت بالحرج. ظننت أني تركت سامح على راحته وهذا هو الأفضل. هو الذي كان يتركنا نتحدث إلى أن نتعب ـ يقول هذا جزء من العلاج ـ بعد ذلك نرشف القهوة تاركين له أحزاننا بعد أن زرع الأمل في أعماقنا. المطر ما يزال يتسرب بهدوء في شعري.. قلت له آسفة يا سامح. الواقع لا أقدر أن أسأل طبيبي النفسي عن أحزانه. توقعت أن تحدثني وحدك أو لن تفعل؟ ربما كانت أحزاناًخاصة لا تريد أن تشرك بها أحداً.

«أبداً يا عليا.. أخذ يدي.. شدّ على أصابعي بحنوّ.. أنت تجاهلت أحزاني.. وتجاهلت أسئلتي. لم تسأليني لماذا تزوجت بسرعة. لماذا طلقت بسرعة؟!

«هذه أمور شخصية.. لا أستطيع أن أفرض آرائي على الآخرين. مسألة الحب والزواج مسألة شخصية جداً. والتقييمات فيها نسبية. كنا نقترب من الحديقة. وكانت أشجار الفلفل الكاذب الجاثمة فيها كبيرة، قديمة. وكان صوت البحر عالياً. ورائحته خاصة تتسرب إلى أنفينا. المطر المتقطع يهطل مع هبات الرياح الغربية. مطر دافىء لا يلسع.. بدأت أتشبع بهواء البحر وأنا سعيدة. خجلت من سعادتي وأنا مع سامح التعيس جداً. اخترت مقعداً خشبياً تحت السماء مباشرة. جلست وظل سامح واقفاً. نظر إليّ «لقد بللتك. أليس كذلك؟!

«ماشي الحال. إني معك»

«ظل! ينظر إليّ ثم التفت بسرعة. لم أعهد ذلك منه. كان حزيناً لدرجة القهر.

«تعالي نجلس هناك تحت تلك الشجرة»

قمت وأخذت المكان الذي اختاره تحت شجرة كبيرة. الحديقة صامتة.. ممراتها تمرر هواء البحر ورائحة الورق المتساقط، منذ أيام هذه الرائحة تعيدني إلى عليا القديمة.. إلى وحوش الطرقات.. إلى المدينة التي خبأت طفولتي فيها بين أنياب ذئاب كثيرة وأزهار كثيره.. كلما رأيت تلك المدينة تتشابك الأشياء المحزنة والمفرحة معاً.

الرغبة والعقل. الطفولة والنضج. الجوع والشبع. أشياء لا أستطيع أن أحدّها. أتذكر عليّ الذي غاب.. كأنه تبخر.. سألت عنه مراراً وعندما فشلت في إيجاده صمت.. البحر أمامي.. يلاطم موجه الصخور. تخرج سفن قديمة. ونساء قديمات من بين الصخور.. أرى بشراً أعرفهم.. وقراصنة يشبهون بشراً محترمين في المدينة. الإنسان لا يتغير كثيراً.. هو نفسه الذي كان يجرّ الناقة.. ويعقرها.. هو نفسه الذي يسوق الدبابة ويدهس فيها العشب والتراب والبشر.. صوت البحر يتهدم في أعماقي فيخرج العصور المختبئة في مياهه الزرقاء. ويهدم الجدران الفاصلة بين رجل ورجل. بين امرأة وأخرى. بين جسد هو ثوبي الخارجي. وبين روح لا تظهر إلا في هذا الثوب. أي حقيقتي الظاهرة.

«هل أنت بردانة؟»

«أبداً يا سامح.. إني أستمتع بهواء الخريف وبهذا البحر الممتد إلى ما لا نهاية إنه كالروح لا يحدُّ.. يحزنني التماهي البعيد. أحياناً أريد أن أقبض الأشياء والأسماء بيدي.

«عليا.. أريد أن أسألك وبصراحة؟!

«دائماً أنا صريحة معك.»

«هل تحبين علي..»

مرت دقائق صمت.. دقائق واخزة. لا أعرف كيف أجيب خاصة الآن وأنا مخذولة من علي.. ثم لماذا هذا السؤال؟! أيكون عليّ في ضيق؟!

لقد سألتك أكثر من مرة السؤال ذاته ومع ذلك لم أعرف منك الجواب الحقيقي. أنا لا أفهمك أحياناً يا عزيزتي. من انت حقاً؟ حبيبة خالد الذي حدثتني عنه كثيراً.. حبيبته وكفى؟ أم حبيبة عليّ. أم أنت فعلاً لست امرأة من لحم ودم وأنك كما تقولين «تغيبين وتحضرين من زمن إلى زمن. تنتقلين من ثوب إلى أثواب.. من حالة إلى حالة. من أنت يا عليا؟!

«لا أعرف يا سامح.. أعرف أني امرأة جئت من صوب البحر. أتذكر أنه كان لي منزلٌ في مدينةٍ غير هذه المدينة. وأتذكر أني حبيبة رجلٍ آخر غير هؤلاء.. انتقلت من البحر إلى اليابسة.. باعوني.. تحولت إلى سلعة. هربت. دخلت البحر

في بطن تنين كبير. عدتُ.. عشتُ بين أسرة فقيرة. ثم انتقلت إلى عالم آخر. عشت في مصرَ.. كنت أميرة.. وكنت جنية.. حورية وجارية.. لا أعرف من أي الأثواب الزمنية خرجت. إني أمتدّ من حواء إلي العذراء. من فاطمة وزينب. من آدم إلى ابراهيم. من الضحاك صاحب أفعى الأكتاف زعيم قريتنا الأبدية. إلى.. وإلى. إليك وإلى عليّ.. إلى زمن سيأتي. وقالت لي جدتي.. قالت. سيأتي الطوفان يمسح «جادوم» الأرض.. ثم تأتي قبائل همجية. لكن سيظل القمح على الأرض ينبت. والنعنع البري على الضفاف.. لن تموت الأرواح الطاهرة.. فهي أبدية لا تفنى.

ستدخل أجساداً.. أو أزهاراً. أو أنهاراً. ستبدأ بنضال آخر. بطريقٍ مفروضة علينا.. مرات أسأل نفسي. من أنا؟ من أنت يا سامح..؟! جدتي قالت: الملك يخلق في زمن آخر شحاذاً. والشحاذ قد يخلق سلطاناً. يجرّب قمصان الروح.. والخالق يختبر في الأرواح.. يطهرها.. أو يمسخها.

أحياناً أعاتب نفسي يا سامح.. أقول بأنه عليّ التأقلم مع حالتي الحالية.. ظهوري الآني بهذا الثوب الفاني.. ثوب الشقاء الذي أعيشه سأتركه وسأخرج إلى ثوب أميرة.. أليس كذلك يا سامح؟.

ـ لا أعرف يا عليا.. سأعترف لك.. أنت سبب طلاقي.. لا تقولي «أنا؟» باندهاش.. دعيني أكمل.

ـ لا. لن أدعك تكمل. معقول يا سامح؟!

نهض سامح واقفاً. أخذ يدي بين يديه.. وقبل ان يقول شيئاً. رفع يدي إلى شفتيه حاولت سحب يدي لكن دمعة حارة انسابت بين اصابعي.

عليا! اسمعيني.. ألا يحق لي أن تسمعيني..؟! عشر سنوات وأنا أسمعك.

ابتعدت عن سامح. غمرت وجهي بيدي. أ أنا سبب كل هذا الحزن؟!.. أريد أن أرحل. أرحل من هذا العالم كله.. الرحيل وحده الاحتجاج المسموح الآن. أريد أن أصرخ. أن أبكي.

أنا أحبك يا عليا.. وسأظلّ أحبك. أتذكر لقاءنا الأول في حفلة الجامعة في باريس.. كنت أرافق الصحفي المصري «جهاد» الذي هرب من مصر خوفاً من القتل..

جهاد كان يحبك. وكان في كل لقاء يحدثني عنك.. كان يسميك قرنفلة أوغاريت..

«سامح.. عليا قرنفلة. تعيدني إلى قرنفل أمي. إلى حبّ الهيل. والقهوة. تعيدني هذه المرأة إلى حضن مصر الذي حرمني منها أحد المشايخ.. مشايخ النهي عن المنكر.؟ جهاد كان هائماً بك.. وكنت أظنه يبالغ بوصفك.. وأقول هذا كلام عشاق. كان يلحّ عليّ بأن أعرفه بك «سامح أريدك أن تجمعني بالآنسة علياء.» لا أدري لماذا لم أتحمس لمعرفتك به. كنت أشفق عليه. وأضحك منه وهو يصف لي حبه الجارف لك ولا يقدر ان يصارحك به «هي امرأة حقيقية يا سامح» الآن أدرك لماذا كان يقول: هي امرأة حقيقية.. إنه يؤكد قدرته على احتواء ذراتك وخيالاتك.. روحك وجسدك.. وفي حفلة التعارف السنوية لمحك من بعيد ترتدين الجينز مع بلوزة برتقالية.. وشعرك منثور على ظهرك شدني جهاد من يدي وقال لي: إنها هي.. إنها هنا. علياء. وعندما مددت يدي لأصافحك لا أعرف ما الذي احترق في يدي.. تذكرت اخيراً بأني أضمّ يدك. خجلت. وأخفضت نظراتي التي غابت في وجهك. وعندما سمعت صوتك لم أعد قادراً على إخفاء دهشتي. ابتعدت قليلاً. سألني جهاد. ما رأيك؟! اليست رائعة؟!

لم أرد. وبعد تكراره للسؤال.. قلت له: إنها عادية. اغتاظ مني وقال أنت غبي. لا تعرف المرأة الحقيقية.

كنت مرحة وأنيقة. دخلت ذاكرتي من يومها ولم تخرجي. لم أعلن مشاعري. كيف أعلنها وجهاد يحبك. قررت أن أطوي مشاعري. أخبئها. أهرب منها. لكن في كل مرة أراك كنت أرى المدن التي أحبها. والشجر الذي تفيأت بظلّه.. كنت.. آه.. عليا.. أتفهمينني؟! قلت لنفسي. هذه مشاعر الحنين لأنك في القرية يا سامح.. عليا بالنسبة لك هي حقول الساحل.. وهي زرقة البحر. هي الممالك الساحلية القديمة. ورائحة الزيزفون. غداًعندما تعود إلى الوطن ستنسى هذه الآلام. لم أكن قادراً على شرح كل هذه الأشياء لك. وعندما عرفت بأنني من الساحل السوري. رحبت بي ودعوتني مراراً وكنت أهرب. لا أريد أن أجرجر نفسي أكثر. تركتك لجهاد. الذي لم يجرؤ هو الآخر أن يفاتحك بحبه لأنه لم يكن يملك مكاناً يأوي حبه الكبير.

كان يقول لي: غداً سأعترف لها يا سامح. لكنه يعود ني كل مرة مخذولاً هي امرأة مختلفة يا سامح.. كأن كلماته تكويني. وكنت أقاوم هذا الحريق ولأعترف لك بأنانيتي. كنت أدعو الله أن يظل جهاد على خوفه لتظلّي لي. فأنت المستقبل الذي كنت أسعى إليه. المستقبل الذي يرش التاريخ القادم بفتوحات جديدة كنت امرأة مختلفة. أجل.. في عينيها القهر العربي والفرح العربي والاضطهاد العربي. تعرفين أن جهاد لم يطل بقاؤه في باريس. فقد ذهب سراً إلى مصر لحضور دفن أمّه. بعد الجنازة بأيام وأثناء تجواله في القاهرة ليلاً ترصدته جماعة من الأصوليين وقتلته. أجل.. أتذكر الحادثة الآن.. وأتذكر وجهه الأسمر الجميل. وقامته الطويلة النحيلة. أتذكره بضحكته المدوّية. عندما علمتِ أنتِ بالخبر صرختِ.. أخذت تبكين.. لا يعقل يا سامح. لا يعقل أن يموت جهاد. أتذكرين.. هكذا قلت لي وأنت تعانين حزناً حاداً. هنا بدأت المخاوف تتسرب إلى نفسي. خمنتُ أن جهاد اعترف لك بحبه.. وإلا لماذا كل هذا الحزن الطاغي الذي جعلك تتكفئين في الجامعة ولا تخرجين.. قالت سعاد: إن عليا تعاني إحباطاً شديداً هي تشعر أن العقل العربي المتنور يُغتال.. لهذا هي حزينة.. أنا لم أعلق على الكلام.. كنت أظن بما وراء هذا الكلام.

ربما يخطر في بالك.. لماذا لم أعترف لك بحبي بعد ذلك.؟!

لم أستطع اعتبرت ذلك خيانة. خيانة لأعزّ صديق.. هل اعترف لك جهاد؟!

«دعني من الماضي يا سامح أرجوك»

لم أستطع مقاومة دموعي بدأت أبكي.. اعتذر سامح.. أراد أن يمسح دمعتي.. ابتعدت عنه. وقف جامداً. لم يقل شيئاً.. مشينا.. خطوات. وخطوات. الصمت تدحرج بين أرجلنا..

«سامح»

التفت إليّ.. هل تشم رائحة التراب؟! رائحة العشب المبلول؟!

«عليا.. ها نحن الآن وحدنا. يجب أن تسمعيني حتى النهاية. أنا لم آتي لأقول فقط هذا الكلام.. هناك أشياء أخرى.

«أسمعك يا سامح.. إني معك بكل كلمة..

عندما عدت أنا إلى أرض الوطن كنت أنت ما تزالين تحضرين «الدكتوراه» ولشدة حبي لك رحت أنتظرك. أتحدث عنك.. أخبرت صديقي عليّ الكثير عنك.. لكن لم أذكر مرة أني بحث بشيء أبداً. وعندما عدتِ إلى الوطن. التقينا. كنا ناتقي. وكان جهاد بيننا. وفي كل لقاء أسأل نفسي.. هل باح لها جهاد بحبّه؟ «كيف تسألها يا سامح.. هذه مشاعرها الخاصة. حياتها الخاصة.» حرصت على إسعادك.. على أن أكون قربك. هيأت عليّ لأخبره بما في داخلي.. كي يساعدني إنه صديق طفولتي. وكنت أنتظر أن يراك حتى أخبره بكل ما في أعماقي يا للدهشة يا عليا.. لقد أخذك عليّ مني.. عندما رآك. قال لي قبل أن يسلم.. هذه هي المرأة التي أبحث عنها يا سامح.. «جمدت كقالب ثلج» قال ما بك؟ أتحبها؟.

«لا.. هي صديقتي.. زميلتي.. هكذا تقريباً» وقفت عند هذا الحدّ من البوح.. وراح عليّ يتمادى.. طغت مشاعري مرات.. هربت مرات. وفي كل مرة تتكدس في داخلي جدران مهدمة، أنهار جافة تلمّ حصاها. أنا أحبّ علي.. أحبه فعلاً. وأعرف بأنه شاعر كبير. حساس ويحتاج إلى امرأة مثلك. أقنعت نفسي بالتضحية.

«يجب أن تضحي يا سامح لإسعادها ولإسعاد علي.. إنهما أعز كائنين على روحك»

«لهذا كنتَ تسألني أتحبين عليّ؟»

«أحياناً كنت أشعر بالسعادة تغمرني عندما لم تؤكدي حبك له.. ولكن كنت أحتقر نفسي بعد ذلك وأتساءل هل أنا أناني إلى هذه الدرجة؟!

هذا كان يدفعني لأن أبتعد.. أبتعد أسابيع وشهوراً. لا أتصل حتى تتصلي أنتِ وتسألين عني.. ومع كل عودة. مع كل لقاء.. كان كل شيء يعود. الحرائق، والبرد، والفراغ. ودمعة أخفيها في زاوية القلب.

فكرت بالحل:

هذا هو الحل يا سامح.. كدت أصرخ.. أصرخ ألماً. إنه الحل.. أتدرين ماذا كان الحل؟! الحل.. سعاد.. فكرت بها.. رائعة. وجميلة.. هي تذكرني بك.. هنا تكمن الخطورة. سعاد ستبقيك داخلي أكثر.. لذلك هربت إلى امرأة «اسمها سلمى» سلمى المراهقة البسيطة التي ظلمتها أنا.. قررت أن يكون لي زوجة وأولاد. وأشياء أخرى

أغمر فيها حياتي الباقية. قلت لك سأخطب يا عليا.. وقلتِ لي مبروك.. ببرود.. هذا البرود قتلني. أكد لي أني غير موجود أبداً.. هذا الحياد جعلني أسرع بالزواج من امرأة لم أتلهف مرة لأن اقبلها.. كنت أضمها بحنان أختلقه حفاظاً على مشاعرها. فهي لا ذنب لها. كنت أتعمد تعذيب نفسي وأنتِ كنت تتجاهلين.. ألم تري تمزقي وكآبتي؟! لم أعد أهتم بمظهري، ولا بأناقتي مع أني أعرفكِ تفضلين أناقة الرجل. لماذا لم تسألي مرة ما بك يا سامح. لماذا تغيرت؟!

«بصراحة لم أشأ التدخل.. كنت أحسب الأمور بطريقة أخرى.. خشيت أن أجرحك»

«كم مرة تحدثنا عن المرأة الناضجة، الواعية. وأخذت أستفزك وأقول لك لا أريد امرأة مثل سعاد. أريد امرأة للمنزل. لم تصرخي بوجهي وتقولي ما به سامح؟ حزنت لأنكِ لم تفهمي مقصدي. كنت أظنك أكثر إحاطة بعالمي.

«أبداً يا سامح.. كنت مجروحة أنا أيضاً»

«أعرف.. أعرف. لذلك الرجل الذي يحب فعلاً لا يؤذي.. وهو مستعد للتضحية. وأنا يا عليا.. غير مستعد للكذب على نفسي أكثر.

لا أقول ذلك استعطافاً.

ولا من أجل الإساءة إلى علي. سأكون سعيداً لحبكما.. ولن أكون عائقاً أبداً. أرجوك أن تفهمي ذلك.. وتقدري صدق مشاعري تجاه علي.. ولكن هذا لا يمنع من البوح.. أريد ان أزيح هذه الصخرة عن صدري.. حاولت إقناع نفسي بسلمى. وعندما تمّ الزفاف، وانزويت بها في منزلي الأنيق.. نظرت إليها وهي في ثوب العرس.. لم أجدها.. وجدتك أنت.. أجل أنت. حاولت جاهداً أن أفتح الباب لتخرجي. لا أريد خيانة علي.. لم تخرجي.. بقيت في ثوب الزفاف ـ اندهشت سلمى لماذا لم أرفع غطاء وجهها.. لم أطلب إليها أن تخلع ثيابها.. لا.. لا أريد أن أعرّيك وأنت بين يدي علي لا أريد.. مشاعر مجنونة كانت تلعب بي تدفعني بقوة لاحتضانك وتقبيلك ولكن لم أجرؤ.. لا يحق لي ذلك.. لا يحق لي أن أقبل امرأة لا تحبني. لذلك فتحت الباب وخرجت.. تركت سلمى دون أن تعلم شيئاً. رحت أمشي.. أمشي إلى أن تعبت. اختبأت تحت شجرة في بستان خارج المدينة وانطويت

على حزني.. أدركت أني هربت إلى خطأ أكبر.. لم أعد حتى الصباح.. فتحت الباب فوجدت سلمى ما تزال بطرحتها وثوبها الأبيض.. عاتبت نفسي.. وبكيت.. وعندما سألتني ما بك.. صرخت بها وصفعتها..

أنا أصفع امرأة.؟! كم كنت جباناً وتافهاً. لا أحملك المسؤولية هنا.. المسؤولية تخصني.. لم أستطع تحمل هزيمتي. نزعت الطرحة عن رأس سلمى.. هذه هي سلمى.. وجهها غير وجهك. ورائحة شعرها غير رائحة شعرك.. لم أشعر بالأنثى الحارقة أمامي. اقتربت مني. قلت لها: هيا نشرب قهوة.. ابتعدت وقالت: كما تشاء. صنعت القهوة. وكانت نصف عارية. لم أرَ فيها إلا امرأة تستحم بالبحر.. أنثى أي أنثى. لم تحرك بي الرجل الذي يتشهى جسد حبيبته.. بصراحة كنت أتشهاك أنت يا عليا.. صوتك وحده كان كافياً لأن أحلّق في فضاءات بعيدة. قبلت سلمى ارضاء لها.. كانت دافئة وكنت بارداً.

شعرت أني أخونك.. قررت ألا أخونك. لا.. لم أقرر. بل أنا لم أقدر. تمنيت أن أخونك لأتخلص منك. لأقتلك. مرّ شهر على ذلك. بدأت سلمى تميل إلى الكآبة. وبدأ جسدها يميل إلى النحول.. شعرت بالشفقة عليها. ستظل شقية معي. لا أقدر على إسعادها. بكت وقالت.. لن أقول لأحد بأنك لست رجلاً طبيعياً.

«لا تبكي يا سلمى أرجوك»

«أنا أحبك يا سامح.. أحبك»

«أعرف.. أعرف يا سلمى.»

عليا.. فعلاً أنا لا أقدر أن أكون طبيعياً مع امرأة أخرى. لم أجد حلاً إلا الطلاق. أجل. طلقتها.. أعطيتها كل شيء. كل شيء. سمعت أنها خطبت. وستتزوج قريباً من رجل أرجو أن يسعدها.. مع ذلك.. لم تسألي مرة لماذا تركت سلمى؟! كأن الأمر لا يتعلق بصديق شربت معه القهوة. وسهرت معه. ومشيت معه؟!

«افهمني أرجوك يا سامح.. لا يحق لي...» لا تكملي أرجوك. لو كنت مهماً حتى كصديق كنت سألت. أنا أسأل هنا فقط عن مكانة الصداقة. ألا أستحق المواساة؟

حشرج صوت سامح. لا بد أنه يقاوم غصّة حارقة.. كم أكره نفسي الآن.. إني

سبب كل هذه الآلام.. سامح الذي يظل ينال إعجابي أبداً يخبيء كل هذه المجامر في أعماقه؟!

سامح الذي يعجبني عطره وشعره وقمصانه يخفي كل ذلك..

ماذا أفعل لرجل كان ملاذي. أشكو إليه صديقه وحياتي المعذبة. رجل طالما أحببت تفكيره وأسلوبه في الحياة. هل أقدر أن أمد يدي له.. تناولت منديلاً. مسحت على جبينه. ظلّ مطرقاً رأسه إلى الأرض. المطر يتوقف قليلاً ويزخ قليلاً مع هبات رياح بحرية وغيوم مسافره.. شجرة الفلفل تحرك أغصانها مع هبوب الريح. المدينة خاشعة تحت العتمة. ضوء شاحب ينطلق من النوافذ المطلة. برقّ خفيف يغمرنا أخذت يد سامح بهدوء..

«سامح.. سامح.. أرجوك أن تتفهم موقفي. لم أقصد أبداً إهانتك. لم أشعر بكل هذا الصراخ في أعماقك..

ـ كان يمكن أن تكون الأيام أجمل لو أنك اعترفت لي يوم عدت.. سامح.. لم أستطع أن أكمل دون بكاء.. سامح كان أمنية بالنسبة لي.. هل أقول له ذلك؟! هل أحمله المسؤولية؟! لقد ظلم نفسه وظلمني.

سامح.. انا لم أحب جهاد.. كنت أرتاح له. أحترمه. وهو لم يعترف لي بحبه أبداً

«صحيح يا عليا..؟! صحيح..؟! يا إلهي.. يا إلهي..»

أجل. لكنني أصبت بالحزن الشديد على فقدانه.. كان مهذباً ومثقفاً. إنه خسارة كبيرة فعلاً. حزنت على العقل المغلق كيف يفكر.. حزنت على العقول النيرة المضطهدة.. جهاد كان بالنسبة لي العقل الواعي الذي يدفع الأجيال إلى الأمام لا إلى الوراء.

سامح.. أيضاً دعني، أعترف.. لقد رأيتك بقلبي منذ النظرة الأولى.. فسرت الأمر على أنه مجرد ارتياح لأنك من بلدتي. لكن انتظرتُ أن تقول لي شيئاً لأني لاحظت اهتمامك.. فأنا لا تسمح لي شرقيتي بالبوح.

مرات كثيرة كانت سعاد تقول لي: أنت تحبينه يا علياء.. كنت أنفي ذلك.. أنت هربت.. لم أكن أعرف لماذا؟! وأنا هربت.. الآن جئت تقول كل هذا؟!

لماذا.. لماذا.. ليتك ظللت على صمتك كان ذلك أخفّ وطأة . الآن جئت.. يا...

....

أخذت عليا تنتحب.

وعندما استيقظت على دموعها.. استنكرت ضعفها.. كانت مشتتة. متعبة. دائماً كان لسامح ذلك الوهج الداخلي في أعماقها. وكانت تظن بأنه لا يشعر به.. وأن هذا الرجل له أمنياته الخاصة به. لم تكن تعرف بأنها هي. هي أمنية. ولم يكن يعرف بأنه هو.. هو أمنيتها.؟ وسامح الهادىء.. كاد أن يسقط على الأرض عندما اعترفت له عليا بمكانته في أعماقها.. لكنها لحظة.. لحظة واحدة قادرة على تغيير مسار الحياة كله.. لحظة تسير بنا من الجنوب إلى الشمال.. أو العكس.. لحظة. يبدأ كل شيء.. أو ينتهي كل شيء.. هذه اللحظة لم يستطع أي منهما أن يمسك بها.. لم تستطع عليا.. ولا استطاع سامح فهل يستمر العذاب؟!.

«أريد أن أعود إلى المنزل يا سامح»

سارا معاً..

اثنان يخاصمان الزمن. اثنان انكمشت الأحقاب أمامهما.. سارا على وهج قديم. وعندما وقفا أمام الباب. سألها سامح «هل أدخل؟!

نظرت إليه ففاضت نظراتها بالعتب والشوق البعيد.. لاح لها ذلك الشاب الذي كان في باريس. يأتيها إلى مدرّج المحاضرات يدعوها إلى حفلات التعارف. وحفلات المناسبات الوطنية.. وأحياناً تلتقي به في الميترو.. أو.. كادت تقول له لماذا لم تقل منذ ذلك الوقت.. كنت اختصرت الكثير من شقوق الروح.. لكن ما جدوى الكلام.. إنها مياه العمر التي اندلقت على تراب كثير.. كيف نعيد هذا الماء إلى الكأس.

«تفضل يا سامح..»

«زعلانة مني..؟!»

«لا أبداً. لا يمكن أن أزعل منك أبداً. ستظل سامح الذي...»

«عليا.. أرجوك.. لم أكمل ما أردت قوله. أريد أن أخبرك شيئاً مهماً»
«طيب.. لنضع شاياً. ونشعل المدفأة الكهربائية ألا تشعر بالبرد.؟!
أسلاك كهربائية تتوهج في أرض صالون واسع.. امرأة تشخر في غرفة مغلقة لا بد أنها أم عارف التي ترفض أبنا تفارق عليا.. وبخار شاي ساخن يتصاعد على منضدة حولها اثنان يصفيان حسابهما مع تحولات الأسماء.
«أترين علي يا عزيزتي؟!»
«أبداً.»
«سمعت أنه أصدر ديواناً جديداً. وأهدى نسخ الديوان إلى جدّه شهابِ الذي أعادت له القرية اعتباره.
«لا يمكن.. مستحيل.. علي لا يفعل ذلك.. لو أنه مهيأ ليفعل هذا كان دمّر الكثير من العذاب والفقر».
«كل شيء ممكن يا عليا.. هذا الزمن زمن الممكن. لا تقولي لا يجوز بعد الآن. ما أدراك.. ربما غير رأيه واقتنع بأن طريقه الذي يسلكه انتهى وهجه.. ثم إن الأدباء مزاجيون.. يغيرون أفكارهم أحياناً بسرعة مدهشة».
«أبداً.. لا أصدق، علي لا يفعل هذا.»
«أرجوك لا تظني بي سوءاً. ربما تعتقدين أنني أقول ذلك كراهية بعلي. علي صدمني بموقفه.. إني لا أعرف كيف أعبّر لك عن مدى خيبتي.. وهذه الخيبة هي السبب وراء مجيئي اليوم. واعترافي. هي التي دفعتني لقول الحقيقة قبل أن تتشوه. أنا رأيت الديوان بأم عيني
لم أصدق في البداية.
ولكن هي الحقيقة.
«أفهم من هذا أن عليّ كان مسافراً يطبع ديوانه؟! الهذا غاب ولم أعد أراه..؟
لم تستطع عليا سماع المزيد. شعرت بأنها تختنق. برودة تتسلل إلى أطرافها برودة قاتلة. أطرافها جامدة. ورأسها يُضرَب بالجدار كما كان عبد الله يفعل سابقاً.

تريد الاحتجاج ولكن على ماذا تحتج..؟! يأخذ سامح يدها.. لا تشعر بيده. يظلا صامتين.

«ماذا بعد هذا البوح يا عليا.. علي يفعل ذلك؟!» هي العبارة التي اخذت عليا ترددها..

ربما كان بحاجة إلى المال..؟! ولكن دائماً كان بحاجة إلى المال.. دائماً كان قنوعاً.. هذه ليست جديدة عليه.. كان يدخن السجائر العربية لأنه غير قادر على شراء التبغ المصنع.. وهذا الأمر لا يبرر له أن يبيع اسمه وعمره. ونضاله. وآمال فئات كبيرة من الشباب. لا يحق له أن يصير جمرة متوهجة في أيدي الآخرين.. تحرقهم بصدق نارها.. ثم فجأة يكتشفون أن هذه الجمرة.. هي قطعة ثلج.. لاذعة ببرودتها..

أيهدم قلعته بيديه.. لماذا؟ ومن أجل من يهدي كتابه إلى زعيم كاذب من أجل من جاع.. وناضل.. أيعقل أن تسقط بلحظة واحدة كل الجدران التي يتمترس وراءها المناضلون؟!

«عليا.. سامحيني أرجوك.. كان عليَّ أن أقول لك.. أن أشكو إليك. علي شاعر يخصنا معاً. ويخصّ غيرنا. يخصّ أمه العجوز التي حرمت من كل ثروة. ورفضت كل زيف.. أرجوك ألا تزعلي من إبلاغي لك هذا الأمر.؟!»

ـ سامح.. لست زعلانة منك. أنا زعلانة من الزمن. سامح أرجوك ساعدني لأكتشف الحقيقة. هل أنا مغفلة إلى هذه الدرجة؟! بهذه السرعة يرمي علي النعنع البري.. يدوس على قبر العم صالح.. يكسر ساموك المنزل..»

نظر سامح إلى عليا بحزن.. تمنى لو أنه لم يخبرها.. كان عليه أن يوفر عليها العذاب يبدو أنها تحب عليّ.. أخذ يلوم نفسه. المطر يهطل بغزارة. بينما عليا تهذي وتؤنب روحها.

«أأكون جاهلة إلى هذا الحدّ في استقراء الأشخاص الذين أختارهم؟ هل خدعني هذا الشاعر. لقد نجح في خداعنا جميعاً. ولكن يجب ألا تأخذني القشور يجب أن أعرف الحقيقة.»

«هذه هي الحقيقة.. يا عليا. لا.. لا أصدق.. غير معقول.. قريباً كنا سنختار

خواتم الفرح.. قريباً كنا سنلتقي.. مع ذلك غاب. غاب تماماً.. لم يقف معي في محنتي.. إنه المعادل لزعرور باشا.. لابنته، سامح كلهم خذلوني.. كلهم..»

تغرق عليا في موجة حزن.. يقدم لها سامح الشاي. «اشربي أرجوك» تنظر إليه والشكوك تأكلها.. لماذا يفعل سامح هكذا الآن.. ربما كان الأمر خدعة.. يجب أن تشكك بكل شيء «زمن الشك» ـ هو الآخر لا أفهمه ـ أيحمل كل هذا البوح على مدى سنوات ثم يفجّره دفعة واحدة؟! هل جاء يشمت بي؟

أم هو صادق في كل حرف؟

لماذا يحملني وزر طلاقه. لم أقل شيئاً في أي يوم من أيام تعارفنا. لم أعده بنظره. وهو..

أبداً.. سامح رجل نظيف.. نظيف.

«وعلي.؟! من هو؟! أين هو؟!»

ليل.. وصمت.. وعليا لا تسمع شيئاً الآن سوى خضاضة اللبن الفخارية في أرض المنزل «تاك.. توك..» ووالدتها تغني.. على دلعونة بصوت حزين.. تندب الزمن وتنعي الأحبة الذين فارقوها.. اللبن يصدم الجدار متفجراً عن حبيبات الزبدة. عليا لا تقدر أن تركّز على حفظ القصيدة.

إنها مأخوذة بصوت أمها الحزين. الحزين.

«إلى شهاب.. جدي الكبير.. زعيم القرية.. زعيم الوطنية والثورية.. زعيم الأرض»

هكذا يهدي علي كتابه الأخير.

....

حين انكسر كأس الشاي وتدحرجت نثراته على البلاط استيقظت أم عارف.

ركضت مسرعة. «لا شيء يا أم عارف»

«أين كنت يا ابنتي. انتظرتك طويلاً»

«خرجت مع الدكتور سامح لمشاهدة أحد الأصدقاء.»

ها أنا أكذب. لماذا لا أقول الحقيقة.. وهل على المرء أن يقولها؟! لا أحد يبحث

عن الحقيقة. المهم يمشي الحال.. كيف؟! لا أعرف. الآن أنا مضطرة أن أكذب على أم عارف. لتقول للجيران الذين رأوني أخرج مع رجل بمفردي.. إنها في زيارة مع طبيب. ما زلت أخاف مواجهة المجتمع.. ما زلت جبانة.. قلنا هكذا.. كيف إذاً نحقق الوجه الواحد.. أنظر إلى سامح الذي عبث المطر بشعره. «نريد قهوة يا أم عارف»

«أريد أن أمشي يا عليا.»

«أبداً. لن تذهب تحت المطر ثم إن الصباح يدق الباب.. انظر.»

أزيح الستارة قليلاً. تظهر السماء الفضية الداكنة. بعض نجوم هاربة من قبعة الغيوم.. صوت رياح قوية.. صوت البحر يتدفق كصوت زمن غاضب.. ليل صاخب.. أوراق أشجار تتطاير عالياً ثم تسقط خانعة لأوامر الريح والطبيعة.. هكذا كل شيء مقرر ومحسوب.. كل إلى أجلٍ مسمّى.. سنسهر حتى الصباح يا دكتور.

نظر سامح إلي بحزن. كنت أشعر بالخلجان تتكسر في يديه. وأحس بالبحر يتلاطم في داخله.. كنت أشفق عليه. وكنت لأول مرة أريد أن أصرخ غاضبة لأنه دفعني بقوة لأن أضيعه.. الآن أتذكر رجل الآثار الذي كان يأتي إلى والدي يفرش ما جمعه من الفلاحين العاملين في حقول سيانو وأوغاريت ورأس شمرا.. كان يقول لأبي. انظر. هذا خاتم عليه نحلة.. وذلك عليه دبّور. وهذه القلادة عليها صورة بعل.. وكان هذا الرجل يضحك على الفلاحين ويحتال عليهم فيأخذ أفضل القطع الأثرية بأسعار زهيدة.. بسعر دجاجة مثلاً أو بسعر حذاء.. ينزل رجل الآثار إلى المدينة فيحتال عليه الخواجة بولس ويأخذ منه القطع الأثرية بأسعار زهيده ليبيعها الخواجة بعشرات الأضعاف. وتصل بعض القطع إلى سعر خيالي.. قد يمر الفلاح صدفة إلى عند الخواجة الذي يصلّح الحلي الذهبية. وإذا ما رأى الفلاح قطعته الأثرية يسأل الخواجة.. بكم هذه القطعة يا خواجة.. يقول له: هذه تساوي الآلاف المؤلفة.. عند ذلك يخرج الفلاح مكسوراً.. مقهوراً.. إنه الآن.. فقط الآن أدرك قيمة لقياه الأثرية.. ولكن مالفائدة.. لقد باع.. وانتهى الأمر ما الفائدة. لقد انتهى الأمر.. سامح. تلك القطعة الأثرية المدهشة. ضيعها بالرماد.. ودفعني لأن أتجاهلها موحياً لي بأنها غير ذات قيمة. الآن جاء يقول لي ماذا تساوي؟ الآن جاء يقول. لنمسك بتلك اللحظة التي هربت منذ سنوات.

الزمن يدور. يلتف. لا يرجع إلى الوراء بشكل خطيّ.. الزمن واضح على جبين سامح. نهض معلناًالرحيل.

«سامح. أرجوك.. ابق.. سامح»

لم يرد.. لمّ وشاح قهره.. لفّ وجهه ومضى.. ناديته «سامح» التفت. كدت أتعلّق بيديه.. أتهاوى على صدره. هذا العذاب الذي في عينيه لا أطيق تحمله.. تراجعت في الوقت المناسب. علّق نظراته على وجهي.. وأزحت عيني عن وجهه.. فتح الباب وهبط السلم.

«الجيران يثرثرون يا عليا.. سيقولون بأنك تخرجين في الليل مع رجل.... و..»

«لا تشغلي بالك يا أم عارف. لماذا؟! المرأة تعتبر نفسها بمثابة أم. نعم كنت جافة كما هي الحياة معي. بدأت أقنع نفسي بموت علي نهائياً. خالد. جهاد. علي.. ماتوا جميعاً. بل يجب أن يموت. ويجب أن أترك هذه المدينة التي تعرف وجهي وأحذيتي. يجب أن أقطع جذوري وأرحل إلى مدينة أخرى لا أحتاج فيها إلى أقنعة ولا إلى حنين.

ولكن «الناس هم الناس» أينما نذهب.

لم أشعر بالصباح الذي نهض يملأ المدينة إلا عندما ازدادت الضجة وملأت الشارع. تحرك باعة الأرصفة.. والمحلات التجارية المزروعة تحت كل بناء أخذت ترفع أبوابها المعدنية. صيحات أطفال الجيران على درجات السلم.. كنت ما أزال أشرب بقايا الشاي والقهر وأستقرىء القادم من بعيد. أعيد تلاوة الماضي جملة جملة. ربما أستخلص الأنا.. الأنا من الـ هو.

....

ألو عليا.. كيف حالك.

بخير يا سامح. لا تقلق. ما زلت على قيد الحياة.

بعد ذلك اتصل خليل. صباح الخير

ـ صباح النور.

قال أنا خليل. عرفتك يا أستاذ.. كان يستحثني للسؤال عنه. عن أحواله. وبما

أني لم أسأل ذكرني هو بوجوده. هو الآخر ما يزال على قيد الحياة رغم حروب البوسنة ومجازر الصهاينة في الجنوب اللبناني. ما نزال أحياء رغم كل الحروب القبلية والهمجية بالسكاكين. وبالنابالم والأسلحة النووية. ومازلنا نجوع.. نجوع. رغم الصحراء الممتدة على بحار من الذهب الأسود الذي ورثه أجدادنا الكرماء.. ما زلنا نجوع. ما زلنا موجودين.. ما زلنا نحتاج إلى حمارة نجعلها سيارة توصلنا إلى منازلنا رغم ازدياد السيارات ورغم قوانين الاستثمارات الهائلة.. ومازلنا وحيدين.. وحيدين حتى الكآبة رغم الضجة والزحمة وزيادة عدد السكان. وزيادة عدد المدن.

قال خليل.

ـ أحضرت وردتك.. ألا تأتين اليوم.

رائع هذا الخليل.. ولكن لم يعد في أعماقي مكان للورد.. في أعماقي صحراء.. صحراء يا خليل.. ممتدة إلى اللانهاية. في أعماقي بحر خائف ممتد من الاسم اللعنة. من خالد.. إلى جهاد.. إلى علي.. إلى.. آه.. كلما كبرنا ازدادت وحدتنا.

ـ لن آتي اليوم يا استاذ. الحقيقة أنا متعبة. شكراً للوردة سلفاً. أرجوك لا تعذّب نفسك مرة أخرى. فكرت بإغلاق السماعة قبل أن أسمع جوابه كم أنا حمقاء. فكرت أن أعتذر عن متابعة الكلام. لكنني تراجعت.. قد أزعجه أكثر.. إنه سعيد بوردة يحملها بين أوراقه كل يوم.. من سمح لي بأن أحرمه هذه السعادة. أو لماذا.. لماذا أحرمه هذه السعادة. قد تكون هي الوحيدة بالنسبة له.

جاءني صوت خليل مكسوراً. لن أقطف الورود إذا لم تكن لك.. وحدك في أعماقي.. ألا تدركين ذلك يا عليا..؟!

بعد ساعة كان خليل على باب بيتي حاملاً باقة ورد وبيده ديوان عليّ.. تناولت الورد بابتسامة. لم أجرؤ أن أنظر إلى الديوان.

السؤال الذي جابهت به صمتي هو لماذا يحمل خليل ديوان علي. من أخبره قصتي مع هذا الشاعر المشهور؟!

سقطت من الديوان صفحة من مجلة مشهورة. الصفحة تحمل صورة علي وقصيدة قديمة له. غالبت شهقة قهر راحت تدور في شراييني.

التقط خليل الورقة وقال بنبرة هادئة كعادته. جلبت لك ديوان الشاعر المعروف

علي.. أعرف أنك تقرئين له. لكن هذا الديوان أقل مستوىً بكثير من باقي دواوينه.
- شكراً. فعلاً أنا أحب الشعر.
- في هذا الديوان أشياء لم أفهمها يعتريها التناقض. اقرئي الديوان وسترين.
شرب خليل القهوة. تحدثنا بأشياء كثيرة. لم نتحدث عن الورود. تجاهلت دور الورد في حياة الشعوب المتحضرة.. هذا الورد تقليد.. أو تقليعة من تقليعات الغرب.. هي عادة جميلة لا بأس بإدخالها. ولكن هناك عادات أخذنا قشورها. نحن لا نحتاج إلى الورد.. نحتاج إلى الكلمة. إلى تمزيق الأقنعة. نحتاج إلى الرغيف وإلى كفتي ميزان متعادلتين..
«نحتاج إلى يدٍ قوية تمزق ستار الظلام الذي تتلفع به. نحن نرى من ثقوب صغيرة فقط إلى العالم. هذه الثقوب. تسدّها حشرة.
شكراً لزيارتك يا خليل.
نظر إلي بابتهاج وقال أنا أشكرك على القهوة والحوار. على... على كل شيء.
ترك وروده ومضى.
انساب فعلاً كصديق.. أشعر بوجوده المريح. شعرت برغبة عارمة لأكتب إلى سعاد. أزحت الورد عن الطاولة قليلاً فسمعت صوتاً.. اتجهت إلى الباب أفتحه فلم أجد أحداً. أحضرت القلم والأوراق وجلست إلى الطاولة. الصوت عاد من جديد. صوت يشبه صوت علي.. صوت رجل. أتسمعين الصوت يا أم عارف؟!
«لا يا ابنتي. لا أسمع صوتاً»
غير معقول.. الصوت الذي كان يضحك تحول إلى بكاء. إني أسمع بكاءً..
«إنه علي يا أم عارف.
«افتحي الباب. وإذا كان هو قولي له بأني غير موجودة»
كأني أؤكد لنفسي أن عليّ لم ينسني. وأني أعيش في ذاكرته.. كيف سيعرف المنزل وقد غيرت المنزل القديم؟! كنت أقنع نفسي بأنه لا بدّ سأل وتقصّى.. وعرف أني أسكن هنا.. ورقم هاتفي كذا..؟!
لماذا يتقصّى.؟! المفروض أن يأتي مسرعاً. متلهفاً. لا.. عليّ لا يغير مبادئه.. ليس

لأن هذا ثبات على موقف ولكن لأنه لا يخون نفسه. لا يقبل.. لا.. هو لا يعرف مكاني.

وأنا غيرته.. تركت القرية. قطعوا جذوري بفأس الأخوة. خالفوا الشرائع السماوية. مخالفة الإرث ليست مخالفة. لكن العشق مخالفة. سير امرأة مع رجل مخالفة. المرأة لعنة. جسدها لعنة يا ابنتي.

أعرف ذلك يا جدتي.. ولكن كيف لي أن أحتمل هذه اللعنة الأبدية.

«المرأة ابنة الحيلة»

«يعني على المرأة أن تكون ذكية. تشيل لعنتها وتغدقها على الرجل»

«الموضوع غير ذلك.. هذا يحتاج إلى اعتراف القانون بحقوقها.. اعتراف صريح..»

لقد خسرت كل شيء يا جدتي. إني شجرة مقطوعة تعبث بها رياح الزمن أينما شاءت. عندما خسر أبي أرضه.. قال لنا وهو يضمنا تحت جناحيه.. أنا لم أخسر شيئاً. لا تحزنوا.. أنتم ثروتي الكبرى.

غداً تعوضوني عن كل شيء. سأعلمكم.. وسأباهي بكم القرية.. العلم يفتح الأبواب. العلم مجدٌ آخر. سيطهركم من الشقاء. وينزع من جلودكم البرد القديم. وسيجفف أصابعكم من الصقيع. وعقولكم من الظلام المفزع. المستقبل قادم. الايمان يجب أن يكون بالمستقبل القادم. غفا على دموعه.. حالماً بالغد نام وأفاق.. عاش ومات. والغد لم يأتِ بعد. وأنا مازلت يا جدتي الأولى العظيمة. أبحث عن هذا الغد. يجب أن يأتي.. إني أنتظره.. يجب أن أراه.. زميلي «مدحت» سخر كثيراً من آرائي. قال لي يا ابنتي. نحن دول العالم الثالث. الغد هو البارحة.. ما يصحّ في باريس لا يصحّ في مملكتك أوغاريت.

«أوغاريت هي الأعظم يا سيد.. يا محترم»

«كانت.. وهذا يعني فعل ماضٍ.. أريد.. سيكون..» معقول ان يكون أبي على خطأ؟!

الآباء لا يخطئون.. يجب ألا يخطئوا

تقرع جدتي الأولى عصاها في أرض حمورابي وتقول «كلما ازدهرت الأرض بزخرفها عادت سيرة العرجون الأول.. سيأتي الزلزال يا أحفادي.. زلزال هز الأرض ليذكرها بالعبر القديمة.. بالقوة الإلهية الأبدية الأقوى.. الإنسان فانٍ.. يخلع قميصاً. يدخل في الآخر. يخرج منه كأنه يخرج من باب إلى باب.

المطهرون يصيرون نوراً يملؤون السماء العليا.. تسبحها الآلهة. ستمتلىء السماء بالنجوم. وستهاوى النجوم.. سيكون الطوفان. ويظهر أوتنا باشتيم مرة أخرى.. امرأة تطحن الحنطة ورجل يستلقي وبيده نبتة الخلود.. يمر الطوفان ويغسل كل شيء..

أم علي تقول: الاسم لعنة يا ابنتي.

«أأكون لعنة على كل رجل أحبه.؟ لا هم يعرفون كيف يحبونك يا ابنتي. أنت الأم. والأخت. القديسة والعاهرة. الزوجة والعشيقة، أنت الماء والتراب.. و... تعبت يا أيتها المرأة التي انبثقت من نسغي.»

لو أن أمي أطلقت عليّ اسماً آخر.. ربما لم أصب بكل هذه الخيبات. ولكن الاسم ليس أكثر من قناع متعارف عليه بين الناس. والجسد ليس أكثر من قناع متعارف عليه بين الأرواح.

أشعر أني أسير خاوية إلى اللاهدف. إلى اللانقطة. فقدت أطيافي وقرائني كلها التي تسمّيني. الصوت يأتي خافتاً.. لا أريد رؤية أحد. لا أريد. لا أريد. حتى سامح أعزّ صديق.. فقدته هو الآخر. يبدو أن العمر مجموعة خسارات.

هل أسافر يا سعاد؟! أترك كل شيء وأسافر؟!

لكن.. أنسافر كلنا. لمن نترك شجرة الدلب. ورد الأحبة. شجر الصفصاف هل نترك هذا الفيض الجارف يطغى بمائه حتى يدمر اسماءنا التي حفرناها على جذوع الأشجار. وجدران المدارس. والمدن التي أحببناها.

لن نترك هذه الصباحات المستيقظة على طرقاتنا القادمة من الشرق. أشياء كثيرة تتجاذبني يا سعاد. كيف حالك في بلاد الغربة؟

أنا أيضاً في بلاد الغربة. البلد التي لا أحبة فيها.. لا أهل. ولا مكانَ لقبرك. هي بلاد غربة.

سعاد.. تصوري. لم أرَ عليّ منذ شهرين. أسمع أخباره عن طريق ديوان شعر وزع في المدينة وهو مهدى إلى الزعيم الذي مات وعاش من جديد لا.. ليس إلى رافع. بل إلى جدّه شهاب ـ وأنت تعرفين بأن شهاب = زعرور. = برهان الأدهم.. كلهم متساوون.. الكتاب عندي،لا أصدق ما تراه عيني. اتتذكرين.؟! قال بأنه سيهديني الكتاب. المشكلة ليست هنا. المشكلة في الانتماء. المشكلة في الأقنعة التي تساوي الأسماء = اسماعيل = علي. رافع = فارس = خيبة. + علّوش = فاي = Φ.

لم أعد أخرج من المنزل. ماتت أمي. ماتت القرية.. لا.. هي في دمي.. أنا متّ. هم.. قالوا لي موتي. يعني تلاشيت من القرية. أهل؟!! أي أهل يا سعاد. أي أخوة، أقارب. أولاد أخوة.. لا.. أي كان يقول المثل المعروف «معك ليره فأنت تساوي ليرة» لم يقل المثل شهادة = إنسان.. الليرة تساوي إنسان = قرابة = أولاد أخ = كل شيء = مصلحة = إنها قشور المدينة.. مع ذلك لم أفقد إيماني بالمستقبل أبداً. لهذا كنت أريد أن أتزوج وأنجب طفلاً. أحمّله المستقبل. يجب أن يكون المستقبل أكثر إضاءة لأن هذا الحاضر المظلم هو مقدمة لنهار سيطلع. دعي جدتي في صومعة نبوءاتها.. لن أترك لعصاها السحرية أن تعبث بي.

منذ فترة يا صديقتي أرى نفسي في حلم يتكرر.. أرى أني أركب سفينة أو أبحر. أبحر دون توقف. تغيب عليّ الشمس. تشرق. وأنا ما أزال في البحر. المهم أني أبحر. كأني أقصد أرضاً لا أعرفها. وحوتاً سيبتلعني ويأخذني إلى عالم آخر. أنتظر أوقيانوس جديد. في آخر الماء أجد قمة ثلجية. يقولون لي هذا هو موطن الإله كاسيوس.. يا إلهي.. هذا موجود في مملكتي.. ما الذي اتى به؟! ارى على قمته وحشاً. يظلّ محدقاً بي. لا أجرؤ على الاقتراب. ما زلت أحمل العدوانية القاسية للوحوش.. حتى في المنام؟!. بعد ذلك تميل السفينة. أهبط قاعاً مظلماً. أخرج منه إلى بحيرة عذبة الماء. أرى خالد وسامح وعليّ وهدى ابنتي لم تمت.. أرى عدة نساء لا أعرفهن.. سمراء. وشقراء. وحنطية. وحمراء. أنظر إليهن. من هؤلاء النسوة؟! يأتيني صوت غريب.. إنهن أنت. هن = أنت. أحدق بالجميع. لا أكلم أحداً. يغضبون. عند ذلك يركضون ورائي حتى يمسكوا بي. يصعد سامح منبراً. أضحك.. متى كان هذا الرجل خطيباً.. يقول أيها السادة: سنطفيء في عينيها

تحولات الأزمنة. سنمسح عن ذاكرتها كل التعاريج لتكون نقية. طاهرة. يتحلقون حولي يفتحون جمجمتي. يصرخون مندهشين.. يا بعل العظيم.. ما هذا.؟!! يمررون أيديهم فوق تعاريج كثيرة.. هذا.. وهذه. وتلك.. ما اسمك يا امرأة؟! لا أرد. قولي اسمي زينب. أقول اسمي زينب.. يمسحون مرة أخرى.. ما اسمك يا امرأة. قولي اسمي فاطمة.. أردد الاسم.. ولكن ينظرون في عيون بعضهم. يسكبون سائلاً حارقاً.. أتأوه.. أغيب ولم أعد أرى شيئاً.. بعد وقت لا أعرفه.. سنوات. قرون.. لا أعرف. يقولون. ما اسمك؟ أسكت.. قولي اسمي. سكينة.. أردد. اسمي سكينة. يعودون للحالة ذاتها. يعيدون رأسي كما كان. يفتحون فمي. ثم يبصقون في فمي كلهم.. يضحكون بفرح. آه.. لقد نسيت كل شيء. الآن هي بُردية جاهزة تلقي حبركم المقدس.. بعد ذلك. أراهم يرفعون السكاكين كأنهم يرفعون الكؤوس والأنخاب.. هيا.. يبدؤون بقطع جسدي. يأكلونه أمام عيني. وأنا..؟! لا أبكي. لا أصرخ. لا أتهم أحداً. تقترب امرأة عجوز وتقول لي: انهضي يا مريم. أظلّ في مكاني. انهضي يا مريم.. أسألها. أنا مريم؟! أجل.. هيا. أنهض. تأخذ يدي ونسير معاً عبر غابات نخيل وشلالات ماء. تزغرد الطبيعة. تمشي بي إلى صخرة. تقول العجوز امكثي هنا. هنا عند الصخرة حتى أعود إليك بالفاكهة. أنتظر حتى تغيب الشمس. ويرخي الليلة عتمته.. أرى السماء تتلألأ بالنجوم. أعدّ النجوم. أنتظر وأنا لا أجرؤ على الحراك من مكاني. أنا مريم.. التي قالت لها العجوز لا تتحركي من مكانك. لكن العجوز لم تأتِ. أسمع غناءً عذباً من بعيد. غناء إنسان. أصغي وأنا أتكور خائفة فرحة. أسمع تكسير أغصان، وقضقضة أوراق تداس. ينبثق شابٌ من بين الأغصان يضيء وجهه المكان. يبتسم لي ويمدّ ده كي أمسكها. «أبحث عنك يا بلقيس.»

ترتجف يدي بين يديه. أنا لست بلقيس يا سيدي. أنا مريم. هكذا قالت العجوز. العجوز التي تشبه أمي = أنا = هنّ. أخذ الشاب يغني ويعزف على آلة غريبة. صوته الشجي جعل الأغصان تتراقص.. نهضت ورحت أرقص. الأوراق اليابسة تطير وتتحول إلى عصافير. يحيط الشاب خصري ويسير بي على رؤوس الأصابع.

أشعر أني أملك العالم. أنا أميرة.. ملكة.. يهمس «أنت ملكة سبأ»

أنت بلقيس الجميلة.

يا إلهي. من بلقيس هذه؟! يضع يده في فمي «هس» يظلّ يغني ويحلق في الهواء وأظل أرقص. أسأله «من أنت يا سيدي؟» لا يرد.. يبتسم فقط.. من أنت يا سيدي؟!

قالي لي: إذا عدت إلى السؤال ثانية لن تريني ابداً. رقصت أياماً ولم أشعر بالتعب ولا بالجوع. كنت روحاً تطير من جسد إلى جسد.. أنظر إلى وجه الشاب فأقول «أعرف هذا الوجه.» مرة أقول: هو.. إنه خالد.. إنه أبي. إنه علي. إن فيه عطر خاص. أشياء كثيرة ضعت في غياهبها. أعرف. أعرف. إنه الذي علم الناس العزف والغناء على الجماجم.. لا.. لا.. إنه الإله الذي عزف لحبيبته حتى تعرف بوجوده فتتبعه.. أسئلة كثيرة أخافها حتى لا أفقد هذا الشاب الوسيم. وحتى لا أخرج من هذا العالم الساحر في كل مرة يقبلني الشاب ويقول لي..أحبك يا بلقيس. آلاف السنين وأنا أبحث عنك. أخيراً وجدتك. سآخذك معي. حتى لا يراني حراسك وجنودك. يطير بي الشاب. أصل القصر في لحظة. قصرٌ كبير. واسع. أشعر بالخوف. يطلب إليّ الدخول إلى القصر. لا أجرؤ. إني أراه مظلماً. وممتداً إلى ما لا نهاية. على جدرانه الخارجية ترتسم صور وحوش وحيتان مجنحة. فيلة. وآلهة. وبشرٌ عبيد. مقطوعة أيديهم وهم يحملون الأحجار الضخمة ورؤوسهم تنزف. الدم الأحمر يلون القصر..

«ادخلي يا حبيبتي»

لن أدخل.. إنه يأمرني.. أشعر بالخوف الشديد. كيف ادخل؟! نظرت إلى الأرض.. رأيت آلاف الأيدي البشرية تنبجس من تحت أساس القصر.. أيد تحمل القصر وهي تتأوه وتنزف. أرفع بصري إلى أعلى.. أرى القصر بشكل هيكل، على زوايا علقت جماجم أبي وعلي.. وسامح.. وفي زاوية أخرى رأيت خالد.. رأسه. هو.. إنه لم يمت بعد.. رأيته ينزف. أجل. هذا رأس رجل اسمه خالد.. أعرفه. نظرت إليه بكيت.

«ادخلي!»

«لن أدخل. أعدني إلى الغابة. إني أنتظر جدتي. يقهقه بصوت عالٍ أجده رجلاً آخر.. يحرك يده فتتحول الآلة الموسيقية إلى سيف.. يمده بسرعة ثم يقطع يدي.

اتشبث بعمود رخامي.. يأمر حراسه «خذوها وألقوها في اليمّ» يدي تنزف. يجرونني. أجرف الحصى بجسدي. الشاب يتفرج عليّ ويقهقه.. اعيدوني إلى الغابة. أبكي وأتكوم على جراحي النازفة. لا أحد يرد عليّ «لا رأي لمن لا يطاع» وصلت إلى بحرٍ يشبه بحرنا.. وشاطىء يشبه شاطئنا. قالوا: ارموها.

ها أنا أغرق يا سيدي.. ولا أحد يردّ.. لوحت بيدي تلويحة غريق. انقلبوا على ظهورهم.. أحاطت الأسماك بي. أخذت تنهش جسدي المتعب.

تجزأ جسدي في آلاف الأسماك. صرت أبكي أجزائي المبعثرة.. أجزائي التي ذابت في بدايات ونهايات كثيرة.. أريد أن أكتمل.. أصرخ.. لا أعرف كيف أصرخ.. ترد الأجزاء كلها.. في كل مكان. أريد أن أكتمل. أريد أن أستعيد امرأة كانت هنا.. لا. هناك.. بل لم تكن هنا. ولا هناك.. أريد أن أكتمل.. أدخل دائرة الخلود.. أصير في محور المجرات. ولكن صوت المرأة العجوز يأتيني من القاع. ستظلين في بحثك الدائم. ستظلين في الركض الأبدي ولن تصلي ابداً.. أنتحبُ عليّ. أنا التي أتوزع في بحار تعيد تشكيلي من مياهها كأنها الأزمنة.. تخرج إليّ المرأة.. تبكي. أنا جدتك.. أتوسل إليها أن تلمّني وتعيدني إلى مريم. إلى فاطمة. إلى سكينة. أو أي امرأة أخرى. تهز يدها بأسى.. تمسح دمعتها وتقول لا فائدة.

استرحمها ثانية. لكنها تدير ظهرها وتتركني.

أظل أبكي أشلائي. تمرّ عليّ أزمنة وملوك ومدن.. أنتقل من عهدٍ إلى عهدٍ.. أدخل في مورثاتهم وذاكرتهم. هذا يقتلني. وذاك يعشقني. وثالث يطردني، ورابع يجعل مني مقبرة لنزواته. وآخر سيفاً لثاراته. وقد يجعلني جذعاً لفروعه. لكني أظل بين مدٍّ وجزر. بين أميرة وجارية. لا قرار لي. يقررون عني. يتحدثون عني. يحاربون عني. يقايضون بي أنا الأم والأخت والزوجة والقديسة والعاهرة والرجل مني وأنا منه. يتاجرون بأشلائي.. وأنا أظل ابحث عن أشلائي في كل جيل. أبحث عن اسمي في كل اسم. أرنو إلى البحر فأشعر بشوقٍ عارم إلى مائه. إلى قاعه. إلى السفر فيه. أنظر إلى اليابسة. تمر أمامي اشلائي في بشر لا أعرفهم وأرى وحوشاً تتصارع. ودماء تجرف الحجارة. وأرى قصوراً تبني من جسدي حجارتها. أرى كل هذا ولا أعرف من أكون بلقيس أم عنتُ.. أم فاطمة. لكني أظلّ في حلم قاتل إلى المستقبل الذي أهزّ فيه نخيل الخلود فأكون عصية على الطوفان.

لماذا أقول لسعاد أنّ هذا مجرد حلم؟!

أهو حلم فعلاً؟! ام هو حقيقة؟! ما الذي ينتابني كل مساء. ارى ترابي يتجزأ.. وأشجاري نائمة. أرى ولا أرى. أصدق ولا أصدق.

هو حلم..

أجل يا سعاد. إنه مجرد حلم. نحتاج إلى أحلام غيبية نعوض فيها برودة الحديد والاسمنت.. فظاظة الكومبيوتر.. والشظايا القاتلة.. البارحة يا سعاد وبعد أن استيقظت من هذا الحلم المرعب.. زارني احد أخوتي.

شرب القهوة بصمت.. لا شيء نتحدث فيه.. كنا غرباء تماماً. لم أسأله عن القرية ولم يسألني عن عملي.. الأشياء التي تجمعنا باتت قليلة جداً. أجل قليلة. بضع سنوات من طفولة مشتركة. ورحم عادٍ إلى التراب.. نظر إليّ ثم قال بصوت أجش.. أنت أسأت إلى أسرتكِ..

أنا..؟! هل لي اسرة؟!

صرت ناضجة يا علياء بما فيه الكفاية.. المفروض ان يكون لك أولاد في المدارس.. مع ذلك لا تراعين اسماءنا وسمعتنا.. فأنت تخرجين مع أي زميل. أو أي صديق. مساء. وصباحاً. وتستقبلين الغرباء في منزلك؟.

ـ عندما لا يكون بجانبي أحد.. رجل ما.. فإني سأبحث عن هذا الرجل.. يبدو أني يا صديقتي الغالية أخرّب سمعة العائلة. وأسيء إلى أخلاق القرية التي نشأت بها. كيف اصون الاسم الكبير للعائلة؟! يا عزيزتي اسمعي..اقترح أخي أن يبني لي غرفة ـ أنا أدفع التكاليف ـ في القرية قرب منزله طالما أرفض الزواج.. وهو سيساعدني بأن أستخدم الحمام والمطبخ. وبذلك أبتعد فيها عن المدينة التي تخرّب كل شيء. بعد ذلك قال جازماً.. إذا لم أمتثل لقراره ولقرارات الأسره فإن لهم تصرفاً آخر.

الحقيقة لا أدري ما هو يا سعاد. لكن بإمكانك التخمين طالما تحملين مثلي الإرث الكريم للعائلة.. أما قلت لك؟! في أجسادنا ـ نحن النساء ـ الجنة والنار؟!

سامح يتصل بي. أنا أعتذر باستمرار عن لقائه. لا أعرف لماذا. سمعت أن زوجته تزوجت من رجل عجوز. يملأ ذراعيها بالذهب. أما علي فلا أعرف حتى الآن السبب الحقيقي وراء غيابه.

لا أصدق حتى الآن أن علي يخذلني.. هل تصدقين أنتِ؟!

أخاف أن يكون الأمر في غاية السوء..

الأخبار الأخرى تصلك. مثلاً الاتفاقات الاستسلامية كلها وقعت تقريباً. رقص قزم العمامة.. ودبك الملك.. ذقنه البيضاء ارتجفت عندما قبله سيد الهيكل.. ملوك كثر باركوا هذا الاستسلام الموقر. التراب الذي رقصوا فوقه تحول إلى ساحة حمراء.

رأيت الشاعر حسن.. فكرت أن أسأله عن علي ولكني تراجعت. لقد ضيعت اشياء كثيرة. ليكن عليّ واحداً من أثمن الأشياء التي ضاعت. أحياناً يحتاج المرء لأن يردم. لا أن ينبش. هزمت؟! ممكن جداً. قلنا هكذا. ولكن يجب ألا نعترف بالهزيمة. يجب ألا نؤكدها. أليس كذلك يجب الخروج من طوق الاختناق هذا. كيف. ربما عن طريق بثنا في اجساد جديدة. أجيال جديدة تحقق عالم نحققه. ربما لهذا يحتاج المرء إلى الولد. ما يحدث الآن ليس نهاية المطاف. هناك خسارات قادمة.. لكن أيضاً لا بد أن تلوح في الأفق انتصارات قادمة.. الدول تشيخ. الحضارات تشيخ. المدن. الإنسان.. لكن هذه الشيخوخة تدفع إلى بدء جديد. إلى تجذير آخر. وآخر. أحياناً لا بد من الطوفان. لم أعد أزور القرية. هي ليست لي. ولو أني ارغب في العودة إليها. ايضاً المدينة ليست لي. أفكر بالرحيل. إني غريبة أجرّ أسمائي وأمشي. يتجاهلونني. وأنا لا أريد أن أعرّف بنفسي. إني غير آسفة على شيء.. وأظن المدينة غير آسفة علينا، يكفي أنها تحتوي سيدات المخمل مثل رنده. وغيرها. إنها تنوب عن كل سيدات المدينة.

رنده قالت: ومن عليا هذه؟!

الم ترَ رجلاً حتى الآن يتزوجها ويريحها من وحدتها.. معذورات يا سعاد أنا.. أشفق على رندة ومثيلاتها.. فهكذا تحول يحتاج إلى هكذا أجوبة. أبي كان يردد «أوقية من الذهب تحتاج إلى قنطار عقل»

خليل ما يزال يقطف لي الورود ويراهن على أني سأحبه. أنا لا أدري. أظن أني فقدت القدرة على الحب. وهذه كارثة.. ما رأيك يا سعاد. هل أجد رجلاً يتزوجني ليقبلني المجتمع في قطيعه وبذلك أصون اسم العائلة وأعيد إلى أخوتي كرامتهم.. هم

يتمنون أن أتزوج جنرالاً. أو زعيماً بذلك أعيد مجداً مفقوداً وأصير سيدة راقية. بصراحة. أفكر بالذهاب إليك يا سعاد. إني متعبة.

سوف نعيد سيرة تسكعنا. الأول على نهر الراين حاملين النعنع البري ونهر السن. والبحر. سنعيد وجوهنا المحملة بشمس أوغاريت ورأس شمرا. وسيانو. وقلعة صلاح الدين.

«من أي بلد أنتما؟»

«من بلد الشمس. من بلد الأبجدية. من رائحة أزهار الليمون.. من شوفان الأسطحة الترابية المخضرة. من مدينة تغفو على البحر وتفيق على شباك الصيد.. آه يا سعاد. بشوق إليك لقد أطلت جداً. أعرف. إني ثرثارة جداً هذه الأيام.. لا أجد من أثرثر معه.. ربما سيكون هذا الأمر سبباً مقنعاً للزواج.. على الأقل تتحدثين إلى رجل بدل أن تتحدثي إلى جدار. مرة طرحت الفكرة على علي.. قال إذن عندما ينتهي كلامنا سينتهي حبنا.؟!

أجل.. يا سعاد.. في المقهى البحري ستلاحظين فوراً.. العشاق يثرثرون في كل شيء.. وكل شيء له قيمة مهما كان تافهاً. لكن بعد الزواج يقعد الزوجان صامتين. يرمقان البحر من وراء زجاج نظيف.

عندما أغلقت الرسالة شعرت بالندم. لماذا أخبر سعاد عن كل هذه الأشياء.. لها همومها. ولها أحزانها. يجب أن أجد طريقة لتوصيل ما أفكر فيه. ربما التحول إلى الكتابة أمر مهم.. الكتّاب ينتهون عندما ينتهي كلامهم على الورق..

....

الرسالة التي خطتها عليا.. كانت آخر اثر تركته بخطّ يدها. سعاد قالت وصلتني الرسالة بعد كتابتها بشهر. لا أعرف عن عليا شيئاً غير ذلك. أما سامح فقد انزوى في عيادته. لم يعد يخرج إلا قليلاً. يتجه إلى البحر. يمشي وحده متأملاً.. وعندما يتعب يجلس على صخرة معينة. يمرّ بعض الأصدقاء.. يسلمون عليه.. يرفع لهم يده ويعبّر عن رغبته بالانفراد بنفسه.

«الدكتور تعبان»

يتركونه ليظل غارقاً في تأملاته. في طريقه يمرّ على منزل عليا. يقف أمام

نافذتها. ما يزال أصيص الحبق. الستائر مسدلة. والمنزل يعبر عن حزنٍ دفين.. في المساء لا تشتعل أنواره. يظل قابعاً في العتمة. لا ضوء ولا حركة. قد يطول وقوف سامح لدرجة ملفتةٍ للنظر.

ماذا تفعل هنا يا سيد؟!

يترك سامح الشخص الذي يسأله ويمضي. حتى الوقوف في أماكن محددة ممنوع. كل أسبوع يأتي. يدقّ الباب ولا أحد يجيب. يسأل الجيران. هل جاءت صاحبة المنزل؟!

كل الأسئلة تواجهه بالنفي. يترك منزلها ويمضي إلى السوق يسير على غير هدىً. يقف أمام الواجهات. يدخل الكافتيريا التي كان يجلس فيها مع الشلّة.

البارحة رأى امرأة تمشي أمامه. ترتدي ثوباً يشبه ثوب عليا، وتترك شعرها على كتفيها.. تمشي مشية علياء. هي.. هي. يخفق قلبه. يقفز أمامه أراد أن يصرخ. عليا.. ولكن خجل من المارة. مشى وراءها.. ظلّ يمشي وهو يمشي.. حاول اللحاق بها فلم يستطع. انعطفت إلى الغرب. انعطف وراءها. لا يزيح نظره عنها. نزلت في الشارع البحري.. إنها لا تلوي على شيء. تقف عند بوابة الحديقة تلامس السور. تدخل.. تتجه إلى شجرة الفلفل الكاذب التي جلسا تحتها آخر مرة. نظرت إليها. كاد أن يلحق بها. ناداها.. لم ترد. اقترب منها.. إنها هي. هي. رائحة عطرها. حركتها.. سارت باتجاه باب الحديقة.. ظلّ يتبعها.. اتجهت إلى الحارة التي تسكنها.. دخلت زقاق منزلها. سار وراءها.. سبقته إلى الزاوية الموازية للباب .. غابت عنه في الانحناءة التي تؤدي إلى المدخل الرئيسي. كان يسير مسرعاً. يلهث.. دخلت المنزل.. هكذا قرر.. لا بد أنها دخلت منزلها، لم يرَ ضوءاً ولم يسمع حركة. ولكن أين اختفت؟! قرع الباب. لم يرد أحد.. ظلّ يدق. يدق. إلى أن سمعه الجيران.. «يا أستاذ لا يوجد أحد..» جارتها قالت: هذا هو دكتورها..

أجل.. أنا دكتورها.

«والله لم نجدها منذ مدة.. هي مسافرة! انسحب من الجموع.. كأنه ينسحب من الحياة تاركاً كل شيء مكانه. شحب لونه وكاد أن يسقط قبل أن يصل إلى منزله.

اليوم رآها أيضاً.

تبعها.. سارت إلى شجرة الفلفل. جلست تحتها.. هذا هو ظهرها.. ناداها.. لم ترد.. اقترب منها.. نهضت ومضت إلى الشاطىء.. وقفت على صخرة.. مشى بحذر.. لماذا تفعل به هكذا.. همس كي لا يفزعها «عليا؟!» اقترب أكثر. رائحة عطرها تملأ ذاكرته.. هي.. عليا.. لم ترد.. ربت على كتفها.. التفتت المرأة نظرت إليه مندهشة. نظر إليها..

«آسف.. لقد ظننتك....»

تركها ومضى إلى شجرته. جلس على المقعد الخالي.. يريد أن يبكي. لماذا تظهر له هذه المرأة. ولكن هذه ليست عليا. بالتأكيد.. آخر مرة جلسنا هنا.. أفضى إليها بحرائقه.. أتراها هاجرت؟! تبخرت..؟! تحولت.. غرقت في البحر؟! أم عارف تزوره بين الفترة والأخرى. تسأله عنها وهي تبكي. قالت له: آخر يوم سهرت مطولاً. كتبت رسالةٍ إلى صديقتها. قالت لي.. ضعي الرسالة يا أم عارف في البريد. بعد ذلك رأيتها تفتح خزانتها. وترتب بعض أوراقها ورسائلها. أنا نمت وتركتها. استيقظت أكثر من مرة.. «نامي. نامي يا ابنتي. الصباح رباح» لم ترد عليّ. أنا نمت.. والنوم سلطان.. استيقظت ليلاً فلم أرها. لكنها عادت في الصباح.. ظلت ساهمة. لم ترد على الهاتف. ولم تقل كلمة.

مديرها في العمل قال: جاءتني صباحاً كانت أنيقة.. سعيدة. طلبت إجازة بلا راتب. وافقت فوراً لأني أعرف أنها ليست في المكان المناسب. أقدّر ضيقها. فهي أستاذة جامعية. مع ذلك شاءت الظروف أن تعمل في قسم المحاسبة. لم تستكمل الأوراق.. تركتها في عهدة زميل لها.. نحن لم نسألها عن الأسباب، الإدارة لا تتدخل في خصوصيات الموظفين. خاصة إذا كان الموظف مثل الآنسة عليا.. لا تجامل.. ولا تقبل المساومة.. للحق هي مثقفة وأنا أتحاشى الحوار معها.

خليل الذي لم يره أحد يسأل عنها.. يحضر وردته كل صباح.. وبعد انتظار مضنٍ يضع وردته في كأس ماء على طاولة عليا حتى نهاية الدوام فيفرط وريقاتها ويمضي. لكن إذا ما سأله أحد عنها. تحمرّ عيناه ويغادر المكان دون كلمة.

آخر شيء فكر فيه سامح هو السؤال عنها عن طريق سامي.. لم يجده. قيل له

سافر من زمنٍ طويل. ترك المدينة وسافر خارج القطر ليعمل في التجارة. افتتح فروعاً في عدة دولٍ. واستلم وكالة قطع غيار للسيارات التي تملأ البلد.

في نهاية كل أسبوع يقضي سامح عطلته في استجواب الأصدقاء. والأماكن والجدران.. منزلها.. الحديقة. شارعها. حبقتها التي جفت ويبست على النافذة. أم عارف التي تدخل المنزل. تفتحه للتهوية. تنظفه. ثم تغلق ستائره وتمضي. إحداهن قالت: ربما هربت مع رجل إلى مدينة أخرى.

سامح يعرف أنها لا تهرب.. قرارها لا يحتاج إلى كل هذه الثورية. إنها امرأة تعرف أن تقرر. وهذه ميزتها.

أخرى قالت: قد تكون في شقة مفروشة..

أخوها قال: طالما هي لم تمت فعدم معرفة أخبارها أفضل. تنهد سامح وقال: بعد الأم والأب.. الأهل لا يساوون حتى الجيران. غادر القرية ومضى إلى نهر الشحادة.. هنا سارت عليا.. هناك نزلت في الماء.. هنا. و.. مشى كل الأمكنة والطرقات التي مشتها. أم عارف قالت: كانت تصمت كثيراً في الآونة الأخيرة. وكانت تشرد.. أحكي لها الحديث أكثر من مرة. ومرة أخذت لها رسالة موقعة باسم بلقيس. وضعتها في البريد. وعندما سألتها. قالت هذا اسم مستعار خوفاً من الذين يفتحون الرسائل. المدينة صغيرة وأسرار الناس تنتشر بسرعة.

المدينة تسهر على سيرة أستاذة جامعية غرقت في البحر. يقولون بأنهم رأوا ثياباً بيضاء تطفو. ويد تلوّح. ذهب أحد الصيادين باتجاه الثياب. إنها امرأة.. سمراء. طويلة. لكن الموج العالي غمره بحيث غابت المرأة عنه نهائياً. سبح حول النقطة التي ظنها تخفي المرأة. سبح في كل الجهات ولكن لم يجد لها أثراً بعد ذلك.

حين عاد الصياد إلى الشطّ أكد لنفسه أنه لم يرَ شيئاً. لكن حذاء المرأة كان ملقىً على حافة الشطّ. إذاً هي امرأة؟! كان الحذاء جديداً وكانت نمرته ما بين «38 أو 39» لم يكن الحذاء مغموراً بماء الملح. صاحبته خلعته على الشطّ

آخرون قالوا.. ستعود. هذه المرأة لا بدّ ان تعود. ربما غادرت القطر سراً عن طريق بيروت.. أو في باخرة صيد عن طريق قبرص.. السؤال الذي حيّر سامح.. لماذا تلجأ إلى مثل هذه الأساليب. إنها غير ممنوعة من السفر. فلماذا تفعل ذلك؟!

لا.. قد تكون في دمشق.. أو في حلب عند أصدقاء لا نعرفهم. تريد أن ترتاح بعيداً عن هزائمها وانكساراتها.. أم عارف قالت بأنها اشترت عدة نسخ من ديوان علي. كانت تحرق ثلاثة نسخ أو أربعة كل يوم وكانت تقول كلاماً لا أفهمه. كانت تمزّق الديوان ورقة. ورقة ثم تشعل النار فيه.. سامح لا يقتنع. قلبه لا يصدق بأنه لن يرى علياء أبداً.

لن يناديها «علياء.... عليا...» لن يتصادم معها حول آراء كثيرة.. حول الغيب. والواقع.. حول الآلهة المتمترسين في الأعالي.. أيعقل ألا يراها مرة أخرى.. كانت أقرب مخلوق إلى قلبه.. ولكن عندما اعترف لها شعر أنه فقدها.. كل يوم يتصل بسعاد إلى باريس. يسألها عن عليا. ويناقشها في غيابها.. يتهم نفسه «أنا السبب.. أنا يا سعاد» ثم يبكي..

«كان من المفروض أن أتركها تكتشف وحدها خفايا شاعرها المفضل» لكنني كنت مقهوراً يا سعاد.. صدقيني. هو صديق طفولتي.. لقد خذلني أنا أيضاً.

لماذا لا يكون علي وراء غياب عليا.؟!

وقف سامح تاركاً من يده مريضة.. فتح الباب وخرج. الممرضة نادته.. يا دكتور هل أغلق العيادة!! لم يرد.. كان مأخوذاًبفكرته.. أجل. علي وراء غياب عليا.. إنه احتمال حقيقي.. ربما وهو في نوبة من نوبات عصابه وفصامه قتل عليا ليتخلص من آخر نبرة في ضميره الحي.. عليا كانت ضميره الذي يذكره في كل لحظة بأنه انزاح إلى الحضيض. عليا هي صوت أمه.. والعم صالح. هي صوت فارس صوت الوكف. اخضرار الأرض. النهر.. الوحوش.. هي.. هي كل هؤلاء.. تذكره بأشياء لا يمكن أن تترك أماكنها وتهرب..

مستحيل أن تهرب عليا.. سامح يؤكد لنفسه ذلك. عليا لا تعرف هذه الأبجدية. كانت دائماً مصرّة على ولادة المستقبل الجميل. كانت وهي في أوج ضيقها تؤمن بالخلاص. وتردد مقولة الأجداد.. سيأتي رجل من الأعالي.. سيخضرّ الحطب اليابس في يديه وستأتي امرأة من زبد الموج.. يلتقيان. ينجبان ذرية تملأ الأرض بالعمران والأشجار بعد قحط وفيضان.

يقف سامح على رأس شارع يطل على البحر.. لا.. لا أظن بأن عليّ يقتل

حبيبته.. علي مظلوم.. هكذا أظن. لا أقدر أن أصدق أنه ارتكب كل هذه الحماقة
تنهد سامح.. دمعة حارقة اختبات تحت جفنيه. سار قاصداً البحر.

....

«ب أ»

مرت شهور على غياب امرأة كانت تملأ المدينة، حضوراً وحياة، وجمالاً.. شهور راح السؤال يشيخ بعد ذلك.. والعنكبوت نسج خيوطه على اسمها الذي لم يعد يتردد إلا قليلاً بين سامح وأم عارف. وخليل احياناً سامح حاول النسيان.. بل وهو يوهم نفسه بذلك.. هو الذي أحبها أكثر من أي امرأة في العالم. هو الذي تمناها من بين كل النساء.. إنها قريته. وشاطئه.. هي مدينته. والغربة.. وسهرات الأرصفة في باريس. هي الماء الرقراق الذي كانوا يشربونه في أعالي الجبال.. كل خطوة له فيها ذكرى.. كل نسمة من نسمات أيامه فيها عطرها.. نزقها. حنانها.

كان الشتاء في آخره. وكانت الأيام رتيبة.. سامح يستمع إلى موسيقا عبد الوهاب.. تذكرها.. أجل. هي تحب هذه الأغنية.. «كان أجمل يوم، يوما شكالي..» الصوت يكسر صقيع النسيان.. يمزق خيوط العنكبوت والغبار.. امتدت الأغنية كَيد.. مسحت كل شيء عن صورة عليا.. عادت تبتسم.. شعر سامح أنه يعتصر قلبه.. وأن دمه يسيل.. لماذا تكافئنا الحياة بهذه الطريقة..؟! تركنا لهم كل شيء. لهم... حسن.. وسلوى.. وأمثالهم.. تركنا لهم أن يسرقوا كل شيء مع ذلك لم يقتنعوا.. لقد مدّوا ايديهم إلى قلوبنا. يريدون خفقات القلب. يمسك سامح بفنجان الزوفا الذي أمامه.. يكسره على البلاط.. يسيل شاي الزوفا.. يا لرتابة الأيام.. يقول سامح لنفسه.. انتهت أغنية عبد الوهاب. الصمت.. الصمت.. هاتف يرن.. يظل سامح صامتاً، جامداً في كرسيه.. الهاتف يرن.. يرفع السماعة ويغلقها.. وعندما عاد الخط ثانية خلع الجهاز من الجدار..

«علي لا يقتل عليا.. ربما سامي قتلها.. أو أخذها معه.. ولكن عليا عاقلة.. يا أخي لا يوجد واحد عاقل.. كلنا مجانين» ينتبه سامح إلى خبط على الباب.. ينصت.. الدقات على الباب تصمت.. بعد قليل يعود الدقّ على الباب.. ينهض سامح متثاقلاً ومن الذي يأتيه الآن.؟! با به لا يعرف أحداً.. غاب الذين يعرفهم..

سمع سقوط شيء على الباب.. خبطة قوية.. أشعل الضوء الخارجي.. نظر من العين السحرية إنه شبح رجل.. رجل يتكور على الباب. فكر سامح بأن يتركه.. لعله فقير يبحث عن مكان للنوم.. أو سكير.. اشتعلت وساوسه.. دهش عندما فتح الباب.. لا يمكن.. أنت؟! لا أصدق.. أنا لا أصدق الذي أراه.. رجلاً نحيلاً.. شعره طويل. وذقنه طويلة غزاها الشيب.. ثيابه رثة.. يا إلهي..

«علي..!»

انفرط عقد الأسى.. بكى سامح وهو يعانق علي.. إنهما مشتركان في الاثم.. مشتركان في التراب.. في العذاب.. إنهما يحبان امرأة واحدة.. سامح يشم رائحة عليا في عليّ.. ألم يعانقها في منزله.؟! يتوجع سامح لمنظر صديقه.. يريد أن يجهش بصوت عالٍ.. ينتحب. يريد أن يبثه كل همومه..

دخلا.. أغلقا الباب.. كل منهما يحدق بالآخر. «رموني هنا» لم يستطع عليّ أن يكمل.. أخذ يبك مثل طفلٍ. ازداد عليّ نحولاً. كأنه كبر عشرين عاماً. «أريد ماء» بعد أن شرب عاد إلى إغماضته. كان هادئاً.. ساكناً. لكنه فجأة كانت هزة تنتابه. يصرخ «آخ.. أولاد الكلب» يمسح سامح بيده على جبينه.. حرارته مرتفعة. يقرفص قربه ويبكي.. كل هذا القهر الذي بداخله سيلقيه على جسد علي النحيل.. سيبكي لأنه غير قادر على الصراخ..

«يا سيدي.. لا أريد طباعة الديوان.. يا حسن الكلب» كان علي يهذي ويجيب على أسئلة كثيرة. يصمت.. يغمض عينيه. ثم فجأة يصرخ.. «خذوني إلى بيت سامح» يبكي.. يحمل سامح الماء والحبوب المهدئة.. «أرجوك اشرب» ينظر إلى سامح بعينيه الجميلتين. كأنه يقول أنت وحدك الملاذ.. قبل أن ينصاع لرغبة سامح ويشرب الحبوب سأله: أين هي.؟!

نم الآن.. حاول أن ترتاح يا أخي..

هذه الكلمة كادت أن تخدش روح سامح.. يا أخي وهو الذي لا أخ له لأول مرة يشعر بالحاجة إلى الأخوة.. إنها أخوة المصير الواحد.

مرت أيام على خلوة سامح بعليّ

من يداوي من؟! لا أحد يعرف. من يعاتب الآخر. لا أحد يعرف.

«لا يمكن أن تموت يا سامح»

«أجل.. لا يمكن.. إذا ماتت نصير بلا مأوى.. بلا حديقة نزرعها بالحبق. بلا طريق يحملنا إلى البحر. نصير بلا. بلا ذاكرة»

«أتحبها يا سامح؟!

ينكّش سامح رأسه ويظل صامتاً ينظر إلى البلاط الملوّن بالأسود والأخضر والأحمر. يتنهّد علي ولا يقول شيئاً وبعد قليل سأل سامح السؤال نفسه لعليّ.

«أتحبها يا عليّ؟!»

دقائق تمر بطيئة قبل أن يقول علي «وخليل كان يحبها.»

......

معاً كانوا..

جميعهم كانوا. سامح. وخليل. علي وسامي. أم عارف. وزعرور باشا.. كلهم كانوا يقفون ليشاهدوا شعلة نار متأججة في الأفق.. طيور ذهبية اللون تحلّق فوق رؤوسهم ثم تغادرهم عالياً. عندما انطفأ اللهب وجدوا على الشاطىء كومة كبيرة من الكتب وقد صارت رماداً.. أحد الصيادين قال: هذه الكتب هي دواوين شعرٍ لشاعرٍ يدعى عليّ.. وكانت في حوزة امرأة تأتي وتروح عند الغروب على الشط إلى أن يخلو من المارة. عند ذلك تضرم النار بعدة كتب وتمشي. باتجاه الماء ثم تغيب.

تذكر سامح بأن عليا قالت له مرة: بأن اسمها تراب. والتراب عندما يشمّ رائحة الماء يخضرّ ويصير جسداً يلبس هيئة امرأة هي علياء.

ردد سامح هذه المقولة عدة مرات.. اندهش الجميع.. ماذا يقول هذا الرجل؟!

عليّ لم يعلق على الكلام.. كان خائر القوى.. تقدم باتجاه صخرة عالية طالما وقف عليها مع عليا.. نادى بأعلى صوته:

«عليا! عليا!»

صرخ حتى غاب صوته. انحنى على جسده وأحلامه، وتكور على الملح الذي يملأ فراغات الصخرة، فصعد سامح، وكرّر الصرخة مثل علي، وما إن نزل حتى صعد زعرور باشا، ونادى: عليا!

بهت الجميع، وأخذتهم الدهشة: هو الآخر «أي زعرور باشا، يرى فيها أشياء تخصّه، وتؤكد طغيانه.»

كانت المدينة كلها تتسكع بتثاقل على الشط عندما فجّت الحشد امرأة عجوز تتوكأ على عصاها، شعرها أبيض وثيابها خضراء، وبيدها مسبحة طويلة ترتجف مع ارتجاف يدها التي تحمل النعنع البري. نظر إليها سامح.. صرخ: أمي! لكنه ابتعد عنها متمتماً:

«إنها ليست أمي»

ظلت المرأة تسير باتجاه الصخرة، تلكز هذا، وتنقر بأصابعها على كتف ذاك. اقتربت من الصخرة، نادت: عليّ! عليّ يا بني!

ظلّ الشاعر متكوراً على نفسه، وحين وصلت إليه نقرته بعصاها على ظهره:

«قم يا عليّ»

«أنا لست علياً»

«لا فرق.. كلكم مني»

«ماذا تريدين؟»

مرّرت على وجهه قطفات النعنع البزي. أفاق قليلاً ونظر إليها متسائلاً؟

«يجب أن تعود يا بني. ثمة علياء أخرى تنتظرك»

«إلى أين يا امرأة؟»

نظرت إليه بعينين باكيتين: أنا أمك يا بني، أمسكت بيده وسارا معاً باتجاه القرية. مشى سامح وراءهما.. وعندما تعب، جلس على التراب يراقبهما إلى أن غابا وراء شجرة ميس كبيرة.

* * *

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١١٧٣٤ / ٢٠٠١



انفرط عقد الأسى ، بكى سامح وهو يعانق على ، إنهما مشتركان فى الإثم ، مشتركان فى التراب ، فى العذاب ، إنهما يحبان امرأة واحدة .

سامح شم رائحتها فى على ، ألم يعانقها فى منزله؟ يتوجع سامح لمنظر صديقه يريد أن يبثه كل همومه. دخلا ، أغلقا الباب ، كل منهما يحدق بالآخر ، «رمونى هنا» لم يستطع علىّ أن يكمل ، أخذ يبكى مثل طفل ، ازداد على نحولاً ، كأنه كبر عشرين عامًا .

«أريد ماء» بعد أن شرب عاد إلى إغماضته ، كان هادئًا ، ساكنًا ، لكنه فجأة كانت هزة تنتابه ، يصرخ:

« آخ ... يا أولاد الكلب ! »

يمسح سامح بيده على جبينه ، حرارته مرتفعة ، يقرفص قربه ويبكى ... كل هذا القهر الذى بداخله سيلقيه على جسد على النحيل ، سيبكى لأنه غير قادر على الصراخ.



الغلاف / عمر جهان

المجلس الأعلى للثقافة